

مجلس الشورى
مجلس الشورى
مجلس الشورى

مجلس الشورى
مجلس الشورى

مجلس الشورى

مجلس الشورى
مجلس الشورى



مجلس الشورى

مجلس الشورى





رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة

في النصف الثاني
من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م

تأليف
شارل ديجييه

ترجمته وقدم له وعلق عليه
أ. د. محمد خير البقاعي

الدار العربية للموسوعات

رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة

في النصف الثاني
من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م

تأليف
شارل ميدييه

ترجمته وقدم له وعلق عليه
أ. د. محمد خير البقاعي

الدار العربية للموسوعات

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

٢٠٠٧م - ١٤٢٧هـ



الدار العربية للموسوعات

الطبعة - ص ٥١١ - هاتف: ٠٠٩٦١٥/٩٥٢٥٩١ - فاكس: ٠٠٩٦١٥/١٥٩٩٨٦
هاتف نخل: ٠٠٩٦١٣/٢٨٨٢٦٣ - ٠٠٩٦١٣/٥٢٥١٦٦ - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com
البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com



مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

الكلمة الأولى

لم يعد من المشكوك فيه أن الرحلات تُعدّ مصدراً من المصادر التاريخية؛ وإن كان هناك تفاوت في مدى صحة المعلومات التي يوردها الرحالون، وتأثرها بالمهمات الموكلة إليهم، أو بالاتجاه السياسي والرؤية الإيديولوجية للكاتب، إذا صحّ كل ذلك، فإن معرفة هذه المعلومات، ودراستها، يظل من الأعمال العلمية المهمة التي ينبغي على المؤسسات الثقافية والجامعات، وكل الجهات التي تهتم بتاريخ بلد ما أن تنشرها وتيسرها للباحثين.

لقد شهدت المملكة العربية السعودية عبر رجال الثقافة وروادها فيها اهتماماً بهذا الجانب، أُرهِصت له ندوات وإصدارات، اهتمت بالوثائق الأجنبية والرحلات؛ للإطلاع على رؤية الآخر لتاريخ الجزيرة العربية عموماً، والمملكة العربية السعودية بأطوار نشوئها الثلاثة، خصوصاً الدولة السعودية الأولى، والثانية، ثم توحيد المملكة على يد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود.

إن متتبع التاريخ للدولتين السعوديتين، وللمملكة يلاحظ أن الباحثين صرفوا جهودهم إلى معالجة الوثائق البريطانية، والرحلات التي كُتبت بالإنكليزية، سواء كان كُتّابها بريطانيين أم لا. ولم تلق الوثائق الفرنسية، والرحلات الفرنسية، والأبحاث الجغرافية الفرنسية عن الجزيرة العربية

عموماً، وعن التاريخ السعودي بأطواره المختلفة خصوصاً، اهتمام الباحثين، وربما كان الحاجز اللغوي هو السبب، مع أن تاريخ الوجود الفرنسي في المنطقة، مترافق مع الوجود البريطاني الذي يمكن القول: إنه في جانبه الرسمي، ركز على الجوانب السياسية بدايةً، والاقتصادية لاحقاً. أما الوجود الفرنسي فقد كان عسكرياً واجتماعياً وثقافياً. تقول هذا اعتماداً على الوثائق الفرنسية التي نُشرت ضمن موسوعة «الملك عبد العزيز آل سعود، سيرته وفترة حكمه في الوثائق الأجنبية»^(١).

وقد تنبه الباحثون السعوديون إلى ذلك، فوجدنا الدكتور محمد بن عبد الله آل زلفة يقول: «... وعالم البحث في دور المخطوطات الفرنسية، وكذلك في أرشيف البحرية غمًا فيها من وثائق تتعلق بأحداث قيام الدولة السعودية الأولى، وتوسع نفوذ تلك الدولة الذي شمل معظم أنحاء الجزيرة العربية، وما تلا ذلك من اهتمام الباحثين الفرنسيين بأحوال الجزيرة العربية حتى بعد سقوط الدولة السعودية الأولى التي أسهم الخبراء الفرنسيون العسكريون خاصة في إسقاطها أثناء عملهم في خدمة محمد علي باشا، ومشاركتهم في كثير من حملاته العسكرية، بدءاً بحملة إبراهيم باشا على الدرعية عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م، ودور هؤلاء الخبراء في رسم الخرائط لطرق الحملة، وتحديد المواقع على تلك الخرائط، وكتابة تقارير مطولة عن أحوال البلاد الاقتصادية والسكانية وغيرها. فكانت تقاريرهم المادة الأولية التي استقى منها مَنْ تفرغ من الفرنسيين لكتابة تاريخ وجغرافية مصر في عهد محمد علي باشا، وما امتد إليه من نفوذ من بلدان خارج مصر مثل المؤرخ فيلكس مانجان F. Mengin، وإدوارد جوان Edward Jouen، والجغرافي جومارد M. Jomard. وكذلك لم تخل حملة من حملات محمد علي العسكرية على

(١) أصدرتها دار الدائرة في عشرين مجلداً، ثمانية للوثائق البريطانية، وسبعة للوثائق الأميركية، وخمسة للوثائق الفرنسية، ١٤٢٠ - ١٤٢١هـ / ١٩٩٩ - ٢٠٠٠م. انظر: مجلة: عالم الكتب السعودية، المجلد الخامس والسادس، المجلد العشرين، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

عسير، التي قدرتها بعض المصادر سبع عشرة حملة، من خبراء فرنسيين إضافة إلى غيرهم من خبراء أوروبيين من جنسيات أخرى، لا يزال مع الأسف بعيداً عن اهتمام الباحث السعودي، ولم يفض عنها الغبار حتى هذا التاريخ، وسيكون لكشفها أثر بالغ في سد ما زال ناقصاً من كتابة تاريخنا الوطني، وإجلاله ما زال غامضاً في بعض فتراته. كما أنه لم يترجم أي من أعمال المؤرخين، أو الجغرافيين الفرنسيين المتعلقة بالجزيرة العربية، ما عدا كتاباً واحداً هو كتاب إدوارد جوفان الذي جاء مشتملاً على فصول ممتعة ومهمة لحملات محمد علي المبكرة على الجزيرة العربية. لقد تمت ترجمته إلى اللغة العربية، وطبع في القاهرة عام ١٩٣١م. ولكنه أصبح في عداد الكتب النادرة^(١).

نقلت هذا النص الطويل تأكيداً لما قلته: من انصراف الباحثين في تاريخ الجزيرة العربية عن المؤلفات الفرنسية، والوثائق الفرنسية على اختلاف أنواعها ومشاربها.

ومن المفارقات اللطيفة، أن الكتاب الذي مهد الطريق لمؤلفات كثير من الغربيين عن الجزيرة العربية، وعرفها، كُتب بالفرنسية، وترجم في وقت مبكر نسبياً إلى اللغة العربية، أعني كتاب جاكليين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم^(٢)، وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل الاهتمام منصباً على المؤلفات المكتوبة بالإنكليزية.

وما دنا في سياق الحديث عن كتاب «بيرين»: فإننا نقول: إنها تقدم فيه

(١) تاميزيه، موريس، رحلة في بلاد العرب، الحملة المصرية عسير ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م، ترجمه وعلق عليه د. محمد بن عبد الله آل زلفة، د.ن، الرياض ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص ٢١ - ٢٢. وهو ترجمة الجزء الثاني من كتاب تاميزيه عن الإنكليزية بعد أن ترجم هذا الجزء إليها أحد المختصين، على حساب الدكتور آل زلفة، انظر: (ص ١٩). وقد كتبنا اسم تاميزيه كما يقتضيه اللفظ الفرنسي.

(٢) ترجم الكتاب قنري قلمجي عام ١٢٨٣هـ/ ١٩٦٣م، وقدم له الشيخ حمد الجاسر، وطبعته دار الكتاب العربي في بيروت.

ملامح واضحة، لبداية اهتمام الفرنسيين بالبحر الأحمر، والجزيرة العربية. وتشير إلى كثير من الرحالين الفرنسيين الذين يحتاج البحث في تاريخ الجزيرة إلى تفصيل ما أوجزته عنهم، وعن أعمالهم لما في ذلك من أهمية لا تخفى، ولنا بحث قيد الإنجاز، يُفصّل ما أوجزته جاكولين بيرين، ويتخذ من كتابها منطلقاً إلى الحديث عن الرحالة الفرنسيين إلى الجزيرة العربية.

لقد تُرجم إلى العربية عن الفرنسية، تاهيك عن كتاب «جوان» و«بيرين» بعض الرحلات منها: رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية، لفيليب ليزر^(١)، ولكن هذا غيض من فيض، فما تذكره جاكولين بيرين يوضح مدى المسؤولية الملقاة على عاتق الباحثين ممن يتقنون الفرنسية لنقل الكتب والوثائق الفرنسية إلى العربية مترجمة بأمانة، ثم إقامة الأبحاث حول تلك الدراسات لاستجلاء حقيقة ما فيها، واكتشاف مدى أهميتها وما تضيفه من جديد.

(١) تُرجمها الدكتور محمد الحناش، وراجعها وعُلق عليها وحقق المواضع الدكتور فهد بن عبد الله السماري، ونشرتها دائرة الملك عبد العزيز في الرياض ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م. وقد علمت أن الدكتور الحناش ترجم كتاب: الحج إلى بيت الله الحرام، لناصر الدين ديبية، وأنه قيد الطبع في دائرة الملك عبد العزيز، وقد قام بمراجعتها الدكتور فهد السماري. وللدكتور الحناش مقالتان بعنوان «المملكة في الكتابات الفرنسية في عهد الملك عبد العزيز» وتتناهما في مقالتي: «قراءة في رحلة إلى الحجّاز، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حرّرها: إقامة في رحاب الشريف الأكبر - شريف مكة المكرمة، تأليف شارل ديبية، العربية، ص ٢، ٨٤، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص ٨٩، ولملّ أول اهتمام بترجمة نصوص الفرنسيين إلى العربية في المملكة العربية السعودية يعود الفضل فيه إلى الكاتب الجزائري أحمد رضا حوجو، رحمه الله، أول سكرتير لمجلة «المنهل» السعودية، إذ نشر فيها مجموعة من المقالات بعنوان «ملاحظات مستشرق مسلم على بعض آراء المستشرقين وكتبهم المتعلقة بالعرب والإسلام» وقد وتنا ذلك في بحثنا: «ناصر الدين ديبية وكتابه: الحج إلى بيت الله الحرام» دراسة ووثائق وترجمة مختارة، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، العدد الأول من المجلد السابع، ١٤٢٢هـ.

ونأتي ترجمة رحلة ديبية إسهاماً في نشر الكتابات الفرنسية عن الجزيرة العربية. ونرجو أن تكون فاتحة خير لتقديم أعمال أخرى بالاشتراك مع بعض الزملاء الذين يهتمون بذلك.

ولا بد لي في ختام هذه الكلمة من أن أشكر الأستاذ الدكتور يحيى محمود بن جنيد الأمين العام لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الذي اقترح عليّ ترجمة هذا الكتاب، وقدم لي نسخة مصورة منه، بادرت فور الاطلاع عليها بالموافقة على ترجمته لما وجدته فيه من فائدة ونفع عميمين.

كما أشكر للدكتور عوض البادي، مدير إدارة البحوث والدراسات في المركز المذكور اهتمامه، واستقباله الأخوي، وحرصه على الإجابة عن كل أسئلتى العلمية التي كانت نجد على الدوام إجابات شافية من علمه الغزير، وأخلاقه السمحة، وحبّه للتعاون، واحترامه رأي الآخر.

أما الأخ الصديق عبد الله المنيف، مدير إدارة المخطوطات والنادر في مكتبة الملك فهد الوطنية، فقرأ هذه الرحلة مخطوطة، وأفدت من ملاحظاته السديدة التي كان يديها.

وأخيراً، فإن الصديق يوسف العتيق، الباحث في مركز الملك فيصل، لم يأل جهداً في توفير المصادر والمراجع التي كنت أطلبها منه، ولم يخل بمعلومة أو مساعدة لتخرج هذه الرحلة إلى الناس كما ينبغي، وليس ذلك بغريب عليه، وقد نذر نفسه لمعاونة أهل العلم فيما يرومون.

لكل هؤلاء شكري واعتراقي بالجميل، ولعل في اجتماعنا وتعاوننا خدمة لتاريخ هذه البقعة المباركة؛ المملكة العربية السعودية خصوصاً، والجزيرة العربية عموماً، لما لها من منزلة في قلب كل عربي ومسلم.

أ. د. محمد خير البقاعي

مقدمة المترجم

١ - لمحة تاريخية .

بدأ ديديه رحلته بتاريخ ١٦ يناير (كانون الثاني) ١٨٥٤م / ١٢٧٠هـ من مصر ويذكر ناشر الرحلة في مقدمته أن ديديه كان في طريق هودنه إلى بلاده، عُرِثياً، وبكى رحلاً إنكليزياً تعرف عليه آنذاك، اقترح عليه رحلة إلى جبل سيناء يتقاسمان تكاليفها، فحسب ديديه بالفكرة، وقاما بالرحلة معاً. ومن هناك قررا السفر إلى الحجارة، وزيارة شريف مكة المكرمة عبد المطلب بن هالب، الذي كان موجوداً آنذاك في لطائف

كان يحكم مصر إبان زيارة ديديه، عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي (١٨٤٨م - ١٨٥٤م) وقتل عباس في يوليو (تموز) عام ١٨٥٤م، أي سنة قديم ديديه بالرحلة ويسجل ديديه ظروف مقتل عباس الذي يلقي من ديديه هجوماً شديداً. وبغداً لادعاً ساحراً، شأنه شأن الكتاب والرحلة ولسياسيين، والمسكرين الفرنسيين الذي بالغوا في انتقاد عباس باشا بسبب ميله إلى البريطانيين، واستعادته لفرنسيين من خدمته، فأقصى معظم انحراف الدين كانوا في خدمة جلده محمد علي، فتصاهل لعود الفرنسي في عهد عباس، ولم يعد إلى الظهور إلا في عهد سعيد باشا ويشرح نقد ديديه لعباس باشا في هذا الإطار، وإن كان ديديه يُنسب لوماً إنسانياً يبدو من خلاله خريصاً على لند ومواطنيه، ويردد ما ذكره الفرنسيون عن عباس مثل قول عمريل

هانوتو Gabriel Hanotaux، الذي يرى أنه لم تتم في عهد عباس أي إصلاحات
صحيحة أو عظيمة «باستثناء ماء العصور في المناطق المعروفة»^(١)

أما في الحجاز، فقد كان شريف مكة عبد المطلب بن عبد مناف في فترة
شراسته الثانية التي امتدت من عام ١٨٥١ / ١٨٥٦م / ١٢٦٧ - ١٢٧٣هـ، وكان
عبد المطلب يقضي الصيف في الطائف، عندما نشب خلاف بينه وبين باشا
جدة، وبعد فيما يقوله ديدنيه، أصدقاء ذلك الخلاف بن الباشا والشريف
ويقول سوك هور حروبيه عن سياسة عبد المطلب في هذه الفترة «وعندما
تسلم عبد المطلب رمام الأمور في مكة، أظهرت تصرفاته، أنه لا يحسن تقدير
أولئك الأشخاص الذين كان يتعلقهم في اسطول كنما لرم الأمر فما أن
وصل إلى مكة حتى توجه إلى بلاد حرب، حيث سى لنفسه بعض الحصون في
هذه المنطقة المحمية من هجمات الحكومة، بقصد اللجوء إليها في حالة وقوع
صراع في المستقبل وقد دخل في خلاف مع الباشا الذي حصر احتفال نصبه
في السلسلة وتمكن بواسطة عهده عبد الصدر الأعظم، من تغيير الباشا وتعيين
باشا آخر عبر أن الصداقة بينهما لم تدم طويلاً أيضاً فقد انتهت بسرعة
فعندما أطلقت بعض الميانات البارية التي احترقت طربوش الباشا، في أثناء
وجوده في المشاة بالطائف التي كان يقضي الشريف فيها فترة الصيف»^(٢) لم

(١) انظر مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، د إلهام محمد

عبي دهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٣٧

(٢) في هذا الصيف رآه ديدنيه، وتحدث عن حالته جرب بين حراسي حرم الشريف

الأكبر القواني كن في بستان يملكه الشريف في وادي المشاة واسمه الشريعة، وبين

انباشي بوروق الذين كانوا يراهمون والي جدة العثماني أحمد عرت باش وقد حاول

هؤلاء الحدود دخول بستان الشريعة عمو، واستمروا خدم الشريف واشتكوا معهم

رسالت دماء الحاميين، ولما وصلت الألبه إلى اليد، سارعوا إلى انكسار مستحسين

ولكن الاتراك كانوا قد غادروه ولما وصل خبر البعدته إلى اسماع الباق، حل به

الحدوف، وهرب من الطائف على وجه السرعة خوفاً من ثورة اندو عليه ولم ينجح

مساعي الشريف الأكبر والخاصة في شنه عن التعاقب إلى جدة هذا ما يرويه ديدنيه

في رحلته (ص ٢٥٧/١، من الأصل الفرنسي الذي وصفت أرقامه في الأصل بين ٤

يستطيع لشا أن يتصور أن حدوث ذلك كان صدفة، بل إنه أمرٌ وقع بتدبير من الشريف نفسه. ومرة أخرى تم تعبير لشا، والـب هو شك الشريف في أن الشا كان يريد اعتقاله. لقد أحبط الشريف أصدقائه بأن الولي سيحتال للإمساك به في أثناء تمرين على السلاح، كان من المفروض أن يحصره مع الشا نفسه. لقد اتعد الشريف دون أن يلحظه أحد، وتوجه نحو انطاع، حيث حفر نفسه لمهومة الهجمات الموقعة من الدوائر التركية. وساء على تقرير سريع من الولي، الذي عادر إلى جدة، قدم في أكتوبر من عام ١٨٥٥م (١٢٧١هـ) مبعوث غير عادي، أرسله الباب العالي، لإعادة تعيين الشريف محمد بن عون الأمير السابق المطرود^(١).

أما في نجد، فقد كان الإمام فيصل من تركي في ولايته الثانية^(٢) ١٨٤٣ - ١٨٦٥م / ١٢٥٩ - ١٢٨٢هـ عندما وصل ديديه إلى الحجاز، وقس في جدة خالد بن سعود الذي تولى الحكم في البلاد المجدي بين عامي ١٨٣٨ - ١٨٤١م / ١٢٥٤ - ١٢٥٧هـ، ولكنه لم يستمر في الحكم، بسبب حركة المقاومة السعودية الوطنية التي قادها الأمير السعودي عبد الله بن ثيان، الذي تولى الحكم من عام ١٨٤١ - ١٨٤٣م / ١٢٥٧ - ١٢٥٩هـ قبل أن يعود الإمام فيصل بن تركي إلى الحكم ثانية^(٣).

== (//) ويبدو أن إطلاق النار على الشا، تم خلال هذه العادة وبذلك نكتمل بصورة انظر صفحات من تاريخ مكة المكرمة، سوك هودجرويه، نقله إلى العربية د. علي عوده الشبرج، أعاد صياغته وعلق عليه د. محمد محمود السريسي و د. صراج بواب مرزا.

(١) صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ح ١ - ص ٢٨٥ - ٢٨٦ انظر في حواشي الرحلة ترجمة عبد المطلب بن غالب، ومحمد بن عون الذي تبادل معه الشراة

(٢) كتب التولاد الأولى من عام ١٨٣٤ - ١٨٣٨م / ١٢٥٠ - ١٢٥٤هـ انظر تاريخ الدولة السعودية الثانية، ١٢٥٦ - ١٣٠٩هـ / ١٨٤٠ - ١٨٩١م، ط ٤، دار المصريح، الرياض ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص ٢٣٦

(٣) انظر في احداث هذه السوات عنوان المعتمد في تاريخ نجد، للشبيح عثمان من عيد =

أما على المستوى الدولي فقد كانت تركيا في حروب مع روسيا، وكانت فرنسا تقف إلى جانب تركيا بسبب مصالحها، وحلافها مع روسيا وسر حاً تركيا يجد أصداء هذا الموقف في رحلة ديديه، الذي يبدو أنه عبر راصي عن هذا الموقف، ويستكره ويقول إن تركيا لا تحقق ذلك، يقول ديديه « فقد كب مرعجاً كل الأبرعاج من عدم التقدير الذي يلقيه ممثل فرنسا من ذلك التركي، في الوقت الذي تبدل به فرنسا دماء أسائها، ودهها من أجل تركيا... »^(١).

أما في فرنسا فقد كانت مرحلة ما يسمى بالإمبراطورية الثانية (١٨٠٨ - ١٨٧٣ م) la Seconde Empire، وحكم خلالها نابليون الثالث الذي أصبح في البداية رئيس جمهورية حليماً للويس نابليون بونابرت الذي أريج عن الرئاسة بسبب خلافه مع المجلس الوطني بعد انقلاب (٢ ديسمبر ١٨٥١ م)، وقد حول نابليون ثالث الجمهورية إلى إمبراطورية وراثية (١٨٥٢ - ١٨٧٠ م)، واتحد من الضغوط الخارجية وسيلة لإلهاه الناس فحاص عدداً من الحروب (حرب المرم ١٨٥٤ - ١٨٥٥ م) ضد روسيا، مما أكسب فرنسا دوراً رئيسياً في أوروبا، ولكنه خسر الحرب الفرنسية الروسية، فخلع عن العرش عام ١٨٧٠ م وكانت

« لله بن بشر الحدي الحلي، حفظه رعل عليه عبد الطيف بن عبد الله الشيخ، هـ، دار الملك عبد العزيز ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م، ص ٢٠٠، وانظر مشير الوجد في اسباب موتك بعد، للشيخ راشد بن علي الحلي بن جريس، تحقيق محمد بن عمر بن عبد الرحمن العليل، ط دار الملك عبد العزيز ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م، ص ١٢٧ - ١٢٨، وكتاب جبران شاميه، آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ٧١ - ٧٢، وانظر الموسوعة العربية العالمية، ج ١٠، ص ٩، وفيها أن خالد بن سعود توفي في مكة المكرمة ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩ م أي بعد خمس سنوات من انقائه ديديه في جدة أما عبد الله بن شام فقد توفي سنة ١٢٥٩ هـ، وتولى بعده ابن عمه فيصل بن تركي (الولاية الثانية) بعد أن هرب من حبس مصر

(١) انظر الرحلة ص ٣٠٨ من الأصل الفرنسي ويقول ناشر الرحلة في المقدمة « إن هدف مؤلف الرحلة من نشرها يتحقق إذا استطاعت أن تلفت نظر القلاء إلى الكمبيدا التي تمثلها أودوا لصالح تركيا »

تحكم بريطانيا إبان مجيء ديديه إلى الحرية العرمة الملكة فكتوريا الأولى (Victoria I re (Alexandrine) ١٨١٩ - ١٩٠١م) التي توجت في عام ١٨٣٧م وظلت تحكم حتى ماتت عام ١٩٠١، وقد أصبح إمبراطورة الهند من (١٨٧٦ - ١٩٠١م) واتسعت في عهدها رقعة الإمبراطورية البريطانية أما في روسيا فقد كان يحكم لميصر يولا الأول (١٧٩٦ - ١٨٥٥م) ابني بولي الحكم في عام (١٨٢٥ - ١٨٥٥م) وقد عرف برجيته الشديدة، وسحق ثورة الديسمريين في عام (١٨٢٥م) وفي عهده جرت الحرب الروسية التركية، التي تدرجت فيها فرنسا وبريطانيا لصالح الإمبراطورية العثمانية، و انتهت بوقيع معاهدة السلام في باريس ١٨٥٦م أما في تركيا فقد كان في لحكم السلطان عبد المجيد الأول (١٨٢٣ - ١٨٦١م)، الذي تولى الحكم من عام (١٨٣٩ - ١٨٦١م) وقد حول إجراء إصلاحات عرفت بالانطيمات، وقد جرت في عهده حرب ١٩٠٠م مع روسيا، ووقعت معاهدة باريس ١٨٥٦م تلك كانت لمحمة سريعة من التحلة لسياسة التي كانت سائدة إبان رحلة ديديه إلى البحار في عام ١٨٥٤م.

٢- صاحب الرحلة:

شارل ديديه Charles Didier، أديب، وشاعر وصحفي سويسري من أصل فرنسي، ولد في جيف عام ١٨٠٥م، وكانت أسرته لروتشافنة قد هربت إليها طلباً للحرية الدينية، درس ديديه في جيف، انفاون، وعلم لغات، وانرياصيات، ثم عاد إلى باريس واستقر فيها، واكتشف مبله إلى الرحلات وشر أولى قصائده الشعرية^(١) في جيف عام ١٨٢٥م، وفي عام ١٨٤٨م أرسلته حكومته في مهمة رسمية إلى بولندا، فأصبح حبيراً بشؤون بيت اسلاد، وكذلك ألمانيا وما حاورها وعمل في الصحافة^(٢)، وأدار جريدة

(١) بعنوان القيثارة الإلفينكية (الموسيقية) La Harpe Helvétique، سم نشر في باريس

عام ١٨٢٨م أشعاراً أخرى بعنوان تغيمات إلفينكية Melodies Helvétique

(٢) في مقدمه لرحمته الإنكسيري لرحلته إشارة إلى الصحف الجمهورية التي عمل فيها،

سياسة وأدب اسمها = Le Courrier du Leman «لو كورييه درلومان»، وكانت له صلاته مع مشاهير عصره، وخصوصاً الروائية الفرنسية التي برعت في تصوير الحياة الريفية جورج صاند George Sand (١٨٠٤م - ١٨٧٦م)، وتعاون معها، لإصدار جريدة «العالمين» Les Deux Mondes، وفي عام ١٨٤٩م أصدر كتاباً عنوانه «زيارة لبارون ليدوك بوردو Une Visite M. le Duc de Broglie» ربارو ليدوك بوردو Bordeaux أحدث صحة وطبع خمس عشرة طبعة خلال أسبوعين وكان المغرب أول بلد عربي يوردها في عام ١٨٣٣م ثم ذهب بعد ذلك إلى إيطاليا وإسبانيا، وعندما أصابه الإحهاد والإحباط من عمله، ومن مجموعة من المشكلات العامة والخاصة كما تشير مقدمة ناشر الرحلة، قرر القيام بمجموعة من الرحلات إلى إسبانيا، ومراكش، والحريرة المغربية، وسائر ومصر ويستنتج مما ورد في الرحلة / ٢٧٤ و ٣٠٥ / (من الأصل الفرنسي) أن المؤلف كان على وشك أن يبعد بصره إبان الرحلة، وقد شك في غير موضع منها ضعه، يقول في / ٢٧٤ / «أرخت العنان لبصري، ليحس في قبة السماء الواسعة المتلألئة، التي لم تكن قد انطلعت بعد في نظري كما هي الحال عليه اليوم»، وهذا يعني أن المؤلف كان في عام ١٨٥٦م قد فقد بصره لأن هذا التاريخ (٢٠ أكتوبر) (تشرين الأول) ١٨٥٦م هو تاريخ مقدمة النشر، ويبدو أن ديدويه فقد بصره قبل هذا التاريخ، وأملى رحلته إملاءً ويقول في (ص/ ٣٠٥) «إن فقدان بصره صعب من الذهاب إلى بغداد عبر دمشق وحلب وصحراء الرافدين الواسعة، ليصل بعد ذلك إلى إستانبول، ولم ينجر من ذلك إلا مرحلة صغيرة».

وقد تلقى رسالة من أسره محمد علي شمس الدين في ١٥ فبراير (شباط) ١٨٥٥م، وكان قد نزل في بيت أسرة شمس في الطائف، وظل على علاقة بهم، وأثبت ترجمه الرسالة (إلى الفرنسية بالطبع) في نهاية الفصل الأول الذي تحدث فيه عن الطائف (ص/ ٢٦٥ - ٢٦٦) وحله في ترجمته في معجم

= وقد أسس في عام ١٨٤٣م صحيفة L'États.

لاروس^(١) القرن العشرين أنه مات مسجراً في ١٣ مارس (دار) في باريس عام ١٨٦٤م بعد أن أصيب بالعمى وله كتب عديدة منها عدد من قصص رحلاته وأشهرها ستة في إسبانيا (طبع في بروكسل عام ١٨٢٧م)، حملة على روما (١٨٤٢م)، جولة في المغرب (١٨٤٤م)، ورحلته هذه (١٨٥٧م)، وحمسون يوماً في الصحراء^(٢) (١٨٥٧م)، وحمسة مائة فرسخ على الليل (١٨٥٧م)، وليالي لقاهرة (١٨٦٠م) وغير ذلك^(٣) وقد راجعنا كتب رحلات ديديه غير

(١) Larousse du XXe Siècle. Tome 2, 1929, p.854

(٢) في معجم لاروس ورد المصانف خمسون يوماً في الصحراء، وكذلك في كتاب مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، د. إلهام محمد علي دهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١١١، وأعلى في أول رحلته التي ترجمها أنه سيقدر للكتاب معه قريباً، وفي دار نشر نفسها كتاب بمصانف أربعون يوماً في الصحراء *Quarante Jours au Désert*، ونظر كتاب مصري في كتابات، مرقى أعلاه، ص ١٣٧.

(٣) انظر ترجمة ديديه في

Carré, Jean Marie: *Voyageurs et écrivains Français en Egypte*, Le Caire, T.2 1960, p.248.

La Roussse du XXe Siècle, Paris, 1929. Tome 2, p.854

وكتاب مصري في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، د. إلهام محمد علي دهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١١١ - ١١٢ وكتاب التراث الشعبي في أدب الرحلات، د. أحمد عبد الرحيم نصر، اندوحة ١٩٩٥، ص ٦ وقد ترجمت رحلته إلى الإنكليزية بمصانف

Sojourn With the Grand Sarif of Makkah, Didier Charles, Translated by Richard Boulindl. with an Introductory Note by Philip Ward Cambridge: Oleannder Press, 1985 X PP 157 23Cm. ISBN0-906672-11-2.

وقدم لها بترجم بحديث عن ديديه حياته وآثاره انظر مداه مصانف أدب الرحلات إلى المملكة العربية السعودية (النظم الإنكليزي)، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج ٤، ع ٢، رجب - ذو الحجة ١٤١٩هـ / نوفمبر ١٩٩٨م - أبريل ١٩٩٩م وتحدث عنه الأستاذ فائز من موسى الحويدي وترجم بعض المواضيع من رحلته ديديه مداه علاقة برحالات الدولة السعودية الأولى ولدعوة لوديه في مقالته بمصانف

المترجمه فوجدناه كما يقول كارهه في كتابه عن الرحالة والكتاب العرسيين في مصر لا يهتم بوصف الآثار والمصور، وإنما يركز على نشر و لحوب لاجتماعية، وخصوصاً في كتابه «خمسة مائة فرسخ على ليل»، الذي يتحدث فيه عن مشاعده على صراف النيل، وعن زيارته للحرطوم، وسبار ومقابلة رفاعه الطهطاوي^(١) وله رواية سماها «وما تحت الأرض» (١٨٣٣م) Rome Soulierraine، قدم فيها صورة حية وطريفة عن الحياة الاجتماعية والسياسية في ايطاليا، وعن الحركة الثورية، وهي في مجلدتين صدرت لها طعة معدلة عام ١٨٤١ و ١٨٤٨م.

عد انتمى ديديه خلال رحلته من القاهرة إلى السويس بالرحالة الإنكليزي المشهور ريشارد بيرتون (١٨٢١ - ١٨٩٠م) Richard Burton الذي كتب رحلته بعنوان قصة رحلة شخصية للحج إلى مكة والمدينة، وترجم ألف ليده وليلة وغيرها إلى اللغة الإنكليزية^(٢)، ولما طعت رحلة بيرتون لم بشر هذا.

مع كتاب «رحالة غربيون في بلادنا، ديديه رحالة أصف السعوديين وتجاهلنا، صحيفة الرياض، ع ١٠٨٤١، ١ ذو القعدة ١٤١٨هـ / ٢٧ فبراير (شباط) ١٩٩٨م وذكره محمد بن عبد الله آل رلفة في المسم الثاني من مقالاته بعنوان «الطائف في كتب الرحالة الأوروبيين» (٦/٢)، الجزيرة، ع ١٠١٥٨، ١٩ ربيع الآخر ١٤٢١هـ. ٢١ يوليو (تموز) ٢٠٠١م أنه نشر البحث عن ديديه في المجلة التاريخية لمعهد الحديث والمعاصر، السنة لعاشرة، ع ٢٩ - ٣٠، يوليو (تموز) ١٩٨٣م، وأعيد نشره في كتابه «قضايا من تاريخ حسير الحديث، نظام الشرب، الوهاص، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م

(١) انظر كتاب مصر في كتابات، موقن سابق، ص ١١٢ وذكر في ص ١٣٧ من هذا الكتاب أسماء كتب ديديه بالعربية وذكرها ها مفروقة بة الصع

- 1 Quarante Jours au Désert (1857).
2. Cinq Cent Lieues sur le Nil (1856).
- 3 Les Nuits du Caire (1860).
- 4 Campagne de Rom (1842).

وله كتب أخرى عن صقلية خصوصاً وإيطاليا عموماً تراجع في مقدمه الترجمة الإنكليزية لرحلته

(٢) انظر رحلة ديديه، ص ١٣، ويشير ديديه في حاشية إلى أن السجدة البريطانية

الأخير إلى ديديه، لآ في حاشية علما بها اسم الإنكيري الذي كان ير هو ديديه، ولم يذكر اسمه أبداً، ولكنه تحدث عنه فقال^(١) « يتحدث العرصة، ويكتبها عند الحاجة، وكان يتحول عند عدة سير في الشرق » ثم أعاد التحديث عنه باستدعاء في الفصل الذي حصصه للطائف، لأنه كان مرجحاً من تصرفاته واستعمالاته^(٢)

٣- أهمية الرحلة ومصادرها:

وصف ديديه في كتابه مسار الرحلة من القاهرة إلى السويس، وجبل سيناء، ودير سانت كاترين، ومدينة الطور، ثم تحدث عن البحر الأحمر، وبع، وجدة، والطائف التي قابل فيها شريف مكة المكرمة عبد المطلب بن غالب، ثم وصف طريق جدة - الطائف، والطائف - جدة، لأنه عاد من طريق أخرى تختلف عن طريق الذهاب، وتحدث عن معادته حده إلى سواكن عبر البحر الأحمر، وتضمنت الرحلة فصلاً عن الأشراف والوهابيين تحدث فيه عن الأشراف وتاريخهم وعلاقاتهم بالدعوة الوهابية، وأثنى باللائمة على لشريف غالب، الذي أسهم في رأيه بانتصار محمد علي باشا على الدولة السعودية الأولى التي كانت، كما يقول ديديه، وحدها قادرة على الوقوف في وجه السيطرة التركية وتضمن الرحلة فصلاً آخر، سماه الوحدة نابضة بالحياة

• شرب قطعاً من رحلة بيرتون، ويدلي شهادته حول مطابقة ما في الرحلة للواقع. وبعد خمس ديديه رسالة من بيرتون إلى انفصل البريطاني في جدة لسيد كول M Cole، انظر النص الأصلي لرحلة ديديه (ص/١١١)

(١) وعلمنا من حاشية بيرتون في كتابه قصة رحلة شخصية للحج إلى مكة والمدينة، (النص الإنكيري)، مج ١، ص ٧٨ - ١٧٩، ط ١٩٦٤، انحاشية (٢) أن اسم الإنكيري مرادف ديديه هو النفس هاملتون Abbe Hamilton، وأنها دوماً ١٠٠٠ فرش ما يعادل (١٠ جنيهات إسترليني) اجرة السوك من السويس إلى جدة، ويقول بيرتون (نهما من عليه القوم وانه واقفهما من القاهرة إلى السويس، انظر رحلة ديديه، ص/ ٣٢ - ٣٣)

(٢) انظر النص الأصلي لرحلة ديديه ص/ ٢٦٢ - ٢٦٣

تحدث فيه عن الأشخاص الذين قابلهم في جدة، خصوصاً مثل انوالي العثماني، وحالد بن سعود، وغيرهم من المسكر وانحاز وسجده في فصل آخر سماه «بعض التأملات» يتحدث عن رحلته، وصدقه في حكاية لأحداث، وعرض لبعض المقارنات بين العرب والأبرك، وقال إن الأمة العربية يحق لها لطموح إلى التخلص من الأتراك، كما هو شأن كل الشعوب التي تحمص لسلطنتهم يحتوي الكتاب على ذكريات ديديه الشخصية، وملاحظاته التي كان يدونها يومياً في أثناء الرحلة بكل أمانة وإخلاص، وعلى الرغم من أهمية الرحلة في معرفة أحوال الحجاز في أواخر النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فلما لا نجد له ذكراً في الكتب التي تحدثت عن الرحالة في الجزيرة العربية وخصوصاً كتاب مواطنه^(١) جاكليس بيرين كشف الجزيرة العربية *La Decouverte de L'Arabie* (١٩٥٩م) وقد رأينا أن بيرنون لم يشر إليه إلا في حاشية صغيرة. وقد وجدت ناصر الدين ديبه في كتابه، الحج إلى بيت الله الحرام، يذكر ديديه في الفصل الذي حصصه للحديث عن الوهابيين، الذي وضع له عنواناً كلمة الملك عبد العزيز آل سعود، يرحمه الله، فلما أصحاب مذهب جديد^(٢) وقد أشار إلى ديديه جورج رينز *George Snavely Reniz* في مصادر رسالته المعنونة محمد بن عبد الوهاب وبداية إمبراطورية

(١) انظر مقدمة الترجمة الإنكليزية لرحلة ديديه، مثنى سافا، ص ٨ ولم يشر إليه هوجارت *Hoggart* (١٩٠٤م)، ولا بيدون *Bidwell* (١٩٧٦م)، وخصص له بيبي وسر *R. Bayly Winder* في كتابه *Saudi Arabia in the Nineteenth Century* (١٩٧٧م) المحطكة العربية السعودية في القرن التاسع عشر، فقرة قصيرة وأشار إليه توماس ل. ولي *Thomas L. Wolley* في مهيده للطبعة الأولى من رحلة بيرنون

(٢) انظر الحج إلى بيت الله الحرام، ناصر الدين ديبه وإسحاق إبراهيم باعامر، (النص الفرنسي)، دار نشر هاشت، مارس ١٩٣٠، ص ١٩٩ وكلمة الملك عبد العزيز آل سعود المعقصة من خطبه التي ألقاها عام ١٩٢٩م، خلال عمله في آقامه على شرف وجهاء الحجاج في ذلك العام، انظر بحثنا ناصر الدين ديبه وكتاب الحج إلى بيت الله الحرام، الذي صدر في مجله مكتب الملك فهد الوطنية

الموحدون في شبه الجزيرة العربية^(١).

ويبدو أن نوان سراج ششة هي أول من أشار باعترافه إلى رحلة ديديه ووصوله إلى جدة في عام ١٨٥٤م، وذلك في كتابها حدة في مطلع القرن العاشر الهجري/ لسادس عشر الميلادي^(٢)، ثم أشار إليه وترجم مقاطع من رحلته (عن الإنكليزية) الدكتور أحمد عبد الرحيم نصر في كتابه التراث الشعبي في أدب الرحلات^(٣)، وأشارت إليه، وترجمت له وتحدثت عن بعض أحداث حياته، وعن كتبه التي لها علاقة بمصر الدكتورة إلهام محمد علي دهي في كتابها مصر في كتابات العربيين في القرن التاسع عشر^(٤)

إن أهمية هذه الرحلة تكمن في أنها تقدم صورة واضحة عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي فترة تفل مصادرنا، ويحتاج إلى مثل هذه المصادر، لزيادة معرفتنا بها. ولرحلة أهمية لا تنكر في مجال المعلومات الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية عن الأماكن التي مر بها ديديه انطلاقاً من السويس حتى لطور، وحلبي، والمحر الأحمر، ويسع، وجدة، والطائف؛ إذ يجده

(١) انظر القسم المنشور من هذه الرسالة في كتاب الحركة الوهابية في عيون الرحالة الأجانب، ترجمه وتعليق أ. د. عبد الله بن ناصر النولجي، الرياض، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص ١٧٢

(٢) كتبها المنشور في مكتبة الطائفة الجامعية، مكة المكرمة، المبرية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٣٩، وقد سمته (شارل ديدير) وهو خطأ والصواب شارل ديديه كما أثبتنا

(٣) المطبوع في لدوجه، مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، ١٩٩٥م، ص ٦٣ - ٦٩ وسماه (شارل ديديه) وهذا خطأ أيضاً

(٤) المطبوع في الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م، ص ١١١ - ١١٢، وانظر ص ١٣٧ وقد سمته (شارل ديديه) والصواب (ديديه) وأشار إليه وترجم قسماً من رحلته سمير عطا الله في كتابه فقه الجبر، الرحالة العربيون إلى الجزيرة والخليج (١٧٦٢ - ١٩٥٠م) دار الساقي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٨م، ص ١٥٣ - ١٩٦

يصف الأماكن والأسواق والمياه والأشجار، ويركز على الشرط طاعهم
ونسهم ومسالكهم، ومبيحد علمه لأشرونولوجيا (الإلانة)، وعلماء
الاحتماع، والجغرافيون فائدة حُلى في رحلة ديديه

بعد التي ديديه بأشخاص من الطراز الأول إتان رحته مثل حاند بن
سعود، وعبد المطب بن غالب شريف مكة المكرمة، وعمرهما من لأشرف،
وبانفصل الفرنسي في جدة روشيه ديريكور Rochet D'Henclourt، والفصل
البريطاني فيها لسيد كول M Cole، والوالي العثماني أحمد عرش باشا، وكرد
عثمان باشا، أحد اعادة العسكريين الأتراك وعبرهم من التجار من ذوي
الأصول الهندية والأوروبية، ويحد الفاري في لرحنة تحليلاً سلوكياً رنعا
لكن تلك الشخصيات المختلفة في أخلاقها وطوائفها ولحصارات التي تسمى
إبها إن المعلومات التي يقدمها ديديه، بأسلوب رائع، ومقدرة على الوصف
هائلة، تذكرنا بالكاتب الفرنسي لكبير إمبلا رولا، الذي كان يبلغ من العمر
(١٤) عاماً عندما قام ديديه برحلته، وكان عمره (١٧) عاماً عندما نشر رحلة
ديديه، فهل قرأ رولا ما كتب ديديه؟ وقد صحن ديديه رحته كثيراً من معالم
ثقافته، وهو الشاعر الذي بدأ نشر قصائده في سن مبكرة لقد قرأ ديديه كما
يبدو من رحته الكتاب المقدس بمهذبه لقديم ولحديث، وقرأ روايات الأدباء
اللاتيين واليونان، وأشعار شعراء الأمتين، واطلع على الفنون التشكيلية لهما،
وأنظر الأدب الفرنسي، وقرأ كتب المفكرين والفلاسفة في عصره، كل ذلك
يجده الفاري في هذه الرحلة.

أما بخصوص العرب، فهو بلا شك قرأ ألف ليلة وليلة^(١) مترجمة،
واطلع على كتب الرحلات، خصوصاً رحلات مورقهارت، الذي يستشهد به
ديديه في مكان واحد من رحلته^(٢)، ولكنه اعتمد عليه كلية في الفصل الذي

(١) أشار إليها ديديه في مواضع من رحلته ص/٢٤ وص/١٥٠ وص/٢٣٨ وص/

٢٩٤ ويدل أحد هذه الأماكن على الأقل على أنه مرأما ويندر غافيل حكايها

(٢) انظر النص الأصلي لرحلة ديديه ص/١١٨ ١٠ إذ يعبر عن مورقهارت أن نوعاً من

اسود الجريت التي تحتفظ الطعام من صحنون الحجاج، تعيش في جبال اسجار *

كتبه عن «الأشراف والنوهابين» وقد وصحنا كل ذلك في حوشي الترجمة
لقد كان ديديه مطعماً على رحلته تلميزية^(١)، وعلى رجليه ريشه ديريكور،
الذي توفي في حدة يوم ٩ آذار (مارس) ١٨٥٤م وشارك ديديه في دونه
وتظهر العفريات التي تحدث فيها عن الأمة العربية أنه مطلع على تاريخ
الحضارة العربية وإحاربه الأدبية والعلمية فهو يقول «إنها أمة عالمية
ومثقة، بيعت في العلوم قدر ما بيعت في الفس والحروب لقد كانت خلال
أمد طويل، أمة مثكرة جيشاً قادها حماسها الديني، لقد كان لها مدارس
تردهر فيها دراسة الطب والعمارة والرياضيات والفلك وفي هذه المدارس
تعلم العرب، وأدعج روائع أدبية ما رلت حتى اليوم متعة لعقول المستعفة
كلها»^(٢).

توعدت مصادر ديديه التي استخدمها أحس استخدام، فأعنت ملاحظته
الشخصية، ومدوماته اليومية، وكان مأل ذلك كله هذه الرحلة الممتعة

٤ - ملاسات الرحلة^(٣)

يكرر ديديه في غير موضع من رحلته، أنه ليس في مهمة رسمية، وأن
رحلته بسبب لها أي هدف سياسي، وأن المصادفة وحدها هي التي قادته إلى

الممتدة بين المدينة المورة ومكة المكرمة انظر رحلات في شبه الجزيرة
العربية، جون لويس بوركهارت، ترجمه د عبد العزيز الهلالي ود عبد الرحمن
الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ص ٢٧٢

(١) استلحنا ذلك بالاعتماد على معلومات أوردها ديديه ووجدناه عند تلميزيه في
كتابه رحلة في بلاد العرب، انظر نص ديديه بالعربية، ص ٢٢٠ / وتعليق عنه
ويبدو أن ديديه قد اطلع على أخبار الرحلات الفاشلة التي حثرت بسبب العدة
الإفريقية، انظر: ص ٢٢٦ / في الأصل الفرنسي

(٢) انظر: النص الأصلي لرحلة ديديه ص ٢٠٠

(٣) شكر الأستاذ الدكتور أحمد خالد البدلي ملاحظاته التي دعت إلى إعادة النظر فيما
كنا قد كتبناه عن الرحلة في مقام في مجلة «الدرعية»

الجريدة العربية، وأنه، نفسه، اعترته الدهشة من الاستقبال الحافل الذي نهه من لشريف الأكر، يقول على سبيل المثال ^١ : «وجود بريطاني وفرنسي يجومان الحجار في هذه الفترة الساسة السائدة فيه، مدعاة للشك، مما يجعل الناس يظنون أن حكومة كُتْل منهما أرسلت مواطنيها لدراسة الأوضاع في الحجار، واستطلاع مدى نشاطه بالناب العالي، وموقفه من وعى لرعم من أن ذلك غير صحيح، ولكنه غير مستبعد، ولا صالح فيه، وإن شك لشريف الأكر في ذلك، جعله يعاملنا بذلك المعاملة اللائمه ^٢ »

يمكن أن يُصدق امرء للوهلة الأولى ما يدعيه ديديه، ولكن حياة الرجل، واطلاعه على الأحداث الدولية، واهتماماته السياسية، وارتناحه القومي بهويته المسيحية، وكرهه الشديد للإمبراطورية العثمانية، ولكل من يرتبط بها (محمد علي وأتباعه)، وانعكاس ذلك الكره الذي يملك في بعض الأحيان إلى عنصرية، كل ذلك يجعلنا نتساءل، عما صيأه ملاسات المرحلة

لقد سبق لديديه أن تولى مهمات سياسية لصالح بلده كما رأينا في أطوار حياته، وليس بالعريب أن نُشد أنه مهمات أخرى^٣

إن تدخل، بقصص البريطاني السيد كول، ومرفقة المترجم في لقنصية العرسية وموثق لعقود فيها السبد دوكيه M. Deque لديديه ورفيقه البريطاني، والاستقبال الحافل الذي لقياه في الطائف، والحراسة التي أرسلها الشريف، كل ذلك يدفعنا إلى طرح سؤال ربما يجد إجابة في أبحاث لاحقة ليس مكها هـ. يتحدث ديديه عن أحداث هامة على المستوى الفرنسي المحلي (انقلاب الثامن من ديسمبر ١٨٥١م)، وعن موقف فرنسا من الإمبراطورية العثمانية الذي يصفه بأنه (كوميديا)^٤، ثم يتحدث عن حرب (الفرم) بين تركيا وروسيا التي حوت بين عامي (١٨٥٣م - ١٨٥٦م)، ووقوف بريطانيا وفرنسا إلى جانب تركيا لا حياً بها، وإنما للوقوف في وجه روسيا ويُحتل إليه من خلال حديثه

(١) الأصل الفرنسي ص/٢٩٥

(٢) «نظر ما ذكرناه في الحاشية (رغم ١، ص ١٦) من هذه المقدمة

مع لشريف عبد المطلب؛ أن هذا الأخير يعيل إلى دعم روسيا^(١) لا حياً بها أيضاً، وإنما لأنه في رأي ديديه لا يمكن لعربي أن يتمنى انتصار تركيا التي تستعمر الأمة العربية، وتعامل العرب أسوأ معاملته. إن هذه الإشارات التي تصدر عن ديديه تجعل السؤال التالي مشروعاً: هل كان ديديه في عام (١٨٥٤م) مع النفس هاملتون Abbe Hamilton رقيباً في الرحلة في مهمة لاستطلاع آراء الشرف والشخصيات الأخرى في لحجار في الدولة العثمانية، ومدى وسط الشعب تلك الدولة التي كانت على وشك السقوط أمام الرحف الروسي؟ فقد أكدت الأحداث اللاحقة أن فرنسا وبريطانيا تدخلت لصالح تركيا طمعاً في اقتسام تركها بعد ذلك، وإنقاذ روسيا عن مناطق نفوذها، ودفعها روسيا قسراً إلى توقيع معاهدة باريس (١٨٥٦م)، ناهيك عن أن سياسة نابليون الثالث (الإمبراطورية الثانية) كانت تقوم على إيجاد صغوط خارجية للاستمرار في الحكم، وكان ديديه كما يقول هو نفسه شامدا عيان على انقلاب (٢ ديسمبر ١٨٥١م) في فرنسا. فهل كان ديديه معوث نابليون الثالث لاستكشاف منطمة الحجار؟ وإجابة تحتاج إلى مكان أوسع، ودراسة نترك للمختصين القيد بها، ويمكنني بطرح القضية ها، وبحتم بالإشارة إلى ما ذكره الشيخ أبو عبد الرحمن بن عصيل في تعليقه على رحلة بلحريف^(٢) * ولما كان نابليون الثالث

(١) يقول الدكتور آل رله في مقالته الرابعة من المقالات المذكورة في الحاشية (١)، ص (٣١) من هذه المقدمة: «أما موقف الشريف عبد المطلب من الحرب الروسية لتركيا فرنسا يلجح المؤلف من خلاله، تأييده لروسيا. هذا رأي المؤلف، وربما كان للشريف رأي آخر»

(٢) مسائل في تاريخ الجزيرة العربية، ألهاا رحنها أبو عبد الرحمن بن عصيل لظاهري، مشورات مؤسسه دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرباص، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ٢٠٦، ٢٠٨، وانظر دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، د عبد الفتاح حسن أبو عليه، دار المريج، الرباص، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٢٥ - ١٤٤. وصيف إلى ما ذكره الشيخ أبو عفل من أدلة على كذب بلحريف وعدم بصافه، ما أورده ناصر الدين ديه في كتابه الحج إلى بيت الله الحرام، إذ يقول * ولكننا لا نولي ما يورده هذا لرحالة ثقة كبيرة، لأنه

إمبراطور فرنسا مهتماً بكشف بحر جزيرة العرب، وبحاجته إلى شراء حبوب من أصول عربية بجوده، عثر هذا على بلجريف الذي كان يرعى في القام برحلة إلى بلاد العرب ليكشف عن حقيقة الوضع فيها. وقد قيل إن بلجريف كان يمثل بابليون الثالث الذي كان مهتماً اهتماماً خاصاً بمصر و لشام، وربما كان قد وجه اهتمامه إلى بعد لعلاقتها بموضوع هذه السورس الذي كان قد تم اقتراحه آنذاك بالفعل».

وإذا علمنا أن بلجريف جاء إلى الرياض حسب ما يدعي في عام ١٨٦٣م / ١٢٨٠هـ أي بعد تسع سنوات من رحلة ديديه الذي لم يذهب إلى نجد، فهل كانت رحلة بلجريف، إن صحبت، امتداداً لاهتمام بابليون الثالث بأوضاع الجزيرة العربية والقوى السياسية فيها؟

٥- عملي في الترجمة^(١)

إذا كانت الترجمة هي نقل المعلومات من نظام لغوي إلى نظام لغوي

« يكره لإسلام كرهاً مسعوراً » انظر مقالاً ناصر الدين ديبه وكتبه ابهج إلى بيت الله الحرام، موقئ سابقاً

(١) نشر الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الله آل رافه، مجموعة من المقالات بعنوان الطائف في كتب الرحالة الأوروبيين، شارلز ديديه Charles Didier نموذجاً (شارل ديديه)، في صحيفة الجزيرة، تحدث فيها عن الرحلة لأوروسس الدين راروا الطائف، وتوقع عند ديديه في المصاحف الثانية، ١٥٨٩، ١٩ ربيع الآخر ١٤٢١هـ / ٢١ يوليو (نمبر) ٢٠٠٠م، ص ٧، وبدأ في المصاحف الثالثة المنشورة في العدد ١٠١٦٢، ٢٣ ربيع الآخر ١٤٢١هـ / ٢٥ يوليو (نمبر) ٢٠٠٠م، ص ١٢، والمصاحف الرابعة المنشورة في العدد ١٠١٦٥، ٢٦ ربيع الآخر ١٤٢١هـ / ٢٨ يوليو (نمبر) ٢٠٠٠م، ص ٦، والخاصة في العدد ١٠١٧٢، ٤ جمادى الأولى ١٤٢١هـ / ٤ أغسطس (نمبر) ٢٠٠٠م، ص ١٦، والسادسة في العدد ١٠١٧٩، ١١ جمادى الأولى ١٤٢١هـ / ١١ أغسطس (نمبر) ٢٠٠٠م، ص ٨، نشر الفصل الذي خصصه ديديه للحدث عن الطائف ويبدو أنه يترجم عن الإنكليزية، وقد استعد من ترجمته ومعلوماته

آخر، فهي تمثل لثقافة النص المترجم وثقافة النص المترجم إليه أيضاً، بأهيك
عن عمليات أخرى معقدة تترافق مع الانتقال من نظام لغوي إلى نظام لغوي
آخر، لأن اللغة في واقع الأمر هي كالموقع الأثري تحدّ فيها عند التنقيب أخبار
مستخدميه، وتاريخهم، ومعتقداتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم مما يسعى الاشء
إليه إذا أردنا ترجمة مصوص تنتمي إليها

كان كل ذلك يحول في حاصري وأنا أمراً نص ديديه، وحاولت في أثناء
الترجمة أن أنقب في نصه عما يريد قوله، وكنت أتعب في العربية أيضاً لأجد
مقابلات نص ديديه، لكي لا يكون العتب العربي في الترجمة عريب، لوجه
واليد و اللسان.

لم أكتب بالترجمة، وإنما علّمت عليها بما يريد ما وضوحاً، فعزف
بأشخاص الرحلة، وما عمص من أمكنتها وحوادثها، ووثقت المصوص قدر
الطاقة من كتب الرحالة الآخرين، وأحلت إلى القرآن الكريم في الموضوعات
الدبية لتتضح الحقيقة في كتاب الله ورأيت من المناسب أن أثبت في متن
النص لمترجم صفحات الأصل الفرنسي للرحلة فوضعها بين // لتسهيل
المقابلة بالأصل، ولتسهيل اختار دقة الترجمة على من أراد

كُتبت الأسماء الأحيية بالعربية، وبلغتها الأصوية عد أول ورود لها،
وتحقت من أسماء الأماكن بالاعتماد على المعاجم الجغرافية، وقد لميت من
ذلك عناءً سه أن ديديه لم يكن يحسن العربية، وكان يكتب الأسماء كما
يسمعا من أصحابها الذين كانوا لا يراعون في الغالب اللفظ العصيح
ولسكارى يكتبه A-Sakara والمهر بكتها Al-Mahr أما الحروف الحقة
فيتخط في كتابتها تحبباً كبيراً. وقد أشار هو نفسه إلى صعوبة كتابتها^(١)،
بأهيك عن الأخطاء المطبعية عندما يحول صحح، إلى Loubh، ونقم إلى

(١) انظر ص/١٠٤/ من النص الأصبي حث يقول : ليس من السهل نقل
الحروف الحقة في العربية إلى الحروف العربية، وخصوصاً إذا كان لم يرها
مكوبة أبداً

Goum، والعباسي إلى العناري Al-Abbani وقد أثبت في لحواشي الأسماء كما كتبها ديبدييه لأن بعضها استعصى عليّ بسبب تعبير أسماء الموصي أو بسبب خطأ الكتابة^(١) لقد احتهدت في قراءة ما استعصى عليّ ثم بركته في الأصل مكتوباً كما ورد.

وحرصت على أن يكون للرحلة فهرس يتضمن أسماء الأعلام والأماكن المذكورة في الرحلة لكي تريد العودة منها بإذن الله

إن هذه الرحلة إسهام في تاريخ الحجاز في النصف الثاني من القرن لتاسع عشر، وكل ما يأمله أن يجد القاري فيها الصلة والعودة، وأن يكون قد أفادها في تقديم بعض يدفع بالمعرفة خطوة إلى الأمام؛ وإلا فإن «صالح نفس» عذرنا مثل «منجج»، واطه من وراء المصد.

(١) اهلا على النبي، والترضى على الصحابة، ووصف مكة بمكرمة والمدينة بانسورة لا وجود له في النص الأصلي، لذا أضفنا ذلك وما هو بين قوسين () زيادة من المترجم للإيضاح

مقدمة الناشر الفرنسي

لقد ذهب المؤلف الرحلة إلى الشرق بحثاً عن الطمأنينة والسكينة، بعد أن كره باريس، وفرنسا، وأوروبا كلها، بسبب ظروف خاصة وعامة لا حدري من ذكرها، وليس بالإمكان التمرس لها في هذا المكان وبعد أن أمضى في القاهرة شتاء لا يدب فيه شيء في الروعة، وظلت ذكراء متمكنة في نفسه، كان يستعد للعودة إلى أوروبا، وكان قد مهر حوار سفره بتأشيرة إلى ألبانيا، عندما عرض عليه أحد البريطانيين الذي ربطته به علاقات اجتماعية محدودة، أن يقوم برحلة يقسمان تكاليفها إلى جبل سيناء، مع إمكانية متابعة الرحلة من هناك إلى مدينة جدة في الجزيرة العربية؛ بهدف زيارة الشريف الأكبر - شريف مكة المكرمة الذي كان حينئذ يقيم في الطائف

لقد طلب المؤلف مهله أربع وعشرين ساعة للتفكير، ولكن ميوله إلى الترحال VII/ دفعته إلى اتخاذ قرار عاجل فلم يمض ساعة حتى كان مواعداً على ما عرضه البريطاني عليه وعمداً في الحال إلى إعداد لوازم الرحلة، وحدد موعد الانطلاق بعد يومين، ١٦ يناير (كانون الثاني) ١٨٥٤م؛ وذلك وحده للمؤلف نفسه منطلقاً إلى الجزيرة العربية، بدلاً من الذهاب إلى اليونان وهو يشير هنا قصة تلك الرحلة أملاً في أن تجد بعض الاهتمام، إذا كان هناك هذا المال شيء يهتم به الناس اليوم.

لا يدعي المؤلف أنه يقدم لوحة تاريخية، ولا لوحة صغيرة، وإنما يقدم

مجرد رسم بسيط لأحداث الرحلة، وعلى مصراحيه، محلصٌ بذلك لما اعتاده
فيما سبق، أنه لم يسمح لنفسه، وهو يرسم الأشخاص والأشياء، باستخدام أي
تجميل، ولا تعديس، إن لم يكن موافقاً مع الواقع. لقد استطاع بذلك أن يتعد
عن كل ما يعري الجهلة أو المسحرفين، وعراؤه في ذلك، أنه يعتقد اعتقاداً
راسخاً أن الرحلة المتحيلة أسوأ الروايات كلها.

ومهما يكن من أمر، فإنه يستطيع القول مع مونتيني^(١) Montaigne إن
هذا كتاب صادق، وإنه، بحالته الراحنة، كتابه ثم يُؤلفه مستعباً بكتب
أخرى، ولا يحسب انطباعات الآخرين، ولكنه يحوي على ذكريات شخصية،
وعلى ملاحظات سُجلت يوماً ١٧١٧ بيوم في أماكن حدودها.

ونكي بضمض انقاريء (يقول) إن الهدف من نشر هذه الرحلة يتحقق إذا
استطاعت الأحداث التي تنصها أن تجعل بعض الأدباء يطلعون على المهنة
التي تقوم بها أوروبا لصالح تركيا.

باريس، في ٢٠ أكتوبر (نشرين الأول) ١٨٥٦م

(١) Michel Eyquem de Montaigne ميشيل إيكيم دو مونتيني (١٥٣٣ - ١٥٩٢م) أدب

ومربّ فرنسي. اشتهر كتابه مقالات *Essays*

الفصل الأول

صحراء السويس

يمصل القاهرة عن السويس صحراء مساحتها ١٠٠ ميل كان الناس في الماضي يحشونها، إما بسبب انعدام الماء فيها ثانياً، وإما بسبب لدو الدين كانوا يهبون القوافل فيها ولكن مظاهر الحصار دخلت الصحراء، فلم يعد من المناسب معه إطلاق اسم الصحراء عليها، فقد قامت حكومة محمد علي الحارمة شطيرها من النصوص الدين كانوا ينتشرون فيها، وانتشر الأمن فيها أنشأه في طريق باريس في عرساي، بل ربما أصبحت أكثر أمناً منها ثم إن إدارة القصور (الثر تربت) المكلفة بقل الأمعة والركاب إلى الهدر مصر أشأت لهذا المرض طريقاً ٢ / وسيترك عليه عربات، وأقامت محطات (مراكز) مريضة بلغ عددها خمسة عشر مركزاً، رودنها بماء النيل الذي يسع بأسعار مرتفعة، وأهم تلك المراكز هي الرابع، ولثامن، والثاني عشر، والثاني على وجه الخصوص وتعد تلك المراكز مجموعة من لزل، نعم، أبها القدرى، إنها برن في قلب الصحراء، ومبكون التحول في هذه المنطقة جديراً عند الاسماء من أعمال سكة الحديد نبي بحري لعمل فيها لإتمام لسكة المقامة بين الإسكندرية ولقاهرة، ونبي تسير القطر عليها مدر من وسرط السكة الجديدة البحر الأحمر بالبحر المتوسط باسطار أن يأخذ سن لمائة في لمستعمل بيد مصر القديمة إلى مصر جديد.

أما عربات النقل فهي علب شعة، مطلية باللون الأبيض، لتعكس أشعة

الشمس وتتخاصي أصحابها (٩) جيئات وسطياً من كل راكب، وتحمل كل عربة ستة ركاب في مكان لا تكاد يتسع لأربعة، يقود العربة أحصنة يُرعى لها العنان فتقطع مسافة (١٠٠) ميل في تسع ساعات، ولا يحتاج الراكب للمحمول على الحصان لقطع تلك المسافة ست ساعات، ويمكن أن تنقص إلى خمس وسكوب العاروق الرمي ييها وبين النظار صيلاً كما هو واضح تلك هي أحوال الدين هم في حيلة من أمرهم.

لم أكن في عجلة من أمري، ولم يكن هدي من الرحلة قطع أهول مسافة في أقصر زمن ممكن، لذلك لم أجا إلى أي من وسيتي النيل التي ذكرتهما، بل عمدت إلى وسيلة أكثر مطناً، ولكنها أكثر إثارة وتثقيلاً، لقد رافقت السكان الأصليين، نصبت خيمتي على الطريق، وقصيت فيها ثلاث باب / ٣ /، واستغرقت الرحلة مني زمناً يريد على وقت العربات بشامي مرات عادت الصحرة ثالث اثني على ظهر واحد من تلك الحمير الجميلة التي تكثر في مصر، ولها ما تشترك به مع الحمير الأوروبية إلا الاسم، هذا الحيوان المعبود الذي يحتفرونه الملاحون بعير حق، ويعاملونه معاملة قاسية إن لمسلمين أكثر رفقاً بالحيوان من النصارى إن لون الحمير المصري أصغر داكن، وهو رشيق، حسن الهيئة، صراح، قدماه دقيقان، وأذناه مستقيمتان مدتان، ذلك مظهره، أما مخبره فهو حيوان لا يقف شيء في وجه شجاعته، ولا يبال الشعب من همته، أما قناعه بالمأكول والمشرب فهي مصر لمثل، فهو يكتفي بقبضة من القول في اليوم، ويمكن أن يسير ثلاثة أيام دون أن يشرب في حو ترتفع فيه درجة الحرارة ما بين ٣٥ و ٤٠ درجة، ولا يمكن لأي حصار أن يفارعه، وهو ينافس في ذلك الجميل نفسه وإن هذه الحمير القوية قيمة مادية كبيرة، وإن أحد الأضواء من أصدقائي تلقى هدية من أحد بواب الملك (في مصر) حميراً أنص انلون قُدر ثمنه من ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ مارك

تجتمع آلاف من هذا الحيوان الأثير في الساحات والشوارع، كما تجتمع لغيره في مدن أوروبا، والأحصنة في إسطنبول يستخدمه كل الدس دون حرج، وليس لسيدات المجتمع من دوات الحدم والحشم من ركوب

سواء ومع أن برادع تلك الخمر هامة، ومع كل شيء / ٤ / ابردة
 لمستخدم في أوروبا، إلا أن لها سمات خاصة بها، ولا يشعر بالصدق وبحر
 يحلح على وقتها وتشر الترسات الأربعة فوق السجاد ذي الطور مذهبه، التي
 يكون لها وقع في نفوس عجيب، نصيب في هذا السور من مكاري القاهرة
 هم اعتبار حويور وركباء، وكيفية مصحح في سواب قسمه بلقاء يد إن
 صر من جيش حكر هو الذي يحفظه تحوون هذا السور الحوصف

كانت قافله الصعيه تتألف من أربعة من الأعيان، ومن عشرة حمار
 لأرمه بقل خدم وعندهم حمسة، وكانت أمتعا ذات حجم مصور : لأب
 مقدمون على رحله طوبه، وهي : يحصل بعد كل ثوارمها من حريم وأسره،
 وسجاد، ومون من كل الأنوع، ونسب حتى الماء، كان يحي أن يحصل كل
 شيء حتى آفة الصمام والدور في ولورم لطح

كان قصر العباسية، آخر مكان مسكون وراء بعد معادرة القاهرة،
 والعباسية قصر فخيم، رعت، بناء الحديوي عباسي : على حدود صحراء

- (١) عباس باشا طوسون باشا بن محمد علي باشا (١٨٢٩ - ١٨٥٤م) تولى حكم مصر
 في عام ١٨٤٨ بعد وفاة والده طوسون في ١٠ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٤٨م
 وتوفي في يوليو (تموز) ١٨٥٤م. وقد كثرت ادوات عن وفاته، وقد مال صب
 وفرا من استدارات الرحالة، وسدوا انه كان يكره التفاصيل لأجانب ويؤثر عنه دولة
 إذا كان بشحم عبي الحضور لأحد ماء، وبسي فصل الحضور للخدمة، لا
 بمسيحين مدبر كرههم، وقد حاول إخراج مصر من دائرة القود الفرنسي
 قصت عليه الرحالة والسياسيون الفرنسيون حزم عضهم في عباس باشا
 الحيوانات، وخصوصا الجمال القوية التي حصل عليها من الصحراء، ولم يكن
 يدر لأحد مرياه حظائره لأنه كان يحشى شر عين الحضور على الجاد ويدتت أصدر
 أو مره بلقاء القصص على كل من يتر من الاصطلات والحضار، وكذلك من
 أروح الحمام، لأنها كانت تحوي أحمل وأنذر الأنوع بعد أقام عرس في مناطق
 ابعدة لديه حيث الهواء النقي، في القصور في العباسية، وبعد حين انقصم،
 فكان محر إقامته أنه بالخدمة معسكر فيها مع زوجته بعيداً عن دناس التفاصيل
 انظر بخصوص فترة عباس باشا كتاب مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن =

ليكون سكاً له إن هذا المصير بالنسبة إلى عباس ثالث هو كحجريرة كبرى^(١) Capree بالنسبة إلى تيبيريوس^(٢) Tibère، وعباس لسن إلا نسخة مصغرة عن تيبيريوس وهو نصف بحر ونصف صيغ، لا نجد من وحشته إلا الخوف

كان هذا الجُحْر العاصم والسميع، في أثناء حياة الحديوي عباس، مسرحاً لمعاصد لا تصدق، ولجرائم لا تعجز وإن أحر حرثته حتى عاقبه الله عليها لأنه أهلك شابين من الممالئ كانا يسهران على ملذاته؛ واشترك الشبان اندون حلفاهما، / ٥ / خوفاً من أن يلغيا المصير نفسه، بحق سندهما في ظروف شبيعة لا يستطيع تصويرها إلا قلم بيرون^(٣) Petrone أو مارسيل^(٤) Martial، هذه لمأساة العظيمة التي لا نجد مثيلاً لها إلا في سدوم^(٥) وقعت في

الطابع عشر، د. الهام محمد علي الذهبي، مجلة مصر لهذه رقم (٥)، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص ١٥٧ - ١٦٢ ويشير له من الألف فصاعداً - «مصر في كتابات»

(١) Capree حجريرة، يظن أنه كانت مسوطة يونانية ثم أصبحت أيام الرومان مُرْعاً، وسكنها الإمبراطور أغسطس، أما الإمبراطور تيبيريوس عبي هناك عدة من أو صدق

(٢) Tibre أو Tiberius ٤٢ ق م - ٣٧ م) امبراطور روماني حكم من (١٤ - ٣٧ م) سبب في الحكم ميل العقل في الدين، ثم أطلق العنان لبروانه وشهوته

(٣) بيرون، (بيروبيوس، الحكيم) Petronius Arbiter كاتب وشاعر لاسي من نفون الميلادي الأول (٢٠ - ٦٦ م) كان بارعا في وصف المعاهد المصاوية وشهر أعماله رواية ساتيريكون Satyricon انظر الحاشية رقم (١٩١)

(٤) مارسيل أو ماركوس فاليريوس مارسيلس Marcus Valerius Martialis شاعر لاسي ولد في سلسلة Babes في شمال اسبانيا حوالي سنة (١٠ - ١٠ م) ومات حوالي سنة (١٠٤ م)، سكن روما بين عامي (٦٤ - ٩٨ م)

(٥) سدوم مدينة في سهل الأردن تذكر عادة مقدسة باخرى هي عمورة ورد ذكرها في الكتاب المقدس (لتهد التدين) دمرهما يهود (إنه يهود) بار بالبحارة الكبرية بسبب التواطؤ انط معجم ديانات وأساطير العالم، د. عام عبد الفتاح ماهر، مكتبة مدبولي القاهرة، د ب، ص ٣، ص ٦٤، ٦٦ ومسير يه د معجم

منده بها - العمل في وجه مصر البحري، وقد احتفى القاتلان فترة من الزمن، ثم عاد لظهور، وتعلم الناس عنهم أنهم اليوم موظفان في اللجنة، ناعثان أن الأطباء لشرعيين أقدروا في تقاريرهم لرائعة أن مستوى قصي سرييف دماغي^(١) (سكنه دماغي) وقد كان من آخر ما قام به في حياته، بل ربما كان آخر أعماله، أنه أحاط شعني خادم مكين من خدم حريمه ارتكب خطأ بسيطاً، ولم يتقد موت ذلك الحاكم المظالم المسمى الذي قصي بحبه هو لآخر جوعاً بعد ساعات من موت سيده، وكان قبل ذلك بصره وجيرة قد أمر خدمه ببيع أحد المساكين أمام عبه؛ لأنه كان يجري قرب سارنه ليسلمه عريضة؛ لأن عباساً كان يخاف من كل شيء، ويشك في كل الناس لقد شاهدنا على طريقنا قبل معادرة لأراضي لمصرية أثراً آخر من آثار ذلك الأمير الإفريقي الذي لم يترك وراءه إلا أسوأ الذكريات؛ إذ أقيم قرب لقصر مسعد كان يحتفل فيه بعد أحد الأولياء لمسلمين / ٦ /، وكان يطلق منه الصراخ والأعالي، وصرب من الموسيقى البشعة.

إن الشعب المصري، وأهل القاهرة على وجه الخصوص، يشعرون لاحتفالات بكل أنواعها دبية أم ديوبة، عامة أم خاصة، ويسمونها جميعاً دون تمييز باسم «اعترياً»^(٢) وهي كلمة لاسي تردد على الأفواه، وهم يطلقونها على كل شيء.

وهناك عدد من السوقي التي تعمل من السبل الماء البارد وانصافي الذي لم أر مثله، مد من طوي، إلى هذا المكان، ويصب ذلك الماء في حرات

= الدببات * وقد يحدث لقراء التكريه عما اصاب مرة لوط بعد تعالى في سورة هود الآيات ٨٢ - ٨٣ ﴿هَٰذَا جَدُّكَ أَنزِلًا بِحَسَنَاتٍ عَلَيْهِمْ وَأَمْرًا يَنْصُرُهُمْ﴾
سجِّلْ قُطُوبُ ﴿٨٤﴾ كَسُوْنُهُمْ بِحَسَنَاتٍ وَمَا مِنْ مِّنْ تَقْلِيْبِكَ يَجِيْدُ ﴿٨٥﴾

(١) انظر مصر في كتابات، مونت سافا، ص ١٥٩ - ١٦١

(٢) Fantasia، وسطها العامة في مصر بالظلم المظلم أو المصطفي باسمي الذي أشير إليه ديديه، وسبق إليه بيرتول في رحت، مونت سافا، ج ١، ص ١٠٤، وانظر تعديق

المترجم

من الحجارة ارتوت الحمير والحمل من ذلك الماء ما يكفي لثلاثة أيام، ثم ولجنا لصحره أخيراً. مرنا مدة ساعات دون حوادث ودون معوقات، على أرض صلبة متعرجة.

ولم كان، مصلاًفاً قد بأجر، فقد صرنا الحيام في نهاية النهار قرب المحطة رقم ٣ على ست مراحل فقط من القاهرة، وبالتحديد تحت برج الأسلكي الذي أشبه في هذه المنطقة بالاصفر إلى عربات النقل، وورديات النقل، ولتصادق ووسائل أخرى من وسائل انحصارة العربية التي تحدثت نحن بالعربية، والتي تزييل بقاء صحراء السويس

بلا أنه، وعلى الرغم من هذه المظاهر المزعجة، ومن وجود المحطة، لم يكن هناك أحد لتعكير صفو العزلة، وكان نصمت قطعاً ما سبله انهم لبحرية التي تسير الطريق على امتداد محاذاتها والتي تمتد على يمينه من سبل إلى البحر الأحمر، فإنها كانت تلونها لأسود متشابهة كل الشايل مع انحنائية المصنعة لعروب متلالي.

كان /٧/ دمل الصحراء دهرى النور، وكان هدوء الماء يعلن بحال نهاية يوم هادي، وبرهص بلبه لن يكون أقل هدوءاً، إلا أن الهواء كان بارداً، بارداً حتى إني وجدت نفسي مدعوفاً إلى ارتداء الثوب الصوفي المتصااص الذي كنت اشتريته صباح ذلك يوم من سوق القاهرة، وبين ذب بعرب فقد كنا في يوم ١٦ يناير (كانون الثاني).

نصب انحام بعد قليل، وقدم طعام العشاء، دون أن نسي تقديم العشاء بلحيوانات، إذ ملقت الحمام لصاحه حول المعسكر، ولحمير الواقعة على عرقيها مولاديه حصنها لسيطه من النمل أو الدرة، دون أن نغده به فطرة واحدة من الماء

ثم نام المكارون والحمام بعد ذلك مملطس حيواناتهم، بلنحوم اسماء المرداه بسحوم، ومرت بيلي الأولى تحت لحيمة دون احدث مذكر، يحرسى رحان الصحراء المهرة، الذين اعتادوا الأسدر

نصب في اليوم الثاني مبكراً، وكان اول ما وقع تحت بصري بعد

خروجي من الخيمة برح التلغراف الذي نصب على أكمة كثيرة الحصى، كان
نصب أمامي كأنه شح محف في لون العنق الشاحب فقد سررت برحوده
في هذه المحطة، وبالمصير لدي حمله إلى هذا المكان فصل الأثر الرابع
الذي كان يصعبه على المظر أنطمي برعب الشمس بعد أن أرخص به فجر
٨١/ بهي، برعت، وهي لامعة كما كانت عند العروب، بعد يوم أكثر حملاً
من سابقه، وقد وقت بما وعدت

بدأنا برمع لأحمل على الجمال، وذلك عمل يوم به نجاسة برشافة
وحمة عندما يوافق ذلك هواهم، ونكهم اعتادوا أن يقوموا به متدقين لأنهم
يكرهون الرحيل في اصباح الافر بدأ كان الوقت متأخراً عندما اصحب
القافلة جاهرة للمسير.

لقد لمت نظري في المحطة السالة بيوت مخصصة، بعضها عثر في
لأرض، يسكنها بعض الفلاحين الفقراء، لقائعين بهذه المحاور كأنهم ثعالب
مع اناتهم وصعدهم، يمارسون مهة لست اندي ما كنهها^(١) ونست أدري كيف
يعيشون؟ وأترك حل هذه المسألة لمن هم أكثر تبصر^(٢) كنت إحدى سنانهم
المحجبات، كما هي حال كل نساء، تجلس القرفصاء على فارعة الطريق
كأنها مائت العشاء، وأمامها سلة مملوءة بالترنفل الذي سعه لدمرة بصيل من
الدرات^(٣)، وانه لمن لشكوكك فـ أن يحيي بك البائعة لباسة ثروة من

(١) جمع نداء وهي جزء من الريان العثماني ومن النحاس، وعرفت بين الناس بالبارب
لمحيدية بسـه في اسفان عد امجد خان الذي عاش في مصر ما بين ٨٢٣ -
١٨٦١م، ورولي الحكم من عام ١٨٣٩ حتى وفاته وكانت محلي عالماً في لوجه
الفرع باسم السلطان العثماني عبد المجيد، وسه الجنوم على لعرش، اما يظهر
فكان يحوي تاريخ لك ومكانه وما يح رولي السلطان اضر تطور النقود في
المملكة العربية السعودية، مؤثر سابقاً، ص ٢٩، شكل الجزء الأربعين من العرش
التركي، وقال بوركهات إنها اصغر عمله معدنية بركه (تسمى ه ديواني)،
متداولة في كل أنحاء الجزائر، ويطلبها الناس بكثرة بسبب سعرها الجمي
أكثر من العرش المصري انظر رحلات بوركهات ، مؤثر سابقاً، ص ٤٩

ذلك، لأن اعمارة قلعة مادرة، ولأنه بعبي العلم أن ثمانية من تلك البارات
لهربلة التي تتلف بلحصوص عليها، لا تكاد تساوي شيئاً من لعمدة الفرنسية

إن أي حدث نُعدّ في الصحراء ظاهرة، نُقل حدث في انشاء أو الارض
يحطف الأنصار ويأسر لنظر، / ٩ / انطلاقاً من الحثبة Arbuste المنفردة التي
تأخذ على العد حجم شجرة عملاقة، حتى السحب التي تمر فوق الشمس،
ونتي بسب ظلها الخفيف كأنه كاش حي على صفحة الرمال المستوية
والمتموجة ما رلت أذكر ذلك الأثر الاسر الذي أحدثه في ذلك اليوم رؤية
بدوي بسيط بجملة بحلاب، ويبدلي من رحله العالي المعطى بسجادة وجرامان
لهما حشوات طويلة وكبرة من الحرير الأحمر، وكانت تترجح مايقام حسب
حطوب الحيوان المنتظمه وكأنها رفاص ساعة لحدث وقد رأيت في اللحظة
التي تلتها مطراً مدهشاً وكأنه رسم كاريكاتوري (ساحر) للوحة الرائعة
الأولى، رأيت حملاً هريلاً بحر مثاقلاً عربة قديمة؛ لكنني كنت أرى علامه
الدهشة بادية على ذلك الجمل المسكين بسب عمله الذي لم يمتدأ لم تكن
مجل العربة دواني شكل دائري بل كانتا يعضونتين. وتصدران حلة وصريراً
تحت الحارح لقد كانت تلك الآلة الشعه، وهي تعيد غير متمس بحربات
النمل، بحث بقائمتي ذلك الحيوان المسكين، وبميق حريه لحركة لديه حتى
به لم يكن يمكن من تسير إلا بصعوبة وبارتاك بعث على يصحح ما
أوسع الشقة بين هذ التحديد اسمرري والعي، وبين لمظهر ابرانع بدوي بدو
عنه حمل وقد علاه الأعراي حسب وطعته لمعاده في الطبيعة / ١٠ /

كان هناك أيضاً مطر أكثر إثارة للاستمرار، إنه مطر جف الحمل
المشتره على لطريق، بعضها أكلت الحيوانات اللاحمة بعضها، وبعضها
الأحر أفسدته الشمس عندما يصل الجمل إلى مرحلة الإرهاق يستقط بعض
بحمله، ولا يستطيع قوة بساية أن يجعله يقف على قدميه ثابة، عددي بُورج
حمده على الحمال لأخرى التي ما رالت تحتفظ بقوتها، ويرث الجمل لمصيره
المحتوم يموت من الجوع في المكان الذي سقط فيه، ويصبح بعد موه يمين
طعاماً للصاع والسور.

تلك هي البهائم الحمة لذلك الحيوان الأثير الذي يصلح كل الصلاحية
للحمار الذي ولد فيه وبعد أن رأيت هدوءه وشجاعته وخصوعه فإني أسميه
بكن طيبه خاطر شهيد الصحراء وليس معيه الصحراء

لقد صادف في ذلك اليوم، وفي الأيام التي تلت عدد من القوافل القادمة
من الحجاز وهي تحمل الصمغ والتمر الهندي والرقيق الذي يؤتى به لبيع في
سوق القاهرة؛ وكان هؤلاء المساكين موبوطين مشى مشى على لرحا، وكانوا
في مبة الصاء، ولونهم أسود متفاوت في شدة السواد، وقد جيء بهم من حدود
دارفور، ومن الحشة، وكان التجار اندس يسمون (حلاب) يأتون بهم أولاً إلى
حذة عر سواكن والبحر الأحمر، ولا يحملون إلى مصر إلا أولئك الذين لم
يستطيعو بيعهم بسعر ربح في الحرية العربية وكان في إحدى تلك القوافل
/ ١١ / امرأة من سكان مكة المكرمة كانت ترمدي ثيابها لصخرة انتقيدية
كانت على ظهر حملها تملو عن الأرض سبعة أقدام، ونحمت من الشمس مطلة
بيضاء كسرة، وكانت محجة بحكم كما يسمي على أبي مسلمة منتمه ومع
أبي جاءت من مكة المكرمة، وولدت فيها، فإنها لم يجد حرجاً من الكشف
بإدلاب عن وجهها عندما مرت بها، لقد كانت جميلة وشابة لقد كان فيها بعلته
مخالفة دية، ولكن ما يعرف لها ذلك هو أبا من (انجويرين Gjaours) لكمار

ولا بد من الإشارة، لكي تكمل لائحة المقادلات في ذلك اليوم، إلى
عمال البريد الذين كانوا يهون الطرق تاركين العرب لحبائهم، التي كانوا
يستبدونها بسرعة في كل محطة، وكانوا يقطعون المسافات بينها بسرعة،
كانو يسبقون أو همزون قربنا بسرعة الرق فلا يكاد يراهم حتى يحتموا عن
الأبصار يسير لحمال سرعة أقل ولكن إلى مسافات أصغر

كان أغمار انجويرين تسير الحمال التي لا تقطع إلا ميلين وثلث ونصف
في ساعة، ذلك وقتاً في منتصف النهار ثم عدد ساعين بالمرحاة ومنتظم
المحاولة، لقد بدأوا يرحل مستلمون على الرمال على قارعه الطويل يرسبون
بالاعداد يتلون عداء قشعي، كان يعتمد أساساً على سريال الذي شترينه من
ساعة امسكيه في لمحظة رقم (٤) / ١٢ / وكانت أسراب العربان والصغور

حدثني به عنها يجعل منها مصدراً في عاية لأهميته، واسي على صحته ما ورد فيها لشهيد^(١) فقد قام بيرتون بعد فترة من زمن رحله ولعاني به بزياره اصبحت لمتعصبه اسي تعض حول مدة عدد، وقد كان عند وقت فويس يفكر في محاولة عبور من شاطئ، ومحاوإ إلى النيل الأسفل عبر خط الاستواء وهو

■ عام ١٨٢١م وأدعت أمه أنها محدرة من سلالة أحد الأولاد غير المصريين لملك
لويس الرابع عشر، ومع أن أمه كان حاصلاً في النحش، لكنه كثير، ما قبل أنه من
أصل عبري، وتعلم عدداً من اللغات المحلية، وسحق بالنحش البريطاني في
بومبي (الهند) مرتين قبل في العواص الملحة لشركة الهند الشرقية، وقد بيع كل
البراءة في إندونيسيا لأجبيه حتى به كان في أو حريته يستطيع أن يكتم سراً
وعشرين سنة، وما لا يقل عن اسي عشره بعه مختلفه عام بأفسار عديدة ودار
البحريرة البحرية عسكرياً في حجاج مسلم عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م وألف كتاباً بعنوان
مناجم الذهب في مدين والمدن الأثرية وذلك بعد رحلته الثانية إلى مدين عام
١٨٧٧م، وفي سنة مؤلفاته سيطر أكثر من ٣٠٠ صفحة ترجم إلى الإنكليزية
ألف ليلة وليلة، والروص العاطر ووضع شروحات لها بحسب عصاره أفكاره
وبحارته، ومنح لقب فارس في عام ١٨٨٦م قبل أن يتوفي في عام ١٨٩٠م
وقد طبعت رحله بيرتون في مجلدين في لندن ١٨٩٣، وأعيد طبعها حريباً في
بيورك Dover Publication، عام ١٩٦٤ وقد ترجمت رحله بيرتون إلى مصر
والبحار، ترجمه وسحقه د عبد الرحمن عبد الله الشبح، تهية المصرية العامة
للكتاب، ج ١، ١٩٩٤م، ج ٢، ١٩٩٥م وانظر في حياة بيرتون كتاب الرحالة
العربون في لحريرة العرة، لروس مؤلف ترجمة د عبد الله صيف، الرياض
١٤١٩هـ / ١٩٨٩م، ص ٥٤-٦٦، وكتاب التراث الشعبي في أدب لرحلات، مركز
اثرات الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربي، الدوحة ١٩٩٥م، ص ٣١-
٦٠ وانظر حديث ناصر الدين ديبه عن رحله بيرتون في كتابه الحج إلى بيت الله
الحرام، وقد ترجم فصل المخصص للمحدث عن رحلات انريش في كتاب ديبه
وسيطه مصب في مقال ناصر الدين ديبه وكنه «الحج إلى بيت الله الحرام»
لدي نشر في مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، المجلد السابع، العدد الأول،
١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ص ٢٣٠-٢٨١

() نشر المجلة البريطانية، كما علم، بدئت قطعاً من هذه الرحلة (مؤلف)

مشروع كان يشعل حبراً كبيراً من تفكيره مد أن لفته

كان داب مساء بحيم قرب المحطة رقم (٨) بعد يوم من السير فطعن فيه عشر مراحل، وكانت مشاهد الغروب تتكرر مسطوقة في التفاصيل، والشرق /١٤/ كما نعم ليس بك الشروع، ما فعلناه التاريخ ستعنه عدّ وبعد عد، وهكذا دوليك في كل يوم حتى آخر الرمن كان الليل صديقاً صديداً لا يحده إلا في سماء مصر، كانت لبحوم تتمتع كأنها جواهر مرصعة باللازورد، وكأنها مر شعاع بيربطة القديم قبل أن يزول إلى لعثمانيين في ستابول كان القمر هلالاً يتناوب بحلال إلى قبة السماء. وكان عواء الكلاب في وسط لعصمت يدن عنى وجود مصارب يدو في لجوار، وب مثل ذلك بحور كان ينير فضاء وحوف مسوعين في الماضي، وهو اليوم بلا أدنى خطورة، مما جعلني أنام في حيمتي دون أي قلق، ولم يرعني إبان يومي أي عارض منى

ولم نكن انقاعة في اليوم التالي حاهرة للتفسير إلا في وقت متأخر عن اليوم السابق، وكانت الشمس قد ارتفعت عندما لاحظت إلى يساري قصر دار ليضاء كان محاطاً بالأبراج ولا يحلف بقيل أو كثر عن القصير الصغير لذي كان يسه الإطاعيون في العرون الوسطى (في أوروبا) إلى قصر لعنة هدا، هو أيضاً أحد أمكنة إقامه عباس باشا، ذلك التركي المستوحش، ولتعصب لذي كان يملك المدن وحصوصاً تلك التي بقيم بها القناصل لذين كانوا في رأيه أناساً مرعحين، وكان يهرب منهم بقدر ما كان جده محمد علي ينفرت منهم، ومع ذلك فإنه كان يظر أنه ليس بعداً عنهم بقدر كذب وبذلك كان يملك الإسكندرية مقناً كبيراً، ولا أظن /١٥/ أنه رآها مرة وحده خلال فترة حكمه وكان يقول لكي سوع عنه عنها إنه يرى فيها كثيراً من العصمت،

وكان القاهرة نفسها تبدو له موبوءة بالطاعون الأوروبي، ونكي يتلافى المدى قام بإثاء قصر المناسيه على حدود الصحراء، وكان قد رأينا، خلال مرورنا، وبكى ذلك انقصر المنحول يبدو له بعد قليل شديد الاقتراب من القاهرة، وانتهى به الأمر إلى الاسجاء إلى حصن الصحراء كان يعيش هنا مع أكثر المعمرين إليه، وبنا للمقربين كان على اللوام يؤجل أكثر الأعمال

مستعجلة، ولا يسمح بتفاصيل مفاصله إلا عندما لا يجد دعماً مدلت، ويكون مجبراً على ذلك بسبب الخوف

كان مفرطاً في الربة، تلاحقه الشكوك الدائمة حتى هب، وكان لا يثق بأحد حتى إنه لم يكن يشرب إلا لملء الذي كتب ترسله من القاهرة أمه هي راحات محتومة وكانت تلبه المفصلة هي أن يملأ حظائره بأحيوانات ذاب الأسفار المرفعة، كان ماطع بجلاً، ولكن أعظم النصحيات لم تكن تعني له شيئاً عندما يتعلق الأمر بتحقيق رعيته التي سيطر عنه كان له في كل مكان، وفي أمكة بعيدة في بعض الأحيان، عملاء مكتمون بأن يشربوا به أحمل لحيول وأجمال وأغلاها، وقد وصل سعر عدد من إلى عشرة آلاف فرنك، ولكنه لم يكن يسمح لأحد برؤيته / ١٦ / خوفاً عليها من الحبر، بعد كان نظيره يوازي حذره.

كان الموضع الذي أقيم عنده قصره يسمى قديماً لدار الحمراء، وهو اسم يطلقه العرب على جهنم بسبب ألوانه اللهب التي يعتقدون أنها أبدية الاشتعال وقد سمي هذا المكان بهذا الاسم المحيف لكأنه

وقد وافق المقام كل لمواقعة ظهور بعض نكت «سكرة»، ولم يقدم لشعب أبداً أن يحتفظ عرس جناس مناسب وحيد بين القصر وجهنم، وبين جهنم والقصر وقد بلغت تلك الطرفة أسمع عناس فأسمع إلى تغيير ذلك الاسم المرعج فتحول اسم لدار الحمراء بأمر عناس إلى الدار البيضاء، ولكنه لم يردد في أدهاب العامة إلا سواداً وشطابية.

تقع المحطة رقم (٨) قرب الدار البيضاء، ونكتسب من هذا الجوار بعض الأهمية، فقد كان الأشخاص الذين لهم علاقة ثابتة لملك متوفى، أو بأحد صباهه يسكنون في المحطة، ويقصون هناك أسابيع وأشهرًا كاملة، لأن أقل الأشياء تحتاج كثيراً من الوقت إن المسافرين الذين يمرون بالمحطة يفضلون، كما قلنا نحن، وسائل النقل القديمة على عربات لسر السريعة (تراريت) لأنهم مع الأولى يستطيعون التمتع بهذه المحطات على الأقل، ولكن يشترط عليهم في الماهرة الحصول على بطاقة دخول تناع سعر عالي،

ودون هذا الإحرام / ١٧ / تظل المحطات معلقة في وجوههم، ويمكن أن يموتوا عطشاً على الباب دون أن يفتح لهم. توجد غير بعيد عن المنحطة رسم (٨) في منتصف الطريق بين القاهرة والسويس شجرة الحجاج

يُكنى العرب للأشجار احتراماً كبيراً، ولما كانوا لا يرون إلا قليلاً منها في صحرائهم فإنها بالنسبة إليهم شيء نادر وحديث. وقد وعدهم المران بحال رائعة في الحياة الآخرة [...].

وباهيت عن حب العرب للأشجار، فإن هناك بعض الأشجار المباركة التي تنقى معاملتها خاصة إنها الأشجار التي تست قرب صريع أحد الأولاد، أو في أي مكان آخر يكرسه لدين أو التطير. فهم يحرصون في أثناء مرورهم بهذه الأشجار، على تعليق شيء يملكونه عليها لكي يدفعوا عنهم مصائب الدهر؛ وهذا الشيء هو عادة قطعة من قماش ثيابهم. ذلك هي حالة لشجرة التي يحدث عنها، وقد اكتسبت اسمها من الحجاج الموجهين إلى الحج، ولدين لا يموت أحد منهم أن يقوم بهذه الممارسة الطهرسية. لذلك تبدو هذه الشجرة مملوءة بالحرق الوسعة من كل الأشكال، ومن كل الألوان، بدلاً من أن تحمل أثماراً وثماراً، بل أوراقاً^(١) إنه صرب من لدور هريب.

- (١) تحدث سرك هورخرويه في كتابه صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة د علي عودة الشيخ وأعاد صياغته وعلق عليه د محمد محمود السرياني، ود. معرج بواب مر، ط دار الملك عبد العزيز، الرياض ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ج ٢، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ من شجرة مماثلة هناك «وعلى الطريق المؤدي من جدة إلى مكة المكرمة، توجد هناك شجرة يمدسها بحالي المنطقة المجاورة، التي تحوي كل أنواع لحرق الملوحة ومن المعلوم أن عبادة الأشجار وتقدسها عدة جهل قديمة في الجزيرة العربية والسؤال هو لماذا كل هذه الحرق البالية على هذه الشجرة؟ والحواب عن ذلك يأخذ صوراً عديدة، فبعض الناس يقولون إن هذه شجراً مدفوناً تحت هذه الشجرة، وإن ذلك من على سجله وفي رواية أخرى أن هذه الشجرة هي شجرة لوصوان التي تمت تحتها بيعة لوصوان سنة ٦٢٨م (دي القعدة ٤٦هـ) وهناك تفسير ثالث هو أن الرسول الكريم قد شت عمامته في الشجرة، فمرو

ولما كانت حميرياً قد سقطت الحمال بقلد / ١٨ / ما سقطها في اليوم السابق فقد كان عليها أن تتوقف عند الظهيرة لانتظار القافصة، وتناولها هذه على الرمن كما فعلنا في اليوم السابق وببعضها كنا نربط قشور لبص المسلوقة ويرتال أدرك مسافر بمشي على قدمه، ويسير وراءه مرفق يسوق أمامه حماراً تعتله امرأة كان لمسافر هندياً، وكانت المرأة روحه، وكان عائداً من مكة المكرمة بعد الحج، وقد أراد مع زوجته ومرفقه أن يعمروا بالقاهرة قبل العودة إلى بلادهم، بآية طريقه؟ الله أعلم! وعندما شاهد الهندي السيد بيرتون عرفة من النظرة الأولى لأنه سبق أن رآه في حل عرفات قرر بصحة أشهر، وهو يؤدي دور شانه شأن الهندي ماسك السحاح الأخير؛ وقد جاءه مبادياً إياه باسم الشيخ عبد الله، وهو الاسم الذي يحمله بيرتون في الشرق لقد عرف كل منهما الآخر، وأخذ يتحدثان يتحدثان أطراف الحديث باللغة الهندية لعلية، وهي لغة كان بيرتون يتقنها كل الإتيان شأنه مع اللغة العربية، وربما كان يتحدثها أفضل من الهندي نفسه باعتباره ألف كتاباً في قواعد واحده من أكثر اللغات الهندية صعوبة وهي الهندوستانية لقد كانت مرفقة اثنين من غير المسلمين مشا محروقة لبيرتون؛ ولكنها على أي حال لم ترعرع اللغة التي كان الهندي المحاور يصعبها في عبادة موطنه المزعوم الذي استطاع أن يحرق منتصر من هذا الموقف المخرج / ١٩ / كانت تدور في لائق غزالة

= بعضها وعمر في الشجرة، ولهذا فإن الناس يعلقون هذه الحروق كذكرى لما حدث مع الرسول الكريم ﷺ وعلق محرراً الكتاب الملقب في ص (٣٧٧) لمعاشية من المسجل أن تكون الشجرة المذكورة هي شجرة الرضوان، لأن كتاب تاريخنا أن هذه الشجرة قد قطع عمر من الحطاب لله، دعاً لهذه البذع غير أن أساسهم يورعو عن ذلك كما بعد فالتقدم لهم شجرة ربما كانت في المنطقة المجاورة للشجرة القديمة ولكن الشجرة التي سجلت عنها بذية تقع على الطريق بين القاهرة والسويس ولعلها عند ماء صربج أحد الأبناء الذين يكثرون في تلك المناطق

مسرعه، سرعان ما اختفت في عمق الصحراء وكانت أولى لعرلار التي رأيتها طبقه في الطبقة، ثم رأيت بعد ذلك مئات منها في السواد وفي النوبة

وعندما حل المساء اكتسى جبل المفطم لوناً بمسجاً لا يصح في جمعه، كان صفاء الجو يسمح برؤية أصفر الأشياء بوضوح من مسافة بعيدة كل البعد

ولكن فحاة لم يعد يرى شيئاً، لأن الشمس غابت، وفرد لعرلار عصيره في هذه المناطق حتى إنه بمجرد غياب الشمس يهبط لليل دفعة واحدة ودون تدرج.

نصب حياض قرب المحطة رقم (١٣)، على أرض حجرية تنشر عليها نبات الداتورة^(١) Daturas لقد كنت بعض الرحالة أن شجرة الحجاج هي الشجرة الوحيدة التي تراه على طريق القاهرة - السويس، وليس ذلك صحيح، فقد كان هناك حول حياض ما يقرب من عشر أشجار عيمورا (اسط) وتوقف قرب مصارم لقضاء الليل أحد الألمان، وكان يعبر صحراء مع حمل واحد وجمال واحد وكان يروي استقلاله استنبالاً لأنها تدعوه إلى مشاركت طعام العشاء، ولكن طبعه الكئيب، وضعته، بدد وعشا في استعداده، لقد ابروى، وتركاه كذلك، وكأنه ذب في عابته التي ردد فيها أم جتاله، وكان ليس العربيكة أكثر من الألماني، فإنه سرعان ما استأنس بحقال، وعلى الرغم من أنهم كانوا قد ساروا ٢٠ / على أقدامهم عشر ساعات، فذهبوا يتسامرون جميعاً حتى وقت متأخر من الليل

بطلما في اليوم الرابع، في وقت أكثر تأخرأ من اليومين السابقين؛ لأننا لم نكن إلا على بعد ستة فراسخ من السويس سرنا على الطريق ما يندرب منه حصوة، ثم تركناها متجهين يساراً نحو متر عجرود، المحطة بالأسود، ونقع في قلب قصر مهديم، وسدل دحامية التي كانت تقيم فيها عائلة بدويه أوكل

(١) بيت دو حصانين تحديرية انظر رحلة بيرتون، ميثق سادنا ج ١، ص ١٣٠

إنها أمر حماسة لشئ، وكانت تأخذ رسوماً من كل من يأتي للتزود باسماء شربت حمير من الأول مرة، ولعلنا نحيل بأي شراعه فعلت ذلك، بعد أن طلت نسفاً ومنير ساعه محرومة من الماء؛ قطعت خلالها مسافة ثمانية وعشرين فرسحاً بعد كان للموقع، على الرغم من حنائه، مظهر مذهش، فهذه اشتر التي يربوها الحمام، وذلك العصر المتدعي، واسدو الدين يسكنونه، كل ذلك يوحى إلى المكان فكرة لوحة أصيلة

كان هناك على بعد عدة فراسخ شر أخرى، تسمى شر الموس، نسب قريها من المدينة التي سميتها اسمها، ولكن ماءها أجاع ولا يصحح إلا للمواشي، وهي محاطة بالأسوار أيضاً، وكانت في تلك الأثناء قدلة تحبب الرقيق قد توفيت عندها كان العبد السود عراة تماماً، ويحلبون على الرمل وقد احتضروا للحمام، وهم يتناولون طعام العداء المتواضع المكوز من قصة من الثمر وقطعة / ٢١ / من البحر العربي المدور والمرفوق كأنه الصحن، ولطري كالإسصح، عجبته لم تحمر، ولم يصحح كما ينبغي، وقد وجدت له في كل مكان أكنته فيه طعاماً غير مستحب هو طعام المحاس لم يكن يبدو أن أوشك لأحداث اندين أخذوا من ثمرهم صغاراً بشعرون بما هم فيه من أسي، بل كانوا نحت مرقعة الحلاب وسطه شربون فرحين بصوت حادت وكانهم جماعة محل إلى لوق في الشرق أقل صعوبة مما هو عليه في الغرب، وسنصح لي الفرصة بلا شك كي أعود إلى الحديث عن تطور تجارة الرقيق ووضع العبد عند المسلمين^(١)

لقد تغير مدى الرؤية، وبدأنا نلمح البحر الأحمر الذي نبحر الأوصاف عن معت لونه الأزرق الصافي وكانت جال الجزيرة العربية تنصب في الجنوب لشرقي، ويعلمو كل ذلك القمم الجرايمنية بسلسلة حبل مياه المعتدة على شكل مدرج حتى أبعاد نقطة في الأفق كان مظهرها رائعاً، وكانت

(١) سيحدث ديبه عن ريق رحلته هذا بعض الفصل في ص ١٣٧ - ١٤٢ من أصل لرحلته بعربي الذي وضعنا لرفاهه في النص العربي بين / وسذكر بعض المصادر الأخرى في المكان المشار إليه

مذكرات الرحلة التي تستدعيها تلك الحال تطبعها يضع هو أكثر مهده
وجلالاً. وصل في ظهيرة اليوم الرابع من الرحلة إلى أبواب السويس، ودل
أن محاور باب المدينة، وتدل على الأماكن المأهولة وحدتي مدعوعاً على
الأعراف بأن الرحلة في كل مراحلها، وساعاتها، لم تحدث في مضي أن من
تلك المشاعر الميرة / ٢٢ / ولاحتفاله التي شعرت بها بعد ذلك في صحراء
الدونة الكبرى وفي صحراء السودان التي كنت تعريبي بحدتها الميرة على
الدوام، ولكنها لم تشعرني بالبرود وعدم الاهتمام.

إن لحية الأمل هذه أسباباً عدة أولها أن جبل المقطم ينقطع صحراء
السويس طويلاً، فيجب أن أترويه من هذا الجانب، ولا يتوخ إلا من
الجانب الآخر نوعاً محدوداً بسبب الهضاب التي تشر فيه.

إن مثل هذه المظفر، لست مصدر بدة تأملية، ولا مصدر شعور
بالاستهجان، الذي يمكن لمطر الرمال لعمدة بلا حدود، كما هي الحال مع
البحر بلا شاطئ، أن يث الروح فيها وحده وإذا كان المكان صيفاً، فإن
الشعور بالوحدة هو الآخر كان عائباً، وقد قلت في البداية إن بعض
المحترقات التي أصبحت قديمة بالنسبة إلي، وإن بعض وسائل الترفيه الشائعة
في الحياة العربية التي لا تأتي إلى هنا بحثاً عنها، كل ذلك، عر هذه الصحراء
وأفسدها، وعبر حياتها الدائمة بشم رائحة الإنسان فيها وبراء كثيراً، بس
إنسان الحيمة والحربة، ولكن إنسان الوكالات الأحبية والمصانع وليس في
ذلك أي جوارب معرية، وبس بالمسحوت أن تعمد على تلك الصورة عبر
المناسبات أولى حضواني في هذه الطبيعة الموحشة أرحم مع ذلك إلى الحديث
عن السويس. / ٢٣ /

الفصل الثاني

السويس

إن موقع السويس الهام، في قلب خليج على البحر الأحمر، جعل منها منذ أمد بعيد مركزاً تجارياً مهماً وكان بطليموس فيلادلف^(١) Ptolme Philadelphie الذي شق بين النيل والبحر الأحمر قناة مائياً حتى اليوم بعد بعض آثارها مدفونة تحت الرمال؛ وهو ابن وريث الإسكندر الأكبر، قد أطلق على هذه المدينة اسم أخيه أرريوي^(٢) Arsino التي كان مشعوقاً بها، وتزوجها حسب تقاليد سلالة البطالمة^(٣) Des Lagides. أما اسمها الحديث «سويس»

(١) بطليموس الثاني Ptolme II (٣٠٤ - ٢٤٦ ق م) ملك مصر المنصب فيلادولفوس، لعب بذلك لأمة بروج أخيه أرريوي (٢٨٥ - ٢٤٦ ق م) بين مدره الإسكندرية، وحين منها مركزاً لانتفاضة الهلنستية، وقيل؛ إنه في عهده ترجم العهد القديم العبري إلى اليونانية نظر تاريخ سيده. م. موتق سابقاً، ص ٧٠٦

(٢) Arsino II أرريوي الثانية، أميرة مصرية من بطليموس سوير (مستند) المسمى لاغوس Lagos، وأخت بطليموس الثاني فيلادولفوس، ولدت حوالي عام ٣١٦ ق م، وتزوج أختها بطليموس الذي بعد أن تزوج مرتين قبل ذلك، وبما تزوجها حسب التقاليد الفرعونية أطلق اسمها على عدد من المدن

(٣) اسم السلالة التي أرسى دعائمها في حكم مصر أحد أقص حكامي الإسكندر الأكبر بطليموس سوير الذي كان يعرف بالأول، وحكم مصر من (٣٢٣ - ٢٨٥ ق م)، واستمر البطالمة في الحكم حتى سنة (٣٠ ق م)، وقد استنصع بطليموس لأول أن يقيم حكمه الفرعيب حسب العادات والتقاليد المصرية القديمة.

فإن بعض علماء الاشتقاق الجريشيين يرون فيه تحريفاً لكلمة Oasis التي تعني بالبرية الواحة فإن كان الأمر كذلك، فإن هناك تناقضاً بين الاسم وانتمى لأن السويس بعيدة عن أن تكون واحة، إذ ليس فيها شجرة واحدة، ولا حيط ماء ربيع، وس هناك ما هو أكثر فصفاً منها، ولا ما هو أكثر كثرة منها إنها أرض صيقة محصورة بين البحر والصحراء، وهما محيطان يعززان الأرض ويحفظانها، وهي تكافح بصعوبة ضد هذين العدوين المحيطين والبحر يشق ويقضم بلا كل ولا ملل، الرأس لتربيته الذي تقع عليه، أما الرمل فيرحل إليها في كل يوم، ولم يعد تسع / ٢٤ / إلا بصعوبة بالأربعة أو الخمسة آلاف سنة الذين لم يعادروها^(١) إن من يقرأ عدد اسع التجارية التي تفجر السويس بأنها مركز تجمعها كالمعادن، والسح من أوروبا، والحرير والتوابل من الهند، منتجات مصر والحرير العرس، والبر والصفوف، والبطور والخواهر والس اليسى - يتوقع أن يجد عذبه مردهم هي (مراصورية الحفء التي تحدثنا عن روعتها ألف ليلة وبيلة

يس هناك شيء من ذلك فكل ذلك السلع لشية تعمرها ليس إلا، دون أن تتوقف إلا في محطات الصحراء، وإن تجارتها الدثة، فسيطر عليها جماعة من الوسطاء اليونانيين الذين لا يعملون لحسابهم أما السويس نفسها فهي لا تباع شيء، لأنها لا تسع تسع الحاجات الضرورية الأولية، ماذا هو؟ لا سعر فيها أي نوع من حصر، وليس هناك قطعة واحدة من العشب الأحصر على أديمها، ولا يهدب البحر إلا بعض الأسماك القليلة والصغيرة بأبيها كل شيء من القاهرة، وليس فيها أسماء لذي تشربه الحيوانات، ولدي يسى أن يذهب الناس إلى مكان يعد أكثر من مرحله للبحث عنه، أما الماء الذي يشربه البشر

١ - واحد من حكم من هذه السلافة هي كنبانة التي سقطت مصر في يديها بأيدي
أبو مان

(١) مصر حول لمصع الذي قدمه الرحالة لمدينة السويس وغيرها من مدن البحر الأحمر في كتاب مصر في كتابات، مرقس ساعاً، ص ٣٦٠ - ٣٦٢ وقصص ميرون في الحديث عن السوس في رحلته، مرقس ساعاً، ح ١، ص ١٣٥ - ١٥١

فهو أكثر بعداً أيضاً؛ إذ يذهب الناس بحثاً عنه إلى بركة موسى، الواقعة على
لشاطيء، الآخر لحبيح السويس، وإن هذا الماء الذي لا يقل ثمنه عن قرشين
بلهزية عبر صالح بلشرب دائماً؛ وإن الأشخاص الحريصين على ما يشربون، لا
يشربون إلا ماء النيل الذي يُستخدم على ظهور الإبل عبر الصحراء، وذلك صالح
فيه للحصول على كأس من الماء / ٢٥ / أما المدينة نفسها فلا تكاد تسحق
الوصف، شوارعها وأرقتها صيقة وملتوية، وتنعج بالمعارة، وهي وسعة عداً
أما السوت فينة العمارة، لا يهتم أصحابها بترميمها، وأعلنها من الحشيش أو
من اللس، وفيها بعض المساحد البسيطة، ومساكنها أشد بساطة منها أيضاً؛
فيها فنادق واسعة، ولكنها وسخة جداً، محصنة للبصايع والتجار، وفيها
سوق واحد يقتصر في ثلاثة أرباع السنة إلى لحاحات انصرورية جداً تلك هي
اليوم حان تلك المدينة، التي كانت في سالف الدهر مردهرة بلا شك، ويمكن
ان نعود إلى ما كانت عليه من زدهار بل أكثر، عندما يتم فتح القناة التي
ستجعل منها واحداً من أهم الموانئ الحاربية، بل السياسية في العالم كله
وبل لمبائها، مع ذلك، وعلى حافته الراهة، مكانة موسطة، تحيط به بيوت
صاحبة لسكر، وله رصيف على البحر تحده بعض لأحيان يصح بالناس إن
هناك عدداً كبيراً من المراكب المصنوعة محلياً، والمحصنة لتبحر عبر
البحر الأحمر، وتكر عدد المراكب التي تقضي الليل في المرفأ بدل على أن
حركة لملاحه ليست بالشايط المطلوب وقد كان أحد تلك المراكب
لمشحونه بالرفيق يمرح حمولته الشوية لحطه وصولاً يقيم قليل من
الأوروبيين في هذا المكان لكتب، ومع ذلك عرفت هذه قرية يعمل
روحها ستجارة في هذه الأنحاء، وكانت / ٢٦ / تعيش في نظاره مع سنها
لجميلة ابنة من اعمر ثمانية عشر عاماً في عرله تكاد تكون مطفئة ورأس
أنصاً لفصل أو نائب الفصل البريطاني الذي يحلر الإشارة إلى أنه يسكن
لمرس الذي كان يترى به الحمرال سبلون في عام ١٧٩٩م وكان ذلك الفصل
يجمع بين وظيفة الفصل ووظيفة الوكيل لتحتاري لشركه الهند الشرقية، وإن
هذه الازدواجية السياسية التجارية صفة مشتركة للفواصل البريطانيين جميعهم؛

يكسب أفضل لقاء لمرسلي اندي يحظر التجارة على فاصتها، حفاظاً على كرامتهم، وإن كانوا يحسرون مادياً.

لقد اكتسب موقع السويس بعض الأهمية لدى الفصل البريطاني منذ أن أصبح شركه برید الهند La malle des Indes رمزاً بهذا الطريق مرتين في الشهر. إذ أصبح معي بومباي وكلكتا تُمر في سويس الركاب الذين يذهبون إلى الإسكندرية ليركبوا السفينة إلى بريطانيا وبالعكس ويُحدث هذا في كل خمسة عشر يوماً نشاطاً ينح عن توفير لخدمات نمطين أو ثلاث منة شخص يريدون أو يعصرون عن ذلك بديل، مما يعني أن هناك متوسطاً سوي يسع ستة إلى سبعة آلاف ركب يبرل هذا المجتمع الموسمي من مسافري لعبور في مصر، وكانهم يريدون اسلاعتها، شأنهم شأن جراد موسى^(١)، فأولئك الذين يصرون من بريطانيا يكادون يكونون جمعاً من شباب المشاعيين، ومن لميمات النص المتورقات اللواتي يأتين إلى المسممرات الهندية تبحث عن أولئك الذين لهم مكانة إدارية أو تجارية ليتحدث معهم أروجا / ٢٧ / أما في العودة فالمشهد يعبر، والشباب أصبحوا رجالاً سمر، وقد شحوا قل من الشيوخه، والعميات أصبحت أمهات أو جدات

لقد أقم في السويس على شاطئ البحر، فندق بريطاني واسع محصص لإسكان لقادمين وإطعامهم وسفائهم، وليس ذلك بيسير، سب بهم لندمين العدد، وفر لوق بالصائح حيثند نصبح المدينة صحبة عرب أوروبي حقيقي أما بقية العام فهي كثيفة ساكنة. أما في هذه الأيام، فصها حركة متعلة، يكاد تكون محبومة، وليس لها من مانح إلا أنها تجعل تسكون عندما يعود أكثر عمقاً، ثم تعود إلى حاله الحمود في ليوم انساني ولما رقص الروول في محطة الحريق، ولم مرض بالروول في الفندق البريطاني المريح فقد

(١) جراد ندي أرسله الله على آل مرعون، كما في قوله تعالى (الأعراف، ١٣٣)

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْفُتُوحَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالْبَقَاةَ وَالزَّمَّةَ لِيَلْبِسَ ثِيَابَهُمْ فَاشْكُرُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ قَوَّامًا

مُحْسِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

عكزنا في المدينة، وكأننا في الصحراء، لقد بصا حماما على الشاطئ، وسط عدد من السد مع المصونة في هذا المكان للدفاع عن الساحل رعمو - وهي لم تستخدم ولن تستخدم أبداً، لقد كانت متروكة ها دون أن يكون فيها ظل حارس يسهر عليها، ولا تستخدم إلا لملأ لاطفال يلهوون بها، ويعبونها دون خوف وكأنها أحصنة خشبية يمتد هذا الشاطئ الواسع والحميل كل لحمال بعداً حتى سمع الحبل الذي يبدو محبواً انحداراً عمودياً في البحر أما المياه فيمتد إلى الجنوب وكأنه سحاط أرقي، / ٢٨ / وتسد الأفق هم سلسلة جبال سياء الرعرة.

لقد كانت السويس قل وصوتاً مفرق وجبره، مسرحاً لاضطرابات شعبية ضد الأوروبيين الذين يسكنونها، فقد نجتمع الناس أمام مارلهم، وبدوا يكلمون هم الشبان ويهددونهم، ويرمون نوافذ بيوتهم بالحجارة، وكان يمكن لسلطات المدينة أن تعيد الهدوء إليها ساطه، لأن الشعب المصري من العريكة، ولا يحب اشتراسه، ولكن حاكم المدينة لم يأبه للامر، أو أنه تهاون في اتخاذ لإجراءات، معتقداً - دون شك - أن مثل هذا الصرف لا يقدم أن يعجب الناس بحاكمه، ويشجع الحشد المتطرف، ولم يكن بالتالي من حكمة أن يبدي الحاكم حماسة بالغة لوسط الأمور في مثل هذه الأحوال ولكن العاصفة مرت بسلام، ولم تحلب أي أضرار، وعدأت وحدها، ولكن ليس دون أن تترك آثارها في الجانية الأوروبية في القاهرة

وصلنا والمعصرة محذمة، وتلفت من يد مجهولة حجراً وأن أحول في أحد الأرفق الصيغة وأقر أنه كان عليّ اسرام لحذر لواجب في مثل هذه الظروف، وعدم لتحييم في انمراء دون أن يكون لنا ما يحمي رؤوسنا إلا سقوف حيامنا، ولكن مع ذلك لم يكن مستطیع التراجع عن حضوتنا الحريئة، ولم يتعرض محمداً لأنة مصايمة ولكننا تعرضنا لحادثتين / ٢٩ / من نوع آخر، وبحس أن أسجلهما لتكونا عظة للرحالة الذين يسرون على حصان في المعاناة من حياة الرحب ومشكلاتها البسيطة التي لا تحلو منها حياة لاسبابة عموماً، وحياة كل فرد على وجه الخصوص كان يقوم على خدمتي شاب

أسود، كان من قبل في خدمة كلوب بك^(١) Clot-Bey الذي نصحه إلى باريس، حيث تعلم الفرنسية هناك، وكان سمع عبد الله، وكان يحب الموسيقى، ويحب أن يفتح بالمرمار، وهي ملا شك نسليته بريته، إلا أنها كنت مع ذلك ودلاً على كان عبد الله في إحدى الامسيات يعطي أحد المدافع التي تحدثت عنها، وكأنه على ظهر حصان، وكان يفتح في الله الموسيقى المفصلة، وقد سبي شمعة مضادة في حيمتي مما نسب في إشعلت نار فيها، وأكلت النار الحجة تماماً، وحوثها إلى كومه من برعاده، وقد عسا صعوبات حمة في بعد امتعتي الخاصة من السنة الذهب ولست بحاجة إلى القول إن أحداً من السكان الأصليين لم يفكر بمد يد العون له؛ وأشهر هذا إلى حرية تدل على لخلق بأحلاق الشرفيين، وهي أن أحد اسكان من اصوب بريمانية، كان يعمل موظفاً في العمل، وكانت حيمتي منصوبة أمام بيت الذي يسكنه، وكان ينظر برود من باعده إلى الحجة بحرق، ولم يكف نفسه عنه استوار عن حاجتنا للمساعدة في هذه اللحظة الحرجة، مع أبي كنت أحمل إليه رسائل توصية

أما الحادثة الثانية فممثل في أنه كان لدي طئاح من لقاهرة، وبن من وندو في هذه / ٣٠ / المدينة العاصمة يحولها حياً لا يستطيعون معه الاعتدال عنها إلا على مصص ومع ذلك فإن طباحا العربي واثق على مرقت، وهو يرض أن لن يذهب إلى أبعد من حين سناء ومد أن عمم أب سمص في رحلت حتى جده، بل أبعد من ذلك، تراجع عن مرافقت، ولم يكن هناك ما يمكن أن يعر به بالتسير خطوة واحدة، حتى القود لقد كا في حيرة من أمرا، لأننا كن بحاجة ماسة إلى أي صاحب بسب طبيعة الرحلة التي سوي القيام بها

(١) كلوب بك Clot-Bey ضابط وعقيد فرنسي عضو الأكاديمية الملكية الفرنسية في مصر، رار مصر سم ستر فيها، وبعد مؤسس الخدمات لخدمة فيها وضع كتاب بعنوان لمحة عامة عن مصر سر في عام ١٨٤٠م أنهم عدد من الترجمات بأنه كان من المدعين عن سياسة محمد علي انظر مصر في كتابات مؤرخ سائماً، ص ١١٠

وكانت الموسيقية الوحيدة أن يحاول إيجاد طابع في السويس، ويبدو أن أقدار الله ساعدنا فسأبت إليا عسارو مارانتي Gasparo Mazzanti وهو من سكان فلورنسة الأصليين، وكان يتحدث اللغة التوسكانية Toscan بلهجه واضحة، خاصة بأهل فلورنسة، ولم يكن يعرف أي كلمة عربية، على الرغم من أنه أدام في مصر خمسة عشر عاماً، بعد أن سافقه إليها علاقات أسرية. وكان يملك مطعماً في الإسكندرية، وكان في هذه الأثناء موجوداً بالمصادفة في السويس، وعرض عيب خدمته، فقبل، وقد كان على استعداد للذهاب معنا إلى حوز الديب من أجل عشر نترات^(١) Talan في الشهر. لقد قصي هذا الرحل لشجاع في خدمتي ثمانية أشهر كان خلالها مثلاً في لتعالي والاستقامة وإن مثل هذا لخلق أصبح نادراً كل الندره لدى الأوروبيين الذين يقيمون في الشرق، حتى به يعني الوقوف عنده وتسجيله.

نرسل فريش إلى السويس فضلاً، ولكنه بالطبع بمصر الإقامة / ٣١ / في لقاهرة أو الإسكندرية على الإقامة في هذا المسمى. وبدير أعمال انصليية التي لا تكاد تذكر في عيانه تاجر من السكان الأصليين اسمه كوستا Costa وهو يوداي الأصل كما أظن وهو لا يتقن لغة لند التي يمتنها، ولكنه في مقاس ذلك يتقن الحديث بالعربية، ويحفظ عدداً من الحكايات ولقصص لممتعة التي يوشفي بها أحاديثه. وقد كان أحد أساتذة يتكلم بالفرنسية، فاعلمنا منه فوجد جمة، ولا يسعى إلا الإشادة بما قدمه لي من خدمات جيدة من إقامتي.

(١) ريال ماريا بيريير ثالر (المساوي)، وقد اشتهر في الجزيرة العربية باسم (الريال الفرنسي) وقد صمى هذا على الاسم الحقيقي للريال. وبعد من أشهر العملات الأجنبي التي استخدمت على نطاق واسع في الجزيرة العربية، وقد سكبت من معدن النعنة في عام ١٧٨٠م وررها يولري الأرقية الواحد، وظل التداول بها دماً في إطار الجزيرة العربية حتى وقت قريب بسبب ثبات وررها وعملها الحسن ثم يتغير، وقد طوى النعنة على اسم (برخافه) بسبب الرسم الموجود على ظهره. انظر كتاب تطور النقود في المملكة العربية السعودية، الصادر عن مؤسسة النقد العربي السعودي، ١٤١٩هـ، ص ١٩.

كما بحاجة إلى مركب يحملها إلى جده، ولم يكن للحصول على مركب مناسباً بالسهولة التي نعتقد، لأن مركب السويس كلها مرقمة، ومسجلة، ليسمح كل واحد بدوره، دون أن يكون بالإمكان تعبير الدور أبداً، لا يستطيع اختيار المركب الذي يريد، ونحن مجبرون على ركوب المركب الذي جاء دوره في الإبحار سواء كان مناسباً أم لا. لم يكن هذا الأمر ليسبب ولم يكن يوسف تجوز ذلك إلا بموافقة الحاكم، وقد كان بلا شك سيوافق على استئجاره من الدور، ولكن كان يسعى طلب ذلك، وهو إجراء شكلي ممل.

وحدنا بمسألة فصل المصادفة وكوسا في غير حاجة لطلب مساعدة أحد، أو لدمع شيء، وهما امرأتان متطافان في الشرق لقد كان يرسو في البحر ٢٢ / ٢٢ / مركب من جده، ولم يكن بسطر الممرود، إليها الآن بعد أي حمولة كانت، عند استأجرها كاملاً، وسرقتها ولأمتعت مقابل مبلغ بسيط مع ألف قرش^(١) وهو بالتأكيد مبلغ باهظ إذ علما أن المسافة تبلغ ستة آلاف كيلومتر بحرية، ناهيك عن أنه كان على المركب أن يتصرف في لصوص الرمن بالارم لربدة جبل مينا. وقد وقع كوست نفسه عمداً بالمرسة، وحميه بالخدمة القسري زيادة في الاحتراز.

ولم يكن بيرتون سافر معنا لأنه كان، كما قلت سابقاً، ذهباً للتحاق بوحدة عسكرية في بومباي. ونالحة التي ستحمله إلى هناك مع لركاب البريطانيين الآخرين، التي كان وصولها إلى السويس منتظراً بين لحظه وأخرى، رسم على بعد خمسة أو ستة أميال عن الشاطئ، لأن صحابة البحر لا يسمح بمقصد الحرية الكبيرة بالانحراف أكثر، دون أن تتعرض لمخطر. وكان أحد انزواقي لتناحه للناحية يؤمن الاتصال بينها وبين المدينة، ويقوم بعدد من الرحلات بسهم يومياً، وكان على متنه ثمانية أو عشرة من الشحانات الذين يربطون سراً بضياء وأجره حمراء، وكان يسير على وجه الماء السنوي كأنه

(١) ذكر بيرتون ذلك في كتابه قصة رحلة شخصية إلى الحج إلى مكة المكرمة والمدينة

المسورة، مع ١، ص ١٧٨ - ١٧٩، من النص الإنكليزي، ط ١٩٦٤م

طائر النوء^(١) Petrel

وقد م ي شح عبد الله، أعني مرنون، عند الفراق مذكراً منه سبحانه من
انقرن الكريم كان يحملها معه بأن / ٢٣ / انوقوف على عرواب، وهي شجرة
لي يوح بها الصبح إلى مكة الحكرمة، وهي تكفي مؤمن أن يحمل تحت
لائم (الحج)، وكان على المصحف هذه الشهادة كـ - تو - حقه، يستحل
الذكرى، ويحدد تاريخ هذا لايده أبي لانسس في حارة الحبيب، ويحب كثير
رسوخاً في حياة مسيحي.

د، عذب السوس مع في رحمة واحد، ربح شسوي بقده،
يحدث عروبة جد، ويكها عبد الحاحه، وكان يتجوز مسافر في سوق
ميد عدد من السوس، وار حياه اعطاه اني كان يدنها مسجون أن اشتر
إيده، وره، صاخصها فيما صااني بإشره نكاد يكون غير مشرفة^(٢)

(١) طائر بحري صغير الحاحبين بعض في العبران بعيد من النوء

(٢) هذا من حاشية خصصها بيرون للإشارة إلى لغته مدبه أن هذا اسم مراقب الذي
لم يذكره ديديه أبداً هو Abba Hamilton ليس هاملتون البريطاني وأشار بيرون إلى
بها دفعا ١٠٠ قرش (ما يعادل ١٠ جنيهات إسترلينية) أجره مسور من السوس
في حده انظر بعض رحلة بيرون المشرق أعلاه، ص ١٧٨ - ١٧٩، لحاشية (٤)
وانظر بحث مرء في رحلة إلى الأحواز في نصف الثاني من القرن التاسع عشر
عنوانها «إقامة في رحاب الشريف الأكبر - شريف مكة المكرمة» تأليف سارن
ديديه، مجلة الترمية، العدد ٨، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ص ٨٥ - ١١٠

الفصل الثالث

الطور^١

أبحرنا يوم الحادي والعشرين من يناير (كانون الثاني) في الساعة الثانية، ونُشرت لأشعة بعد ذلك قليل، ولكن إبحارنا لم يدم، لا فتره بسيطة، لأن أنفت لمراسي في الساعة الرابعة عند صبح جبل أبو دراج^(١) لعصاء البيلة هناك. مع أن البحر كان هادئاً، والرياح مؤانية، ولَمْ يكن هناك ما يمنع مواصلة الإبحار ولكن مراكب البحر الأحمر لا تمحر عبات البحر، لأن في أسفار^(٢)، ناهيك عن آب كنا على مسافة قريبة من بركة فرعون^(٣)، وهو سم يطلقه

(٥) وسحب بالطور به أي طور سباء الذي هو أشهر مدينتها وكانت تسمى قديماً «رَبْوَة» وهي معروفة بهذا الاسم إلى القرن الخامس الميلادي. انظر تاريخ سبأ، موثق سابقاً، ص ١١٣. وتحدث عنها بيرتون في رحلته، موثق سابقاً، ص ١٦٥ - ١٦٧.

(٦) كتبها دندس Mont Abou d Anadj، ولعل الصواب «أنت» في الأصل، انظر رحلة بيرتون، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٢٢. وكتب في الترجمة الإنكليزية لرحلته ديديه، موثق سابقاً، ص ١٨، Abu Anaj ولعل ما ذكرناه هو الصواب.

(٧) انظر رحلات في شبه جزيرة العرب، بوركهارت، ترجمة د عبد الحبيب انهلاني و د عبد الرحمن عبد الله اشبح، موسسة الرسالة، بيروت ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م، ص ٣٩٠ - ٣٩١ وسنشر إليها بـ «رحلات يوركهارت» و انظر رحلة بيرتون، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٦٠.

(٨) انظر رحلة بيرتون، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٦٣، ١٦٥.

لعرث / ٣٤ / على مكان هلاكه، ويظنون أنه، مد ذلك، مسكون بعد
أشهر ذلك لا يحاطر الحارة بقطع تلك اللحة لصحة لئلا، إهم بمعدون
ذلك بصعوبة في وصح نهدر، ولا يفعلونه إلا بعد أن تصالحوا الأرواح
الشريرة بأن يقوموا بممارسات حرافية

ب. هنا في قلب لذكريات الموسوية هناك عبر بعيد على الأرض حمام
طبي يحمل اسم بني إسرائيل ، حمام سيدنا موسى^(١)، وقد تركا وراء
عين مشهورة تحمل اسمه अब عيون موسى^(٢)، وتندو بصاء انور على
لشاطي، في وسط أشجار النجيل ومن هذه العيون تتردد مدينة السويس بعد
سرب كما ذكرنا سابقاً وهو مكان يقصده المسافرون عند زيارتهم
بوابت بسمه ب. أقامه في مصر، دون أن ينصفي في تنصفي أبعد من ذلك
ويروى أنه فوحى، خلال عودته بأمته، ونعزّص لحظوظ حقيقي عندما عمر الماء
حصنه حتى بظه، ولم ينح من هذه العثرة إلا بمساعدة الدو الذي سارعوا
إلى مساعدته فنصر من أن امراطور المستعمل هلك بها، ولتصور التغيير الذي
كان سيحدث في مصر لعالم^١ يانه من محان مفرح لحساب^(٣) وينصب

(١) ويقع في جبل مصر على خليج السويس على بعد أميال من مدينة انطور في سبعة
بأربع كيريه وعرب هذا الجبل مبداء الو صوير^(١) انظر تاريخ صباء لتقديم
والحديث وجمرايتها، يوم يك شعر، د النجيل، بيروت ١٤١٦هـ / ١٩٩١م،
ص ٣٤ ديسمبر به تاريخ صباء

(٢) عيون موسى وهناك ماء على شاطئه أميال من السويس، في محجر صحي مبداء،
انظر تاريخ صباء ص ١٥ وانظر رحلة بيروت، مبداء ص ١٦، ص ١٦٧

(٣) جاء في كتاب الحملة الفرنسية في مصر، بونايرت والإسلام، هري لودرس
وأخرون، ترجمه نشر السدي، بيا نشر القاهرة ٩٩٥، ص ٨ ٣ توفي
السويس، يتحدث بونابرت مع صاحبة من البحر الأحمر، وهو يشير انذاك ماستشاف
لعلامات البخارية خاصة مع المحاور ولحادثاتهم الواحد هو أن بقاءه وعدد
من رفاقه الذين يصفون طريقهم خلال ليلة ٢٨ ديسمبر، يفتون بصعوبة من انور،
حيث يصعد من البحر بسرعة مائة في ثلاث انظمة وهو يشير بسمه إلى أن ذلك -

في مقابل عين موسى تقريباً، على الخشب المواحه جبل عتاة^(١)، كنه عملاق من الحجارة شهد منذ أكثر من أربعين قرناً مرور رهط من المصريين على سموحه، وعلى أسهم فرعون / ٣٥ / يطاردون بني إسرائيل

كذب اللمعة جميلة صافية، ولم يترك صفو الهدوء إلا أصوات الأمواج التي تتكسر على جانب المركب الراسي. وكان الأمر ينقي على جبال لشاطئ صوة، حدثاً كنت أرى تلك الجبال يغطيها نضاب، ولكنها بادية للعين، وحلقتها السماء المرمية بالسحوم، ومنها ما ينتمي إلى آسيا، ومنها ما ينتمي إلى إفريقيا، وقد حل محاصري بسمعال، وأنا أراها أنسي هب معلو، إن صبح لقوب، بين عالمين إفريقيا التي تبعدها، لأعود إليها قريباً، وآسيا الشعرية التي تغطيها قدمي أول مرة

يمض بين عالمين خليج صبي، يدور كأن كلاً منهم يحدد بالآخر كعديين حاضرين، لأن ينفي أحدهما نفسه على الآخر ولكن فوه اتوسع وروح العروق لي تسبح عنها سمان إلى آسيا، وقد دفعها إلى مد سلطتها خارج حدودها في عصور التاريخ المختلفة، وجعلها في الماضي تؤدي دوراً رئيساً

أما إفريقيا فهي على العكس عصر المقاومة واثبات مع بعض الاستثناءات المحدودة، الفراطحيون على سبل الثعالب اندس مدت سلطتهم بعيداً، وحدتهم أنفسهم في لحظة بالأسبلاء على ثروة روما، علماً بأنهم من أصل فينيقي، أي آسيوي، ولم تواجها إفريقيا / ٣٦ / لعراء البحار حيين إلا

■ كان من شأنه أن يمثل موضوعاً جديداً في جوعته بدور حرب فكره فرعون حديث

(١) قال بيرنون في رحلته (الرحلة العربية)، موسى سابقاً - ج ١، ص ١١ - وقد عرّوب الشمس رمونا - ولا انت السويس حتى مررت من - تحت جبل عتاة محدس منه ملاذاً يحجب الريح ها، وعلى الساحل الشرقي كانت فوخذ قلعة من بساتين ساحل صحمه حول (عيون موسى) ما في المغرب ليمع بين - حيدتين برحيين مصب ودي (مسيل) العوازي أو وادي موسى أو وادي اسدنه الذي خرج من بحر إسرائيل، في البحر البردي Sedge The Sea of وهذا لما يقوله الأب سيكاره Sicard

مقاومة سلسة، تحولت بعد ذلك إلى مقاومة يحشدها الأعداء، ولا يمكن في انقلب فورها بس الظروف انطية للأرض والطقس كات هانا انقارتان، لعدمصان تمنعان هنا امامي، وكأنهما اكر مشكلتس بفترضان در سب اساحين، وتأملات المفكرس إحدى المشكلين، أعني اميا، كاد العلماء من رم يصلون إلى حل بصف أسرارها، ويمكن أن توقع حَلْ مشكلتها كلاً في مستقبل القريب جداً في حين أنا لا تكاد يلمح لتقوم لأولية لمشكلة ثانية، فريقت لي اسعصب حتى اليوم على الجهود لمتعاصده بعدم والحرب والتجارة. وإن أكثر الرحلات الاستكشافية تحطيطاً، لثني بُدّت شجاعه فانه لم تُشهر إلا بالمصنات التي آلت إليها فكل عام يشهد هلاك واحد من أولئك الباحثين الشجعان، أما أولئك الذين يعودون، فبهم يعودون بحمي حيس، وإن اعصيه، انني يذهبون من أحدها تظل بعد عودتهم يكر كما كنت عليه عند انطلاقتهم وليس عليا إلا أن تلقى بطوة على أحدث الحرائط وأكملها بهذه المنطقة من العالم، ليعلمنا الحزن، ويحد انتب معين بامراع المريع المشترك على تلك الحرائط عدا محيط صغير، ما زال ينتظر هو أيضاً إلى الأسماء الصحيحة، أما الذي فهو ياصر واسع بجهد أنسب بلا طائل لملته، وربما لن نستطع أبداً ملأه. إن تلك المساحات الرسعة من لأراضي المحهورة تُشجر، رؤسها بالحرف / ٣٧ / ونحط، بغير ما ترعب حل يُعمل أن الجسم لشري بعد سه آلاف سه من الوجود، لا يسلط إلا معلومات قليلة ومضطربة عن الكون الصيق لدي سكه؟ كان القمر ما يرا من مصين عندما شرعنا عند طوع الشمس، وعرباً بركة فرعون المحيطة وأنحرما حتى انمسا في ظروف مؤتية، وكنا لا نزال نرى الشاطيء الإفريقي، وخصوصاً جبل عريب الصخم، وإن كان الشاطيء الإفريقي قد بدأ يصيق شيئاً فشيئاً بالنسبة إلى الشاطيء الآسيوي. وإن أقرب الجبال من هذا الشاطيء هما جبال جقم^(٩) Dikem ودعد^(٩) Da'ad، وكلاهما أحرد. لقد انقضى اليوم دوني

١١) كتب اسم لجبل في الترجمة الإنكليزية لرحلة دينييه، مؤلف سابقاً ص ١٩

Jakam and Da'ad = جقم ودعد

حدث وربما مركبا عند العشق في حليح صغير، من كل الأماط، يتشكل من
 انحاء بسيط من حال عبيرة^(١) (Nayazat)، الذي يسمي شأنه شان الجليل
 لسائقين إلى اسلسلة الجراينية لسانا ومرب انليه اثانة كما مرب الأولى
 وفي يوم لى، كما عند صلوع الفجر قد انحرى، تساعدنا في ذلك روح
 معشه ومؤانة، ولم يلبث أن يحاورنا رأس صويره، وعند الظهرة كما في
 الظور^(٢) Tor وليس Thor كما تكب على انحرانط ها أندا في اساء، وكسر
 هذه الأم لقديمة لنجس الشري، بذت لي للوهلة الأولى ملامح معربة
 اشبهت الطور في عام لارمان وفيرورها^(٣)، ولكنها مد رس صوبل بسبب
 صيد /٣٨/ اللؤلؤ، وفدت مدحم الفيروز، وأجهل ما سكون عليه في الأبد
 انقادمه ولكني أعلم ليوم أنها بلده صغيره كربة، تسكنها جانية يونانية عبر
 مضيا وجشعه، تجعل المرء يحس إلى العرب، بل إلى الأبرك، وشيح السد
 يوناني من سكان المدينة يسمى كوستاندي Costandi، كتب أحسن به رسالة
 من كوسا، ولكنه لم يكلف نفسه على تقديم القهوة أو الشيشة، وهما علامتان
 أساسيتان من علامات اللياقة الشرقية في محال لمدن تقدم لقهوة لكن
 الناس دون تمييز، وتقدم لشيئة إلى من هم على منزلة باعتبارها علامة من
 علامات الاحترام، وإلى الأقران باعتبارها من علامات الشهامة ويقيم في
 صور أحد المعروف السطه (باشي)^(٤) مع خامية مؤلفة من عشرة حدود قامة

(١) كتب في الترجمة الإنكليزية لرحلة ديليه، موضح سابقاً، ص ٢٠ كما هي في الأصل
 لفرسي

(٢) نظر حدثاً مفصلاً عن مدينة الطور وناريخها في كتاب تاريخ سباء، مؤلف
 سابقاً، ص ١٣٢ - ١٣٨

(٣) نظر تاريخ سبأ، مؤلف سابقاً، ص ٧٩

(٤) باشي، ربه عسكريه من رتب الجيش المصري العثماني في مصر، استحدث في
 عهد ولايه من اسره محمد علي باشا، يقابلها اليوم وفق المصطلحات العسكرية
 رتبة عريف وعلاقتها شريط واحد مصروع من انماش معلى على ص ٤٨٠
 نظر معجم المصطلحات... مؤلف سابقاً، ص ٤٧.

سببه، وقد كان أكثر كرمًا من ليوناني. إذ على الرغم من أنه كان فقيرًا حتى أنه لا يستطيع تقديم شهوة كما تقتضي عادات أخصائه، إلا أنه تحرر من عبود استخدام شبيخته الخاصة لأنه لا يملك أخرى، وقد دأب في ملهى متعدد البحر في الذي كان محبة منه،^(١) أحصل سجادة ملكية به في ضوء الشمس يقع في موقع حدائق على شاطئ البحر، وفيه أشجار زيتون وخرشوف وريحان ومقصية، بيد أني حدثت فيه عذرا من الكلب واليخوت الحمراء والسمسمي. بعد راحتي عشتو يتبع بعد ذلك من ساحة بروجيه التي تبعد عن كورنيش المدينة، ثم بعد راحتي لأشرف على الإغريقيين الذين يمشون في ساحة المدينة. ثم في الساحة نفسها حتى أرى ساحة وشهدت في تلك الساحة بحديقة ملكية، وشيخا حشمي صغير / ٣٩ / سنة ١٢٥٨ هـ في الأول من الشهر. حدثت في مواقع متعددة في إمارة صوريا. بعد راحتي في ساحة مخصوصة، ركنت بيوت جديدة من الحجارة المربعة، لأهداف التي أكثر على شرفي، البحر الأحمر. في فصل ما في الحور مارها دون المراكب التي تمر في هذه المنطقة لا تعدد البرود بالقاء وبحريته، مما يفتح مساحات هائلة من البحر بحرية وانحرکه. يحفظ المدينة سهل رملي، لا يحد فيه من السبب إلا صفات متفرقة من سبب قصير ومعمور بكثير في كل الصحاري، وأنه يمر صغير أحمر به طعم جديد ويعبر مياه لمد الغصة لأدنى من السهل، ويرك بعد بعد بحاره في ذلك القسم ملحاء، ويمتد ذلك السهل من جهة شرق حتى يتصل بسلسلة طويلة من الجبال لها هيئة سوداء قائمة، وسكن في هذه عربان المدينة بصفة لندوة فيها، وتعد بعض الأعيان عن المدينة صغورا نحو سمائل عيشه أسحار

(١) مصر تاريخ ميناء، مونتو ساعا، ص ١٣٨، وص ١٢٧٠ - ١٢٧٠ (١٥٢٠) سلطان عثماني من (١٥١٢ - ١٥٢٠) فتح فارس، رسم با، ومصر، وبعد أول الحمله العثمانين (عام ١٥١٧م)

(٢) جاء في كتاب تاريخ ميناء، مونتو ساعا، ص ١٣٣، ويهدد المدينة مياه حسن له جرف مرجاني يمتد عشرات الأميال تحت الماء حتى إنه يمكن للسفن التجارية الاقتراب من البر منه وهو حينئذ لا يسع إلا للسفن الصغيرة

تكاد تكون غابة من الحبل، أشجارها شديدة الكثافة، يلتصق بعضها بعض فلا يستطيع المرور عبرها إلا بصعوبة بالغة وتعود ملكية هذا السنين في معظمها إلى دير جبل سباء، ولكنها ملكية تكاد تكون شكلية لأن المالك لا يستطيع أبداً أن يجي ثمارها، لأن ندر الحواري سارعوا إلى حطبها / ٤٠ / ويستولون في كل سنة على بواكر المحصول، بل على المحصول كله. وقد فكر الرهبان في وضع أحدهم للحراسة، ولكن الناطور المششت أعلن على نفسه في حصن ما ربا يرى بقاءه، ولا يمكن الوصول إليه إلا بارتقاء السلم، وكان بمثابة دعر شديد من السارقين حتى إنه لم يكن يعادر مكان سكنه، ولا يسمح لأحد بالدخول إليه باستثناء خادم مكلف بأن يحمل إليه في كل أسبوع الماء والطعام وكان البذر في أثناء ذلك يحرق عصاً النور التي يسعى أن يحرسوها وبأكنوف. إنهم يعيشون على لأرض التي يملكها الدير، وكأنهم في بلاد من بلاد الفتوح

إن هذه الراحة^(١) لجميلة محمية من الشمال بحصن حمام الذي تبين صحوره لكليسة مع لحصرة البنية التي تكسو طوال العام العيين المرمرين اللين تنفجر من أسفل لجبل جدها شديدة البرودة، صافية كن لصفاء، ولها طعم لديد؛ أما الأخرى فهي على العكس حارة، يكثر فيها الحديد، ومُسَوَّبة تماماً بالكريت وقد بي على هذه الأخيرة بـ^(٢) محكم لإغلاق، جيد المواقع لتوفير الراحة لمن يريدون الساحة فيها، ولم يعني لاستحمام فيها؛ وقد كان حماماً رائعاً بقيت أياماً طويلاً بعده أشعر بالظافة من أثره

(١) راحة ليست في المعاجم العربية ولم أجد إلا الواحات واحداً راح على غير قياس وقان يافوت الحموي في معجم البلدان، ط دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ج ٥، ص ٣٤٦ عن الواح لا أعرف معناها وما ظنها إلا قسطة ويتحدث الجغرافيون عن منطقة الواحات في مصر

(٢) ذكر بيرنون في رحته، مؤلف سابق، ج ١، ص ١٢٦ أنه متى صعب من طقس واحد بناء حمام ناشئ ليسجدته كاستراحة، وكان مصب باللوب الأبيض لسطح، ومربياً يستامر من الكاليكو Galico دواب ألوان منفرحة رائعة

نُتِيَ هذا الحقام المعدني في اللد حقام فرعون أما لعين المجاورة
 /٤١/ فهي عين مشهورة، لها مكانة عالية^(١)، تعرف باسم عين موسى
 ويلاحظ هنا أيضاً لذكرات التورانية وتصب راء جبل حَمَّاه جبل احمر
 اسمه جبل لُنافوس؛ وهي تسميه عرصة في سد لا تعرف لُنافوس، وهي
 مملوكة فيه ونزعم الحكاية الحرافة: أنه كان في القديم رير مسيحي في هذه
 النقرة، وأن الأرض ابتلعت في أعماقها، وأما منذ ذلك الوقت تسمع أصوات
 المواقيس كل يوم عند العصر، أي في الساعة الثالثة بعد الظهر وإن كان
 صححاً وجود مثل هذه الأصوات المعجرة التي لم استطع التحقق من
 وجودها، فإن سب حدوث ذلك قد يكون سبباً في داخل الأرض، أو بركاناً
 يتمجر تحت الأرض وإن وجود العيس المنحترين يلين تحدثنا عنهما من
 قليل، إحداهما قرب الأخرى، مع أن طبيعة كل منهما، ودرجة حرارته مختلفة
 عن الأخرى اختلافاً كلياً، يدن بما لا يترك مجالاً لتشت على الوجود
 المتزامن، والعمل المنقطع أو المستمر، للماء والبار في أعماق الأرض
 الدافئة^(٢) ولما عدا من هذه الرحلة، وجدنا رئيس مركبة، والرئيس اسم
 يضافه العرب على قناطة المراكب، خالفاً مع بعض بخارته على باب مرب
 متداع يقع خارج المدينة، يحتمي من الشمس حرير من سمع السجل، تحميته
 فضاء من الحديد طويلة ممررة في الرمل وتلك هي صورة المصهي في
 الظهور، ويحتسي فيه مقابل عدد قليل من البارات الفهوة قبل كل شيء، ثم

(١) دون ما يذكره بروتون في رحلته، مرقى سابقاً ج ١، ص ١٦٦ - ١٦٥ إلا أنني
 انعم الحارة شتاء والباردة صيفاً ولها طعم مالح ومر؛ عين موسى، وسمى العين
 بعدة العريزة رير موسى

(٢) انظر تاريخ سيناء، مرقى سابقاً، ص ٣٥ وفيه تعليق بصوت النواقر «
 وقد كثرت لأحوال في تحليل ذلك، وأشهرها أن الرمال ما بها لها نمر على صخور
 مجوفة في بطن القلب فتحدث ذلك الصوت» وهذه الظاهرة معروفة في كثير من
 الصحاري في الجزيرة العربية، وقد تكلم عليها عبد الله جدي في كتابه الربع
 الحالي بشيء من التفصيل

الشيشة لمعقورة، ولما المارد حسب الطلب /٤٢/ يقدم كل ذلك صاحب
 المقهى نفسه، عن طيب خاطر، ولكن إياك أن تطلب منه أي شيء آخر كان
 بخارتنا هك يجلسون القرفصاء، والشيشة في أفواههم، وكؤوس القهوة في
 أيديهم، وكم أصعب أثيراً لديهم، عندما صاعقت لهم كمية القهوة والدخان
 أربع مرات، من عشر مرات على حدي، والعرب يقدمون ذلك كثيراً فقد
 أصبح أوثك المعارة، بعد أن شربوا ذلك الصدر الكبير من القهوة، ودحوا
 كمية كبيرة من السك على حسابي، معروف أنني مستعد لأن أقدم لهم دائماً
 مثل ذلك ويستهلث العربي كمية كبيرة من القهوة والدخان ذكرت فيما
 مضى أن أحد سود عهد استجار السبية الذي وعده في لموسى بحضور
 كوست، يمضي بأن يسطرنا المركب في الطور إلى حين عودتنا من الرحلة إلى
 جبل سيناء، وحُددت أيام الانتظار بحصة ولكي يرثى اريس على كرمي
 بأحسن منه هل لي راضياً إنه لا يعني علي إرهق نفسي، وقد باستطعتني
 التقيم بالرحلة على مهل، وإنه يستظري الوقت اندي بدسي وقد كتب قد
 تعلمت من التجربة، وعلى حساب معنحي في بعض الأحيان، أن العربي لا
 يعرف الاستعجال أبداً، وقد أعجبت بصبر هذا الرئيس المطروع، ولو كنت في
 مكانه، محكوماً علي، شأنه، الإقامة لأصابع طويلة في هذا المكان الثاني، لم
 أكن بالتأكيد لأبصر للأمر بهذا لقدرة من المحفل لأنه ليس أسام المرء في مثل
 هذا المحضر، إلا الرحيل /٤٣/ وقد عادته في اليوم الثاني تركنا القسم
 الأعظم من أمتعتنا في المركب، يحرسه أحد الخدم، ولكي نتحقق في أشياء
 السفر، لم نحمل معها إلا ما لا يمكن الاستعانة به، فتقصت قاذبتنا نتيجة
 ذلك إلى ستة حمل، منهما اثنان من الهجن، أو يُزعم أنهم كذلك لقد
 صموي في طمولي، وما رالوا على الأرحح يعلمون الأطفال حتى ليوم، أن
 للهجان سامين في حين أن الجمال ليس له إلا سام واحد، وقد رأينا مرسومه
 كذلك في عدد كبير من كتب التاريخ لطبيعي، وهذا خطأ ليس للتوعين إلا
 سام واحد، ولا وجود في أي مكان، كما أعلم، إن لم يكن في السب،
 لحيوان من هذا النوع، له سامان إن معام الهجن بين الجمال كمقد غرس

الركوب بين الحبل التي تحو العودات، ولا يسمير منها إلا ندهه أعصته، ويكسسه منطقي الأول، أما الثاني فيستخدم لحمل الأمتعة أن يجعل بصير الحركة نفسها، وصعب المراس، ويهتر جسمه في أثناء سيره اهتزازات مرعجة جداً، نسب في علب الأحبال دواراً كدوار البحر لأوسك الذين لم يعتادوا ركوبه؛ أما الهجان فإنه، على العكس مما سبق، ذو حصوة واثقة ومريحة، وسيره لطيف، وهذا أخس تدريسه فإن راكبه يستطيع في أثناء سيره تدوّل فحباله من القهوة دون أن تسكب منه نقطة واحدة، وهو سريع / ٤٤ /، يستطيع قطع ما يربو على أربع مراحل في اليوم، دون أكل أو شرب وبمضي الحبال العربي إلى أبعد من ذلك، فيرغم أن الهجان الأصغر يقطع أربعاً وعشرين مرحلة في اليوم الواحد. كانت المرة الأولى التي أمتطي فيها هجاناً، لذلك بدت منعلاً بعض الأعمال، خصوصاً أن الهجان الذي كان محصصاً لركوبي كان طويل الساقين، وكان رحله يشبه كل الشبه أرحل سبه. درس فاستفهم في صحراء السويس، وكان له جردان طويلان يديان على سجدتين. كان أرحل نفسه عالياً عنواً كبيراً، وكان، كالمعماد، موضوعاً في أعلى السام مما يجعله أكثر عنواً أيضاً. كنت على ثغرة عشرة أقدام من الأرض، بحيث هو أن أرحل العربي عريض، ولا يمكن الركوب عليه برجلين مدليتين، ولا يستطيع الاستواء عليه إلا حلوب، والقدمان ممدودتان إلى الأمام على عن الحبوب، وليس تنوجيه الحيوان الوحشة التي تريد لها، إلا مجرد رمام. وحين أهببت رحمة الصعود، ودينتي معلماً في هذا العلو، ولجة عمسه على يميني، وأخرى على يساري، تساءلت إن كنت لست أصاب ما يدوار؟ وشعرت بأسي غير مستقر على قاعدتي، وسي ساقع من الحظوة الأولى لم تكذبك الآلة المحمّدة نداءً يسير حتى فعدت / ٤٥ / تواريت مداماً، وإن كنت سم أفع غلامي سمكته بربوسي أرحل المدين يؤديان للمتدئين ركوب الهجان خدمة حلي، وأحداهما مثبت في مقدمه لرحل، والثاني في مؤخرته، وسبع طولهما قدماً واحداً سم تدم فترة تدريبي رماً ضويلاً، وسرعان ما اعتدت على ركوبي الحديد، حتى أصبح بإمكانني بإحاده عندما أريد الرول، وإبهاضه بعد الصعود دون أن أكون،

كما في البداية، بحاجة إلى مساعدة أحد. وانتهى بي الأمر إلى اعتبار ركوب ذلك الرجل، المعلق في البداية، والذي صرت أجلس عليه برهة كما لو أنني أجلس على كرسي كبير يفصل السحابة التي تعطفه وأعجبت كل الإعجاب على الخصوص بالحرجين^(١) اللذين يتدليان على الجانبيين، اللذين يسمحان بأن تحدد بالقرب منك كل الأشياء الضرورية للسفر واحتصار، شيء لم أجد بين وسائل الانتقال المحلقة التي جربتها على الأرض، وفي البحر، أفضل وأسهل من الهُجُر، وليس بين تلك الوسائل ما هو أكثر مبرراً وأقل مسوئاً منها، جربتها مدة تقارب ستة أشهر متتالية، دون أي حادث، ودون تعب، ودون مزعجات. /٤٦/.

(١) حرج وجمعه خروج هو وعاء من شعر أو حبل ذو عدلين يحمل على ظهر الدابة، توضع به الأمتعة انظر رحلة ميرتوي، موشن سابقاً ج ١، ص ٤٢، ويعني المترجم

الفصل الرابع

جبل سيناء

لئن كنت حرياً لآسي وجدت طريقاً عريضة بين القاهرة و السويس، لقد كنت أكثر حرياً عندما وجدت طريقاً أخرى بين الطور وجبل سيناء يمكن أن يسرع وجود الأولى بأني ضرورة، ولكن هذه كانت، ما الحاجة إليها؟ ليس هناك أي ضرورة لها، وليس هناك ما يسرع وجودها ولكني أوضح سبب وجودها يسعى أن أعود مرة أخرى إلى عباس باشا

رأيت مما سمع أن عباس باشا اندي رحد أن العباسية مربة جداً من القاهرة، أمر ببناء قصر دار البيضاء في قلب الصحراء، ولكنه بعد ذلك وجد أن الدار البيضاء ليست بعيدة عن كل ما يود الهروب منه، فربى له حاله أن يأمر ببناء قصر جديد على واحدة من أكثر قسم سلسلة جبال سيناء جدياً، وأكثرها كثافة، وأكثرها صعوبة وصولها على الأقل لن يرى قناعات، ومن بطارده القاصد في ذلك المكان العالي.

ومد أن تم اختيار موقع البناء، ومن أن يبدأ بتأسيسه، أو إرساء محطته هذا القصر لمعنى بين الأص والسماء، كأنه وكمر طير من الكواكب، أمر عباس مباشرة بشق طريق نكي بذهب / ٤٧ / إليه بالسار، لأنه أصيب بسبب محوره بعده من ركوب الخيل والتهنئ وما إن صدر الأمر حتى بدأ العمل بالمشروع بإشراف مهندس فرنسيين يديرون لآتعمده حيشاً من الأعمال الماهرة. كان ثلث الطريق قد تم انجازه، عندما مات عباس، وأظن أن الأعمال

قد توفيت بعد مونه، ولم يعد إنشاء هذا القصر الخيالي في جبل سيناء ورداً
ورغم أن هذا المشروع المتهور كان يحظى وراءه بوابا سياسية حمية، فقد
كان عيس ناث منذ بعض الوقت قد بدأ يسميل البدو القاطنين على الحدود
السورية، ويُقرّبهم منه، ويستقلهم شرخات، ولما ذهب لزيارتهم بمعه،
وعدهم بإعطائهم أحد أبنائه لبناً بينهم، وسجلوا بأحلافهم وعدائهم، وهذه
عادة تمارس في الجزيرة العربية إذ يترك أبناء الأشراف أسرهم بعد عدة أيام من
ولادتهم، وينفذون من حصص أمهاتهم إلى حيام رجال القبائل، لكي يتربوا
على نفوة أجسادهم، ويتنادوا تحمل التعب، ولكي يلهج لركان أسمائهم،
تلك كانت، كما يقال البية الحمة، ولهدف المصري لبث مصر كن بأمل،
وهو يرى أن العدي متورطاً في حرب مدمرة مع روسيا، الاستفادة من
الإنهك الذي أصابه ليستولي من جديد، بمساعدة البدو، على ما كان يسيطر
عنه حده محمد علي / ٤٨ / من مواقع في سوريا أحرته أوروبا على المحلي
عنها

وكان في هذه الأثناء، وبانتظار الفرصة المناسبة، يرسل لعدة حشده على
مصر، قبلاً من المال مما يحتاجونه في الحرب وعندما سمع ناث كارثة
سيبوت^(١) Sinope البحرية التي تم فيها إغراق الأسطول البحري المصري كله
تفرياً، بدأ يكس الشتم المندعة، ليس للمعصر، وإنما للسلطان التركي؛ وأود
في هذا المجال أن أسوق حادثة توضح طبيعة الرجل

تذكر أن أحد قادة السفن المصرية قاء في ذلك اليوم المشؤوم تصجير
بمعه وسهيبه بدل أن يستسلم للعدو؛ وقد أبدى كل الناس إعجابهم بهذه
امأثرة الجريه، باستثناء عباس لأنه عاجز عن إدراك معنى الشجاعة،
والإخلاص، لم ير في ذلك إلا أنه حرم منه حربه، وصرح بعصب عاهر
Pesvink، وهي شتمة مقذعة بالتركية، كان لا يبي يرددها، شاه شأن العاليه

(١) سيبوت Sinope (بالتركية Sinob) مدينة وميناء أسبوي في تركيا (الآن صول) حضم
فيها الروس في عام (١٨٥٣) الأسطول التركي الذي كان يضم بين قطعاته الأسطول
المصري.

العظمى من الأتراك، وهي بالإيطالية Ruffiano، لقد كانت تلك اشتيمة هي كل الناس الذي استحقه منه ذلك البحار الشجاع، ولو استطاع العودة من حجة المحيط لدفعه عباس دون شئ في التراب لكي يعاقبه على بطولته

يبلغ المسافة من لطور إلى دير جبل سباء خمسة وعشرين فرسخاً، وهذا يعني أن الحمل يحتاج إلى خمس وعشرين ساعة لمقطعها وإن لصريق التي كتب في صح القوم أذنبها، باعتباري أحد أول / ٤٩ / المسافرين عليه، ولم أكن أولهم، يتجه من الشمال محمداً نحو الشرق، مطلقاً من البحر، ثم يتعمد عنه بفترب من جبل سربال^(١)، ولو كان بالإمكان، بل أن يدور حول ذلك السور الصويل من الحرايت، أن يحترقه، لأصبح أكثر قصراً ولكن لأمر غير ممكن ولا يتمير الطريق عن الأرض التي تحيط به إلا بصلاته؛ مما يسمح للحمال بالسير عليه بسرعة أكبر من سرعه سيرها على التراب الذي يحوصر فيه أحياناً، على الرغم من أنها عريضة، وليس على الطريق محطات أو عرصات نقل، كما نجد على طريق لوسر، ولا يملكها أحد، ولم يقبل عليها أحد طوب يوم كامل، أخطأت، لقد فاسد أحدًا، وهاكم من هو

جماعه من لدو، كانوا متوقفين على قارعة لطريق مع جمائهم، وسدو أنهم كانوا ينظرون مرورياً، وقد بدا ذلك واضحاً؛ إذ ما كدنا نصل إليهم حتى در نأش حاد بينهم رس جمائنا، ولم أسمع معرفه الموضوع اسدي دار انقاش حوله بالتحديد، توقعت بعض سبب كمنني جبل وليري Talan التي تكرر أكثر من مئة مرة، أن يحدث يدور حول الجمال، وأن لهضبه لها علاقة بالنفود

يقسم لدو لطور (الطُورَة) إلى عدد من المناطق، منها لصوانحة

(١) أشهر جبال سبأ بعد جبل موسى، يقع إلى الشمال من مدنه لطور واسرب من جبل موسى على نحو ثلاثين ميلاً من كل منها نصر تاريخ سبأ، موق سابأ، ص ٣٣ وفيه ص (٢٥٤) أنه محجر انحدراً عظيماً، ورأته بعد عن سبعة بعد سحيفاً، يس في سبعة سهل كبير أو صغير، ريس هذا، إلا وادي مير، وقعره وادي عبات الأنبي من جبل سربال، وكلا الواديين ضيق

والمريسين، ولعلقت^(١)، وتبطر كل فيه على مساحة محددة من الصحراء، وتقسّم بينها حتى تأجير الاحمال / ٥٠ / لشجار ولصافير، ويسح عن هذه الترتيبات خلافات منمرة، وعالماً ما تكون معقدة كل التعميد، وقد كد على لأرحح شهد خلافاً من هذا النوع، دون أن تدخل فيه مانع من قريب أو بعيد.

ومهما يكن من أمر، وبعد كلام كثير، أربوا حموية اثنين من جمالك، واستبدلوا بهما اثنين آخرين، ويبدو أن هذه العملية أوصت كل الأطراف أما نحن فلما استمدنا من هذا لتوقف الطويل، فصدنا من الحادام المستكف تحصر بظهرة أن يحصرها، لأن لكل حادام في لشرق وصاحبه المحدد، ثم قدمها إلى ذلك المجمع، واعترف وبحر على وفاق تام.

لقد دار ذلك المشهد السلوكي على بحوم، حدى وحات لبحيل التي كدت أقل حصلاً وأقل سائناً من راحة حمام التي تجاورها، والتي تعد بلا شك متداداً لها. وقد كان هالك في مكان غير بعيد من راحة (يسنطع كل اسس ورودها)، وكذب بحسبها من حرور الرمان مثانة^(٢) صبة أفور من راحة لأن لأبار في الصحراء تمسكها عادة التنبلة التي توحد تحت الأبار في أرضها، وتطلب تلك الصفة مكوساً من الأحانب الذين يأتونها، ومن مسافات بعيدة كل البعد في بعض الأحيان، لإرواء فصاعدهم وأسرههم ولم يجد بعد أن تجاورها هذه الواحة أي سائات أخرى إلا بعض الأشجار أو الجنبات^(٣) الحافة

(١) فارس بما في رحلة بيرنون، مؤلف سابقاً، ج ١، ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٢) Margelle مثاب (مثانة) البشر، وهو حجر ممر يشت حول فوهة من المنهل.

(٣) Arbustes Rabougris الجنبات الحافة ممرها حنـ وهي لأشجار التي لا حمل لها لصعها، وتصل صعبه حتى لو شاحب، وقد ترجمها مخرج رحلات بو كهرت جنباب وذكر في الحاشية، ص ٢٧٢ - ٢٧٤ ما يصفه في معجم الشهدي للعلوم الزراعية ما نقله باختصار باب معمر حشبي يتجبر عن شجر صفة أو صفة وإن شاخ، ويبدأ نمو فروعها من قاعدته، ولا يحور سميتها شجيرة لأن الشجيرة تكبر وتصير شجرة، وفي لسان العرب أن الجنبية هي ما فوق النفل، ودون أشجرة.

/٥١/ اني لا ظل بها، ولا يكاد يكون لها نور ق

لقد كان الطقس حتى هنا حميلاً، ثم أصبح فجأة بدر بالحصار؛ فقد أصبح لون السماء، داكاً ومصرعاً، يوحى بالشؤم، وملاّت السماء في وقت قصير سحب سوداء، وحلّ حولنا ظلام مُعم، وهاج البحر يرار من بعيد، وقصف لرعد وراء الجبال قصفاً يُصم الأذن، وكان صوته يقرب ما عند كل قصعة، وبدأت قطرات المطر الكبيرة تسقط عليّ وكان كل شيء يرهص بحدوث عاصفة هوجاء. ولم يتدّ على التحمل والجمّاه أي قلق، ولم يحفظهم حسهم؛ إذ هدا البحر فجأة، كما كانت الحبال عند بدء العاصفة، وابتعد الرعد، ثم توقّف، وتفرقت السحب بسرعة، وعاد إلى السماء صفواً المعتاد. لقد كان على يسارنا طوائف يوم المسير سهل رملي معزول يمتد حتى البحر الذي لا يكاد يراه إلا لماماً، وكانت على يميننا سلسلة جبال سرعان لجرداء. لقد وصلنا في المساء إلى آخر الطريق بعد ثمانين أو تسع ساعات من المسير. لقد كانت حياض لجيش المكلف إنشاء لطريق مصوره في مدخل وادي حيران المريض على صف واحد، ومتعازية إحداه من لأخرى، حتى إنها تولد شعوراً بالروعة وسط هذا الفجر /٥٢/ الصحراوي. وتناس سويها لأبيض مع خلفية العروب التي كان الغلام قد بدأ يعشاه

كما قد مررت بالمعسكر وهو حال، لأن وقت مرورنا صادف حلال ساعات العمل. وقد كان الحدود يهودون إليه، وأدوات العمل على أكتافهم، وكأنهم مجرد عمال بسطاء، بعد يوم عمل صعب. إن هذا الجمع الكبير من الرجال في بلد يحترق من كل شيء، استند موارده، لما طالت إقامته حتى انتشر الجوع بين سكانها، ولم يعد لدى البدو ما يأكلونه، ولا ما يطعمون به جمالهم، وقد حاولت عنّا البحث في الطور عن حروف محتاجة حلال أسفر، ولم يجد معنا بأي شيء كان. ثم شاءت المصادفة أن نجد واحداً كان صاحبه يذهب إلى المعسكر لبيعه، وقد طلب ما يقابله ثمناً مرتفعاً. كان الحيوان المكيين هريلاً مما جعل طاحنا غامبارو ماراسي يرفض تعاد إنهم لشراء.

لقد كنت حاجات الحدود لضرورة كلها تُستفد من الفهرة، وتستحق

في ظل هذه الأحرار اشهر الذي تدفعه مصر لإرضاء الرواب الشادة لمرعونها
الحديد

أما لمهندسين الفرنسيين المكلفين بإنشاء ذلك لمشروع الحنف وعبر
لمفيد، وأحد سبب لي الحديث عهما، وحما M.M.Couchelet موشليه، و
Vivas فيس، فقد كما يقيمان للاستطلاع قرب جبل ماني بتجار حول
لوادي بالنساعه، وبعد مسافه ميل أو ميلين عن المعسكر باتجاه الأمام، في
لنسم لمقبر من الوادي / ٥٣ / حل الليل ولم يهد إليهما إلا بصحوة وسط
لظلمات والصحور مجحوا احراً في لقاتهما، مصيبا حيمس لي حاب
حيمسهم، وأبول حيمس، لأن حيتي احرف، كما ذكرت، في السوس،
ولم أستطع للحصول على حري، وقد وجدت نفسي مجبراً موقفاً على مشاركة
رسمي في السير حيث كتب أحمل للمهندسين رسائل من أصدقائهم في
لقاهرة، وقد استعلاسي استعلا حاراً، وقاما مواجب الصيانة أحسن فيم،
باهيك هي أنهما زوداني بمعلومات كثيرة نسيبة عن البلد

تشرق اشهر متأخره في هذه الأمان، وقد موجب عدم اشرفت
بعظمه المشهد الذي جاء نور الشمس لبطهره أمام عبي، وبم أكر في يوم
اسابق عند الوصول ليلاً قد لمحت إلا صلاله وسط الظلام بين وادي حيران
إلا ممر صيقاً محفوراً عمودياً في جبل مريان من جانب، ومن لجانب الآخر
في سلسلة جديه من الطبيعة مفسها، وتنمي إلى الظلم الجبولوجي معه،
ونمد في الاتجاه معه وتشكل هاتان السلسلتان كما يدور سلسلة واحدة،
ويدور أن كتلتها المتماكة تتحدى أبدأ قوى الطبيعة المدمرة كيف ومتى
انفصل، وأي قوة عظي لا يصمد شيء أمامها أحدثت ديت الانهيار، وحمرت
في الجرايت ذلك الشئ العميق هل الماء أم النار / ٥٤ / إن كنت لفرصين
متساويان في الصحة

ومع أن الصفة محفظ بسر ثوراتها، وأنه ليس هناك أي ذكريات مكنونة
لنشت منها ومسحتها، لأنه لم يتح لأبصار أي من البشر أن تأملها، على الرغم
من كل ذلك، فإن آثارها المادية تظل موحوده وثاته في مظهر لا يمكن

موجود من سطح الكون؛ لتشكل للعلم صوى غير الغرور

بدل وجود كتل الحرايب التي سقطت من الأعلى إلى لراذي على حدوث اضطراب صحم، وهي منعاء هناك في قعر ذلك الحندق العميق؛ بعضها محيط بصحر، وكأنها حدث نوحى بعالم سبق وجود الإنسان على الأرض. وإنه لمن العث أن يبحث المرء هنا عن الطل ولحصرة يد لا يجد، دستاء بحلة هرة مفردة على صحرة بائنة، أي أشجار أخرى، ليس هناك قطعة عشب صغيرة، والصخور كلها عارية، ويشتر في كل مكان الكفة والموث.

هد المصيق المحيف، والرائع هو النهو المناسب للوصول إلى جبل سيباء. كنت لطريق الكرى تنهي في هذا المكان، ولكن اعمل به كان يسير نشاط استثنائي، ولكنه كان بطيئاً جداً، مداره صر عباس باشا الذي يكاد يعدد. ولم يكن المهندسون الذين كان متعجلهم يستطيعون لعب على عقبات المكان، لا بصحوة كبيرة، وباستخدام المنحدرات والآلات

لقد كان يسعى في كل خطوة، بصغير قطع صحمة من الحريت التي كانت تقع في مجرى المسيل محدثة صمحه كبيرة، وتسد مجرى الماء الذي كان يتثر في كل مكان ويعمر المنحصر / ٥٥ / ولما كان كل ما يفعله العرب مترافقاً بالابراع، فإن صدى أعالي العمال كانت تردده الحال، وكان عالياً ما يقطع ذلك ارتداد صوت انبحار الألعام، وتهاوي الصخور ولم يكن بالسهل صيب أن يحرج الملبين من هذا الركام من الماء والحجرة والرحال. ولم نستطع التخلص من ذلك إلا سيراً على الأقدام، لأن الهجر التي خلعت لرمال، وبالأراضي السهلة، كانت أكثر اضطراباً مما في هذا لمرآك السلاحم

وقد تمت المرافعون نظري حرصاً إلى مسبة^(١) طبيعية، ماؤها هادي وصفاف كأنما هو في معطس، ولست أدري لماذا يسميها الناس، حشم

(١) Vasque مسبة، كنه من أصل عربي يعصد بها حوص من رحام في وسطه نافورة

النصاري ولما تجاورنا هذه العاقبة الصعبة، بعد تعب، وتعرض للمحطرات، ولكن دون حوادث، وصلنا إلى سفحه من الوادي أقل وعوره وأكثر اتساعاً، منها مع صين الماء لمد كان امتعاً معاجاً من جهنم من الصحور إلى حة من المحصرة بحس الماء من الارض متدعماً وسط العشب الكثيف، تتعلق حوله مجموعة من أشجار الحبل الجعيلة التي يتكاثر عددها حتى تشكل في بعض المواقع أحمة لا تعد أشعة الشمس من خلالها إلا التبرير يحمل هذه البواحة غير المنتظرة ثروة لا تظهر بمن.

وكلما نعدم بنا المير أصبحت المظمة أكثر رخابة من الجبس، وبعد دون أن نشعر بذلك من نف حيران إلى الوادي^(١) الذي يحمل الاسم نفسه تطلق العرب اسم الوادي / ٥٦ / على المكان الصبح المروع عادة بالأشجار، وهو بالألمانية Tha، ويوافق مع Huerta الإسبانية

ليس في وادي حيران من مرروعات أخرى، عدا أشجار حبل تنمر لشي نشر طلائها في مدخل الوادي، ثم تساقص شيئاً فشيئاً، وينتهي بها الأمر إلى أن تحتوي تماماً أرض الوادي فسية، تكثر فيها الحجاره، ونفتقر أحيان بجاسة إلى أي نوع من الحياة، ولكن طرافة نكويائنها تعرض عن تحطها أما جبل سرنال، الذي أدركنا له ظهورنا بعد أن درنا حوله، فإنه أكثر علواً من الحبال لأخرى، وتنتشر كتلة مسددراته الجرداء على فرائح عديدة من المصقة. وهناك مسيل ماء ضئيل، يدعت النظر إليه ما في هذا الكون من قحط، ويحمل اسماً صحيحاً هو عين السم، وإن كان هذا الاسم صحيحاً فإنه لا شفق مع الواقع لمحيي باعتبار أنه لم يعد هناك وجود للسم في هذه الأسحاء. وليس هناك إلا بعض القهود ويعلق الوادي من هذه الناحية سبب أو مسددر حيران الذي يسمى أيضاً الحجابي^(٢) De L'adjani، وهي طلعة صحيفة تكون حياة الرك

(١) وادي حيران يشأ من عقب حيوان شرقي جبل سرنال، ويسير متعرجاً نحو البحر ١٥

ميلاً في سهل الفاع على علو نحو ١٦ ميلاً من مدينه النور وهو في طريقه

المدنية من الدبر والعبدة انظر تاريخ سيناء، موشق سابقاً، ص ٥٩

(٢) كذا في الأصل ولعلها المعجاء

فيها مرهونة نكوة من ركونه، بسبب وعودة الطريق، وكثرة الحجارة فيها،
 وقربها من اليهودية بذلك صعدت هذه المظلة الطويلة التي لا تنتهي على
 القدمين واستمرت جعله التعديت ساعة حساساً قريباً ويرى اساطير من القصة
 عدداً كبيراً من الأودية بين الممر فيها، تتداخل بعضها في بعضها الآخر، والتي
 لا يمكن إلا لفطرة لدوي وحدها أن تكون دليلاً للتوجه فيها لأبي جميعاً
 محاطة ومحددة / ٥٧ / بهصاب أو جبال نشأة حمالياً بأنها جميعاً مجردة
 ومعرومة من أي زرع.

وعلى الرعم من فحطها، فإن هذا المظر يأسر الأناب، ولم أستطع أن
 أحول نظري عنه، ولا أن أفكر بأمر آخر، وأنا أتجمل موسى وقومه، وقد
 نصروا حياهم في هذه الأماكن الموحشة

كان يسعي علينا بعد أن صعدت، أن سجدت على الأقدام، ساعة أخرى من
 تعب؛ لأن المكان في هذه الناحية هو أسوأ من الصعود، إن كان هناك ما هو
 أسوأ وعلى الرعم من أن لم يكن بركب الهجن، وهي تتحرك بالناسي بحرية،
 فيها كنت تتعثر في كل خطوة، أما الجمال التي تحسن أمتعتنا فقد كان
 لجمالون محجرين على أن يسدوا الحمولة من الحاسر لمتعتها من الوقوع في
 المهاوي وربما كان الحصان، والفعل على وجه الخصوص أكثر ماسة من
 الحصان يمثل هذه الظروف؛ ولكن قنائل الطورة لا تمتد حيلاً ولا بعلاً
 وصلنا أخيراً، بعد بعض وجري، بنهاية ذلك المنحدر الشديد، ودخلنا في وادي
 "حر"، إنه وادي صلاف^(١) كتب الجمال هنا، ولحمد الله، على الأرض
 المساسة لها؛ أي على طريق رملية مستوية، ولم يكن هناك من تعبير إلا هذا
 فجمال هذا الوادي الجديد لها أوصاف الجبال السابعة نفسها، فهي شبيهة في
 حلولها من أي نبات، وفي لكأنة التي نجيم عليها

(١) في تاريخ سيناء، موضح سابقاً، ص ٥١، أنه من أشهر فروع ودي الشيخ
 وأكبرها وفي وادي صلاف بالقرب من مصب النجسة عند مروره بفت
 حيران نواويس للمكان الأصليين

وعنى العكس مما سبق فإن الرمل هنا نريه / ٥٨ / أرهاق جميعه بيضاء وصفره وبسحجية تحف من لمعانه، وتمسح النظر راحة وهدوء، وبعد في هذه الأودية الصفره، وهي ذات يتج المرء ذلك الرحيق السماوي^(١) الذي رده الله لسي إسرائيل عندما ناهوا في سبائه لقد كنت تشتر حول فصع صحمة من نبات لزيم؛ وهو ذات ينبر بأنه يشعل وهو أحضر، مما يمنحه قيمة كبيرة في هذه الصحراء التي لا غابات فيها وقد كان في تلك الليلة دا فنده عظيمة لنا، لأن الهواء كان شديد البرودة، ومع أن ممسكنا نصغير كان محمياً بأكمة من الحرايب، فقد كنا سفساسي من انبرد بولا اسار المأحجه واصفوقه لني استعد ما ذلك الساب في إشعالها وتفقدتها طوال الليل كانت ليلة الأولى التي أقصيتها حقيقة في الصحراء، في أيوم السابق كنت في أوروبا، تحت حيمة المهندسين العرييين، أما صحراء اسويس التي صني لي لبحيم فيها، فسي أصر على ألا أسميها صحراء؛ سب سر حاتها، وعمرات السمر التي تحونها، ومحطات الرق فيها، وغير ذلك من لاجراءات لأوروبية التي غشيتها

لا شيء من ذلك هنا ليس هنا ضفاف، ولا صف بيت واحد، ولا شرة في كل مكان، هناك العرلة ولهدوء كان الهواء في نصح كثر بروده مما كان عليه في المساء، ومع أن قرص الشمس كان منتعما، فإنه لم يمسح نحو بعض السحابة بعد لقد انطبقا مأخرين، ذلك أن جملاً هزجاً هرب بعد أن تم تحميله، لقد هرب بكل ما يحمله، وكان يلزم قائده بعض الوقت / ٥٩ / ليتمسك به، ولم تم إعادته إلا بعد مفارقه شديدة مثل طوال فترة اصباح على أرض رملية مستوية تماماً كما يرى الطبيعة التي رأيها في أيوم السابق، الحال يسهاء والأفق يسه وينتهي عند من الأودية إلى الوادي

(١) Ambrosio Cesta طعام يُظن أنه أكله عشر مرات من النمسا، وطرقه معروف شجرة القمح إذ تسلط عليها دوده كلودة المر تقب حنوعها وعصبيتها ليخرج من الثقب صمغ حلو المذاق يلتصق به سبائه، ويجعلونه في علب صغيرة من الصمغ ويبيعونه لزوار الدير والملاح، أو يأتون به إلى مصر فيبيعونه فيها باسم اسن

الذي مقبره، وإن اعرضها وأكثرها صلاحية لمسير المعاول فيه هو وادي فيران^(١) الذي يمتد إلى أسبار، ويحذر حتى البحر وييسر كما يمر أمامه جرح عليا منه يدوي يسير على قدميه، تمر من واديها العظيمة تدور عليه، ودون أن ينقي لسلام، وأقصى وراء صحرة دون أن يكلف نفسه ماء إدارة رأسه لرويتنا.

لقد كان أول من رأى ماء عند وادي حيران فقد كان هناك غير بعيد عن معبرة، ولما كان المدو داتمي الترحل إليهم لم يكن بهم أماكن محددة لدى مواسمهم، بل كانوا يدفعونهم في ليلاء معردين، وإن العلامة لوحدة لنت الصور المندثرة، هي مجرد حجر طبيعي يتردد بحمليها من شبه الصباغ المقررة

إن هدي السهول يحمل معه عظام أحداه: أما عربي انصحاء، فانه يوكلهم إلى عناية الله ورسوله وصدا أحير إلى مصبق وادي بدير وسعي بذلك لأنه يقع بحوار دير ساء ردير ميباه آخر لمعاقب لطبيعة المرتفعة بين البحر الأحمر وجبل سباء، والتي فُقد لها أن تعيش أحداثاً عظيمة، وإن حد المعقل أكثر ريعاً، وأكثر عرضاً، وأكثر إثارة لدرع أيضاً من بقب / ٦٠ / حرد، الذي ليس إلا صورة مسطحة عنه ولم أر أي مكان في أوروبا أكثر قطاعاً منه، حتى في أكثر الأماكن توحشاً، وأكثرها وعورة في جبال الألب وجبال كاربات^(٢) Carpathes إن المكان صورة عن السديم، ليس لسديم يدي سبق مصاص المعاصر، ولكنه السديم الذي يتو فاء الكون، إن مثل هذه المشهد تسمعي على كل وصف، وإن فرشاة سلفاتور رور^(٣) Salvator

- (١) وادي فيران أو فيران، وهو أشهر أودية الحيرة كلها قديماً وحديثاً وعمرها ماء وبحيلاً ويشكل مع وادي الشيخ واديا واحداً، القسم الأعلى منه وادي الشيخ، ولأسفل وادي فيران وله عدة فروع أشهرها وادي سباء، حوث سباء، ص ٥٢
- (٢) منطقة بين حيرة كريت وحيرة رودوس على البحر المتوسط مشهورة بمناظرها الوعرة

- (٣) (Salvator) Rosa رسام وساحب وساعر وموسيقي، ولد في رونيلا Ronella بالقرب من نابولي Naples عام (١٦١٥م)، ومات في روما عام (١٦٧٣م) ستر لوحاته =

Rosa هي وحدها العائدة على رسم منظر الرعب هذاء لتتصور أن جيلاً ضحماً من الجرائيت يتداعى بسبب هزة أرضية مخيفة، أو بسبب اصطدام بحرم سماوي، ويعطى بأنقاصه المهاوي السحيقة حوله، ويحمل على حسه لمحة من الآثار التي لا تُمحى لذلك لا هتزاز المحبف وعطى أنه مد انكاره لم يعبر شيء، ولو بها حدثت في ليوم السابق لما كان امطر أكثر حملاً أما لصحور فيها منكسرة، ومعطمة، ومن كل الأنوار والأشكال، وهي عارية كما كانت في أول يوم بعد حتمها، ومرت القرون دون أن تترك عليها مثلاً درة من التراب تصالح للرراعة، ولم يستعج أدا أي شيء حي، أن يمد جدوه في مبراطورية الموت والكاهن والعقم هذه، غير أن بعض قطع الثياب تُظَلُّ برؤسها بصعوبة ها وهناك بين تشققات الصحور يسمح / ٦ / في الأفق البعيد على مدى انصر شجرتين وحيدتين هما بحلة تمر هريضة، وشجرة تين أكثر هراً وكان هناك بعض الكهوف المحفورة في قلب تحريبت، أما لكتل السهبة سي تصدعت، وبكسرت في أثناء سقوطها، فيها مملوءة بحرق عريضة، لا رأت تنوء، تنه حادة كما يو أنها في أيام سقوطها الأولى وقد حفر بعض منها كوى مربعة الروايا، يظهر وكأن يداً بشرية حمرتها يهدف غير معروف، وربما كانت يد العبرانيين الذين كان عليهم بالضرورة أن يعبروا هذا السمر المحبف بقروهم موسى ^(١).

إن الصوت السيط يتحول في هذا المكان المحبف إلى صدى، وعلى لرغم من أن ذلك لا يحدث إلا نادراً، ولكنه حتم بصح شتاً قطيعاً، يتكرر آلاف المرات، حتى لتحسب الطفل الباري صوت مدفع، حسب برمحف محبل من أساسه، ثم يعود كل شيء إلى الصمت أياماً وشهوراً كاملة كاللدير^(٢).

- دلابه تحو حشه، وبالمشاهد المعينة والقاس مثل المعارك والمصور

- (١) دير طور سيناء لبروم الأ. ثودكس، وقد سي على اسم لفظة كنزياً بدئت يدعى ابصا دير القديسة كاترب (كاترين)، وله ربه مضاء برفع على صه كنيسته الكرون في أيام امور سم والاعساد، وهو ورفق في سطح قعه من قعم طور سيناء على أحد مروج وادي الشبح ويعطو بحر ٥٠١٢ قدماً عن سطح البحر نظراً وصفاً مفصلاً للدير في -

على بعد خطوات من ها، احتاج وصولاً إليه ثلاث ساعات إلى أسواره
 الحرايبية العاليه، والأعلام الثلاثة التي برزت على درونه علم موسى،
 والقديس جورج، والقديس كاترين، تجعلنا نض أن قلعة أكثر منه دير^١ وهو
 في لحقيقه قنعه أقيمت في حصص الصحراء، وعلى أرض إسلاميه، وهي
 تتعرض لخطر عدوين هما المصعب والظلم، فقد هاجمه /٦٢/ لدو لدين
 تعريض ثرواته عدة مرات، وكان على سكانه أن يتحدوا عدة إحصاءات عسكريه
 نصدهم؛ يملك ادير، ناهض عن مدعص، ترسانة مملوءه بالأسلحة من كل
 نوع وليس هذا بغليل من أجل رجال سلام. إن ثواب الكبير والوحيد لهذا
 الصرح الضخم معلق منذ ما يقارب قرنين، ولا يفتح إلا في المناسبات الكبرى
 في أثناء زيارة الشخصيات الكري في الكنيسة اليونانية، وهذا لا يكاد يتم إلا
 كل ثلاث أو أربع سنوات أما في الأوقات الأخرى، فإن باب معلق بإحكام،
 ولا يمكن جيل الدخول إلى ساحة ادير، إلا عبر كوة مفتتة في الحائط على
 عمق أربعين متراً من الأرض، يُرفع من يريد الدخول بها بواسطة الحبال، بعد
 أن يتحدث مع الرهبان، ويعطى اسمه ومركزه.

ولما وصلنا إلى أسفل السور، وترحلنا عن الهجر، قُرع الناقوس معبداً
 وصولنا، وأهل رهبنة النوبة برأته من الكوة، وألقى إلينا حبلأً سريط فيه
 رساله تعريف رودنا بها كومننا لكبير رهبان ادير. وحال انتصارنا لحوب ندي
 وصل بعد وقت طويل ودخلنا ادير نيس عبر الرح اندي أعفونا من الصعود
 إليه وإنما عبر باب سري تم فتحه موحراً في الجباب الآخر من الباء خلافاً
 للأوامر والحذر، ولا يسعرق سداً هذا الباب في حاله التعرض للهجوم إلا
 بصعق دقيق ولما تجاوزت الباب السري الذي كان محفوظاً حتى اني لم
 أتمكن من الدخول إلا بعد احباء شديد /٦٣/ مررت بعدد من لأفنة، عبر
 مساوية، وعبر متطمة، ثم عبر نفق معلق مساح من الحديد، ثم جاء آخر
 أيضاً، حتى وصلت أخيراً غير درج خشبي إلى رواق ادير المخصص
 للأحاب، والذي كان قد سمي إليه مانتحان من العالم الجديد.

= كتاب تاريخ صباء، موني سابقاً، ص ٢٠٥ - ٢٣٠

أما المساكن المخصصة للمسافرين، فقد كانت تظل على ممر بجمه
 انظر منه يشمل الصرح كله ويحيط إليها أما يرى قرية كبيرة تحيط بها
 الجدران ولا يسعى أن يبحث عن نظام معماري، أو محصن لهذه القرية إنما
 مباحة من لأبيه المكدسة المتداخل بعضها فوق بعض، حسب طبيعة الأرض
 وراحة السكان، بها الموصى عليها وإن أول ما يلفت النظر وجود مسجد
 تقع مدرته وسط المكان، وإن هذا الأمر الذي يصعب على المسيحي تقبله
 فرصة لسطون سليم على الرهبان لكي يظل موجود للدير، ومقابل بعض
 الميراث الديوبية التي حصن بها جماعة الرهبان التي تعيش في الدير، وإن
 القرمات الذي يضمن لهم تلك الميراث، موجود لديهم في أرسمب دير،
 لكنهم لم يظنوني على، وسواء كان موجوداً أم لا، فإن أحداً لم يره حسب
 علمي ويذكر أن أبي محمد ^{رحمته} أعطى رهبان دير عهد من، وليس ذلك
 لأمر تاريخي بمستحيل أسس هذا الدير الإمبراطور يوستينيوس Justinien
 وزوجته ^(١) Thodora في عام ٥٢٧ ميلادية / ٦٤١ / بعد يعني أن سنة

(١) كتبنا الاسم كما هما مذكوران على الحجر فوق باب الدير، حسبما ذكر عموم شقير
 في كتاب تاريخ سيناء، موثق سابقاً، ص ٢٠٨، والنقش بتمامه: «أنشأ دير طور
 سيناء وكسبه حل المناجاة القدير في الرابعي وهو مولد الملك المهدب الرومي
 المذهب يوستينيوس تذكروا به ولوجهه ماضرة على مرور الزمان حتى يرث الله
 الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وتم بناؤه بعد ثلاثين سنة من ملكه ونصب
 به رأساً اسمه هولاس حرق ذلك سنة ٦٠٢١ لأنه الموصى له بيع السيد المسيح
 ٥٢٧» وعلق عموم بث شهر مرقته إن النقش يعود إلى القرن الثاني عشر أو الثالث
 عشر وفيهما غلطتان توضحيان الأولى أن أول رئيس سمي للدير هو لاف
 لوجيبوس وليس هولاس، والثانية أن الملك يوستينيوس لا يمكن أن يكون قد
 أتم سنة الدير سنة ٥٢٧ لأن هذه السنة هي سنة ملكه، وكان ذلك مشغولاً بالحروب
 كما هو ثابت في التاريخ وإذا صح أنه أنه بعد ٣٠ سنة من ملكه كما في هذا الأثر
 فيكون قد تم سنة ٥٥٧ ورجح شقير أن يكون قد تم سنة الدير في نحو سنة ٥٤٥
 معتمداً لرهبان سيناء، تاريخ سيناء، ص ٢٠٩ ويوستينيوس الأول يوستينيان الأول
 (٤٨٣ - ٥٢٥ م) إمبراطور بيزنطي (٥٢٧ - ٥٦٥ م) جمع الشرائع الرومانية ودونها

كان قبل التاريخ الهجري لإسلامي نفوذ من الرمن وليس هناك ما يمنع أن يكون النبي ﷺ قد جاء لزيارة الدير؛ وتؤكد ذلك كتب الاحبار العرسية، وصيف أن عروجه إلى السماء تم من على قمة جبل سيباء^(١)

وإذ كان وجود المسجد^(٢) في هذا المكان يدهش ويلعب النظر، في الكسبة لا تظهر من النظرة الأولى، وليس لها ما يميزها من السقوف ولشرفات التي تعرق الكسبة في وسطها ولكنها مغموصة عن سطح شكلها الخارجي بروعتها الداخلية بها وعاء دثق الجمال نصف بريضي، ونصف روماني، يقوم على أعمده من الحرايب التي طلعت للأصناف بانكس، وعند سم في حدرج تلك الأعمدة حصر صندان يونانية، مما يعيد السق ويلف بهاءه إن جمان العمود أن يكون عدياً ومستوياً تماماً، ومع أن تصلح لأعمدة اختراع قديم، فإني أرى أنه تشويه للمساحة الداسة للفن، وعلامه من علامات انحطاطه، إلا أنه لا ينبغي أن نبحث في الكائنات اليونانية لا عن السادة ولا عن الفن وإن هذه الكسبة يتفصها الشيطان المذكوران إن ليريق الحدع، وفساد اندرق بصدمته في كل خطوة تحطوه فيها

كان السقف أروق ذهبياً، يمثل قبة السماء لملوءة بالجوم، وتندلى منه ثريات مفرطة في الحداثة، ولا تتناسب، على الرغم من أنها، مع مساحة المعبد المسيحي ونطق الوصف نفسه على المدبح لرئيسي الذي تزدحم عليه الأصناف /٦٥/ ولحراشف التريبة والصناد المريبة بالأحجار

(١) يذكر عموم شير في تاريخ سيباء، مرق سافا، ص ٢٢٠ المعهد السوية وهي في تقايد الرمان كتاب العهد الذي كتبه لهم النبي محمد ﷺ في السنة الثامنة للهجرة قالوا وقد كان الأصل محفوظاً في الدير التي منح السلطان سليم مصره ١٥١٧م فأخذ الأصل وأعطاهم مسجد مع ترجمتها التركية وهي اسكنة الآن هذه سبع منها بعضها على رء عرنا، وبعضها على ورق ميس، وبعضها في دفتر حصص؛ ونظر حديثاً مفصلاً عن المعهد السوية في ص ٤٩٥

(٢) انظر حديثاً مفصلاً عن المسجد وسائته في كتاب تاريخ سيباء، مرق سافا، ص ٢١٤ - ٢١٧، وص ٥١٠ - ٥١٢.

لكريمة، أو لمرعومه كذلك، والتي يعرضونها بحذر لتثير الإعجاب أكثر مما تدفع المؤمنين لاشتراف الورع. والواقع أن تلك التحف هي هدايا من أحد السلاة لاثرياء الروس الذين ينمون إلى الكفة المشقة (عن الكنيسة الرومانية) ولما ادعى الإمبراطور بقولاً^(١) أنه حامي أبناء ديه الذين يعيشون في أراضي الإمبراطورية العثمانية، فإنه لم يسر هؤلاء الرهبان، بل إنهم تلقوا منه هدايا سخية، بدل على كرمه واهتمامه. وإن كل تلك التحف، كثيرة كانت م قلده، هي مربة حيدة، وليس بينها ما هو قديم، كما يبدو عليها ذلك واستثني لباب الرئيسي للدخول الذي يبدو عليه علامات القدم، وهو مرصع بحروف على المعدن صنعت بمهارة عجيبة، وأحال أسى قرأت عليه تاريخاً يعود إلى القرن السابع الميلادي.

لن أستطيع هنا، ولا أريد أن أذكر كل شيء، ولكنني أشير على سبيل لذكرى إلى عدد من اللوحات البرصية التي لا تكتب إلا أهمية عادية، وإلى لوحات ذات أهمية بسيطة أيضاً، تمثل صورة بعض الوجهاء المشهورين، أو صور بعض قديسي التقويم الإغريقي (ليوناني)، وصورة كبيرة لمشهد تحلي سيد المسيح عليه السلام، وأخيراً هناك رصيعتان كبيرتان لمؤسسي دير الإمبراطور يوستيانوس وورجته الإمبراطورة ناضورة. ولا يمكن أن أمضي دون الإشارة إلى لمورايك الذي يكرر أطراف قبة صدر الكنيسة التي يرى فيها موسى راكباً على ركنه أمام المعبدة المشتعلة، وفي لأسفل براه ممثلاً وهو يتلقى أرواح الوصايا العشر^(٢) ومن الملاحظ أن بي بي إسرائيل (موسى عليه السلام) لا يبدو في اللوحات الشرقية / ٦٦ / بالهيئة القاسية والرهابة التي تمثله بها في أوروبا، والتي أرسى دعائمها ميكيل أنجلو^(٣) Michel Ange في

(١) نقولا Nicolas ويك Nicholas لأول (١٧٩٦ - ١٨٥٥) قصر سانت من عام

(١٨٢٥ - ١٨٥٥) عرف بترجمته الشديدة، وسحق ثورة الديسمبريين (١٨٢٥م)

(٢) انظر تاريخ ميناء، مونت سافوا، ص ٢٦٠ - ٢٦١

(٣) Michel-Ange, Michelangelo ميكيل أنجلو (١٤٧٥ - ١٥٦٤م، نحات ورسام

ومهندس معمار إيطالي، يُعد أحد أعظم الفنانين في جميع العصور

رائعته^(١) الموحوده في كسمة القديس بيير (في روما - لافانيكا) Saint-Pierre Aux liens، ونكتهم يمثلونه بصورة شاب بلا لحة، يرتدي حذاءً أروق وعباءة بيضاء، وهناك مصلى يحمل اسمه يقع على يسار المذبح الفرنسي، في الساحة التي توجد فيها العليقة المستعلة، على الأقل حسب ما يقوه ارهان اليونانيون ولا يُسمح لأحد بأن يطأ هذه الأرض المقدسة إلا بعد أن يحلم بعبه ويضعها على لباب كما هو الحال على باب المسجد لنأمل بزعمان قوة المحاكاة ولعدوى بالمحاورة^(٢) إن الممارسات الإسلامية وحدث طريقها هنا لتصل إلى كهنة المسيح قديس كان هذا دير لكبير لدني في اشرف يُسمى في الماضي، وربما تم تاسيسه بهذا الاسم، دير التحلي، وهو اليوم يسمى باسم القديسه كاترين Sainte Catherine التي حميه، ويحتوي على رفاتها، كان اسمها في حياتها دوروثي Dorothe، تنصرت في القرن الرابع الميلادي، أما اسم كاترين الذي سُقبت به بعد موتها فونه مشتق من كلمه الصربية Celhar التي تعني النح، وقد مُنحت هذا الاسم لأنها جمعت كما يقول القديس جبريم^(٣) Saint Jérôme ناجاً ثلاثاً من العذرية ولشهادة واعدهم، لأنها كانت عالمة قبل أن تكون عديسه، كانت تحارب هدايه الفلاسفة الذين كانوا يحاربون بدورهم أن يشوها عن معتقدها، وظلت رهباً طويلاً رئيسة المدارس لقسسية، كما كانت أيضاً رئيسة مدارس الفتيات /٦٧/ وقد وضع

- (١) تحت مبكى المهدى مثلاً لموسى عليه السلام. موجوداً في كس المديس ببر في
الاسكان، ويبدو على المثال معالم الحب والنور والسنة
- (٢) ليس الأمر كما يقول ديديه وإنما جمع الفعل انشأ من سخط الله تعالى لموسى عليه السلام
في نوبه في سروره، الأبواب ص ٩ - ١٢ ﴿وَقَدْ أَتَيْتُكَ حَيْثُ تُوسِعُ﴾ (١) ﴿وَرَأَيْتُكَ
فَقَدْ لَأَهْلِيهِ مَكُونٌ يَوْمَ نَأْتِيَتْكَ نَارُ ثَلْجٍ مَبْكٍ يَتَا يَتِيهِمْ أَوْ أَيْدٍ عَلَى أَنْتَرِ هَذَى ظَلَا نَتَبْ
نُورِي مُسَوِّنٌ﴾ (٢) ﴿يَا أَنَا رَمْلُكَ تَمْلَعُ مَتَيْكَ إِنَّكَ يَا لَوْنِ الْمَقْدِسِ حُلِي﴾ (٣)
- (٣) أحد أكثر آباء الكبيسه اللاتيه ولد في عام ٣٣٦م وتوفي في بيت لحم عام ٤٢٠م
اشتهر بمولفاته النصيرية، راجع الترجمة الإعرابية للمهد القديم، ووضع ترجمته
لاتيه له في نسخة العبرية

رفاتها في صربح فحم، تشتعل حوله اصواء الشموع لير يهدو، ويأتي إليه في كل سنة عدد كبير من الحجاج

ولكن انتهى من الحديث عن كسبة القديسة كاريو، ولكني أكون صادراً في مثل الحقيقة، يعني القول إنها موضع عبادة كبيرة، ولا يمكن بدء أي ملحوظة على بعضها، ولكن يرافقها صغرة حد، ولا بدق بمعدله شهرة كبيرة، وينمغ بحلال عظم وهي تمثل عرساً عن ذلك ملحوظة من الأجراس (مصلصه Carillon) التي ليست كذا أعنف لا صبيحة من الحديد يُصيرت عليها معرفة، ومصلصه أخرى من الحطب شبه الآري في يد سها، واعي بفرعها قارع الأجراس طوال النهار، كما يُستخدم في إيضاب سافوس الحسبي e Crece في يوم الجمعة العظيمة

ثم مكسة لدير، فهي فقيرة بالكسب المهمة، ومناج كل كسب موجوده فيها موضوعات دينية، ولكن في مدخل ذلك حبة بالمحفوظات العربية واليونانية، وسلاية أيضاً ولا شك أنه بالإمكان استخراج معلومات مفيدة منها. ونكر الرهبان حرصون عليها دون أن يدروها ولم يعودوا يسحبونها، أنهم يكتبون باظهارها للزوار لأشع بصورتهم، ومن ذلك الملحوظات بسحة من مواخير داود مكتوبة بخط صغير، كسبها بقديسة كاسيانا Sainte Cassine، وسحة من الإنجيل مكتوبة بدءاً للذهب اهداها إلى مكسة لدير لامرطور ثيودوسوس Thodose بمرناً ومعبراً عن الإخلاص^(١)

من الرهبان اليونانيين لا يصحون أقدامهم في مكنتهم أبدأ، ولكنهم يدهون رءس إلى حديقهم الواقعة خارج أسوار لدير / ٦٨ وقد لاحظت في الحديقة عدد وصول بعض أشجار الزيتون، وسروة رائعة، وشجرات لور مرهرة، وتسبح الحديقة فصلاً عما ذكرناه ياً وعماً وإحصاً (كمثري) مشهورة بحودتها في الدهرة ويمثلك الدير حديقة أخرى، بل عدة حدائق كما أظن في

(١) انظر حديثاً مفصلاً عن مكسة الدير ومجودته في كتاب تاريخ سيباء، مؤلف سابقاً، ص ٢١٨ - ٢٢٠

بعض لأودية المجاورة وإن النهر داخل الدبر هي النهر التي قابل عليها موسى
 ﷺ، قل أن يبعث، وهي أثنه هربه من مصر بسبب قتله رجلاً، سي لسي
 شعب الميعوث إلى مدين، وكأنا قد أنسا النهر لسفابه موثي وأندس، ولما
 وصلنا أراد بعض لرعاة إبعادهما عن النهر، ولكن موسى ﷺ ساعدهما،
 واستخرج لهما نهما من النهر، وعندما علم والدهما بالأمر روجه بعدهما
 صفورة^(١) Sphora، وأصبح موسى رعيًا لمواثي والد روحه^(٢)

(١) Sphora صفورة مة شبيب حنة، وهي التي جلبت موسى ﷺ تعيش على استحياء
 كما وصفها القرآن الكريم، سورة القصص، الآية ٢٥

(٢) سفر الخروج، الفصل ١٦، والتي بينها (المؤلف)

هذه روية العهد القديم، أما القول الحو، فهو ما جاء به القرآن الكريم في قوله تعالى
 في سورة القصص، الايات من ١٥ إلى ٢٨ ﴿وَدَنَا النَّدِيَّةُ عَلَى حَبِي عَقَلُو مِنْ أَهْلِهَا تَوَحَّدَ
 فِيهَا رَجُلَيْنِ يَتَّبِعَانِي هَذَا مِنْ مِصْرَ وَمَذَا مِنْ عَدُوٍّ فَاتَمَسَّكَ أَحَدُهُمَا بِرُيْبِهِ عَلَى الْآخَرِ مِنْ عَدُوٍّ
 فَتَوَكَّرَ مُوسَى فَطَسَّ حَبِيَّ فَإِنْ عَدَا مِنْ عَمَلِ الشُّبْطِ إِنْ عَدُوٍّ شَوَّلَ شَبِي ١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنْ طَلَسْتُ نَفْسِي
 فَافْعَرْ فِي مَقْعَرِ نَفْسِي إِنْكُمْ هُوَ الْقَعُورُ الْزَجِيءُ ١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا نَفَسْتُ عَلَى مَرِّ الْكُرْكُ طَهِيرُ
 لِيُشْرِبِي ١٧﴾ فَأَتَسَّحَ فِي الْقَوِيَّ حَتَّى تَرَفَّ وَهَذَا الْبَدِي اسْتَسَرَّ، لِأَنَّهُ جَسَّسَتْهُ قَالَ لَمْ تُسَمِّمْ لَكَ
 لَعُونُ حَبِي ١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ لَرَدَّ أَنْ تَجَسَّسَ بِالْبَدِي هُوَ عَدُوٌّ لَهَا قَالَ سَمِعْتُ لُرَيْدُ أَنْ تَعْتَلِّي كَمَا فَتَتْ
 نَفْسًا لِأَنَّهُ إِنْ لُرَيْدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَذُوَّ فِي الْأَرْضِ وَمَا لُرَيْدُ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْقَطْلِي ١٩﴾ وَكَأَنَّ رَجُلًا مِنْ
 أَهْلِ النَّدِيَّةِ يَمِينُ قَالَ سَمِعْتُ مِنْكَ الشَّلَا لِيُشْرِبِي لَكَ بِشُكْرِكَ فَاحْرُجْ إِنْ لَكَ مِنْ أَشْجِي ٢٠﴾
 حَرَجَ مِنْهَا حَاتِمًا تَرَفَّ قَالَ رَبِّ يَحْيَى مِنْ الْقَوِيَّ الْقَطْلِي ٢١﴾ وَهَذَا وَهَذَا مَدْرَكُ قَالَ هُوَ رَجُلٌ أَنْ
 يَهْدِي سَرَّةَ السَّكِي ٢٢﴾ وَمَا لَرَدَّ مَا مَدْرَكُ وَبَدَّ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنْ لَكَ بِشُكْرِكَ وَكَهْ مِنْ
 دُونِهِمْ أَمْرًا لِي نَدُوْدًا قَالَ، حَطَبُكَ قَالَا لَا شَيْءَ مِنْ بَصِيرَةِ الرِّجَالِ وَتَوَكَّأَ شَيْخٌ حَكِيمٌ ٢٣﴾
 فَسَرَى لَهَا شَرُّ نَوَّلٍ إِلَى الْبَدِي فَجَالَتْ رَتِ بِنَ لَمَّا مَرَّتْ إِلَى مِنْ حَبِي فَهَبَ ٢٤﴾ فَهَذِهِ إِحْدَاهُمَا
 تَعْنِي عَلَى كَسْبَتَاتٍ قَالَ إِنْكَ أَنْ يَدْعُوكَ لِخَيْرِيكَ لَعَرْ مَا مَقَّيْتِ لَنَا فَلَمَّا حَكَهُ وَقَصَّ صَبِي
 أَنْصَحَ قَالَ لَا عَفَتْ بِحَوَّتِ مِنْ الْقَوِيَّ الْقَطْلِي ٢٥﴾ فَلَمَّا إِحْدَاهُمَا كَاتَبَ اسْتَعْمَرَتْ إِنْكَ حَرِ
 نِي اسْتَعْمَرَتْ الْقَوِيَّ الْأَمِي ٢٦﴾ قَالَ إِنْ لُرَيْدُ أَنْ لِيَكْفِكَ بِحَدِي كَسَى هَسِي عَلَى أَنْ تَأْخُذِي نَفْسِي
 بِمَحْرَجٍ إِنْ أَنْسَبَ عَسَا مِنْ يَدِيكَ وَمَا لُرَيْدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجُوبُ إِنْ شَكَاهُ أَنَّهُ مِنْ
 الْقَطْلِي ٢٧﴾ قَالَ لِيَكْ بَنِي وَيَكْ لِيَا الْأَجَلِي فَصَبَتْ فَلَا عُدُوكَ عَلَى وَاللَّهُ عَلَى مَا قَوْلُ
 وَحَكِيمٌ ٢٨﴾

إن هذه القلعة الهندية الضخمة محتاطة بعدد من القمم، ومحصورة بينها.
 وإن لكل واحدة من تلك القمم اسماً خاصاً في الشمال جبل ليهود وجبل
 حوريب، وفي الجنوب جبل المقدس أبيستيموس Épistème، وجبل لشرق
 جبل موسى^(١)، الذي يروي الأحبار أن مُخْتَصِص بني إسرائيل (موسى) رعى
 اعمام شعبه عند سفوحه، مع أنما لا يجد أي عشب في سفوحه ويتسع الوادي
 من العرب، وتتباعد الجبال ساعداً ملموساً لتحتل المكان السهل واسع كل
 الاتساع، وهو المكان الواسع الوحيد في تلك الاتجاه الذي يتسع / ٩٩ / بعدد
 كبير من الأسس وربما أقام العبريون معسكرهم في هذا المكان ويشير في هذا
 المكان حتماً إلى حجر هارون (مقام النبي هارون) الذي يُرعى أنه استخدم قاعدته
 لمعمل الذهبي إن المشهد الطبيعي في هذه الأسس در نسوة، قطيعة وجلال لا
 يضير له وإن قمم الجبال ومجدراتها عذبة تماماً، شربها شأن لقمم
 والمجدرات التي رأيناها حتى الآن، ولكن الشمس تلقي عليها في كل ساعات
 النهار، وفي المساء على وجه الخصوص، وفي الصباح بشكل أجمل، أحياناً
 صوبة متنوعة كل السور، ورائحة كل البرودة، حتى إنها لتعوض بموعداً بام
 تحط يمكن الذي لا يوذ روزه على أي هيئة أخرى إن في هذه النوحة
 سحرية تدرجاً في الألوان لا يمكن محاكاته، ولا يمكن وصفه

أما جبل موسى الذي ظل مصلماً ومعدداً بالصاب رمياً هويلاً بعد طلوع
 الشمس إلى تشرق من ورائه، فإنه بشكل حلقة النوحة، فيم كانت أسسه
 لا رل تعوض في لطق، كانت أعاليه مساء بالشمس

أما جلا حوريب والمقدس أبيستيموس فبهما مصطمان في ذلك الوقت
 بالون الأحمر والمعدني، وتنعكس تعرجات الصخور فيها ظللاً سوداء ظاهرة
 بوضوح كبير حتى ببحال أن الألق لا يزال يشع منها حتى لظن أن سيلاً من
 لحم المركب، يخرج من نوره يتها لإحراق الدبر والسفحة كلها

(١) في تاريخ سيناء، مونس سابقاً، ص ٢٢٣ أنها أربع قمم وهي حال موسى،
 والصعصعة، والمناجاة، وكاترينا

تبدأ قطعة جل سبيل أمام باب الدبر فمر الطريق في شعب صيق بين جبل حورس وجبل ليهود، وتُستعمل في صعوده ٧٠ / من أجل راحة لحجاج الذين يسعي أن يصعدوه رجلاً، نوعاً من المدرجات التي تُسهّل عمل الصعود لو أنها لميت عادةً أعمل وإن أول ما ينبغي في الصعود مع الإسكافي^(١) الذي يُذكر اسمه بحكاية أسطورية محلية ثم نجد بعد ذلك كنيسة صغيرة^(٢) مهداة إلى العذراء (مريم) التي أتت إلى هذا المكان حسب حكاية أخرى

ويصعد بعض الدرجات أيضاً فوصل إلى سهل معلق من كل جهات، تحيط به قمم هائلة، منها قمة القديسة كاترين التي ترتفع إلى ما لا يقل عن ٨٥٠٠ قدم عن سطح البحر الأحمر ولا تقل قمة حورس وسبيل عن هذه ارتفاعاً، وإن هذا الارتفاع هو لحد الذي تظل بعده الموج موحودة أبداً، على المرتفعات في المناطق الشمالية ومن أي جهة نضرب، وإلى أمد ما يستطيع انظر البوص، لا يرى إلا كتلاً من الجرايت الأمفر، والوهر، والأجرد كما

(١) انظر، تاريخ سيناء...، موقع سامعاً، ص ٢٢٤

(٢) هي كنيسة لأفلوم كما جاء في كتاب تاريخ سيناء، موقع سامعاً، ص ٢٢٤ يقول «وفي تعاليد الرهبان الرومانيه انه في إحدى السنين أشد الجوع في جزيرة واقطع الراد من الرهبان فاضفروا على ترك الدبر ولاسجدوا إلى مذبحه انظروا فراراً من الجوع فصعدوا إلى قمة جبل موسى لأداء الترابه قبل الرحيل، ونأخر الأقنوم في الدبر فأقفل الأبواب وسلم المفاتيح إلى شيخ أولاد سعيد بحضور مباح الجزيرة ذبهم وسار في طريق قمة جبل موسى لاحقاً بإخوانه فلما وصل حد المكان تجب له مريم العذراء واسمها نُظفل على يدها وقالت له «أذهب وبسم ربك لقمة الجبل وعد ببحوث إلى لدير فإن الفرح قد جاءكم» فأتى ذلك وعاد عن نظره فعد بإخوانه إلى الدبر فوجدوا إبلأ كثره محبته حبوا فسلوا أصحاب الإبل عن اسم بهذه الحبوب فعادوا إلى بها شيخ حبل علاه انشب وفناء في منتهى جدران وقد رافقوا إلى هذا المكان ثم اختصا عن الأيصاد قال الرهبان انه تُشيع والعناء هما موسى لسي وقديسة كاترين وقد شائوا هذه انكسبه على اسم مريم العذراء مذكراً لتلك الحادثة المعجزة

لو أنها انحصت تماماً بشكها يوم أن خرجت من أمعاء الكور؛ لم سم أية سنة في هذه الأساطير، ولا يمكن لأي منها أن تنمو في المستقبل، مع ذلك فإن هناك شجرة، ولكنها وحيدة تنصب في وسط المكان الفصح، بها شجرة سرو ضخمة ضخامة غير معتادة، شبه قمتها هرمًا صريحًا تقوم مدحجور كور بمواضع ويحد عند حدود الشجرة شراً ماؤها عذب وصاف، ولا يشرب منها أحد، لأنه لا أحد يسكن، ولا أحد يعبر هذه الأرض الموحشة وحشة مخيفة عد بعض المسافرين / ٧١ / لقد قصص اسراحة طوبه بحور ملك اسر المهجورة، في ظل شجرة السرو العملاقة، موعلاً ومجدياً، إن صح القول، تلك الطبيعة الخاسية، العظيمة، والموحشة، والمشرقة كل العرة، والمعصية بالأمجاد، والعامرة بكم هائل من الدكريات، والتي تدور لبصيرة وتبصر أنها أرض أمجاد خالدة ان من يرى تلك الطبيعة المؤثرة يشعر أن أحداثاً عظيمة وعائلة حرب بين أحصائها، وأنها حُبب وتكوين لتكون مسرحاً لأمر حلية، ولمعجرات عاتقة، وشعر أن الله اختاره ليوحي فيها أني أياته كم هائل من أحداث، وكم من اشرون التي لم تُلْجَ عنها ولو نظرة واحدة ذلك هو بدر أي يده حبل سباء الذي يحضف الأبصار، والذي أوحى إلى موسى على قمته الرسالة السماوية وسط الرق والترعد، تلك الرسالة التي ما زالت حية بعد ان مرّت عليها قرون عديدة، وإلى الأسفل قلباً بعد انمعهه في قصص فيها موسى حُبباً أربعين يوماً وليلة في الصحراء بين يدي الله وحمايته الخابة بعد أن أوحى الله، وفي الأمام هناك حورب حيث تلقى موسى رسالته السماوية، وهو جاثٍ على ركبيه أمام العقيقة المشتعلة، وكنت أرى على بعد خطوات معاره أخرى رأى فيها إيليا Elie أحد أعظم أنبياء بني إسرائيل، رؤيد لثني بعد إحدى أكثر الرؤى التي تتحدث عنها تكتف المقدسة وعلاً نسمع إلى المؤرخ الحليل الذي يحكي تلك الرؤى، ومن يعرف كيف يعبر عن الإحساسات / ٧٢ / المؤثرة التي تسيطر على نفس في أثناء ذلك، دون أن يستشهد بعبارة لمؤرخ نفسه، لأننا ها مكتشف وشعر أن تلك العبارات موحاه، إن لم يكن عد كبت في هذا الممكن،

وأن كلاً منها يحمل سمّة هذا المكان الخرائع ٢٤ مشى إليها أربعين يوماً،
وأربعين ليلة، حتى وصل إلى حل حوريب. لحبل الذي تحلب عنه
الذاب الإلهية، هناك دخل معارة في الحبل، حيث بات ليلته فيها، ثم
أوحى إليه الباقي، وقال له: «أخرج وقف على الحبل أمام الرب وود
بالرب عذراً، وريح عظيمه وشديدة قد شقّ الحبل، وكسرت انصخور
أمام الرب، ولم يكن الرب في الثوب وبعد الريح رطوبة، ولم يكن الرب
في الرطوبة، وبعد الرطوبة نار، ولم يكن الرب في النار وبعد النار صوت
محمض حميف فلما سمع إليها لفّ وجهه برؤيته، وخرج، ووقف في
باب المعارة وإذا بصوت الله يقول: ما لك ههنا يا إبلياء؟»^(١) ألا يحين
وبحسب نقرأ هذا الكلام الخرائع لنا مشهد ثورات جيولوجية هزت بعض هذه
الأرضين المختارة منذ الأول؟

ذلك للربال لرهب الذي يحرك الجبال، وتلت العاصمة الهوحاء التي
تجعل لحيان تميز وتداعى، تلت النار المسأجة التي تحرقها وتجعلها عقيمة
/٧٣/ أي شيء هذا إن لم يكن تعبيراً عن عوامل في باطن الأرض أو خارجها،
لذلك لا اضطراب لعظيم للمادة كما صورته العلم وشرحه في أيامنا هذه؟
بداً، ليست رؤيا إبلياء، لا خدساً، بل كُنْسا هي رؤية ثانية للاضطراب
لمبرياتي الذي تحمل كل صحوة ما أثاره التي لا يمكن إنكارها وإن تلك
السمعة لرفيعة والساعة التي تلت اضطراب العاصم، والتي شعر معها التي
سحلي الذات الإلهية، إنها حملاً لذاب الإلهية أي العلم المطلق الذي ما إن
استقر الكون بأمره حتى سيطر عليه هيمنة، وحل ظواهره، وفتر قواه، وسير
عوارضه، وتعالى عن الحية المادية، فقد العلى والأساس، ودار مع
الحكمة لقدر، على الخلق الذي احتضن وحده بعين أسرره إن اسحت في

(١) سفر الملوك الأول، الإصحاح ١٩، عدد ٨ وما بعدها (المؤلف) وجاء في كتاب
تاريخ سبئاء، مؤلف سابقاً، ص ٢٩. والحبل الذي حذاه إليها النبي بعد سفر
شوق من ٢٤ شهر مع ٢٤ يوم أربعين يوماً وأربعين ليلة هات في معارة وكلمه الرب بعد
الرطوبة عظمه بصوت محمض حميف

مثل هذه الأمور يكتسبها أهمية لا يكتسبها في أي مكان آخر، لأنها لا تحدث في لكون مكاناً مثله احتفظ بمعالجه نفسها، ناهيك عن روعه لتدريج والتقاليد، مما يوقظ المشاعر ويأسر الروح.

إن شبه جزيرة سياء شكلاً مثلثاً، يربطها أحد أضلاعه نافارة، في حين أن الراوية المعاملة تنوع في البحر على شكل نتوء صخري، أما الضلعان الآخران فإنهما محاطان بحليحين، خليج السويس في الشمال، وخليج لعة في الجنوب، وباستثناء بعض المضاطب الكلسية في المناطق المسحقة / ٧٤ / فإن أرضها طلت على تكوينها الأول، مع العمق والتواءات الصخرية التي تسع كنها تنظيمياً واحداً، وتنطلق من مركز مشترك، تتلوى في المسحقات وديان صلبة، ورملة، ليس فيها رزق إلا ما في بعض واحات بحس انحراف عرب عيون الماء والآبار.

أما المرتفعات سياء فتحتم وسط البروح، وتشرف على شبه الجزيرة كنها وسأ أن تتحلل المطر الرائع الذي يتمتع به من أعلى مشهد كهذا المشهد يقع النظر من كلا الجانبين على خليجهم، ويتابع تفرعاتهما كما لو أنه يشاهدها على الخريطة، وتقع جزيرة ثيران^(١) في قاعدة خليج لعة^(٢) ويبدو من الغرب، فضلاً عن الأودية والمرتفعات التي تمتد حد أقدم ما، البحر الأحمر الذي يظهر من ها وكأنه نهر، وليس بحر واسعاً لا تمكن لاساعده من رؤيه الساحل الإفريقي الذي يبدو للعيان بمحاذاته الصحراء التي توحد وراءها صحراء أخرى ذات أهمية كبرى لدى النساك المسيحيين الأوائل، إنها مكان معروف كانوا يذهبون إليه لسحر في الحيرة والتأمل والوحدة، عن شعور أولي بالسلام لأبدى

(١) هذه جزيرة هي الآن تابعة للمملكة العربية السعودية، وتكتب في الخرائط ثيران والصحيح أنها ثيران

(٢) بعد ساء الجنوبيه من الشرق، وطوله من رأس محمد إلى قلعة لعة نحو مئة ميل، وعرضه من سبعة أميال إلى أربعة عشر ميلاً، وبه ثلاث حفر أحدها ثيران التي تقع عند قاعدة نحه رأس محمد، وبها مضيق خرج لمرور السراكن تتوسع سياء...، موشق سابقاً، ص ٦٦

أما من ناحية الشرق أخيراً، فانتجاه سوريا وقد انظر بشبه في أعماق صحراء بلا حدود، بها الصحراء بها التي به فيها هو إسرائيل خلال أربعين سنة قبل أن يدخلوا بلد كنعان. /٧٥/

وقد لاحظت عرساً أما بصادف العدد (٤٠) عدة مرات على طريقنا، إنه يتكرر بكثرة في العهد القديم والعهد الجديد. فاليهود ذهبوا أربعين سنة في الصحراء، موسى عليه السلام اعتزل أربعين يوماً قبل أن يسمع وصاياه، يليا سار أربعين يوماً وأربعين ليلة قبل أن يستقر في كهف حوريب، صام المسيح عليه السلام في عرله أربعين يوماً، وظل أربعين ساعة في قره قبل أن يبعث من جديد.

وبدا أن لهد العدد عند اليهود شيئاً من القداسة، بل شيئاً من السحر، وإن به قصيدة جميلة، ضاع معناها، مع أنه لا بد من تركيزه لا (٣) ولا (٧) وهما رقمان مقدسان (عند الساميين).

يوجد في قمة جبل سيناء مصلى مسحي يحمل اسم النبي موسى عليه السلام. ومن المسلمين الذين يجلون هذا النبي كما يجله المسيحيون فاصوا له في هذه لقمة مسجداً يحمل اسمه، ناهيك عن أنهم أطلقوا اسمه على لجل جبل موسى.

ويروى أن النبي محمداً عليه السلام رآه هذا الجبل، ومنه عُرج به إلى السماء وما رآه الناس بشيرون إلى أثر قدم ناقته على إحدى لصخور^(١) هناك تقوم في قلب أحد الأودية المجاورة. واحدة صغيرة حصية تعرف باسم بستان الأربعين شهيداً^(٢) لأن أربعين مسيحياً، الرقيم أربعون أيضاً، استشهدوا فيها أيام

(١) جاء في تاريخ سيناء، مونت سائنا، ص ٢٢٥. ويوجد هناك (في قمة جبل موسى) كنيسة صغيرة وجامع صغير. وعلى وصولك إلى قمة الجبل مسجداً صغيراً تحيط على الطريق أثر في صحراء كثر قدم الحمل يدل ادو عليه أنه لأثر الذي تركه حمل النبي محمد عليه السلام لما رآه الجبل.

(٢) جاء في تاريخ سيناء، مونت سائنا، ص ٢٢٧. «فالمجاهد لعلي» في راس الوادي وهناك بستان عظيم من شجر الزيتون وبحض أشجار العاكة وحض عيون ماء منزل قديم لدهاء وكنيسة «الأربعين شهيداً» وهم الشهداء الأربعون الذين قتلوا.

صعده بالمسيحيين ٧٦١/ وفي مكان ليس بعيد نوجد صحرة موسى^(١) التي يُدَّعى اسمها أساع الذبانات اسمهاوية الثلاث، اليهودية و المسيحية، و الإسلام، بالوثنية التي كانوا عفيها (قبل بعثه الواحد)، باعتبار أن تلك الذبانات برلت في أمكنة متقاربة، وسكن القول إن لها مهداً مشتركاً و حداً بين صعود حتى سباء صعب ومرهق، لأن المكان ما زال كما كان في بدايته منحوتاً على شكل درج، وسهل كذلك حتى النهاية ولكن ذلك الدرج الذي يفرص أن يسهل عملية الصعود، أصبح صعب مهدم، مما يجعل الصعود مرهقاً، والبرون محفوظاً بالمحاطر وفي طريق العودة إلى سهل يلبيا عدد إلى الدير غير طريق أخرى، وأدهني أن الطريق من هذه الناحية جيدة، وهي في بعض الأحيان محصورة في اصخر انقاسي، وتكاد تكون صالحة لمسير السيارات إن هذه الطريق التي هي صورة مصغرة عن ممر سيمبلون^(٢) Simplan تم تجديده منذ وقت قريب من أجل عباس باشا ذلك الأمير الإفرنجي الذي قام مؤخرًا برعاية سباء، وبإشطار إنشاء القصر المعلق الذي سبى لي الحديث عنه، والذي ذللت على المكان الذي سيهدم فيه على قمة بصعب الرصور إليها^(٣) لقد رافقي في

- أجل إيمانهم بالمسيح في سبطيه بكندوكية في ٩ آذار سنة ٢٢٠م

(١) سماها يعرفون في تاريخ سباء ، مونتو سابعاً، ص ٢٢٧ «صحرة موسى» من النجد العربي والندوة العليا وهي صحرة حرابه علوها نحو ١٢ قدم وطولها وعرضها نصف ذلك يدل عليها الرهائن أنها الصحرة التي خرج منها موسى فثمة سماه النبي اسرائيل حال عالي بمره، لابه ٦٠ ﴿وَبَدَأَ اسْمُهُ يُوْسُفُ يَوْمَ وَقَلْنَا أَلُوبَ بِمَعَالِكِ الْهَجَرَ فَانْمَحَرَّتْ يَدَا أَلُوبَ فَنُفِثَتْ عَنْ يَدِ كَلْبٍ أُنْثَى اسْمُهَا يَسْرُورُ وَاسْرُورُ مِنْ يَدِ اللَّهِ وَلَا تَخْشَى الْإِنْسَانَ فَفِيهِ﴾ وقد سماها ددييه Belphegor وهو اسم أحد الآلهة عند اليونان مركب من Bel و Bel يعني، انسب وهو شكل يودي لاسم أحد آلهة عند المؤانس، كان يعبد على جبل Phégon وكان يونان يقدسون به صخوراً يذبحه، واستمرت عبادته حتى العصر الروماني وهي عنوان قصبة لمسك ديلي

(٢) أحد مدار حال لألب الرئيسية المستخدمة منذ العهد القديم وربما منذ ما قبل التاريخ بعض رماعه النسيط (٢٠٠٠م)، وهو شروق لعلود بين سومسر وإيضاب

(٣) جاء في كتاب تاريخ سباء ، مونتو سابعاً، ص ٥٤٥ «بعد وفاة إبراهيم =

رحلتي عدد من وهان لدير، وأراد الأخ بيير أن يرافقي، كان شخصاً عربياً كل العربة، يلبس جلباباً أرق، وفلسوة أسطوانية، ويقسم الرهان حبه النقش، مع أنه لس برحل دين كان يوناني الولادة، درس في / ١٧٧ / الجامعات لأجيبه، وكان يتحدث بسهولة عجيبة عدداً من اللغات ردها الفرنسية ويبدو عليه أنه يملك ثقافة متنوعة، وكان يُعنى على وجه الخصوص بالفنك والموسيقى، حتى أَسند إليه مسؤولو الدير أن يعلم الرهان المسحدين في دير لموسيقى على الأقل ولكسي فوجئت، بعد أن تحدثت معه، بما لاحظته من اضطراب في معارفه، ومن تشوش في أفكاره، وقد رأت دهشة عندما أخبرته أنه مجنون، وأن أسرته التي عرفت بعض أفرادها في القاهرة، تعد وجوده في الدير كما لو أنه في مصحة، لقد كان حوله حفيظاً جداً، وبسي أعرف عدداً من أساس الدين يقال إنهم عاقلون واندين كانت بالتأكيد صحتهم أشد علي من صحتي وليس من شك أن هذا المجنون المسالم والسحة يمكن أن يصبح في يوم من الأيام بطل حكاية أسطورية، بدورها موجودة في الروايات المسافرة التي يتداولها الناس شأنه

يسمى جبل سيناء في المنطقة جبل الشريعة، وإن اسم القديس إيسيتيموس Saint Episteme الذي يلاسن الجبل لسمى باسمه الدير من الجهة المقابلة، يعني باليونانية المعرفة Savoir مما جعلني أفكر للرهبان إنه لما كان دبرهم يقع بين العلم والشريعة، فإنه من غير المستغرب أن يكونوا قديسين وعمماء لقد كتب أصابعهم بالطع بما قلت، لأنهم لا يصيب لهم من هذا أو ذلك، إن لدي عموماً ثقل من الأشياء، الحدة لأقولها عنهم، ولن أتمكن على الخصوص، وأنا صادق، من إطرار تحييمهم عن مكاسب الدن

= نشأ تولى مصر عاصي ناشا أكبر أولاد الأسرة العلوية وقد رر سيناء، وأهم بها اهتماماً كبيراً، وظهر أنه بوى أن يجعلها موصفاً له، حتى فيها اهتمام فوق السبع انكبريتي حرب مدسة انطور ومهد طريفاً من بر طور سلة إلى منه جبل موسى وشرع في بناء قصر جميل على جبل «طلعة» عربي جبل موسى وشرع في مد طريق للممرات من مدينة الطور إلى القصر، ولكن عائلته المنيه قبل أن يشهد

المؤلفة / ٧٨ / لقد بدا لي أن الاحتج هو السمة المميزة في طبعهم؛ وقد تجاوزوا بها معنا حدود المعتقد والحجل.

كان عليّ أن أرسل في الأسبوع التالي وصلها فيها رسالة إلى المهندسين بمرسيين المقيمين في وادي حران، وقد طلبوا مني لحمل الرسالة مبلغ ٤٠ قرشاً؛ وهو مبلغ ضخم في هذا البلد وكان يمكن لأول أعرابي براء أن يحمل الرسالة مقابل مبلغ أقل بعشر مرات مما طلبوا؛ لقد سارما وبقى عليّ دفع نصف المبلغ، ولنا حاجة إلى القول إن الدير يحتفظ بالمبلغ كله، أما المراسل المكبر فإنه لا يحصل على بارة واحدة مقابل تعبته إن الرهبان اليونانيين الذين يحسون حساب كل شيء يدرؤوا من قبل، ولكني لا نصح في حسابنا الحصول على أية منافع ولو كانت صغيرة، إلى انتميم بخصوص الرسالة التي حملناها إليهم من كوستا إلى أنها كانت كافية لتصح أبواب الدير لنا، ولكنه كان من الأفضل أن نطلب رسالته من سلطنتهم العليا في القاهرة، وإن ما يسعى معرفته أن هذه الرسالة تشتري بريال قصي واحد، بينما لا يستفيدون شيئاً من رسالة كوستا لقد أرحسون في اليوم التالي وألحوا في وصاتهم أن نعطهم حتى محصنات الخدم الذين رافقوا في رحلتنا إلى جبل سباء نحثه أن الخدم سيقفون تلك الأموال بين لصحور؛ لقد كانوا بكل سهولة يودون الاحتفاظ بها لأنفسهم، ولم يكن ذلك إلا بديهة واحدة، وقتها بعد ما وعدت / ٧٩ / لقد أجبروا بادي دي بده، وأكد أنون بالقوة، على شراء عجيبة من التمر من صمعم، وسحبت هريفة صمموها من سحتهم القديمة، وثمار التمر معاً في علب من الصمغ، وحو تم نصيه عليها لأحرف الأوسى من اسم انقديسة كاتريوس، وغير ذلك من طرائف موحوداتهم، شمس ناظر أما بخصوص الطعام فإن الأمور كانت تجري على الشكل التالي بأحد مدير عني عاتفه تقديم الخبر لكل رائتر وذلك موحود في شروحه تأليه بورج ذلك البحر ليومي في الصباح على البدو والدونات؛ لاسي رأيت هذا عدد مهير، وكان سهر واحدة شابهة وجميلة، لها عسل ساحران، وأسمان لامعة، ولم يكن محجبة، وإن سباء المادية كُنْ في هذه الساحة أكثر حرية، وأقل تسدداً من بقية المسلمين

إذاً يحق للمسافرين الحصول على خبر الدير، شأنهم شأن كل إنسان، ولا يحق لهم غير ذلك 'بدأ' أما كل الباقي فهذا شأن المسافرين، إنهم يسمحون باستخدام المطبخ، ولكنه حال وبدون نار. وإذا أراد الروار استخدامهم فعليهم أن يحضروا كل شيء معهم، بدءاً من القدور والصحن وأسيه دلاطعمة والتوابل المخصصة لأسط ضرورات الحياة. ويستطيع النصارى بسهولة مع الراهب الذي يشرف على المطبخ فيحصل منه مقابل مبلغ معمول على الأشياء التي لا عى عنها في شؤون الحياة المادية؛ وهو يبيعك مقابل أي / ٨٠ / مبلغ، مهما كان قليلاً، عرفاً يدعي أنه مصنوع من عشب قراص.

أما نحن فلم تكن بحاجة إلّا إلى أشياء قليلة جداً، بقدر حمل معنا كل الضروريات، وما يريد من حاجتنا لقد كان رفيق رحلتي مثال البريطاني في هذه ناحية، كان حريصاً على راحته، ويجب ملذات الحياة، وكان يرى أنه يحظى في حق نفسه إن لم يتناول يوماً في قبة الصحراء وحة عشاء كاملة، ولو كان عليه أن يتظرها حتى منتصف الليل، كان ذلك عبء مسألة كبرياء وإحساس بالذات. لقد كان في ذلك امتحان لكرامته باعتباره رجالة. ولم كان قد عرف أن عيد ميلاده يصادف وهو في سيناء، ولما كان حريصاً على الاحتفال بالمسألة كما ينبغي أن يفعل ذلك ابن بريطانيا الحقيقي، فإنه حمل معه من القاموس لهذه المناسبة ديكاً رومياً محشواً بالكماة، بل وحمل معه أيضاً الشمبانيا التي حاجتني بها، وشرفني أن أشاركه في شربها.

كانت وحة الطعام سهله التحضير مع وجود مثل هذا الصحن الأساسي، وكان ما حملناه من الأطعمة للرحلة يكفينا ويريد إذاً، كما نأكل على حسابنا الخاص، وكانت موارد الدير غير ذات أهمية بالنسبة إلينا.

ليس هناك حتى هذا ما يحق القدر، وإنه ليس العدل أن يدفع المسافر من نفسه ما يأكلونه، ولا يمكن أن يطلب من الدير أن نفلس من أجل أن يمتق على مأكلكم. بذلك فما باحراه المصلوب عن طيبة خاطر، وبلا مسومة ولكن، وفي لحظة حرجة، أعني / ٨١ / لحظة الرحيل، حدث مشهد يسبحم تماماً لو

وصعدها في مسرحة التخيل لموليير^(١) Moliere، ولم يكن أرباعون يجمع
أفضل من ذلك قدموا لنا في البداية قائمة حساب بالمصروفات لمنعق عليها؛
أجرة حمل الرسالة للمهندسين الفرنسيين، ثم لطراف التي اشتوتها، أجرة
لرحله إلى الجبل، أجرة خدمات متنوعة، الخ. ثم يكن هناك أي عراض
عنى ذلك. ثم قدموا لنا بعد ذلك ملطف قائمة حساب إحصائية صغيرة لم تكن
ستطرها؛ وتحتوي على تفصيلات هي غابة في الطريقة. عشرون قرشاً للراهب
لنوب لأنه فتح الأبواب، عشرون قرشاً للراهب الحوري الذي أحدا لرباره
الكيسة، عشرون قرشاً للخدم الذين لم يخدموا لأن معاً خدموا لخدم،
عشرون قرشاً للخدم الذين رافقوا إلى الجبل، عشرون قرشاً للراهب مر
الصرف لأن أزعجاء، عشرون قرشاً للصحة التي أحدثها، وهذا لبد الأخير
يدكرني بطريقة اسع لاسبية. إذ يدفع كل شيء، ثم يدفع بعد ذلك للشعوبص
هما أحدثاه من صحة.

بختصار، لقد تحصل لدينا عدد جمع العشرينات من لقروش مسع
صحيح تماماً، أما الريادة، وأعيى لهنة التي اعتد الرور أن يركوها بلدير عدد
معدونهم، فقد كانوا يعمدون في ذلك على مدى كرم. لقد كان على وعي
بالعرف، وكان سوي أن يلزم به حتى إن هناك كانت حجرة من قبل؛ ولكن لما
اعرنا أن الرهبان اليونانيين استولوا عليها مسبقاً بأنفسهم عند ريث من العدل
أن تُفحص منها ٨٢ / بمقدار المبلغ الذي استولوا عليه في قائمة الحساب،
وحددناه بمئة وعشرين قرشاً. وقد كان ذلك أبداً مباحة هي بكرم لأن
لأمريكيين الذين سبقوا لم يدفعوا أكثر من ذلك مع أنهم مكثوا في الدير ربما
أطول من الزمن الذي قصباه، ولم يتعرضوا إلا لقليل من الاستغلال الذي
تعرضنا له.

هذا اصحرت العاصفة، مئة وعشرون قرشاً، يا إله العدل، فيك رحا،

(١) موليير (١٦٢٢ - ١٦٧٣م) كاتب مسرحي وممثل فرنسي. بعد أحد أعظم
لكوميديين في جميع العصور والخيال واحدة من أشهر مسرحياته، وأرباعون
الشخصية الرئيسية فيها

إدأ من مئة وثمانون قرشاً لأناس مثلهم، لأناس مثلاً مئة وعشرون قرشاً إن في ذلك عاراً علناً وإهانة لهم! إن سرس باعار عندما تقدم مثل هذه الهدية، فإنه لن يقدّر أن يقبلوها ومن الحذر بالملاحظة أن المصنع كان وهم يحتجون قد أصبح في حيوبهم، ولم يعرجوه منها لقد كان أكثر أفراد العصاية إثارة راحب بدعى جوريف، وكان وجهه مميّراً لأنه سم بكس به أنه أبداً، وكان يحدث الإيضاة بإتقان تام؛ كان يقول أي طريقة في التعامل هذه! وكان يردد ذلك عشر مرات في الدقيقة، وهو يرتجف كأن به ماء، وقد كان يمكن له عطية حاضر أن يتنوه بكلام خارج لو كانت لديه الحرية لعمل ذلك أم الأخ بيبير لمكين هذا كان بهوم عتاً بدور المصنّع، وكان كبير الرهدين، وهو رجل محترم له لجة بيضاء، يشرف على هذا استاش شيع، مطهر أن في ذلك إهانة شخصية له نفسه واستمرت العاصفة وهماً صويلاً، ولكنها كانت جمجمة بلا طحس لم يرد على المصنّع ولا مارة وحدة كان صميرد مرتاحاً لأساً / ٨٣ / فما بالواحب على أكمل وجه، من وشت في ذلك عديهم لقد صرفوا في لدير بعد كل حساب منع خمس مئة قرش، وكان ذلك بالأكيد ثمناً مرتفعاً لصياحه دامت أربعين ساعة، ربما لستك الصبغة!

كان السقوط دربعاً من قمة جبل سياء الى مثل هذه لصداهات، وأعتذر لصدري عن ذلك ولكن إذا كانت الحياء رحله كما يردد دائماً، فإن باسطعت أن يعكس الآية وقول ر الرحلة كالحياة ممسوة بالمشاعر المحلقة، وبالحوادث من كل الأنواع، ومنها من لحوادث السبته والعارضة أكثر مما فيها من الأحداث الكبرى ناهيك عن أن هذه الراعات الصميرة، مهم كات سوقية، فإن ذلك يجعلها تحمل في جوانبها درساً يتمثل فيه ظهر من جشع الرهدين اليونانيين لقد وجدتهم في كل مكان متشابهين، وخصوصاً في القدس حيث كان جشعهم أكثر إزعاجاً لأنه جشع لا مروع له، وهو بالتالي لا يمتنع

إد حاولت الدخول إلى كبة النيامة^(١) Saint Sépucré فبك تجد

(١) المكان الذي يزعم النصارى أن المسيح ﷺ صلب فيه، ثم حفر له قبر وصعت حته =

راهياً يونانياً مرابطاً عند الباب منذ لك يله، وإذا حاولت انصمود إلى جبل
لجملحة، وأنت ترتجف متأثراً تلك المشاعر التي يحركها هذا المكان في
عوس أهل الناس إيماناً فإنيك بعد هاتك راهياً يونانياً آخر يصب ماء ابود على
أصابعك ويطلب منك أيضاً أجره عمله البحير، وإيهم في الحقيقة يقومون
بالقليل؛ فعسى القروش بحلصك مهم ويبدو أن الرهائن الإغريق لم يكونوا
في عهد سوفوكليس^(١) Sophocle أقل حشماً، لأن هذا الشاعر يقول للمزوف
المعجور / ٨٤ / تيررياس^(٢) Tirsias على لسان كرون^(٣) Cron أن الحسن

فيه وهو في القدس وعبه كنه معروف - القديس سيولكر Saint Sépulcre يجمع بين
المسيحيون وفيها مكان لعادات الأرثوذكس، وآخر لمكانات، وكان فصل مرص
في القدس مكلماً بالسهر على حقوق اللاتينيين أمام مطرف ابودن وانظر معجم
البلدان ليقوت العموي، ج ٢، ص ٣٩٦ - ٣٩٧، رسم (قصيدة)

(١) سوفوكليس Sophocles (٤٩٦ - ٤٠٦ ق م) ثاني الشعراء اثتر حديد بين الإغريق ثانياً
في طبقة متوسطة ذات اتجاهات سياسية معتدلة بحيث لم تكن مفرطة في شعبيتها
كما لم تكن معالية في أوستقراطيتها، وكان وسطاً في عقيدته الدينية، لا هو من
المنزمتين ولا هو من المنهزين - تسم برعته الفلمسية بالثبؤم والصبى بالحبة
والرثاء بالأسان وما يلقى من الام وكان لهذه الرعة أثرها على مسرحياته فبدت
كلها بعصب عبي الطابع المتمم افاد من جهود سلفه أيسجلوس كتب ٢٣ مسرحية
لم يبق منها إلا سبع كان «مسطر بعد مسرحية «أوديب ملكاً» لسوفوكليس مأساة
بموجبة فليس ثمة يت شعر فيها دون دلالة ومعنى، وبس ثمة مرصه لإبباط
المطالعة إلا حطت بها اسطر معام المبودية الفلجيم والنمودج الثاني للإنسان، جوريف
عوحس، تقديم ورحمة وتعلو د ميرة كرون، المشروع لقومي للترجمة المجلس
الأعلى للثقافة، القاهرة، رقم (١٢٢)، ١٩٩٩ م، ص ٣٢

(٢) عزاف صرير في لأصير اليونانية، صرير «ميرا» روجه «ريوس» بالعنى ووهب له
«ريوس» المدة على السنو، كما ووهب له طول العمر بذكره هو ميروس
واسجيبوس وسوفوكليس في أعمالهم ويظهر عند ذك في «ثبوت في
«الأرض لياب» معجم بيانات، مؤلف سابقاً، ج ٣، ص ٣٢٥ - ٣٢٦

(٣) Cron كرون، حال وندى أوديب الذي أصبح ملكاً لصه Thbes بعد موتهم وهما
Eteacles، سكلس و Polynice بوليس. ثم حكم على أيجون Antigone ابنة =

الكنهوتي كله يحب المال. لقد أُلقيت لسكان ذلك الزل غير المصيف وأنا
أستعد لمعادرتة كلمة وداع كانت هي مقولة مواطنهم المشهور سوفوكليس،
وقد قلتها بدعتهم حتى تكون مفهومه لديهم أكثر^(١)

بعد دثني الحديث عن محنة من نوح آخر عابيا منها، واحد من المصيد
أن أروبيها لما كانت سماء التي تسمى رسمياً جبل بطور واقعة في منطقة عود
عباس دث فقد كانت له فيها حامية صغيرة كاب معسكر حيث يقرب من
الدير، وكان قائد الحامية برتبة بياشي (مقدم)^(٢)، وقد قمت برؤية محامله
لهذا الضابط عد وصولنا، فلم يحسن استقبالنا لقد التقينا عبد مدخل
المعسكر، في الهواء الطلق، ونحن وقوف، بلا قهوة ولا شيشة، من إيه لم
يدخل إلى حيمته كنا ممنوعين لأنه أساء استقبالنا، وأعلمنا بدث عن طريق
حادم تركي كما سخدمه، وطلبنا منه قصداً أن ينقل إليه الرسالة بالتركية، وهو
أمر يُعصب المصريين والعرب لأن لتركية لغة العراء لقد ارجع من ثوبيج
له / ٨٥ /، وأراد بدوره أن يثار ما لذلك، فطلب أن تُسأل عن حواريات سمرما
نعم أيها الفقاري، حواريات سمر في سبيل، إن مصر لعبه بأسباب الحصار.

• أوديب ناموب وهو أحد شخصيات مسرحيات سوفوكليس وخصوصاً في «أوديب
ملكاً» و «أوديب في كولون» و «أنتيغونا»

(١) أثبت ديديه قول سوفوكليس باليومانية

(٢) سخدمه ديديه هنا لقب Ben-Bach التركي لسحر من حد الضابط المصري الذي سم

يحسن استقبالهم وذلك ما تضمنه السطور التالية التي تحدثت فيها عن الانطباع
السيء الذي تركه لدى المصري خصوصاً والعربي عموم عندما يحدث بالتركية
لأنها حسب قول ديديه لغة العراء وساشي أو سكاشي لغة تركي سمى رأس
القب، واستعملت سكاشي في العصر العثماني السأخر. وبعد ذلك وفي مصطلحات
تسكيرية المعاصرة به (مقدم)، انظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية،
تأليف مصطفى عبد الكريم الخطيب، مؤسسه الرسال، بيروت، ١٤١٦هـ
١٩٩٦م، ص ٨٣ - ٨٤، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية
لتاريخية، د سهيل حساني، ط مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢١هـ

٢٠٠٠م، ص ٦٦

الأردوسه سم تسم من بينها هذا السبب (جوازات السفر) كان ذلك استثنائي
يظن أنه سيوجد في أوراقنا بعضاً، إلا أنه كان ما يستحق، لقد كان رقيقاً بظاهراً،
و كنت أنا أكثر نظاميه منه، لأن مدتي في السفر هو للحصول على عدد كبير
من تأشيرات، وعدم الاقتصاد في ذلك، لكي أتجنب الازدحام والتأخير،
لذلك كان معي حوار سفر خاص بالذهاب إلى سيناء حصلت عنه من القنصل
الفرنسي في القاهرة، ومؤشر من السلطات المصرية، وقد طلب زيادة في
المحطة أن يُستقل عنه السلاح الذي أحمله ولما لم يجد وسيلة لأرغامها، لم
يكن لديه ما يستطيع فعله إلا أن يعيد لنا أوراقه وهذا ما فعله، ولكن ليس
دون أن يتمتع نفسه بوضع تأثيرته الخاصة عليها، وقد علمت من ذلك أن هذه
الشخصية المشهورة تُسمى Hassim Ibrahim هاشم إبراهيم ولم يشعر بأنه قد
هرم في هذا الجانب أراد أن يثأر بطريقة أخرى، لقد تحيل أن يستدعيته
مصادرة الجمال التي حملتها من مدسة الطور، والتي كان من المفترض أن
ترجع إليها وإلستم الدافع أو الحجة للقيام بهذا الإجراء العشوائي، إن
الأحداث الجارية في العراق، وحاجة معسكر العائدين فيه، جعلت الحكومة
المصرية تحجز كل جمال المطفة صحيح أنهم كانوا يدفعون لأصحابها / ٨٦ /
أجره حيداً، ولكن ثقتهم لأحمال، والمعاملة السيئة التي تلقاها تلك الجمال من
لحدود، جعل عدداً كراً من هذه الحيوانات التي تعدى تعديه سيئة، وتكاد
تكون من قبل مهكك سب الصانعة العامة، جعلها، يموت من التعب، وجعل
عزى الصحراء مبيتة بغير حشيشا لذلك لا يلزم الدوا، إلا بعد تردد، بأوامر
الباشا، ويرادعون للحصص منها كلما استطاعوا فعل ذلك، دون أن يعرضوا
أنفسهم للخطر، لأن دوا سيناء مُفقدون تماماً ومهجرون تماماً لقد أصبحوا
فقراء، لا يمكنون إلا ماشية قليلة، وليس لهم من مورد في الأوقات العادية إلا
أن يذهبوا إلى القاهرة لبيع ملح المالح والمحم وتعيشى لسلطات استبداد
العنف الشديد في معاملتهم، وذلك لسيئ، أولهما أن سياسة عباس باشا
حتيئ كانت تقوم على استئثار الدوا كلهم من هذه الإجراءات، محددة أن يؤدي
الشديد عليهم إلى إثارتهم وثانيهما أنهم إذا هربوا إلى قلب الصحراء فليس

هالك من سيدهم لمبحث عيهم، وكلما كثر الدو كثر انجسار تلك كاس
حالة البلد، واعتماداً على أوامر المصادرة التي أصدرتها حكومته نظم الشاشي
أمر مصادرة جمال واعماً أيها تابعة للمعسكر، وأنه اعتماداً على ذلك لا يحق
لدو انطور أن يؤجروها وقد أحسبه عن ذلك بالقول إن كوسا غير مصريين،
وعبر بدو / ٨٧ / يحسن أوامر الشاشي لا تحصى بدأ، وإن جمالنا لنا حتى انطور
لأنا ستأجرباها، ودفع أجرتها، وبما سمعه من أب يمسها، ويتقي على عائقه
مسؤوليه تعويض الأضرار التي تلحق بها، ولن نتوانى عن طلبها من الحكومة
لمصرية عن طريق فصلنا عن كل ساعة تأخير يسببها لنا، ناهيك عن إرخته عن
مصبه التي ستلحق ذلك دون أدنى شك وبعد هذا الاعتراض، الحاسم، كتبنا في
المساء بمعه رسالة إلى صديقنا المهندس في معسكر وادي حيران ليمدوا له يد
لمساعدة عد الحاجة ولم نصل الأمور إلى هذا الحد لأن الشاشي حاف،
وعدل عن مراحمه، وأخرج عن جمالنا وحامنا رثراً، ولكننا رددنا له لصاع
صاعين باستعماله كما كان قد سفلنا كما على هاوله الطعم عندما جاءنا، وبدلاً
من أن يدعو إلى مشتركنا عدما، كما كنا نعمل ذلك في ظروف مختلفة
تدماً، وكما جرت العادة دوماً في الشرق، تركناه واقفاً، ولم ندعه يدخل علينا
بل تركناه على قدميه أمام الباب، ولم نوجه إليه أي كلمة، ولم نعه أي اهتمام
كما لو أنه ليس بموجود كان هذا الدرس القاسي ضرورياً ويسمي على الدوم
معامة لأترك كذلك في مثل هذه الحالة، وإلا / ٨٨ / فإنهم سيحتفرونك
ويرجحون نقد أبنينا في مقابل ذلك احتراماً كبيراً لطبيب عسكري شاب كان
يرافقه، ولم يكن لدينا ما يأخذه عليه، كان مصرياً، ويتحدث الفرنسية
والإنكليزية بطلاقة وقد لمحنا في أثناء رحيلنا من بعيد أن الشاشي، قد حطرت
له فكرة عقره، يد نص في وسط المعسكر منصة عالية من لحشب فوقها
كرسي، وكان يجلس عليه، وكأنه مشعور على سرير، طناً بلا شك أن مكسه
المعبوية ترتفع نسب مباشر من ارتفاعه المادي مررباً على مرمى منه دون أن
تلتفت إليه، ولست أشك بعد كل ما حدث، أنه لم يحتفظ بذكرى حسنة عن
إقامتنا في سبيله.

إن أحسن ما أحشاه في السعر هو أن أسلك الطريق نفسها مرتين. وقد كنتي ملاقي ذلك القيام بالعطافات لا يستهان بها؛ ولكن لضرورة، هي دفعتني إلى ذلك. لقد كان علينا أن نسلك في العودة الطريق نفسها التي سلكناها في المعية، وأن نصنع أقدامنا على آثار خطواتنا التي ما زالت واضحة محاورنا مرة أخرى السهل الكبير الذي برز فيه العرابيون مائة هارون^(١) الأخ الشقيق لموسى، وعبدو العجل فجاء ثم هبط بعد ذلك عبر نفث اسير الذي يدركني الآن، لو كان ذلك ممكناً، أكثر تهدماً وأكثر رعباً أيضاً من المرة الأولى. لقد التقينا أحد المسافرين الأوربيين وهو يصعد العمة / ٨٩ / ولما كان هو أيضاً يقوم برعاية المدير فقد نصحبنا له بأحوة، وبلا إلحاح أن يكون حريصاً كل الحرص على أمواله، ولم نقاس أحداً آخر حتى نهاية الرحلة إلى سيبا نصيباً حكاماً على حدود وادي صلاب، الذي يقع تماماً عند أقدام نصب حيران. كان ذلك التوقف رابعاً، ولا زالت ذكرناه مائة حية نحلب في

(١) برعم العهد القديم أن بني إسرائيل عدوا العجل الذهبي الذي صمعه لهم هارون في عيات موسى في جبل سيناء (سفر الخروج ٣٢ - ١ - ٢) نظر تاريخ سيبا، موثن مائة، ص ١٥٦، وانظر مجمع بيانات، موثن مائة، ج ٢، ص ٤٦ - ٤٧. وقد حدثنا افران الكريم في غير موضع عن اتحاد بني إسرائيل بالعجل، بها معبود في سورة اسره، الآيات ٥١ - ٦١، والآيات ٩٢ - ٩٣ حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ إِلَٰهًا تَعْبُدُونَ وَأَنْتُمْ عَلَّائِمُونَ﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿وَلَمَّا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ دَرَسْتَ قَوْمَكُمْ الظُّلُمَ حَلُّوْا مَا بَيْنَكُمْ بِقُوْرٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا نَهْمَ وَعَصَيْنَا وَأَنْشِرُونَا فِي قُلُوبِهِمْ أَتَيْجِلُ بِعَقْمِهِمْ قُلْ بَلَسْنَا نَأْمُرُكُمْ بِهِ بِإِمْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِرِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ وقد صنع العجل من حلي بني إسرائيل وكان صورة معده نحس لا روح فيها، إنما هي جلد فقط، كانت الريح تدخل فيه، فيسمع له صوت كصوت البعر، انظر سورة الأعراف، الآيات من ١٢٨ - ١٥٠، وسورة طه، الآيات من ٧٧ - ٩٨، وفيها دلائل على أن السامري هو الذي أخرج لهم العجل، وأن هارون بهائم عن عبادته ولكنهم لم يستجيبوا له، وعاقبه موسى عقوبة عناء شديداً فحلب، طه ٩٤ ﴿فَالَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ لَا تَأْخُذْ بَعِيٍّ وَلَا بِرَأْفَةٍ إِلَيْنَا حَيْثُ أَهْلُ نَقُولُ مَرَقَتْ يَدُ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَهُمْ نَرْفَقُ قَرَبَ﴾ ﴿٩٥﴾

ذاكري كان لزمان والمكان يوحزان بالجمال والحر كانت الوديان والكتل
السلمية من الحبال قد بدأ يعيشها العشق، ولكن القمم العالية كانت ما تزال
تقدح بعض شروق الغروب إنه التراجع الأخير بين الضوء المتلاشي وبين الظلمة
التي تولد، وكانت عظمه لمكان وجماله، وهديره الطبيعي، والهواء العليل،
ولماء الحبر، ولعزلة، والصمت، والحرية، كل ذلك، كان يمس شعاع
الغيب، ويحمله ثملاً بالأحاسيس التي لا يمكن التعبير عنها، وفي هذا اليوم
أشعر حقاً لأول مرة أسي أقمت في الصحراء

ثم شديداً لرحل عند مطلع الشمس إلى ذلك لقب العنصر، صب
حبران اندي لا يقل عبوره من هذه الجهة صغونه عه من الجهة المقابلة،
ولدي أجهده في امرة الساقية كل الإجهاد، وقد أجهدا في العودة أكثر
أيضاً، لأب هطاً منه هبوطاً يكاد يكون عمودياً، عبر طريق أكثر قصراً، ولكنها
أكثر سوءاً من الأخرى، نكثر فيها الصخور المكدسة، والحجارة المنحرجة،
لقد كان يقب سريع الانحدار حتى إن لجمال لا تستطيع مروله، فقامت
بالعاف موبل حوله استغرق وقتاً، وجدنا أنفسنا معه مصطربين / ٩٠ / لا ننتظر
وصولها وقتاً طويلاً في أسفل المنحدر

ولما دحنا ردي حبران تدي لي من جديد جبل سربل اندي كن عارياً
وقاحلاً، ونكه كن جليلاً كما تركته في الدهاب وبعد أدهشني عندما قترت
من عارض مردوح من التناغم بين الضوء والأرض، كانت قد فائتي ملاحظته
في امرة الأولى، لأن الشمس كان لها حينئذ وضعه محتفه به منحدر
صحم، يأتي حداً، ويحدث في الجبل قطعاً عرضياً جانبياً، وكانت طريقة
الإضاءة في تلك اللحظة يعكس عليه ظلاً واضحاً كل الوضوح، وأسود دحماً
حتى لتطنه ثوب حداد صحماً، متناً بشكل متصالب على أحد العمالق نقد
انضم إلنا خلال الطريق منطوع حديد إنه قعود صغير وحر، صانع بدون
شك، وما زال غير مستأنس أيضاً انضم إلى قافلنا بدافع حب الجماعة،
وأصبحنا طوال فترة لصاح بمراته الحملة، وباستعلائته، فمع أنه كان يسعنا
عن قريب، ثم يترك أحداً يمسك به، أو أن يقترب منه وقد بقي حود حمده

استطلاع وحدتهم معسكرين حول بيع نفث حيوان صعوة كبيرة في إلمسك به، ولم ينجحوا في ذلك إلا باستخدام أسلحة، لقد كان دفاعه عن نفسه بطويلاً، وقد استطاع أن يحدد غير واحد من مهاجميه خلال الصراع. فقد كنت شاهداً على المعركة، وأتيحت لي الفرصة خلالها لمراقبه قوة ذلك الحيوان ورشاقته المفترسين، وكف بتحول الى حيوان وديع كل السداعة، ويصبح في عاده من اللطف، عدم يكون / ٩١ / مأساً، ويصبح حينئذ أكثر مأساً، وأكثر تألباً.

كان العمل في الطريق قد تقدم خلال الأيام الخمسة التي استغرقتها رحلتنا، ومع ذلك فإن المهندسين لم يكونوا بعد قد عاينوا مكان إقامتهما في حسب المسير السليم ليكونا على الدوام كمادتهما مشرعين على الأعمال. كان ينظر ب من حبيبتهم، وقد عتياً عداء فاحراً، كان الطبق الرئيسي فيه واحد حدي بري، وقد كنا نحن أيضاً قد أتينا بحدي كامل اصطفاه أحد البدو في جبل سبياء، واشتريناه منه هذه معاصرة الذير.

معكم تطون، وقد كب أضل ذلك، أنه لا وجود لذلك الحيوان بلع البروعة إلا في تلك الروح، وفي المصحى الحيواني للمدار الجنوبي، به موجود حقاً ليس في صحراء سبياء فقط، وإنما في السودان، حيث رأيت بعض المرات، أضل حجماً من اليمور، وأقل منه علو، يشبه الأيل شهاً كبيراً إلا أن قرنه ليس به ضخامة فروع الأيل الكثير لعقد والفروع، والذي لا يسب أبدأ مع حجم رأسه وثقبة أعصاب جسده.

كان العدة بهيجاً، وقد تعرفت خلاله على سميرتين جديدين هما علي أفندي، وسليمان آغا من صناد المعسكر، وهما مسلمان ملتزمان، ويتحدثان الفرنسية، ولا يشربان السيد، مع أنهما يجلسان على طاولة أوروبية، وهما يحضيان دوماً من أن يطعمهما أحد في عيلة منهما لحم الحبرير أو دجاجة غير مدبوح على الطريقة الإسلامية / ٩٢ /.

على الرغم من أننا كنا في شهر يناير (كانون الثاني) فإن الجو كان خلال الرحلة مشرقاً، وهو شيء غير معتاد في هذا الفصل، إلا في مثل هذا المناخ

المساء؛ ولكن اليوم التالي، آخر أيام الرحلة، كان مريعاً كدست السماء
مكشوفة، وكان هواء البحر اسارداً والعاصف يجعني أنحمد على ظهر الهجان
الذي كان يسير بسرعة دون أن أستحش على المسير، ووصلت إلى الطور في
ساعة مبكرة

نقد وجدت ريس مركبنا جالساً في المقهى نفسه الذي تركته فيه عند
المعدرة، فهدد واقفاً أمامي بلطف، ورحب بي بشهامة عربي من العرب
الأحرار، وبما هو يوحه بي النهائي وعبارات المعاملة كان حمائنا يهربون
سرعة مع حملهم التي ما كذب الأحمال مرل عنها، خوفاً من أن يتم حجرها
في الطور كما حدث في سباء، وعلى حب عرة كانوا في أعماق لصحراء.
ولما لم يعد لي ما أفعله في الطور ذهبت للنوم في المركب الذي اسطرونا
بصر في امبياء ثلاثة أيام أكثر مما كان مشروطاً في المعد. وفي ليوم الثاني،
ومد المعج بشرنا الأشعة في الطريق إلى جدة.

الفصل الخامس

البحر الأحمر^(١)

يسمى لمركب الذي صعدت ظهره في البحر الأحمر، السسوك^(٢) طوله ٦٠ قدماً، وعرضه ١٥ قدماً، ولم يكن مُجسّراً إلا في الحنف حيث يرتفع

(٥) يمتد البحر الأحمر (٩٣) الذي تسميه العرب «بحر القلزم» جزءاً من الحدود الإفريقي العظيم الذي يمتد من جنوب خط الاسواء حتى شمال فلسطين وهو أكثر أجزائه الحدود وضوحاً، ويمتد بمسافة عامة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، بين خطي عرض ٠٣٥ شمالاً، ١٢,٣٠ شمالاً لمسافة طول ١٩٣٢ كم، يبلغ ساحل البحر عند شبه سريره ميناء ١٧٥ كم، في حين يبلغ إنشائه ٣٥٠ كم فيما بين مصوع وحران، ثم يفسق إلى ما بين ٣٠ - ٤٠ كم عند النهاية الجنوبية لمضيق باب المندب، ويصل عمقه في بعض المواضع ٤٨٤ م، بينما يصل في لقدة بوسطن إلى ٣٠٣٩ مراً، ويحيط بسواحه الشمام المرجانية انظر تمصيلات أوسع في كتاب الموانئ السعودية على البحر الأحمر، دراسة في الجغرافيا الاقتصادية، د محمد أحمد الرويثي، ط ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م، ص ٤٧ - ٥٧ وذكر لبلادي في معجم معالم الحجاز، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ م، ج ١، ص ١٧٩ أنه سمي البحر الأحمر بوجود شعب داب اللول المرجاني بداخله، ولتي كثيراً ما تتعظم لئلا يسميها

(١) السسوك (والجمع سديك) صخ السبر، وأصلها غير عربي، لكن العرب يعرفون هذا النوع من اناسم بهذا الاسم انظر تاريخ القوص على انلؤلؤ في الكويت والمخليج العربي، تأليف سيف مروي اشملان، ج ١، ص ٢٧١ ويلاحظ ان بعض المؤلفين يكتبون بالميم وهو خطأ انظر رحلة بيرون، مونت سافن، ج ١، ص ١٥٤

صرب من الكوثل، اعدوا تحته خلوة أظفروا عليها اسم معصومة ولا حرا وهي واسعة تكفي لاحتواء مرسين ولا شيء غيرهما، كد سم هناك، أما في شهر فكتا معش في الهواء لطلق على الكوثل وإن للسوك ندي سبر الشجدة شراعين يكادان يكونان لانس، أحدهما في مقدمة المسوك، ويمتد بكمه حارج السوك عندما يمتد الهواء، ويشكل ما يشبه بانوا نصف مدور أما حوزو لسفينة، فقد كان يشبه ما رايه مرسوعاً على بوحات جدارية أو ميدانيات قديمة، وأراهي وثقاً، أنه ومنت قرون، لم يتغير أي شيء فيه، وأن للمراكب والأشرعة والمجاديف هي بالتأكيد نفسها منذ لعصور الموعنة في الهدم، وأن البحارة يرسون في المرافئ نفسها، ويمرسون العادات نفسها، ولديهم الأحكام انفسهم نفسها، ولدر الشؤم نفسها التي كانت في عهد مسكون لكهوف.

كان المسوك معصوعاً من خشب هدي فاسي حد يمتد الساح وقد رايه في ميناء مرسيليا، / ٩٤ / سفينة قديمة تابعة لشركة لهد، معصوعة من الخشب نفسه في يوماي في عام ١٧٠٧م، وقد أصبح عيكها قديماً حتى أنه يثمن المسامير التي يود عررها فيه ويلوبها بحر بطريق البحر هذا، منذ مئة وخمسين عاماً، ويُعدّ فاك حر لأنه لم يعرق أنداء، وأغص كل من ملكه^(١)

وقد كان لسوكا أيضاً سمعة حسنة جداً، فقد كان يُعدّ عن اسحق مسوك صرباً، وكان الشبح حد الثمار، مالكة، وهو ناجر ثري من تجار جدة، مسروراً من سحره من أعمال، وقد كتب مسروراً أبا نفسي لأبي وجدته يقوم بالرحله

كان على منه، ماهيك عن الرئيس، فريين مكنون من عشرة بحارة، وعدد أسود صغير، رشيق وسيم، كان في الوقت نفسه يعمل بونياً وحامداً للجميع وكانوا يعاملونه معاملة إنسانية لائقة، ولم أراه خلال خمسة عشر يوماً قصيته على ظهر السوك يُعاقب إلا مرة واحدة، ونظف شديد وأحدسي مدفوعاً إلى

(١) فرد يس في كتاب التراث الشعبي، موش مسنفاً، ص ٦٦

الاعتراف، لكي أطل صادقاً، أن المسوك كان يعج بالجراديس، وبتشكيلة كبيرة من الهوام، ونكسي أصيف مسرعاً أن تلك الهوام كانت كما يبدو قد اعتادت التعرف، وصلت وفيه لهم، ولم يلبس منها إلا إرعاح بسيط

تلك هي السمر المستخدمة في البحر الأحمر، بها آلات حصة لملاحه صعبة يُعدّ هذا البحر واحداً من أخطر البحار / ٩٥ / التي يعرفها غططه ونعمره في كل لاتجاهات تيارات مائيه، وتملؤه الصخور البحرية ولشعاب امرحانية، وهو، باهيت عن ذلك، معرض لمواصف هوائية عذيه، يجعلها تقارب اشاطيس و لبحال كثيره الحدوث، والعمير؛ لذلك كثير؛ ما تعرف السفن فيه، على الرعم من حذر لبحارة الشديد ووحلهم لقد عمنني بحرني، كما مسرى، أن هذا البحر غير مفترى عليه، وإن كنت لم أهدت فيه، فقد وشكت على ذلك، وإسي أدب بحروحي سالماً لحماية لسماء وصلابة اسسوك

أبحرنا من لطور صحرأ، وكان الهواء طوال اليوم مؤاتياً، وما بحر قريباً نتجاوز رأس محمد، الذي يعد الحد الأقصى لثبه حريرة سبه وفي السماء، وعلى الرعم من ان الهواء كان ما يزال مؤاتياً، فإنه أصبح عصباً، بشير انقلو، وهماج البحر، وأصبحت الأموح تتعادف بعف شديد، وبحر في رورق اسريع العطب

قلت إن امراكب في البحر الأحمر، لا تسير ليلاً أبداً وقد كان يسمي هذا بالأكيد الاثرم بهذا التعرف، والتحت عن ملجأ يف هذا لحو لعاصف، ولكن الأمر هذه المرة كان مستحيلاً؛ فقد وصلنا حطع العقبة الذي كان يسمي تحاوره كاملاً لكي نجد منجأ أو مرفأ، إداً، كان يسمي الإنحار طوال الليل على الرعم من عنو لامواج المترايد أبداً، ومن عف لهور / ٩٦ /

كان المركب يسير بلا توصلة، لأنني لا أسطع إعطاء هذ الاسم لبوصله البدائيه المصنوعة من الحشب، والتي لا يكاد أحد ينظر إليها في النهار، وليست مصاهة في الليل أبداً، كنت يسير وسط لظلمات بحر امعمره بلا أطم، وحسما تقودنا العاصفة، ولما ينس البحاره من اسيطرة على المركب، وهم لم يحاولوا ذلك، فبهم تركو قيادة السسوك، واستسموا

للكسل والرعب، سألوا أمرهم الله وحده في نوحه لمركب وحمايته؛ بعضهم صحت، وبعضهم الآخر كان يستغيث بكل أولياء الإسلام وكان أحد خدمه، التركي الذي تحدثت عنه سابقاً، يريد من حانة الرعب العام، كان في أقصى حالات الحروف، يثير الضحك في بعض حالاته، حتى إني كنت سأضحك من ذلك ملء شدي لو كان الضحك ممولاً في مثل هذه المحطات كان السرك يصرُّ عند كل عاصفه عابره كما لو أنه سيحرق، وكان يعمل على جذب كل العمل، حتى ليحيى أنه من المسحيل أن يستوي مرة أخرى، وكنت أنظر أن أراه بين لحظة وأخرى وقد انقلب أعلاه سافه كان الموح يعطي كل شيء، ويكتسح كل شيء، حتى الكونزل على الرعم من ارتدعه ولما لم يكن باستعدادنا، رفق سري وأنا، مراحنة ذلك إلا في المعصورة، فقد كنا هناك مستقيين حياً إني جب، كُتُّ على فراشه سطر مستسلمين لاجلاء المحنة على أي وجه، بهيك عن أنه كان علياً أن يحافظ على توارسنا / ٩٧ / لأن مثل لمركب كان شديداً، ويجعل مرئشياً نعتب إحداهما فوق الأخرى كأنهما ورقنا كتاب، ويسطحنا بينهما كأننا ثلث في كتاب الأعشاب، ثم يقدمنا بعض على حاشي لمركب معروضين بحظر أن نُهرس رؤوسنا، رد على ذلك أن الماء كان يسرب من كل مكان، وكأنما كنا نسبح في مياه البحر حفاً ولحسن الحظ أنا لم نصب بدوار البحر مما كان سيريد، المصيدة

استمر ذلك لكرب طوال الليل، كانت ليلة طويلة من سالي الشتاء، ولم يصح النهار حداً لذلك الكرب، بل كان استمراراً لليل وأكثر سوءاً منه واستمرت العاصفه حتى المساء؛ حيث قد ارتحنا بعض الارتياح، وسمح لي بمعاودة فراشي وسجتي ولما كان القول عسى أن نكرهوا شيئاً وهو خير لكم صحيحاً كل الصحة فإن العاصفة دهمنا في وجهنا التي تريد، وكان لها على الأقل ميرة، تكس في أنها جعلنا نقطع في وقت قليل مسافة كبيرة من الطريق وألقينا المراسي عند عياب الشمس، في جزيرة مفترق ورميلة اسمها عماد، تقع على مقربة من الشاطئ الذي تقع عليه صفا؛ وهي قرية كبيرة من العربية الصحيرية مشهورة بطيب مياه آبائها.

إن حديق العقبة الذي فاميا ما فاميا في تجاوره، وترك في نفسي
ذكريات مؤلمة، هو مثل حديق السويس حول صغير على لبحر الأحمر الذي
يصح / ٩٨ / في هذا المكان ليومع مكاناً لشه جزيرة سيه. لهذا اكس حديق
لعنة اسمه من قلعة^(١) قديمة مهدمة اليوم، تكاد تشعل كن مؤخرته، وتحدد
أقصى الأراضي المصرية.

وادي مؤخر^٢ أحد لريطيس، وهو الكاش الال W Allan، أن هد
البحر كان في أحد الأيام العارة متصلاً بالبحر الأبيض المتوسط عبر لبحر
الميت وبحيرة طربا، واستند في ذلك على النوصعات الأرضية الممتدة من
الفراخه شمالية في سبان حتى لبحر الأحمر، والتي ليست إلا وادياً عميقاً،
واستند أيضاً على خلاف بالغ في المستوى مع البحر الأبيض المتوسط، حتى
إبه يتجاوره في بعض الأماكن ٤٠٠٠ متر وهو يرى، ولحالة هذه، أنه إذا تم
حفر قناة في محيط حل الكرمل في البحر سيدفع في هذه الثلجة ليتصل بالبحر
الأحمر كما كن الأمر في عابر الأردن

إن أكبر بحيرتين في فلسطين منتقبان سهولة مع البحر الأحمر كما
يقترص الآن بوساطة قناة ثابتة تحفر من البحر الميت إلى حديق العقبة ونصح
لصحراء السورية بذلك محيطاً، ويصح البحار بحراً واحداً وإن كان هذا
المشروع العملاق ممكن التنفيذ، فبه سيمضي عن شق القاء لحالية في مضيق
سويس، ويحصل الوصول إلى لهد أكثر سهولة

لقد عوصا اليوم التالي عن لبحر الصفة التي مررنا بها في اليوم
لسابق ولهواء الذي كن على الدوام مؤاتياً جداً، أصبح كثر تاساً مع طاقة
/ ٩٩ / لاسان، أما لبحر الذي كان ما يزال في لصح هائناً، فإنه هذا
تدريجياً واستعاد طاقم البحارة شجاعته، ولما لم يكن لديهم ما يعمونه، فقد
احدوا في القاء، حتى لبحارم الشرقي منه، كان بعد أن رل عنه الرعب،
يعني كالآخرين، ويرغم أنه لم يعرف الخوف لحظة واحده برسا إلى البحر

(١) انظر وصف لهد الصفة في كتاب تاريخ سيناء، مرنر سافا، ص ١٩٩ - ١٩٥

مساءً في الوجه التي يلفظ وش^(١) Ousch استقننا عند بركول بعض لحدود الأثرانك انديس كموا حامية في هذا المكان الحيد وكان أحدهم، ويا بمصاحاه السعيدة، يتحدث الفرنسية، وكان يقول إنه من يستأبول، وربما كان أحد الحدود المارين من جشا، وسواء أكان فاراً أم لا، فإنه أمدى هماماً كبير ماء، وكان لصيغاً كل للطعم، وقدم لنا خدمات صغيرة موعدة، قضيت الأمسية معه جالساً أمام القهوة، وحولنا مانطع بعض السكان لأصليين انديس يمكن بالتأكيد تفهم فصولهم الذي لم يكن على أية حال مرعفاً

إن رؤية أوروسي في هذه الأبعاء شيء نادر، ولما وصلت أبياء وصوب إلى بدو البحار، وهم أعراب من قفلة يلي فديهم حملوا إياها اعدية من كل الأنواع، اسن، والحراف، والحليب، والسمك، ولحبر أبصاً، حتى به أصبح من السهل عدداً أن يدعم محرونا من الطعام اللازم لرحلته ويحدده

كان البحر لطيفاً، وكان البحر الذي استعاد هدوءه يأتي لتتكسر أمواجه على الساحل الرملي، وكانت أسراب من اللوامس تحلق فوق سطح البحر تحتوي قرية الوجه على قصر يحمل الاسم نفسه، يقع على بعد فرسعين أو ثلاثة فرسح إلى الداخل / ١٠٠ / على طريق فافه الحج المصرية انكبون من لاهره إلى مكة المكرمة، وإذا صدقت الروايات، فإن هناك إلى جهة لشمال البعيد، على بعد خمسة أو ستة أيام من المسير، وعلى بعد ١٤ يوماً من العقده، على طريق قافلة أخرى، هي قافلة دمشق، آثار في حديه الروعة، إنها مدائن صالح^(٢)، حيث ما رأنا نرى هناك مارن يبلغ عددها بين ٨٠ إلى ٩٠ منزلاً،

(١) انظر رحلات في شبه الجزيرة العربية، دوركهارت، مرقن سادفاً ص ٣٩١ فإن بها مصطلح يوافق لمصحيح اسمها: الوجه (وتطلق أيضاً الوش El-ousch) ويسميتها الوش بأثر باللهجة المصرية

(٢) تحدث عنها بالتفصيل هاري ست جون فلي في كتابه أرض الأبياء، مدائن صالح، تعريب عمر الدويراوي، مشروبات المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩٦٢م، وانظر مدائن صالح، محمد عبد الحميد مرداد، المكتبة الصغيرة، ٢٩، د ن، ط ٢، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٧م، وانظر شمال الحجاز، ١، موسلي، نقله إلى =

مصحوة ومحجورة في الصحور، وهي كلها تقريباً مؤلفة من صائفة كبيرة، ومن عدد من المقاصير الصغيرة، ومن مكان للصلاة، ويوجد على أبواب أغلبها نقوش تمثل سوراً، ولكن الحجاج حطموا كل ما وصلت إليه أيديهم منها، وطمس عدد قليل منها لم يمتد إليه يد المتحطم. وإن على الصحور المستخدمة في بناء حدران هذه السور العربية نقوشاً لم يسطع أحد من رموزها أبداً، أو الوصول إليها بسبب علوها. إنما نجهل لعمري أيتها كتبها تلك النقوش^(١) ويوجد في هذا المكان آثار كثيرة ولكن ماؤها مرة وهوها فاسد، وبصر الناس أنه مشحون بالسموم. وبعدئذ لمسمون هذا لمكان من الحرية العربية مكاناً مشهوراً منذ الأحداث التي رافقت قصة نافذة النبي صالح عليه السلام^(٢) وإن نافذة الحج الثامنة التي نجد فيها مصطرة لعبور هذا المكان الملمون في الذهاب وإياب تعقد في كل مرة عدداً من حجاجها، وخصوصاً أولئك الذين في قلوبهم مرض / ١٠١/.

إدء، أي مدينة هي تلك المدينة المجهولة، المدفونة في حصى الصحراء، من أسسها؟ ومن سكنها؟ ومن هدمها؟ إن وجودها مشكك، ومصيرها لغز عويص يحيم الصمت على ماضيها كما يحيم على آثارها. وإن كل ما قلته هو هو مردد لما أحررت به، لأن شيئاً لم يكتب أبداً، حسب علمي، بخصوصها. وإنني إذ أعدم للماري ما تنهى إلى معرفتي من معلومات عنها فإني أدعو، إلى أن يأخذها مع الاحتياط بحق المراجعة، كما فعلت ذلك أنا نفسي^(٣).

= العربية د. عبد المحسن الحبيبي، الإسكندرية، ١٩٥٢م، ص ٦٩ - ٩٦.
(١) من بها كتب بالنخط لسطي المعروف. وهناك دراسات كثيرة نُفِذت عليها، ومحل الاعتلاع من كتب الدكتور سليمان الدب المتعلقه بنقوش شمال غرب بمملكة ثقي في هذا المجال.

(٢) في الأصل مد هياج الحمل المعروف الذي روضه النبي صالح depuis la révolte d'un chameau traditionnel compté par le prophete Salih وثبت في الأصل ما هو ثبت في نص القرآن الكريم عن قصة النبي صالح عليه السلام لأن ما أتتبه المؤلف اختصار محل للقصة المعروضة

(٣) فصل عنا القرآن الكريم خبر قوم صالح في عدد من السور، ويذكر هنا ما جاء في =

حصلت على هذه المعلومات من باشا المدينتين المقدسين الذي أكد لي أنه رأى الأمور بعينه؛ وأقر أن ذلك ليس صماعة صدق، أو دقة وليس هناك في الشرق ما هو أصعب من الحصول من أي كان، وحول أي موضوع كان، على معلومات، وإن كانت إيجابية ويسعى أن يسيطر الحس النقدي على أكثر الأقوال تأكيداً لمراقبتها وتكمس الصعوبة في أسعد الأشياء؛ فانا على سبيل المثال أتحدى إن كان بالإمكان أن يُعرف على وجه الدقة مقدار المسافة التي تفصل بين المكابيس، وكلما طرحت على الرئيس سؤالاً من هذا النوع فإنه يصرح في الإجابة دائماً "إن الله مع الصائرين" لم يزل إلى انيسة أبدأ في الأيام الثلاثة الثانية وهي ٣، و ٤، و ٥ فبراير (شباط)، وكان على مسافة بعيدة عن الشاطئ حتى إذا لم نكن نراه في بعض / ١٠٢ / لأجبار.

كما في الليل تتوقف في وسط البحر، وكان الجو في الأيام الثلاثة المذكورة رائعاً؛ لم يكن في السماء أي سحب، وكان البحر خفيف الموح، رسم يكن هناك هواء؛ بل ما يكفي لنشر أشرعنا وبعد أن كنا قد تعرضنا لهزات عميقة أصبحنا الآن ننحرك بلفظ وكأنا في المهد.

كنت مسلياً في مزخرة المركب على سعادة عصبية بها لكوئيل، وكان هناك سجاده أخرى بصت فوق رأسي تحمي من الشمس التي كانت شديدة الحرارة في هذا الفصل كنت أقصى الوقت، وأنا أحلم، وأأمل، وأستيقظ النسيم البحري، وأشتي بهذه السماء، وبهذا الحر الرنح، ومررت ساعدت العبور الطويلة بسرعة ودون ملل كان الساحل الإفريقي قد غاب عن الأنظار منذ فترة طويلة، ولكن ساحل التحرير العربية أصبح طاهراً للعيان منذ اليوم الأول، كان محاطاً بسلسلة من الجبال الحمراء التي كانت تتواءمها الطويلة وقممها المنسوبة تلتفت النظر شيوخ أشكالها، وكانت منذ طلوع الشمس حتى

سورة الشمس حيث قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ لَهَا ۖ ﴿١﴾ لَا تَحْسَبُ أَنَّهَا ﴿٢﴾ قَالَتْ رَسُوْلُ اللهِ مَا هَٰذَا اَللّٰهُ وَسُئِلَهَا ﴿٣﴾ فَكَذَّبُوْهُ فَعُرِفُوْا فَذَمُّوْهُ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذِيْبُهُمْ سَوَّاهَا ﴿٤﴾ وَلَا يَخَافُ عَذَابَهَا ﴿٥﴾

عيانها تتلون بكل الألوان، وبكل ظلال الطيف الشمسي وإن أكثر اجبال
 ظهوراً من تلك السلسلة هي جبل رعل^(٢٢) (رغال)، وسفحة^(٢٣) Safkha،
 وجبل كركما^(٢٤)، وهي أسماء أحدثها من قم الرئيس وكنتها كما كان يقطها

وإد اسحدر الطر من الحال إلى البحر فإنا نؤخذ شوع الألوان لذي
 يتبع، حسب طبي، عن اختلاف الأعماق فهو هالون / ١٠٣ / أحصر مائل
 إلى السواد، وهناك لون أبيض معكر، وفي مكبا بحر يتلون بفروق اندون
 لأروق كلها من الأروق الصافي إلى الأروق البلي العاصق جداً، وهو في كثير
 من الأمكنة يكسي اللون الأحمر الغامق وإن هذا اللون يكسيه لبحر دون
 شك من لرصيف لمرحاني لصحيم الذي يتشرب فيه وفي كل لجهاب، وبه
 من لمحتمل على الأقل أن هذا البحر اكتسب اسمه من هذا الطرف الطبيعي
 إن أسط قواعد الاشتقاق هي أكثرها قولاً، وخصوصاً تلك التي تقوم على

(١) جاء في معجم معالم الحجاز، عاص من غيث اللادي، دار مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ /
 ١٩٨٠م، ج ١، ص ٧٥ «رعل أرغال» مكان ذكره جلي وقال «مع حروب شرقي أم
 القروب، وبه مقر شيخ قبيلة بني المعروف» بن وفاده، ومرتفع رغال (٢٠١١) قدم
 وتشرف على وادي الحمص^{٢٥} ونظر أرض الأنبياء، مدائن صالح، تبلي، مريب
 عمر الذيرادي، مكة الاحديه، بيروت، ١٩٦٢، ص ٢٢٣ وكنت في ترجمه
 الإنكليزية لرحلة دينيه، مرق سابعاً، ص ٥٠ Ghai وهو خطأ

(٢) كذا كنت في الترجمة الإنكليزية لرحلة دينيه، مرق سابعاً، ص ٥٠ ونم أجد

(٣) رأس كركما ماء صغير حوب الوجه عند مصب وادي لسا، على رأس مشهور
 يحمل الاسم معه، وأهل هذا المياه يشعلون بهيد لسمك، ويبيع بعض أصحاب
 إلى لباديه، وهم من بلي وقد كتب دنديه Konkour وكان جلي في أرض
 الأنبياء مدائن صالح، مرق سابعاً، ص ٢٢٣ * ونعني هذه الطريق (من الوجه
 إلى اعلا) من الدلتا العظمى لوادي (حمصه) (كدا ونصواب (الحمص) الذي يمتد
 مسافة بعده إلى العرب حيث يقع المرتفع المعروف باسم (رأس كركما) وهو مرتفع
 يتوجه رأس أصغر اللون ومن هذا اللون اكتسب المرتفع اسمه و (الكركم) بالذلة
 العربية بات يعطي لوناً أصفر وفي الترجمة الإنكليزية لرحلة دينيه، مرق سابعاً
 ص ٥٠ Karkamah

وقائع مادية ومعموسة. عدد سميت من — صفة الأحمر إلى قبيلة عربية تعيش على سواحله وتحمل هذه الصفة نفسها وتكر ذلك قول في بعض العشوية؛ لأن ذلك ثقلة سم تعد موحودة، وربما لم تكن موحودة في يوم من الأيام. ولكن إذا افترضنا أنها وجدت في يوم من الأيام فإن ما سمي معرفته بأن كانت هي التي أعطت البحر اسمها، ولماذا لا يكون البحر هو الذي أعطاه اسمه.

وما دام الحديث عن الاشتقاق بحر بعضه بعضاً فإني أقدم استفاداً، ولا ادعي أنه الصحيح، ولكنه الاشتقاق الذي أراه صواباً. تسمى العرب جهنم الدار الحمراء، وإن لهذه الصفة لديهم على الدوام دلالة شؤم، فهي من المسحول بدأ أن يكونوا قد أطلقوا على هذا البحر لمهلت سبب أحضره استحقاقه، وأحذائه لطيفة اسمياً بقرن بالربيع الذي يبقيه في نفوسهم؟

توقف في أثناءه الأولى بين دكتين من / ١٠٤ / البحر تصيران على وجه الماء. وهذا ممحاً مزار للاحتماء من المد البحري، لأن لموج يأتي يسبحول إلى ريد في كلا الحاسين، في حين أن الوسط يبقى هادئاً تماماً يُسمى هذا المكان «البحر الحرير»^(١) ليس بالأمر السهل أن يكتب بالأحرف العربية الأصوات المحلية العربية، وخصوصاً عندما لا يكون قد رأيناها قط. مكنونه رسوماً في اللبنة الثانية لحنني بحريتين تفصلهما ماء صفة تُسمى الأولى لينة والأخرى حبل حستان^(٢)، وسكني البحريرتين في أيام الربيع قبيلة جهنة العربية

(١) في الأصل Bou Kharid ثم يصحح المؤلف فيقول والأصح Abouharir ونظر الترجمة الإنكليزية لرحلة ديبليه، موقوف ساه، ص ٥٠

(٢) يدعى حرير في البحر الأحمر مقابل مدينة أم لج تقع على مسافة كينوميرين غرب حرير الحساني وعلى انحراف الغربي للشاطئ الصحري، ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ٧٦٦ م، تعلو الماء حولها بالشعاب المرجانية والصخور العاطسة انظر جرد البحر الأحمر (المنف العلمي) مجموعة من استوفيس، مونو ساه، ص ٧٠٩ وقد كتبها ديبليه Libana، والأصوات Libana أما حستان فصح إحصاء وأنسب التسمية المفتوحة فأنف ويون فقال البلادي في معجم معالم الحجاز هو حبل في البحر =

التي تعيش على الساحل، وتحمل قطعان ماشيتها على أكتافها وقد كانت حين
لحاًماً إليها مقمرة، ولكننا نرى فيها أكواخاً بناها الرعاة، ثم تركوها حتى موسم
الرعي العادم. إن هؤلاء البدو شأنهم شأن بدو الساحل كلهم، سمعة سيئة
لدى البحارة، لأنهم يعدونهم لصوصاً من ذوي الجرة، يسطون في أغلب
الأوقات على المراكب، أو إيهام بأحدون منها جعله على الأقل لذلك
يحرص البحارة على تجنب الاقتراب منهم، ويظلون مراكبهم على مسافة آمنة
من المناطق المشبوهة.

ويسمى أن تشير هنا إلى أن الرئيس قدّم لبحارته ولنا القهوة بكرماً لأحد
أولياء الله المسلمين المدفون في جزيرة محاوره، واسمه الشيخ حسن
لورابط^(١) (بكسر الحيم) وينقطة البحارة / ١١٥ / مَرَبَط (بضم الميم)، وهو
اسم تحول في آخره إلى مَرَبُوط (مارابو Marabou)، والمربط هو الذي
يدور نفسه للدفع عن الدين وإن الولي المذكور هو سيّد هذه الأمحاء التي يلقى

= عربي أم لُجج يعيب عليه الشمس، فيه أشجار رئيسه سكان إلا من يحمله من بعض
الناس إذا عشب، وقد قرب لمن كنه حشائي به النسبة، وهو خط، وهذا الجبل
يكون جزيرة تسمى أخريبات صمد. انظر معجم جبال الجزيرة، عبد الله بن خميس
أرباص، ط ١، ١٤١٠ - ١٩٩٠، ج ٢ ص ٢١، وأمر معجم معالم البحار،
بيلادي، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م، ج ٣، ص ١٦، وانظر بحر الأحمر (المنامة
العلمية)، مجموعة من المؤلفين، الجمعية العلمية الملكية الأردنية، ١٩٨٩،
ص ٧٠٩ حيث سميت جزيرة الحساني، وقال إنها جزيرة ذات سطح حلي واسع
أعلى مسو به ١١٦ م من سطح البحر ويوجد إلى الجنوب منها ممر ملاحى
ضيق يؤدي إلى مياه أم لُجج وقال بيلادي في أرض الأنبياء مدائن صالح، موقن
سابقاً، ص ٣٤٠، وقد جرى التحديث (في أم لُجج) في يوم من الأيام حول
لاستفادة من محروون (مسند الطور) في انحرور التريه من الشاطئ، ذلك الجور
التي تعتبر أكبرها جزيرة (حشائي)، وتبعد مسافة ليست كبيرة عن الشاطئ، ولا
يكنها لا أسراب كبيرة من الطيور البحرية، انظر رحلة بيرتون، موقن سابقاً،
ج ١ ص ١٧٨، ١٨٠

(١) انظر رحلة بيرتون، موقن سابقاً، ج ١، ص ١٧٨

فيها تحسلاً عظيماً لا يمر سعة بحوار ضريحه دون أن تصلب عونه، ودون أن ترسل إلى ضريحه الذي تحرسه أسره عريه، أعفية من الطحين أو القمح^(١)

إن البحارة المحليين معرطون في التنظير، فحديث عن سجلهم الأوليه وإحلاصهم لهم، فهم يعدون أن فاع البحر مسكون بالجن، وأن منهم لأحبر، ومنهم الأشرار، وقد سبق لي أن تأكدنا من ذلك عند مركة غرغون، إهم يسبون للجن الأحبار الإنحار الموقن، ويتهمون الأشرار بأنهم يهجون الأمواج، ويعصمون الرياح، ويحدثون السم إلى وسط المهالك لذلك لا يعرف البحارة أبدأ أن يحطوا ودهم بأن يرموا لهم في البحر ما يحويه وحياتهم، بعض حبات من السم، وقصة من الطحين، وفي بعض الأحيان رعيه خير كامل لكي يكون للأرواح الشريرة نصيب أيضاً^(٢)

لم يكن يرى اليابسة في يومي ٤ و ٥ من أير (نشاط)، ولكنها عادت إلى الظهور، ورأيت عند لظهور الشمس، في الأفق مدرجات جبية رائعة يتلو بعضها بعضاً، وهي مقسمة بمهارة عجيبة، وإن أقرب سلسله تسمى بـ "سط"^(٣)، وأبعدها / ١٠٦ / أبو غرير Abou Ghanr وتعلو قمة جبل المنهر المحرقة هي كل القمم الأخرى وتعد تلك نجال نحو الجنوب، وحده هذه النجال تقع المدينة المنورة، ووراءها تحاه الشمال الشرقي صحراء بعد الشاسعه التي يفصلها عن بعداد جبل شمر، ويوجد في تلك الصحراء أكثر حياض البحيرة

(١) انظر رحلات بوركهات ، موثق سابقاً، ص ٢٩١، ودار سما في كتاب التراث الشعبي... موثق سابقاً، ص ٦٨.

(٢) انظر رحلات بوركهات ، موثق سابقاً، ص ٣٩ - ٢٩١

(٣) كتبها ديديه Nabt وهو مكان معروف اما جبل المنهر فقد كتبها ديديه Mahar،

وحاه في معجم معالم الحجاز، لملاحي، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ج ٨، ص ٣١١

٣٠٢ أن المنهر جبل يعرف حوله غورص من الشمال، اسود طويل أسي عصب،

ندعه مكة حديد الحجاز إلى المدينة بمسها، يصب ماءه في سيل المعظم وشر

جد بو غرير مركة كما كتب الموثق و نظر الترجمة الإنكليزية لرحله ديديه،

موثق سابقاً، ص ٥١

العربية فيمنه وبعد أن تجاوزنا من مسافة بعيدة جداً رأس بردي Baridi،
توفعنا للمرء اثاثه في عرض البحر، بعيداً عن البارات البحرية لمحيفة
المحملة بانصحو، يساعدا في ذلك استمرار انطعس الرائع وأحد نفسي
عجراً عن وصف دك الجمال، لذي يستعصي على الوصف لتلك الأمسات
التي قصيها في عرض البحر، روعة عروب الشمس لتي كانت تكرر في كل
يوم، ولكنها كانت تختلف على الدوام أما في هذا اليوم، فقد كان المشهد
أكثر تألقاً أيضاً من اليوم السابق، لو كان بالإمكان ذلك، كانت ألوان السماء
والبحر أكثر توهجاً، ولطبيعة كلها أكثر روعة وأكثر هدوءاً. لم يكن في البحر
موجة واحدة، ولم يكن في السماء أية سحابة وكانت قمة جبل رصوى التي
كانا نراها من موقع الذي رسونا فيه، مصادة وكأنها مارة صخرة، وكانت ما
ترال نلتصع، مع أن لشمس اجنت حلف البحر ومع أن نعم سهل كان
يسعها عن قرب، ويسح في ملكها المنوهم فانه كان يلتصع على حافة الأفق
لمعداً فريداً وكانت اسجوم الصالعة شحبة حوله، ولا تبدأ بالالتصع إلا عندما
تدو هي نفسها تسح في ايمدى الرحب / ١٠٧ /

قريباً سظهر العمر، ومبتلو السا لذي انطعاً مد قبل طلام غير كثيف،
أو بعدد أدق، صوه حفيف نراه في ليلة من الليالي الرائعة في شب، التي هي
أكثر العا من أيام طقسا السديمي (يعصد في أوروبا) كان السيوك، وهو
مستقر في مرماه، يلهم الصمت والصلام، وكان لجميع على من السيوك
يعطون في يوم صمق، لا أما؛ إذ لا يستطيع النوم أن يسلي صيره التمتع بهذه
الأمسية الجميلة.

كان ذلك مظهر من مظاهر التهاون وللأسالة لدى الملاحين العرب،
الذين لم يكن أي منهم يقوم سونة الحراسة بعد تركوا المركب طرال السيل في
حراسه الله كانت الأمسية الهادئة والليلة المحملة تثنان أن البحر سيكون هادئاً
في ليوم التالي، وقد حصل ذلك بالفعل إتان فترة الصباح كلها

أما البحارة الذين لم يكن لديهم متد عادرنا السويس ما يفعلونه تقريباً،
فقد بدؤوا بالتحذيف الذي كان مرافق لشحد الهمم بعاء رتب وحرير، لم

أحفظ منه إلا الكلمة الأولى، يا سيدي، لأنها كانت تتردد كثيراً، وعلى الدوام بالتعظيم نفسه. يقوم البحارة، شأنهم شأن العرب كلهم، بكل أعمالهم على وقع النداء، فهم، سواء كانوا يشرون الأشرعة أم يطورونها، وسواء كانوا يلصقون المرساة أم يرفعونها، يعملون معاً لزيادة السرعة ولتعمل سرفق، وإن بكل مسارعة بضربها العناني الحاصل، ولكن ذلك لم يكن ليجمع بين تعيد المندورة كثيراً من الاضطراب والبطء^(١) لكن الهدوء لم يستمر على كل الأحوال طويلاً، إذ هبت بعد عدة ساعات هواء الشمال، الذي بهت لمدة تسعة أشهر في السنة على اسحر الأحمر، ولدي يهيم في سرعه البحار، مما جعلنا نصل عند الظهيرة إلى بنج^(٢).

ب. سبع ميه، المدينة المسورة، تعد عنها مسيرة خمسة أيام إلى الشرق ومياؤها واسع، وأمن جداً، لأنه محمي بحريرة العنابي^(٣)، ويعتد الناس كثيراً إلى السفن التي تذهب من السويس إلى جدة، إلى السويس تغني مراسيها كلها فيه، وهناك رحلات تكاد تكون يومية مع المصيرى وهي مدينة بحرية صغيرة تقع في الأراضي المصرية، وتصل البحر الأحمر بالبحر من طريق قنا^(٤).

سبع مدينة ذات أهمية حسنة، منه لعمار، تكاد تكون مغلقة، ومشيعة

(١) فاروق بما في كتاب التراث الشعبي... موقوف سابقاً، ص ٦٨ - ٦٩.

(٢) انظر بلاد سبع، لمحات تاريخية جغرافية وإطاعات خاصة، حمد الجاسر، دار السامية، الرياض، ١٩٦٦ م. وانظر كتاب التراث الشعبي في أدب الرحلات، د. أحمد عبد الرحيم نصر، الدوحة، ١٩٩٥، ص ٦٤ - ٦٥.

(٣) انمياشي كنها ديديه Al-Abban وأعله خطأ مطبعي إذ الصواب انمياشي، انظر كتاب بلاد سبع لتشيخ حمد الجاسر، موشر سابقاً، ص ١١٦ وقد كتب في ترجمة الإنكليزية لرحلة ديديه، موقوف سابقاً، ص ٥٢ Al-Abban وهو خطأ أيضاً.

(٤) هذا طريق بحارة دحليه يمتد من المصيرى إلى العرب عرفت ويمثل أحد الانحدار بين الصعيد والبحر الأحمر به طرق للمواصلات مسنوع اربعة أيام من قنا إلى المصيرى انظر كتاب مصر في كتابات... موقوف سابقاً، ص ٢١٥، ٣٦٤.

بثلث المراتحة المعروفة بالحصنة بالمدن العربية، والتي وحدها نفسها في
 لمغرب وفي طرابلس المغرب وفي مصر وسوريا. ويعتبر محافظة بسور مهدم في
 كثير من المواضع، يوشك أن يسقط في كل أحرانه، ومحضر بأبراج هي في
 حالة تشبه حالة السور سواء. ويضم حور الحصن المقدس إلى قسمين غير
 متساويين، ويشكل أصغر القسمين ما يشبه الركن (لصاحبة) سمي لقعد
 ويسكنها اسحاره^(١)، وبسوق يقع كثير السلع، ويبيع فيها التمردو الوعية
 الجيدة؛ وإن سور المدينة مشتهرة بأنها أفضل تمردو العالم. والسر هو العداء
 المفصل لدى البدو، وهم بطعمونه /١٠٩/ أحصتهم أيضاً. لقد باركه
 النبي ﷺ^(٢)، وسكرر ذكره في آلاف المواضع في كتب الشرق المقدسة أو
 غيرها. ويؤدي دوراً رئيسياً في الروايات الشعبية في الصحراء.

لقد تمت بجولة طويلة عبر شوارعها، ولكنني لم أستعد من ذلك شيء د
 بان رأيت عدداً من السيوف الحرة التي لا يكف الناس أنفسهم، كما هي
 العادة في البلاد الإسلامية، عاء إصلاحها أو إزالة أعاصير التي تصبى على
 تلك المدن المهدمة هيئة كئيبة.

كان فوق بعض الأبواب نقوش محفورة في الحائط، ومحضنة بدفع
 شر العين الشريرة^(٣)، وهذا معتقد عامي سحده في الشرق والمغرب معاً. وبما
 كنت مشغولاً بالنظر إلى أحد تلك النقوش الحرفية محذولاً نصيره، أطلقت
 إحدى لمجائر مراسيها، ورد أنها نظرت أسى لم أت إلى هنا إلا بقصد يصبه

(١) أما القسم الكبير فيسمى بسبع النظر وحلات بوركهات، موش سابقاً،
 ص ٣٨٢

(٢) ما ورد عن النبي ﷺ في هذا الشأن هو حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ
 قال: «لا يخرج أهل بيت بعدهم المراء» وحديث آخر قال رسول الله ﷺ: «يا
 عائشة! أنت لا تعرفي، جياع أهله، يا عائشة! بيت لا تعرفه، جياع أهله أو جاع
 أهله». فانها مريين أو ثلاثاً، انظر صحيح مسلم، ج ٣، كتاب الأئمة، حديث رقم
 ١٥٢، وحديث رقم ١٥٣

(٣) قارن به في كتاب التراث الشعبي، موش سابقاً، ص ٦٥

مرلها بالعبري؛ بذلك نظرت إليّ نظرة ملؤها تحفظ والحوار والرعب، حتى إني كنت سأضعق لو كانت لينة تكفي لديك في الشرق لا يحدث في الأشياء أبداً كان نوعها، يياً أم حيواناً، أم شخصاً، أو حتى شجرة، دون أن يصح من يحدث شكوكاً فيه، ويتهم بأنه هاتن.

كان حمالة العاهرة برعحون عندما كنت أتوقف أمام البيوت التي كانت أبوها أو شرفاتها تلمت نظري، وقد ختر عليّ فصولي لكثير من لعانهم /١١٠/ أما في سبع فقد رأيت مشهداً معكماً لذلك المشهد لصمت مع العجوز، كان هناك عرب من الأولاد، وكانوا عراة، وأكرهم لا يسحاور الربعه من عمره، وكانوا يسمون حملة صاحبة لم يعطها وحوذي بينهم كان أحد الأولاد يفرغ بضربات مردوجة على دربوكة أكرمه، وكان لأخرون برقصون وقد تحلقوا وسط العار ولو أني كنت بارعاً في الرسم براعه ديكام^(١) Decamp، لكن باستطاعي أن أرسمها لوحة تكون نظيرة لوحته المسماة لحظة الانصراف من المدرسة العربية La Sortie d'école arabe

إن الدربوكة المستخدمة في مثل هذه الحملات هي عبارة عن صحيفة مجوفة، بصوية الشكل أكثر منها دائرية، مصنوعة من اطين الحش لذي ملوا فوقه راحة من الجلد. وإن هذه الآلة الدائرية هي المرافق الذي لا يمكن الاستغناء عنه، ووجودها أساسي في كل الحملات العربية. تسمع صوتها في كل مكان، لقد سبق لي أن سمعتها في أثناء اليوم على متن مركب محلي عائد من القصير، وقد حرج أقارب القادمين الجدد وأصدقاؤهم للاحتفال بعودتهم احتفالاً هامراً يستمر طوال النهار^(٢).

(١) أنكسندر - غابرييل ديكام Alexandre-Gabriel Decamp رسام فرنسي ولد في باريس عام ١٨٠٣م، وعاش في فرنسا (غرب باريس) عام ١٨٦٠م، عام ترحله إلى الشرق تركت آثارها في إنتاجه الفني، وحملته يأنثر بأطوار الشرق وأثره في رسماته المميزة حتى أصبح يعد بين الرومانسيين، وتناول موضوعات شرقية مثل المدرسة والسوق والجمال، ويدين للشرق بأجمل لوحاته ومنها لحظة الخروج من المدرسة

(٢) قدس بما في كتاب التراث الشعبي، موشق سامية، ص ٦٩

الطاعة^(١) ليس في المدينة إلا بشر واحد، ماؤها أحاج، والناس محروون
 للحصول على مياه الشرب على حفظ ماء العطر وسيول الشتاء في حرارات تم
 ساؤها لهذه العاية، وعندما ينقصهم الماء، فإن عليهم أنذهب بعداً جداً
 للبحث عنه في أبار عسيلته مما يجعل ثمنه مرتفعاً جداً وليس في دهر
 المدينة إلا شجرة أو شجرتان من التحيل معروفتان أمام المسجد وليس هناك
 أكثر من ذلك خارجها وقد خرجت من باب المدينة المورة بقم بحوله في
 لريف فلم أر شجرة واحدة، ولم أكتشف إلا الصخرة العقيمة التي تعد وحدة
 وعارية من البحر إلى الجبال ولا تجد بعض المروجات والمسابح
 المحصورة إلا على بعد سب أو سبع ساعات من المسير، وذلك في يسع الحول،
 وهي تقع في واد كبير مزدوع محبل لتمر ولقمح، وبملاك فيها السكان الأعاب
 حدائق ومسارل ريفية، يذهبون إليها على الحمير لأنه ليس فيها إلا عدد قليل من
 الحول، ويقصون فيها شهراً في السنة إبان موسم السر في ذلك الوادي
 الواقع في أسفل الحال عدداً ١١٢/ من القرى يقارب اثني عشرة قرية،
 بيوتها مبنية من الحجارة، وهي، إن صح التعبير، أحسن بناء من بيوت المدينة
 نفسها، ولكن ليس بدرحة كبيرة، ويمكن في إحدى تلك القرى كبير مشايخ
 قسنة جهبه الكبيرة، التي يسمي إليها سكان يسع^(٢) فقد ظلت قبيلة جهية

(١) يقول بوركهارت في رحلاته ، موثق سابقاً، ص ٣٨٨ : وتعد يسع أرخص مدن
 الصحار من حيث أسعار الحبوب ولأن يسع فيها ماء طيب (كثيراً) موعدا يذو أكثر
 ملائمة من الناحية الصحية، من موقع حده، لذا فقد كان اهتمام بها محملاً لولا
 أسرار الدواب الهائلة التي تتعد لها من هذا الساحل مأوى، فلا جد يخرج من بينه
 دون أن يحمل مروحته من الخوص في يده ليدب عن هذه هذه الحشرات ومن
 الصحال أن يتناول إتيان طعامه دون أن يقطع بعضاً من هذه الحشرات التي تندفع إلى
 هذه لحظة فحة. ونشاهد سحب منها يحوم فوق المدينة، وهي تتعد من تسير إلى
 برسو خارج النباء مأوى لها، ويظل على السحب طويلاً الرحلة

(٢) ماك بوركهارت في رحلاته ، موثق سابقاً، ص ٣٨٤ - ٣٨٥ : وأهل يسع أهل
 تحضر من أهل مكة المكرمة وحده، وفي طباعهم خشونة، ويسلكون بعض الأفعال
 سلوكاً قسراً، إلا أنهم من ناحية أخرى أكثر انضباطاً وأهل ممارسة للردائل وهم

متمسكة بالبدن، مع أنها كانت تسكن المدينة، لهذا حافظت على ربي حبرائها في انصحراء، مع أنها أصبحت مستعرة، ويتكون ربي الصحراء من ثوب من الكتان، أو الحرير، حسب الحالة المادية لصاحبه، مشدود إلى الحصر محرام من الجلد، وفوق الثوب عباءة بيضاء قصصاة على الجذ قصيرة الأكمام وأما الرأس فهو معطى بكفّة؛ وهي مبدل من العطن المصنوع باللون الأحمر، أطرافه موشاة بالحرير الأصفر، وتسقط أطرافها المرداة بالأهداب على الكتف، ويمسكها على الرأس حبل من صوف الإبل يسمى عقان، وهو ملفوف عدة لغات حول الرأس

ويحمل الرحاة أسلحة محفية، وفي أيديهم عصاً من الحبرانة هراوة تكفي ضربة واحدة منها لأن تصرع ثوراً^(١) وما دما في صدد الحديث عن اللبس، فإني أقول إني في هذا اليوم، وللمرة الأولى استبدلت بالقبعة لأوروبية لتي يفتتها المسلمون طربوشاً أحمر اللون، وطرفه أرق، وبم أحلعه إلا عدم عدت إلى لقاهرة، وقد وصفت مع الطربوش كمية كانت / ١١٣ / ذات فائدة تجلّي إتيان رحلتي إلى السودان، وحصلت بعد ذلك على عباءة لم تكن فائدتها ناقل من فائدة الكمية

بن سكان بيع بدو في ملاسهم، وهم بدو في عاداتهم الخاصة أيضاً،

يظهرون بشكل عام في الصحراء، سعة طيبة. ورغم أن بيع لا يضم أفراداً ذوي ثروات كبيرة، إلا أن كل فرد فيها يبدو مطمئن المال وثرياً أكثر من أهل مكة المكرمة. ومعظم الأسر المحترمة في بيع تمتلك منازل ريفية في وادي شمر يقال له بيع البحر، أو قرى بيع (قرايا بيع) أو بيع الر، وهي تسعد من بيع بحوالي سبع ساعات أو سبع. عند سفوح الجبال صوب الشمال الشرقي أن بيع البحر مشابهة لأوديه الجديدة والصحراء، حيث يحمو الحبل ويرجع الحقل، ويسد بيع الساحل مسيرة بيع ساعات طويلاً، وتشمل على اثني عشرة قرية صغيرة متناثرة على جانب البحر، وأكبر هذه لقرى سويمة؛ وهي مكان عقد السوق، حيث يُقيم كبير مشايخ جهينة، ويعرف سلطته بدو جهنة وأهل بيع على حد سواء.

(١) قارن بما في كتاب التراث الشعبي، موشق سابقاً، ص ٦٤

بإستثناء أنهم يعملون مختارين بالحجارة والملاحة، وهم يذهبون يوماً لهذا
لعرص إسي القصير والسويس إنهم مهربون نارعون، وبطريقة عدية عائلاً،
وهم في براع دائم مع رجال الجمارك الأتراك. لقد سخر صيدهم في الحجار
كله بحس الأخلاق، مما يصرهم من مكان المدين المقدسة، التي أصبحت
فيها انعيم الأخلاق وخصوصاً في مكة لمكرمه إنهم يحرقون أي عمل
يدوي، وأي وظيفة خدمية، ولا يرضى أحد منهم أن يكون خادماً، ولكنهم في
مقابل ذلك اشتهروا بحشونة طباعهم، وأنهم يسلكون في بعض الأحيان سلوكاً
فظحاً إن كل ما أستطيع قوله عن تحريتي إسي وجدت حظهم من المدينة
قليل، ولكني لم أحرص لأي إعاءه منهم وإذا حكما عليهم من خلال
عادتهم فيمكن القول إنهم كثيرون أنطير فقد كانوا عندما بلغ اشتهر لطاعون
دروته في يبع، يطوفون أحياء المدينة، وهم يتودون حملاً، لكي يحفظون
الوباء كله ويركزونه عليه، ثم يديحونه في مكان محصص، وهم يتحيلون أنهم
بقية اما يقتلون في الوقت نفسه اشتهر الوباء^(١) / ١١٤ / وبعد أن جبت
المدينة في كل الاتجاهات، ولما كنت لا أود الإبحار ذبياً إلا بعد عروب
لشمس إسي بانتظار حلول موعد الإبحار استقر بي المصطف على باب أحد
مجمعي الواقعة في أكثر شوارع المدينة سكاناً، وبانفرت من المسجد، وقد
سحبت لي بذلك العرصه لأرى أمام عبي، خلال عدة ساعات، مرور كل
السكان الذكور، ولم أر أية امرأة.

(١) جاء في رحلات بوركهارت ، موقئ ساجاً، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ ، وسوف أذكر
ها عابه خاصة بالعرب عندما بلغ اشتهر الطاعون دروة في يبع، قد السكان
العرب كافة في موكب عبر البلدة وقد عطفوها بكل أنواع الزينة والزينة والأجراس
وما إلى ذلك، وعندما وصلوا إلى المدير قاموا بديحها وشروا لحملها لتسور
والكلاب، املمر بدت أن جشع الطاعون المنتشر في البلدة (يبع) متجداً من يدن
البلدة ملجاً وأنهم يديح اسافه سوف يحصلون من الموص في الحال، إلا أن
كثيرين من العرب الأكثر تعلاً سحروا من ذلك، لكن هذه العادة حتى الآن . بها
بعض العائده إذ إنها ترفع الروح المعنوية لدى انطفاة الدت، فار ما في كتاب
التراث الشعبي ... موقئ ساجاً، ص ٦٨.

في البدء ها هم المؤمنون يدهون إلى صلاة انعصر في المسجد المجاور، ثم يأتي بعد ذلك العواصون الذين طالما ألحوا عليّ، وبأدب جم، لأرور أماكن عوصهم وكان يمر أمامي أنصاً حبة ودهاناً، وناقة، عدد من الباشي بوروق^(١) الأرناؤط والأكراد الذين شكلون حامية تحفظ بها الدولة العثمانية هنا، ولدي كانوا يصططعون هيئة الشجاعة للتأثير فيّ، وهم مسلحون بعداراتهم الطويلة، مدمعون براسهم البصاء

ثم جاء دور الحاكم ليحمر بعدهم، وهو لم يأت إلا بدافع العصول، ولكي يلتمس ريارني، ولكنه لما كان محترقاً أفندي، فإنه لم يكن له ما يؤهله لكي أصر عليه بهذا التمييز ولما كنت أوروبياً وفرنسياً ومسافراً محيراً، وطقاً للعرف، وكما يسمي أن يكون أي شخص يسافر بمنعته ولتنظيف نفسه، فإنه لم يكن عليّ أن أخصه بأي مجاملة.

وربما أدهش بعض الناس رؤيتي أتحدث غير مرة عن موضوع آداب العشرة، وأتحدث منه موقفاً متصلاً: / ١١٥ / ولكن ذلك ضروري في الشرق، حيث لكل شيء قواعده، وحيث تطلق الرسميات بصرمة شديدة وبن حترام

(١) جاء في معجم المصطلحات ، مؤلف سابقاً، ص ٦٥ «باشي بوروق تعظ تركي أطلق في انعصر عثمانى على القوات عبر النظامية «الحيش الشامي أو المليشيات» كانت معروفة في مصر أيام محمد علي باشا ومن حله بعده، بلغ عدد أفرادها في عصر اسماعيل ٥٠٠٠ مقاتل، وهم من الأتراك والعرب، مهتهم لمحافظة على الأمن في الداخل، والواحاح ومراقبة محمل الحج، ناهيك عن حبابه انصرايب كانت لأرادي «معسكرات» الشاشي بوروق ترتبط بدبوان مشمل عن دبوان الجهادية يعرف بدبوان «السرجمه» وكان هذا الدبوان يتولى إدارة حدود الشاشي بوروق من حيث التحجير والتسليح وتطبيق النظم العسكرية، غير أن هذا الدبوان أصغر فيما بعد، وألحق الشاشي بوروق بدبوان الجهادية، كان لباس الجندي من هؤلاء مصنوعاً من الزرد، وسلاحه سيف منمىم كاسيف الصليبيين ويندع بطوار معروف من الفروع، وعلى رأس الواحد منهم خودة لها حامية للأف على سبط حدود اسمالك، ونظر المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مؤلف سابقاً، ص ٥٦

الأوروبيين مرتبط بمدى الترامهم بهذه الأمور البسيطة، إن أي محاولة للعداات
المتمكنة، تنقلب حتماً ضد المعالف؛ وإن أي ساهل أو أي مادرة مهما
كانت بسيطة تعد حصوعاً وليس تاسامحاً، وتعد عتراًفاً شخصياً بالدوية،
وتحقق الآخر ولو وجد الشرفيون، والأحرار خصوصاً، أنهم مصطرون
بمدرك للأوروبيين عن كل الأشياء المهمة، فإنهم استعادوا مبرهم بدكء ملك
في مسائل حق المصدر، وفي العلاقات لوجية، يعني في معاملتهم الاصلاق
عن الدوم من مدا أن كل ما يخصهم مهم، وأنه لا شيء من يخص الآخرين
مهم في نظرهم

إن ديوان لحكم الذي لم أذهب إليه، يقع في مرل دي مطهر جميل،
به أحمل بيت في المدينة، أقسم قرب البحر في مكان مشير، ويسمى كسب أمر
أمامه لأعود إلى ليبيا، عرني الدهشة، عندما رأيت على مقربة منه تحت
سقف، ستة مدافع متروكة هناك مد ما بفارب ثلاثين سنة، تركها محمد علي
أو ابنه إبراهيم ثاب بعد حرب الوهابيين، وهي في حالة جيدة، ولم يكن
وجودها شاراً في أي رحلة مدفعية أوروبية / ١١٦ / وفي اليوم الذي نشر
السوك قنوعه عندما نادى المؤذن الذي كان من أعنى الصارة يدعو المؤمنين
لأداء أولى الصلوات لحسن في اليوم، وتعال صلوة السحر عند الكاثوليك،
وُسُنى أدن لعجر وعندما طلعت الشمس كما قد قطعاً عدداً من الأيام
لقد كنت أيام ٧ و ٨ و ٩ فبراير (شباط) تشه أيام ٣ و ٤ و هواء مؤاب، بحر
هاديء، إبحار سريع، لحاله البألفة معها، عروب متلق، وتوقفات لينة في
عرض البحر ولما لم يعد على فريق البحارة أن يجدوا، فإنهم عادوا إلى
سيرتهم لأولى في الكاسل، يقصون النهار بالتدحين واسوم، إنها حياة
الكسالى المشى، ولا يعني ذلك أن هذه الأنحاء غير حصرة، حتى في أكثر
الأجواء مناسبة، وذلك بسبب الأرضة الصحريه، ولعثرات لموحودة تحت
سطح الماء انني لا تزال المنطقة نفع بها

ولكن استمارة الضويلة للقاصه، جعلتهم يشعلون على هذه لصعوبات
سهولة، وقد كنت معجاً بمهارة قضائنا، وهو يتجاوز كل تلك الصعاب، غير

عابيه بوجودها إن هؤلاء الرجال الذين يعرطون في الفرج خلال لمد،
تجدهم هنا وقد مُتوا حرمًا يكاد يصل حد التهور؛ إنها أمكنهم المصصة، وإن
لعادة (الرويين) توحهم توجيهاً أدق من أي حارطة

لقد أصب الرئيس عشية وصولنا إلى يسع بحمي مُقلعه ثم يستمع
التخلص منها، وظلت تقص مصححه حتى حده / ١١٧ / كان عندما تحل به
بويه الحمى يظل مستيقاً على سجاده مرمشة، مرسلًا تأوهات محرقة،
وعندما كنت تمضي اسوية، كان يسول من جديد شيشته وأعماله وكان هذا
البرالي يحدث عدة مرات في اليوم لقد حاول رفيق رحلتي، الذي كان يحمل
معه صيدلية مجسية^(١) Homopatique أن يجرب عليه موهه الطيبه السيطه،
ولكنه لم ينجح في انتحييفه عنه، وظلت الحمى تفعل فعلها

كان اسم الرئيس حنبل سلام، وكان رجلاً محبباً جداً، مفصلاً،
ومؤدباً، كما ثبت لنا خلال فترة الماصية، وكان على ادوام يسعى
لإرضائنا، كان كوستا المشصر قد وضع في التعمد شرطاً يرضى على أن أُرَحَلَة
يسعى، مهما كانت الظروف، أن تكون ممتعة لنا، وأن على القبطان أن
يحملها كذلك لنا. ولم أر أبدأ أن أحداً استطاع الوفاء بانتزاهه كما حصل
هذا، فقد تم تعيد العهد بدقة من جميع جوانبه، وهذا شيء نادر لحدوث
في أوروبا سم يكن لدي أدنى ملاحظة يسكر توجيهاها، وأقل من ذلك أيضاً
الماحد لثني يمكن أن أحدها على حنبل سلام إن كان كل الفترة لي قصتها
على من السمية وأنتك أن يكون هناك في أي مساء عربي كثير من القاطنة
يتمتعون مثل هذه امدقة ولي الحاح لم يكن يرمدي في البحر، شأنه شأن
بقية البحارة، إلا قميصاً من المطر، ولكنه عند اسرول إلى الياسه، كان
يلبس ثياباً جميلة من الحرير، وكان له حنبد خضرة هيشه لوجهاء / ١١٨ /
كان الساحل لا يراى محاطاً بحال عالية، وكان أكثرها ظهوراً لنا^(٢) ضُبح،

(١) سبه من الطب انجاسي الذي يقرم على مداواة الداء بالداء (من المبهل)

(٢) كذا في الأصل Loubet ولعل صوابها Souben ضُبح (حل)، وهو منطقه قلبه ضُبح

العمرة المنفرعة من قبيلة حرب قال بوركههارث ويوجد هنا بنكن رئيسي =

والشاع^(١)، وجل بي أبوب، وكلما تعدى نحو الجنوب تكاد الحال جميعاً تأخذ شكلاً هرمياً، وأكثر تلك المحروطين العالية ظهوراً هو محروط كُثَيَّة، وإذا تقدم أكثر نحو الجنوب، فإن الحال مع بعض انخفاضاً قليلاً، وكلما اقتربنا من حدة يصبح الساحل سهياً تنتشر بين تلك الحال الواقعة بين مكة المكرمة والمدنية المسورة أشجار اللسّم المكي الذي يتمتع بسمعة طيبة في الشرق، بل في العرب أيضاً، ويُجنى من تلك لجبال غسل دو مذاق لذيذ، لونه أبيض نراق وما أيضاً تكاثر أشجار الأراك^(٢) التي يتحد منها العرب مساويك لأسانهم ونسكن في المناطق العالية سور حريثة، حتى إنها تهوي على الموائل، ونحتطب ما في صحون طعان الحجاج وقد أكد ذلك بوركهارت، وكان هو نفسه أحد صحابا هد الاحتطاف النط^(٣) أما المناطق المحيطة فيسكنها أعراب رنديون من قبيلة حرب لكيرة، ويظهر إبيهم لأعراب الآخرين نظرة ازدراء لأنهم حصريون ويعملون في الصيد لقد قابلنا في عرص البحر واحداً من أولئك الصيادين المهرة، كان رجلاً رائعاً، مشوق لقوم، عادياً تماماً حتى لحسه إله الموج مصروعاً من البروم / ١١٩ / القلورسي كان منتصباً بإزاء على مركبه، وحاه يمرض علما السمث الذي

= شجار البسّم المكي، وما مكة المكرمة أو الشّبا العربي الذي يصفه فاعله للحجيج السوري ولا يُجمع إلا من هذه المنطقة انظر رحلات بوركهارت ، موثق سابقاً، ص ٢٨٢ و نظر ص ٢٨٥ أيضاً فيها حدث مفصل عن اللسّم المكي

(١) في الأصل: Napa.

(٢) في الأصل Un arbuste dont les Arabes font leurs brosses dents والترجمة العربية هي وشجرة الأراك حبة (وهي كل شجرة غيرها سراك أي سعة أمانر تظل صغيرة وان شاح) يتحد منها العرب مساويك لأسانهم

(٣) قال بوركهارت في رحلاته ، موثق سابقاً، ص ٣٧٢ ، ويوجد في الحد المجاورة أعداد هائلة من السور (الرغم) إذ كانت الثاب منها بحوم حوت، وبعضها كان ينقص - بالعمل - ويحفظ اللحم من صحون - انظر تعليق المترجمين رقم (٣) في الصفحة حها.

صطاده، ولكنا لم نستطع الشراء معه، لأنه كان يرفض نقودنا، ويطلب ثمناً بصاعته قمحاً أو ثمناً ولم يكن لدينا على ظهر السفينة لا هذا، ولا ذلك

و. هناك عدد من المدن والقرى على دلت الساحل، من بينها البحار التي لم نستطع بين ملامحها عند مرورنا، إلا بمساعدة المطار وفي منطقة أعلى، وإلى الداخل قليلاً هناك منورة، وهي إحدى محطات قاعدة الحجاج المصرية، وإلى أقصى الجنوب هناك رابع التي يلفظها بحارنا Rabr والتي قصبتها ليلة ٨ في موارثها، ونكني في عرض البحر بعيداً عنها، أما الليلة السابقة فقد قضيناها على خط الاسراء وقد واجهنا في يوم ٩ كثيراً من الصحور المفتتة والشعاب المرجانية، ولكن واحد منها اسم خاص وأحضرها يُسنى، إن لم ينجي سمعي، أم الحليل^(١) وكانت جزيرة عواط^(٢) Ghaoual غير بعيدة عما ثم يأتي بعد ذلك رأس حُطينة وبعد وقت قليل من تجاورنا ذلك الرأس، قبلنا سيوك على منه جماعة من الدراويش العائدين من مكة المكرمة، وكانوا يرفعون علماً أحمر، وهذا هو اللون المحب لدى المسلمين، والذي كان يرون شعار محاكم التفتيش في إسبانيا وعلى الرعم من خصوصيته انديشية، وعلى الرعم من كونا من غير المسلمين، فإنهم حينئذ يصوت عالٍ عندما مروا بقربنا، وكانت صيحاتهم تحتلظ بالموسيقى والأغاني التي كان يردد صداها على سطح الماء / ١٢٠ / واستمر يتردد طوال الوقت اندي كما فيه سمعهم

ثم يلتق بكثير من المسافرين خلال الرحلة، ومع آب أنحرنا في بعض الأحيان مع سفين أخرى تمضي في النجدة معها، فإن سيوكنا كان سريعاً كل السرعة مما جعلنا منهم دائماً كان هذا اليوم الأخير رائناً أنحرنا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وقطعنا ما يقارب ٧٠ ميلاً حتى الساعة الثامنة مساءً، وهي الساعة التي دخلنا فيها مساء جدد. ثم يحدث من قبل أن تم

(١) كتبها ديديه Om el Habienj و ترجمها إلى الفرنسية mer des deux Cordes أم الحليل

(٢) كتب في ترجمه لإبكليريه لرحلة ديديه، مرفق ساعاً، ص ٨٨ Ghawal عواط

ابعد هذه المرة؛ لأن إذا امتشينا فتراب نتوقف الإرادية، ورحلة مبياء،
فإن لرحلة من السويس إلى جدة لم تستغرق إلا أحد عشر يوماً، مقاييماً لنا
كما نبحر بسرعة متتارة، خصوصاً إذا أخذنا في الحسبان أن كما نتوقف الليل
كله لا أود معادرة البحر الأحمر، دون الإشارة إلى أنه عني جداً بالأصداق
التي تحتوي على أحجار كريمة، وأما نجد فيه، وخصوصاً في مياه جده، كثيراً
من السمك لطير الذي يسميه العرب حراد البحر

خالف الرئيس أنظمة الشرطة المحلية، عندما دخل مساء جدة في الليل،
وهو لم يلبأ إلى هذه المحافظة إلا لكي نزل إلى ابنة مكرب وقد عوقب
على ذلك بالسجن، وربما كان سيظل هناك عدداً من الأيام، لولا أنني تدخلت
لدى السلطات لإطلاق سراحه بعد توقيفه ببيع ساعات، وقد كنت أشعر
/١٢١/ بالسعادة، لأنني استطعت بهذه الخدمة البطة أن أرى له بعض
ساعات خدماته خلال الرحلة وقد ورعاً يحنثاً مجرباً على أفراد الطاقم
كلهم، وعلى الرئيس أيضاً، مستدين بذلك ما لهم من دين في دمنا قصينا
تحت الديلة على من السهبة أيضاً، وكان علي في اليوم الثاني أن ينظر ساعه
امد والجرر المناسبة لكي يحدد السبوك إن مياه جدة مجنوء بالأرصه
ارملية، ومبهاه ضحلة حتى إنه سعي على السح أن ترسو على بعد ٢ إلى ٣
أميال عن الشاطئ، وقد كانت هناك في قنوات الملاحة سفينة ذات ثلاث
صواري حاححة، تقع هناك شاهد يثير العلق، وبذل على الأخطار التي يتعرض
ها من بحاطرون بدخول المياه جاء مركب مسطح ليحملنا من لسبوك إلى
الياسة، وكان هذا المركب معه مجراً على القيام بالتفافات كبيرة حتى لا
يعوص في الرمال، ومع ذلك فإنه اصطدم غير مرة بفاع لبحر ولكنا، على
الرغم من ذلك، وصلنا أصحاء سالمين، ولكن في الساعة التاسعة، إنني
رصف للجمازك الواقع غير بعد عن حُصِّي، هو في حانة سينة، ولكنه بشر
لأعجاب، ويحتل موقفاً متقدماً في البحر

الفصل السادس

جُدَّة^(١٠)

أجبروني في القاهرة أن حدة ليست إلا حياً صغيراً، وقد تكرر ذلك على مسامحي حتى بي / ١٢٢ / سم أكن أنظر رؤيتها على ما هي عليه كم كانت دهشتي كبيرة عندما وجدتها على العكس مدينة جميلة، مكينة البناء، جيدة التأسيس، تجمع بالسكان، ماضية بالحياة، ومردحة، وحديثة على كل المستويات أن تحمل الاسم الذي يعرف به، مياه مكة المكرمة، ولست تأفل حذرة لحسن سمها لدى يعني بالعربية لعبة^(١١) ناهيك عن مياه مياها لصحة وأرضيتها الرملية فهي محببة من ناحية البحر بحصن وسرية مدعومة بيها مدفع صحن من عيار خمسمائة ملليمتر برزخ الرعب في قلوب البدو

(١٠) انظر ما أورده بوركهات في رحلاته ، موثق ساعاً، ص ٢١ - ٢٧ ويبدو أن ديديه يقر به بصرف في كثير من المواضع وانظر في الحديث عن جدة قديماً وحديثاً وعن الخلاف في ضبط اسمها ومناه كتاب موسوعة جدة، تأليف عبد القدوس الأنصاري، القاهرة، ١٩٨٢ م وانظر ما ترجمه د أحمد عبد ارحيم نصر في كتابه التراث الشعبي في أدب الرحلات، موثق ساعاً، ص ٦٤ - ٦٩، من رحلة عفيفيه عن رأي رجال جدة وبنائها وعن وصف بيوتها وروايتها وقد ترجم من هذا الفصل الأستاذ سمير عطالله في كتابه فاطمة البحر، موثق ساعاً، ص ١٥٢ - ١٦٩

(١١) انظر رحلات بوركهات ، موثق ساعاً، ص ٢٧، وفيه «اسمها العربي يعني (عبة) ينطبق عليها تماماً وجهه في لسان العرب «جدة» أن لجدة صبح الحميم - انعط واسمادة وانفس

والمدينة محاطة من الجهة الأخرى بسور سمك، مرفع بما يكفي، مصان صيانة جيدة، ميسوق بحفرة عميقة، وعليه أبراج في حالة جيدة إن هذا المعقل لا يصمد ساعة أمام قصف المدفعية الأروبية، ولكنه على لدوام كان كافياً إننا، الحروب التي تدور في البلد، وخصوصاً إننا حرب الوهابيين، لحماية المدينة وبمعرض هبتها لذلك اشتهرت بأنها مدينة مستعصية على لاحتلال، وإنها أكثر الأمكنة تحصيلاً في الحجر يوجد في هذا السور ثلاثة أبواب، باب البحر من الجنوب، وباب المدينة لمسورة في الشمال، وأخيراً باب مكة المكرمة في الشرق، وهو أجملها، ويقوم على حراسته برحان محمضان مسجونان بمهارة فاضلة في الدرة تتعد حدة عن مكة المكرمة مدة ١٥ أو ١٦ ساعة، ويبلغ عدد سكانها من ١٥ إلى ٢٠ ألف نسمة. وتنقسم إلى قسمين كبيرين، حي اليمن، وحي الشام، وهما مسميان بذلك بسبب وضعهما الأحمر في حي الشام يقع في الشمال على الطريق إلى سوريا، وحي اليمن في الجنوب / ١٢٣ / على الطريق إلى اليمن أحد أقدم لجزيرة العربية التي يعطي اسمها الحي المذكور هناك أسماء أخرى صغيرة تسكنها جماعات من السكان مسماوية، يقع بينها غالباً من حي إلى آخر شخارات عبيدة، شوارعها هريصة، بضيعة نظافة مقبولة، تبدأ عادة بساحات واسعة جيدة التهوية تشكل رتبي المدينة أما بيوتها فهي مبنية التراب، وتتألف من عدة طوابق، وأبوابها على شكل أقواس، وهي مبنية من الحجر، ولها مظهر جميل، وبوادر واسعة تطل على الحارح، وهذا شيء نادر في البلاد الإسلامية لأن الحياة لمرلية تتم على لدوام داخل البيت الذي يبنى بطريقة لا تدع شيئاً يتسلل إلى الداخل، لا ضوء اشهر، ولا بهواء، ولا الصوصاء، ولا الأنظار الفضولية لس تلك البوادر رجاء، بل إن كل صفحاتها معطاء شتت من الحشيش المفروض بمهارة عجيبة، ليسمع بالرؤية من الداخل دون أن يتمكن من في الحارح من رؤية من في الداخل إن تلك البوادر المنعمة الصنع، الدرة والمقوسه، كأنها مشروبات لقهرة أو شرفاتها، مظلة بالون زاهية تباين مع اللون الأبيض للمحدران وإن كثيراً من السطوح محاطة بحواجر ممرعة محفور فيها بأناقة

رَحَارِفُ تَمَثِّلُ مَعْنَاهُ^(١) وَبَعْضُهَا مَا فِي ذَلِكَ الْمَرْوِ الَّذِي كَانَ يَسْكُنُهُ فِي حَيَاتِهِ أَحْمَرُ أَشْرَافِهِ مَكَهَ الْمُسْتَعْلِينَ، أَقِيمَ عَلَيْهَا مِظَلَّاتٌ حَشِيَّةٌ مَسْجُورَةٌ كَالْوَدِّ، تَصْعَدُ لَهَا السَّلَاةُ لِمَسْتَشَاقِ الْهَوَاءِ الطَّنْقِ فِيهَا دُونَ أَنْ يَرَاهُنَّ أَحَدٌ وَيَقْصِي أَهْلُ جَدَّةٍ وَقْتًا طَوِيلًا عَنِ الْمَطْلُوحِ لِأَنَّ /١٢٤/ سَمِ الْبَحْرِ يَحْفَظُ مِنْ وَطْأَةِ الْحَرِّ الَّذِي لَا يَكَادُ يَحْتَمِلُ فِي الصَّيْفِ يَمْتَدُّ السُّوقُ عَلَى طَرَفِ الْمَدِينَةِ، وَيَسِيرُ مَوَارِدًا لِلْحَرِّ، وَيَتَّصِلُ بِهِ تَوْسَاعَةٌ شَارِعَتَيْنِ جَانِبَيْنِ يَصْنَعُ سَوِيَّ جَدَّةٍ كُلِّ أَنْوَاعِ الصَّنَاعِ، أَكْثَرُهَا أَحْيَى، وَكَذَلِكَ مَوَادُّ عِدَائَةٍ مَحَلِّيَةٍ أَوْ مَسْجُودَةٍ وَرَجَدَ أَنَّ دِمَشْقَ وَبَعْدَادَ وَفَارَسَ وَمِصْرَ وَالْهَدَّ حَصُوصًا مَوْجُودَةٌ فِي هَذَا السُّوقِ غَيْرُ مَسْجُوتِهَا الطَّبِيعِيَّةِ أَوْ لِمَصْنَعَةٍ وَتَسُودُ فِيهِ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ حَرَكَةٌ غَيْرُ عَادِيَّةٍ، وَيَسَّرُ بِاسْتِطَاعَةٍ أَنْ يَشُقَّ الْمَرْءُ طَرِيقَهُ بَيْنَ أَكْدَاسِ الصَّنَاعِ، وَالْجَمَالِ وَالْحِمَالِ، بِأَهْلِيكَ عَنْ الْكَلَالِ انْضَالَةٍ، وَالْمَسَالِمَةِ الَّتِي تُبْحَثُ عَنْ رَرْفِهَا فِي هَذِهِ انْضِصَافٍ. أَمَّا الْعَمَالُ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِالْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ فِي السُّوقِ وَلَمِيْنَاهُ فَهُمْ يَكَادُونَ جَمِيعًا يَكُونُونَ مِنَ الْوَسْبِ أَوْ مِنَ مَكَانِ الْحِمَالِ، وَيَسْمُونَ لِحَصْرَةِ إِيْهِمْ عَمُومًا رَجُلًا فِي عَمِيَّةٍ تَوْسَاعَةٍ، مَمْتَوِلُو الْعَصَلَابِ، دَوْرَ بَاسٍ، وَيَكَادُونَ يَكُونُونَ عَرَاةً، وَلَوْ بَشَرَتُهُمُ النَّاعِمَةُ وَاللَّامِعَةُ أَسْمَرُ شَدِيدٌ لَدَكْنَةٍ وَبَرَى أَيْضًا بَعْضُ لَسْرَدٍ لَأَقْحَاحٍ لِمَدْمِيْنٍ مِنَ الْبِلَادِ الْقَرِيبَةِ مِنْ حِفْظٍ لَاسْتَوَاءٍ، وَلَكِنَّهُمْ عَمِيْدٌ، هِيَ حَيْثُ أَنْ الْأَحْرِيْنَ أَحْرَارًا، وَيَحْصِلُونَ عَلَى أَجُورٍ غَايَةِ لِقَاءِ خِدْمَاتِهِمْ. وَإِنْ هَذَا السُّوقُ الَّذِي يَقَعُ فِي الْوَسْطِ بَيْنَ إِمْرَبُفِيَا وَأَمْبٍ، فَهُمْ لِنَوْعِ بِنَادِحِ الشَّرِّ الَّذِينَ يَنْقَاحُهُمْ فِيهِ، فَأَنْتَ تَلْقَى فِيهِ السُّودَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمُوا مِنَ الْحِمَالِ شَتَاءً، وَتَلْقَى فِيهِ السَّمَادِحَ الْجَمِيَّةَ /١٢٥/ مِنَ الْأَحْسَاسِ الْمَوْقَارِيَةِ الْمَنْمِيرَةِ، وَيَسَّرُ تَنْوَعِ الْبِلَادِ وَالْعَدَدَاتِ بِأَقْصَى إِثَارَةٍ عَرَبِ الْمَدَنِ وَالصَّحَرَاءِ، بَحَارِ مَسْقُطِ وَالْبَصْرَةِ، أَتْرَاقِ، سُوْرِيَّوْنَ، يُونَانِيَّوْنَ، مِصْرِيَّوْنَ، بَرْبَرٍ، وَهُودَ بِأَعْدَدٍ كَثِيرَةٍ، وَمَالِيْرِيَّوْنَ وَمَاسَانِيَّوْنَ^(٢)، وَكُلُّ مَنْ أَوْلَنَكَ بِلَاسِ رَبِّهِ الْمَوْطِنِي، وَكُلُّ مَنْ تَكَلَّمَ بِهَيْجَتِهِ

(١) أَسْمِيَّةٌ فِي مَنِ الْعَمَارَةِ هِيَ رَحَارِفُ عَلَى شَكْلِ وَرِيْقَاتِ الشَّجَرِ الْثَلَاثِ (عَنِ الْمَنْهَلِ)

(٢) Banians، جَاءَ فِي رَحَلَاتِ يُونِكْهَارْتِ، مَرْثُوقٍ سَابِقًا، ص ٢٦. وَفِي فِتْرَةٍ الرِّيَّاحِ الْمَوْسِمَةِ يَقُومُ بَعْضُ الْبَنَانِيِّينَ Banians بِرِيَارِهِ جَدَّةً عَلَى مَنِ لَسَمِ لِهَيْجَتِهِ، =

الحصاة، ساقون، بتناسون، يتدافعون بأكتافهم، أو إنهم يستقرون في المصافي لمعالجة قضايهم إن بعض سكان جدة يقطعون أحجاراً يرعون أنها نمية، مع أنها ذات قيمة حشلة، منها من يس أحريات تلت التي يسمونها حجر مكة، وتسمى في الأحجار «العقير» والتي ليست، كما اعتقد، إلا ما يسمى العميق لأحمر، ويصنعون منها حوائج مطلية بطلاء من الفضة، ليست منقطة الصع، ويصنعون منها أيضاً سحاحات تلقى رواجاً كبيراً لدى الحجاج ويصنعون أيضاً سحاحات من «سرا» المتوفر بكثرة في لحر الأحمر، والذي تُستخرج أجود أنواعه فداوة ولعناً من جنوب جدة

تشتهر حده بأنها مدينة مقدسة شأنها شأن مكة المكرمة والمدينة المنورة^(١)، وكل لذكور المولودين في أحضان حدة، يحمون على وحوهم وشماً يسمى «المشالي»^(٢)، وهي عبارة عن حروح عميقة تُخذ في رحوه لأطفال عندما يلمون أربعين يوماً، وهي ثلاثة على كل وجبة، والثان على كل صدع، لتظل هذه المشالي مدى الحياة موجودة على وحوهم، وتكون لهم علامة توفى /١٢٦/ لدى المؤمنين إن هذه لندب المقدسة في العادات الإسلامية يحمل أولئك الدين يحملونها يحورون محمها فمه الشرف^(٣)

• لكنهم دائماً يعودون عليها ولا يسع أحد منهم ما جاء في الحاشية «البيان معي في عرب لهذا التحار أو أوكله الذين يشعلون بالتحار في لبحر الأحمر»
A glossary Judicial and Revenue Terms P 94: Wilson

(١) هذا غير صحيح فحده ليست مدينة مقدسة

(٢) رسمها ديديه M eschal، ورسمها بوركهارت، Meshare، وكتبها مرحما رحنة بوركهارت «المشعل»، وكتبها د مصر «عادة المشالي» انظر رحلات بوركهارت، مؤلف سابقاً، ص ١٧٠ وكتاب الدكتور أحمد عبد الرحيم مصر، مؤلف سابقاً، ص ٦٧

(٣) انصر هذه نصرة مترجمة في كتاب التراث الشعبي في لندب الرحلات، مؤلف سابقاً، ص ٦٧ وقد ترجم من رحلات ديديه فقرات لها علاقة بالتراث الشعبي في البحار، ولكنه ترجم عن النص الإنكليزي الذي هو ترجمة لرحلة ديديه، ويشير إلى الفقرات المترجمة في أماكنها من الرحلة، دون ترجمته بالأصل •

أثنى رصم سم يكن فيه وجود غير المسممين في حدة مسموحاً، كما هو

= هنا وانظر النص الإنكليزي لرحلات موركهانت، ط ١٨٩٢م، الطبعة التي يصدرها مراد سركيس، ١٩٩٥م، ص ١٨٣ وحده في راحة بيرتون ما يصفه نقلاً عن كتاب التراث الشعبي في أدب الرحلات، مؤلف سابق، ص ٤٨ «أحد معظم الأسر في مكة الأفعال المذكور عندما يستمعون الأربعين يوماً إلى الكعبة للدعاء بهم ثم يحضونهم إلى الب حيث يقوم امرئ بعمل ثلاثة قصود رأسية على الجزء المطعم لكل حد بدءاً من الترويه المحرورية لمعين إلى ركي اسم مريضاً هذه «المنامي»، كما تسمى، قد لا تكون عادة قديمة فالمكيون يعرفون أنها لم تكن معروفة لدى أسلافهم وعندي أنها ترجع إلى زمن قديم جداً وأنها وثيقة الأصل، وهي ما تزال سائدة رغم بغي علماء الدين عنها وتسمى هذه العملية «الشريط» ويقصد أيضاً جسم لطفل كنه بجروح صعبة حتى يعطي الدم الحميم كله وقد أحمر بعض المكيين عني بيتك أن انزع من الشريط طلي وهذا آخرون بها دلالة على أن من يحملها خادم بيت الله وأرحمها عني بيتك إلى الرعية في التجميل سناً كريمة المرأة التي تشتم نفسها وقد أحمر المكيتون أن هذه العادة نشأت عن ضرورة حماية الأطفال من ودهم أسرى في يد القيس فهي دلالة على أن الأطفال من المدينة المقدمه عبر أن شربها التوسع يد على قدم أصلها وقد هو محمد بن أبيه أنبأه صراحة عن رسم الجسم بالقصد وعلامات التجميل هذه شائعة وسط شعوب مناطق غرب البحر الأحمر ويرى التوبه في مصر العليا وحوهم بمصود مثل المكيين بدماء وقد رتب حدود مقصده كما في المدينة المقدمه وسط اعلا بالحبشة وعلى د أحمد مصر في ص ٥٩ من الكتاب المذكور أعلاه قائلاً «أدرك الأديب السعودي أحمد إبراهيم العراوي في مكة المكرمة عادة شريط الحدود (المثالي) وشاهده وقال إنها كانت مما يعد للرجل والمرأة ربة وجمالاً وأنها كانت عامه بين الجنس ولسود على النساء وقد أرحمها إلى ما قبل القرنين السادس والسابع الهجري واستدل على ذلك ببيت من الشعر لبهاء الدين محمد بن إبراهيم الحاسن البجلي المولود في ٦١٧هـ والمتوفى في ٨٩٨هـ بمدح مليحاً شرطوه قائلاً

قيل لما شرطوه وجسري دمه الفاني عني لحد اسفي
ليس مدعاً ما أتوا في فعلهم هو من مشرق بالشعر

الحال عليه اليوم في المدينتين المقدستين، لم يكونوا يجرؤون على لظهور
بملاصهم الأوروبية، وإن ماتوا فيها فإن رفاتهم كان يحضر إلى حريره صغيره
في مرسى حده لكي لا يندس الأراضي المقدسة^(١)

لقد تعبرت الأمور اليوم فالمسيحيون يتمتعون اليوم في جدة بكامل
حريتهم، وبأمن يوازي ما يجذونه في مصر وإستانبول لقد تحولت في أنحاء
إمدييه كلها، في كل أوقات النهار والليل، وحدي في عاب لأحسان، ولم
يتعرض بي أحد بشئ فظ، ووجدت من الناس كلهم لطفاً ونبلاً^(٢) ولم
يرعجني إلا المسئولون الذين ينتشرون في كل أنحاء إمدييه، ويكادون جميعاً
يكونون من اليهود، قدموا من وظائفهم للتحج، وتفظعت بهم سل لعودة
لقص في المال، ولما لم يكن لهم أي موارد، فإنهم ظنوا بما عادة على
الناس هناك كثير من الحجاج المصريين واليوبيين، وخصوصاً من سود
السودان، وهم كاليهود في مصر، ولكنهم يعملون شجاعة يكسب المال
البسيطة الضرورية لعودتهم إلى مسقط رأسهم، أما اليهود الذين هم أكثر بلاداً
وكسلاً فهم يحبون / ١٢٧ / العيش على الهات، ويصلون لمسى الأبدى على

- انظر أحمد بن إبراهيم المراري، شذوحت الذهب، جدة، دار المسهل، ١٩٨٧م،
ص ٢٣٧ - ٢٣٨، وانظر صفحات من تاريخ مكة المكرمة، سرك هورحرويه،
موتق سابقاً، ج ٢، ص ٤١٩

(١) انظر رحلات بوركهارت، موتق سابقاً، ص ١٩١ - ١٩٢ وبطل انترجمان في
الحاشية (٢) ص (١٩١) ما جاء في كتاب محمد علي سمري ملامح الحياة
الاجتماعية في الحجاز، ص ١٧١ نوكت في مدييه حده مقرة للنصارى وما تزال
موجودة حتى الآن يبدو أن هذه المصبره أقيمت في العهد العثماني لدعى
الأحباب الذين يمتنون في حده وهي قائمه حتى الآن كما ذكرنا في حوب حده
فرب السوق النحوية، ولكنها غير مستعملة إطلاقاً ويقول انترجمان ولا يعرف
دا كاتب المقبره التي ذكرها المؤلف هي نفس المقبرة التي يصعب المعري وقد
محدث بوركهارت في غير موضع من رحلاته عن أوضاع المسيحيين في حده انظر
ص ٢٦، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢

(٢) انظر تحليلات بوركهارت بهذا الخصوص في رحلاته، ص ١٩٠

لعمل، مهما كان بسيطاً. إلا أن بعضهم، وهم قلة قليلة، يمتهون مهنة
 حصرية مختلفة فقد استخدمت خلال إقامتي حياطاً كشميراً ذا مهارة وصبر
 بادرين لقد أحسب لحكومة البريطانية بالنظر لهذه المهنات السوية،
 ولكن سياستها لم تكن تسمح لها بمصافحة مواطنيها المسلمين في ممارسة
 عبادتهم، واكتفت باعتار القضاة التجار مسؤولين عن إعادة الحجاج الذين
 يحملونهم إلى جدة. وسح عن ذلك أن هؤلاء لم يعودوا يفلون على أي سببة
 إن لم يرهوا على أنهم قادرين على تأمين نفقات ذهابهم وعودتهم

إن العمل الوحيد الذي يقوم به سكان جدة، على الرغم من أنهم قوم
 مكرمون، هو التجارة، التي توفر المال نقداً، والتي يعملون بها على العموم
 إن أغلب سكان جدة من أصول أجنبية، وهم شبطون، وحرّاء، وإن حبيبتهم
 أندية، وتوقد أدهمهم يتعارض مع الحمون النواصح ولحي لدى كثرة من
 الشرقيين، وخصوصاً الأتراك. إن لون بشرتهم اسمر شديد الدكنة، يعرطون
 في اقتناء أدوات الرينة، شأنهم شأن أهل مكة، ويمكن قول الكثير عن ذلك
 إن ملابس أهل المدينتي متشابهة تماماً، سواء ملابس النساء أم الرجال
 فملابس هؤلاء الرجال الدخية مصنوعة من الحرير المصنوع، ذي الألوان
 الحدانية، وهي مشدودة على الحصر / ١٢٨ / بحرام كشميري؛ وينسبون فوقها
 عند الخروج ثوباً طويلاً مفتوحاً من الصوف الناعم، يسمى الشُر أو الحبة
 حسب الفصل، وهي مصنوعة عادة في بغداد أم رؤوسهم فيعطونها بصفة
 بضاء مراكشة، ينتف حولها عمامة من الموسلين والعمامة لا ينسبون إلا ثوباً
 طويلاً من الكتان العشن.

أما النساء فلا يستطيع أن أقول عنهن شيئاً، لأنني لم أر أياً منهن
 وكن ما أخبره أن بشرتهن أقل سمرة من بشرات الرجال، وأنهن يفضن
 شعورهن كالرجال بحلاف بسيط هو أنهن يرتن شعورهن بسنل من
 ذهب^(١) وإن أوشك اللوانني بقائلهن من عامة الشعب في انشراح منفات،

(١) استخدم المؤلف هنا كلمة Sequins، وحق في معجم روبري الصغير أن تلكلمة اصلاً =

ويحتسب تماماً في ثوب قبيح من القطن الأزرق أما الأحرىات فيرتدين سراويل ررقه فصفاصة، مزرنة بالمصّة، ويلبسن أثواباً مزرنة، مصبوغة من حرير لهد عندما يخرجن، وهذا يادر الأحداث، فإنهن يعطين وجوههن بحمار أبيض أو أرق فاتح يسمى البرقع. ويلتحنن ثوباً فصفاصاً مصبوغاً من سبيح حريري صليل (تفتة Taffetas) أسود، وهو يشبه لحبره habra عند المصريين، وهن مزلعات بالمجوهرات، شأنهن شأن كل النساء في الشرق والعرب، وهن يلبسن حواتم كثيرة، وعقوداً وأساور، كلها من الذهب، ويضعن في أقدامهن حلال من فضة تلك هي الثياب التي يلبسها في الحفلات أنا في بيوتهن فقد أشرت أنهن يتحققن من الثياب / ١٢٩ / حتى يمكنن القول دون أن متحنن عليهن إهن شه عاريات، وخصوصاً الجوربي وليس بالنادر أن يلمح في الأحياء التي نقل فيها الحركة غير نوافذ لم يحكم إغلاقها، سهواً أو عمدأ، النصف لأعلى للمرأة مكشوقاً تماماً

لم أحدث حتى ها إلا عن فصائل جدة، وإليكم الآن مساكنها فاما لعذب نادر فيها، وهواؤها سيء في فصل الصيف؛ حار ورطب في الوقت نفسه، ترتحن له الأعصاب، ويوهن الجسد، وخصوصاً هواء الحبوب، وإن كثيراً من الأجانب، والسكان الأصليين لا يستطيعون اعتياده فالبحار، ولحمى المقعدة، والحمية تكاد تكون مستوطنة على هذا الشاطئ الذي تنتشر فيه الأروثة أكثر من أي شاطئ آخر في الجزيرة العربية

لقد عذب أنا نفسي خلال بعض الأيام من هذا الجو لمؤذي، واستطعت من خلال ما عابته خلال هذه الفترة البسيطة أن أحكم على ما يكون عليه المناخ في أيام القبط وعلى الرعم من أسا ما برال في منتصف شهر فبراير

عربياً هو اسكة Sikk، وهي في لغة جيبسيا Zecchino، ونسبي قطعة نقدية وهو عملة ذهبية قديمة في جيبسيا، شاعت في إيطاليا والشرق وقد وردت في رحلات بوركهاردت، الترجمة العربية، ص ١٥ وعربها المترجمان بـ «السكوبيات» وقالوا في الحاشية (٢) إن السكوبين نقد ذهبي إيطالي وتركي قديم وانظر ص ٣٢١ من رحلات بوركهاردت إذ شتي السكوبين البندقي Venetian Zecchin

(مبايط)، فإن ميران الحرارة كان يصل إلى ٢٣ درجة على ميران دومير^(١)، نقد كان هواء الجنوب، الخفيف يلفظ النار بذل أن تأتي بالنسيم، كان الجو حاراً، وكنت أشعر أنه يستحقني تحت وطأته، وكنت أجد صعوبة في السير، وكان جسدي كله مشغولاً برطوبة غير محتملة. وأريد على ذلك أنقول إن الدواب وسحرة كان مرعباً كل الإزعاج

ويستحق حدة أيضاً سكان آخرون دور أجمعه، وهم نوع من السواكن (البار)، يحده في كل لمدن العربية، وأنا، منذ رحلتي، ما ين أسمع أصواتها لحادة، / ١٣٠ / حتى نرسم في اللحظة نفسها في محبتي مدرات، وبحيل وعمائم

وإد خرجنا من جدة عبر باب مكة المكرمة فوجد أنفسنا مباشرة في معسكر إفريقي حقيقي إن أكواخ انقش أو الحجر لمتشرة على حدود الصحراء، والتي تبدأ كما هو الحال في بيع والطور واسويس على أبواب المدينة، تلك الأكواخ، هي مساكن الوبيين الذين يعملون في المياه والسوق، وتسكنها أيضاً بعض الأسر الفقيرة من حدة، والتي لا يستطيع بقرها السكن في مكان آخر

إن النساء الحرائر من الطبقات الفقيرة يشترن أيضاً هذا لمصتة ثقراء، ذهبت عما يقوم بهذا لحي من ساعات بيضة، فإنه يعقد فيه سوق للحشب والحصار، وسوق للمواشي وإن لتعجول في هذا البلد حديثة، وهي صغيرة الحجم وعاية جداً إذ بيع الواحد ستة دراهم؛ وهو لا يساوي في مصرع إلا ثلث رحد وليس بعيد، وبالغرب من باب المدينة المنورة، هناك ثكة عسكرية أقامها محمد علي أبم حربه مع الوهابيين، وقد هده لشكة إسماعيل بيث، وهو ياشي^(٢) تركي، وهو أكثر أدباً من نظيره في سباء، وقد كان يملذي

(١) ميران دومير Reumir ميران حراره بشير في الصغر إلى درجة النجم، و ٨٠ إلى درجة العليا

(٢) انظر رحلات بوركهارت، مونت سانشا، ص ٢٨٧

لي أدت الاحترام، دون أن نسي تقديم الفهوه ولبثه وعبر بعد عن
 الشكبة، هناك عدد من المطاخير للهوانة التي بها محمد علي لاستخدام
 قواته، ثم أهملت مباشرة بعد رحيله بأعشار أنها مدعة أوروييه، وهي تستخدم
 اليوم معراً لمجود غير النظاميين ويوجد على مرمى حجر من الشكبة / ١٣١ /
 مقبرة محاطة بالأسوار، ولها باب محكم الإغلاق، وهي فريدة من نوعها لم أر
 في الشرق مثلها، حيث نترك المقابر بلا سياج ولا حارس

إدأ، توقعوا من المدفون في هذه المقبرة؟ إنها حواء، أم الجبس
 الشري ويسر بخصوصها لدى علماء البلد أسطورة لا تليق بأنياب الأولين
 فهم يحكون أن آدم ابدى قَل من روحته، مع أنهما كما سعيدين كانا يقارب
 مائة سنة، تحه حباً في التعبير إلى سانه؛ لأنه لم يكن لديه خيار آخر، لأنه لم
 يكن هناك على الأرض ساء أخريات، وعندما علمت البروجة المشتركة بهذه
 الحبيبة، أقسمت أن تنتقم، فاتحنت بدورها إلى أسنهد، لأنه لم يكن هناك
 على وجه لأرض رجال غيرهم، ولكن هؤلاء أحابوها ببعض انفسه أنها
 عجوز، وأنهم لا يرغبون فيها.

إن أمنا جميعاً التي حُكم عليها أن تظل محتشمة، على الرغم منها، بقيت
 نالغ ما قامت به عندما انتهت معها، فكلمت عبطها ولكن آدم عاد، بعد
 خطئه، بس زوجته الشرعية، وبعد المصاحبة فاما معاً برحلة عبر الحرية
 العربية، فماتت حواء في هذا المكان عيه، ودعها روحها، وأخرى بها كل
 التشريعات التي تعرضها فصائلها الكثيره. أما آدم الذي أصبح أرملاً فقد تابع
 رحله، وذهب ليموت بدوره في حرية سلا / ١٣٢ / ودفن هناك، ولا تذكر
 المقبرة من دونه، ولا كيف عبر البحر إن انتهاك المحرم المردوح، الذي قدم
 به أحد الطرفين حباً، والآخر كان بنويه، فتح بصريقه لا أخلاقية يجعل الحياة
 الأسرية نيلاسية^(١) إن المسلمين، وهم ممن يدافع بحرم عن الأسره، لا

(١) لا أدري من ينسب ديديه هذه الرهاب حول بني الله وعنده أبي الشر آدم عليه السلام،

لأنها تكون من مبرعات العهد القديم عن الرسل والأنبياء

برون هي القصة شهاداً على حظر تعدد الزوجات، وإنما يرونها دليلاً قطعاً على أنه ليس من قوانين الكون أن يكون للمرأة امرأة واحدة

لقد حافظت نساء على مستوى والدتهن، وطلبن جذيرات نرائهن على كل المستويات، ولكن فمتهن أصبحت أكثر قصراً لأن طول فبرها ليس أقل من ٦٠ متراً^(١) ويرتفع فوقه مسجد صغير تعلوه فيه نساء^(٢) وتندو بانطع كل المدفن الأخرى كثبة إراء هذه سيد أن مدفن عثمان باشا وأسره يثير

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب ٦٠ أمتر

(٢) يحدث بيرتون في رحلته عن قبر خارج مدينة جدة يعرف باسم «قبر أمنا حواء» وعدم

به رسماً بصورياً وقال إن المسافة بين الرأس والقدمين هي نحو سب حضرات

انظر التراث الشعبي، مؤن سابقاً، ص ٥١ - ٥٢. ويرد عبد القدوس الأنصاري

غير رأي عن قبر حواء عندما يحدث عن اسم (جدة)، وهو يذهب إلى يقول إنها

بسم النجم لا كسرها، وهو يدفع قول من المجاور الدمشقي الذي يقول إن لاسم

هو (جدة) بكسر الجيم، لأن أمنا حواء جدة البشر مدفونة فيها، ويقول إن هذه

الرواية أسطورية ولا يمثل أن يكون قبرها معروفاً حتى اليوم. ويرد الأنصاري ما

قاله ابن جبير من أن القبة التي على القبر كانت مبرلاً لحواء، عندما توجهت إلى

مكة، وما قاله البوسني من أن موضع القبر كان هيكلأً عند فضاة في الجعدي

ويذكر أن حواء (ترمين شريف مكة - كما ذكر البوسني - حواء هدم القبة، لكن فاضل

الندون في حواء «مهموا» معه ودياً على عدم هدمها، لأن حواء، نيسب أم المسلمين

وخدمهم وإسما هي أم الناس جميعاً ثم ذكر الأنصاري أن القبة هُدمت عندما دخلت

الحكومة العربية السعودية حواء. انظر موسوعة مدينة جدة، عيد القدوس

الأنصاري، مع ١، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٤٧ - ٤٩. وكتاب التراث

الشعبي، مؤن سابقاً، ص ٥٩ - ٦٠. ويذكر سبوت هورجروبي أن احتجاج

برورون قبر أمنا حواء، الذي ينبع طوله بصح بارداب، صفحات من تاريخ مكة

المكرمة، مؤن سابقاً، ج ٢، ص ٣٣٦. وذكر بوركهارت في رحلته، مؤن سابقاً،

ص ٢٥. وعسى بعد ميلين شمالي جدة يمكن مشاهدة قبر حواء أم البشر، وما

أُخبرت أنه مبني من الحجارة سالمة ذاتياً، وطوله نحو لي ربعة أقدام، وأ نفاعه فدان

أو ثلاثة أقدام، وعرضه مثل ذلك، ويهد، فهو يشبه قبر نوح في وادي البمع في

الشام

الإعجاب وليس للقصور أي رتبة خارجية. لا شاهدان مقيمتان منتصتان،
يحداهما عدد الرأس والآخرى عند القدمين، ولكن كثيراً منها تصله أشجار
السجل، أو أشجار النصر^(١)، وجساث حصراء تسع على مكان الموت هذا،
هيئة رمية. وكان هناك غير بعد عدد من الشباب اليهود يلعبون بالراحية
(صرب من لعبة الس) بمهارة فائقة وفروح غير عابثين بمن في حورهم

إن الموت لا يحيف المسلمين، وهم في هذا مسيحيون، أكثر من
لمسيحيين أنفسهم، إن الطامع المتساوي الذي سمع، نحن المسيحيين، على
لموت محتلين / ١٣٣ / بذلك عمداً الأصلي، أنني ترى في لموت
خلاصاً، هو باب للمبور إلى الحلود الأبدية

يذهب أقرباء المسلمين وأصدقائهم في بعض أيام الأسوع، وخصوصاً
الجمعة، الذي هو عند المسلمين بمثابة يوم الأحد لدى المسيحيين، إلى
المقابر، ليس للبكاء أو الصلاة عليهم، وإنما للتحدث مع المعانين وكأنهم
موجودون، ولكي يتناولوا حول قورهم وحات حميفة شبيه بعيداً عن حر
المصدر الكتيب^(٢) وأن النساء على الخصوص من الحريصات على القيام
بذلك، لأنه يسمح بهن كل أسوع باعتراض بعض ساعات تحريره لتي يستعملنها
أحسن استعمال، إن مقابر إستانبول هي مكان اللقاء وموايد، ونحرص النساء
متركيات من دواب المعنى والسب على زيارتها كل يوم جمعة، ومع أبهن
محجبات، فلاهن يظهرن من أثوثهن ما يسلط ألباب البشارة وإذا كان مصر

(١) لاحظ بيرتون نمو شجيرات النصر بين الطوب ولحماء، وذكر أن شجر النصر
بروع في أنقرة كنمويدة ضد الأوح استيريه كما يعلو حلود النعاسيح المعشوة
بأشجار فوق النصر، في مصر وقد عرا بوركهارت ررعه هذه الشجيرات التي سماها
الذي يشير إلى "نصرة" الذي ينظره المؤمن يوم القيامة التراث الشمسي، موثق
سابعاً، ص ٤٨.

(٢) تحدث سوك هورجره بيه عن زيارة القصور في صحاحات من تاريخ مكة المكرمة، موثق
سابعاً، ج ٢، ص ٣٧٢ - ٣٧٤ وانظر كتاب التراث الشمسي، موثق سابعاً، ص ٦٧
- ٦٩، و ٢١٦ - ٢١٧.

المقبرة في حدة راحداً فإن الموضع الذي يقع فيه موحش وقبيل الحادية ومن
 جهة هالك البحر الذي ينتهي في هذا المكان بحيرة شاطئية تسهي هي نفسها
 بسبعة مسجدة، ثم تأتي بعد ذلك الرمال، التي تمتد حتى تحوم الأق وبلوح
 على بعد سلسلة من لحال التي يلها الصاب، وتحتفي ملامحها في عمة
 المساء. لقد توافرت لي في هذا اليوم أيضاً فرصة مر فيه بصر فترة العنق في
 /١٣٤/ هذه المنطفة الاستوائية. كانت الشمس قد عادت مد ليل، ولم يكن
 قرصها المتوهج قد غاص بعد في عرص البحر، بينما كان غلام قد بدأ يصف
 الجهة لمقاتله من الماء. وكان الليل قد برز تماماً عندما دخلت جده عنر
 باب المدينة المسورة. كان سكك قريباً من هذا الباب، في المنطقة المربعة من
 الحي الشامي هناك في حدة عدد من الحانات أو الوكالات لسكن
 المسافرين، يحدون فيها في الوقت نفسه مستودعاً لامتعتهم أو بضائعهم،
 ولاعصهم حرفة حاية من كل شيء. ولكن هذه الأماكن محصصة لتجار، ولما
 لم يكن تحراً، ولا يريد أن يظهر كذلك، فإما حصل على مرل كان فيه
 مضي يقيم فيه فصل فرسا، وهو اليوم متروك لسكن العصابر. كان مالك
 المرل يقيم في مكة المكرمة، وكان وكله الموص في حدة لا يريد، أو لا
 يجرؤ على مأخوذا المرل في عياب صاحبه، وكان يقول إنه سيرسل إليه رسالة
 للحصول على موافقه، ولكنها كما على عجلة من أمرها، وبما كان يتردد،
 ويضرب وقتاً للتفكير، استمر بها المقام في المرل مؤقتاً، ودم هذا المقام
 المؤقت حتى معدرتا حدة، أي شهراً كاملاً. ولما كما لم يحدد أي مبلغ ذهب
 دفعها عند معدرتا ٥ قارات، وهو مبلغ مناسب للأجرة إن لم يكن كبيراً،
 سبب الحالة التي كان المكان عليها إذ لم يكن في الحقيقه /١٣٥/ من
 لسهل راحة الأنفاس التي كانت تملأ المكان وقد استطعت في نهاية الأمر أن
 جعل غرفتين من المرل مناسبتين للسكن، وكانت أصعب الرحلة من سجاد
 ووسائد وعرش كافية تماماً لعرشها واستولى طابعتا عاسارو على لمطبخ
 الذي كان يقع على السطح؛ أما بقية الخدم فإنهم أقاموا حيث استطاعوا، وكما
 استطاعوا، وها نحن في مسكن يعيش كبحواريين خصرين

كنت عرفتني في النطق الثاني، نُفِثَ لها ناعدة صبحه، معلفه، أو من
المصرص أنها كذلك، بنظام بالغ التعقد هو عارة عن مصارع للصوء تسمع
بدحول انهواء والعار والشعر والعصافير؛ لأن العردة كانت مدنة بأعشاشها
هكم ما كتب أروء وأسمعه غير تلك الناعدة في الأيام والليالي كلها. بادىء دي
بدء، كنت أرى لبحر يمتد امتداداً شاسعاً للامس السماء في آخر حدود
لافتق. وكان هناك قليل من الأشعة التي ترشح هذا الحقل الأرضي، ولكن
عُزِّي ذلك البحر كان يريد من جلاله، ويجعل الفكر مستغرقاً في هواجس
لمصنق التي لا يمكن الحديث عن كلها

وإذ عدت إلى الأرض فإني كنت أرى من عل نسم الشمالي من
المدينة كله، اسوق الذي كانت تنامي إلي من أصوات الناس ولجمال،
وكنت أرى أيضاً السطوح التي كنت ألمح عليها في الليل جبل لسه، وكن
أرى أحيراً عدداً من المساحد التي ترتفع ساراتها وكان على بعد خطوات مني
مسجد صغير، وأبيض، وله / ١٣٦ / رواقان خارجان، وكان له مؤذن عجوز،
يصدح بالأذان خمس مرات في اليوم العجر والظهر والعصر والمغرب
والعشاء؛ وبجي على المسلم أن يوصاً لكل صلاة، بغسل وجهه، وما وراءه
أذنيه، ويديه حتى المرفقين ورجليه وأماكن أخرى، ومما يؤسف له أن صوت
جاري المؤذن كان حاداً ومرتعشاً، وفهمت عبد سماعه، لمدادها، أحد سكان
القاهرة القديمة بمؤذن دي صوت جميل، وكان يخصص له راتاً لكي يصل
يؤذن من الصلاة نفسها.

وكان بالقرب من المسجد مرل يتصل به، وبسكة لعلماء، وكان يقدم
فيه كل لسه، في وقت متأخر، ظموس دليه صاحبة يتخللها أعان وصلوات
ومواعظ، وكان ذلك متراعفاً بالموسيقى؛ وأني موسيقى؛ وكان يرفقها الذي
و بطله. وكانت تقدم بالقرب من، حملات أخرى، من طبيعة أخرى، مختلفة
كل الاختلاف إيهام أقارعه سوداسون، عائدون من الحج الأخير إلى مكة
لمكرمة، يقصون السماء كله يعون ويرقصون، أعدي ورقصاً موحشين،
يدعاهن بالعكر بعيداً إلى أعماق القارة الإفريقية

وهي كل صباح، وهي الساعة نفسها، كانت تمر أمام نافذتي مدوية جميلة شدة من أسبوط في مصر، تمثل ممطاً أصلاً بين نبات جلدها، كانت تمر، وهي تعني / ١٣٧ / بصوت بلدي وباعم، أعية مأساوية حربية، كانت تكثر على الدوام الأعه نفسها، وكانت رمانة الأعية تجعلها أكثر حرماً وعويلاً كان علي يمتطر لسماعها في أول يوم وفي آخر يوم من إقامتي أما في ليل فقد كان يحين دور أحد اليهود، وهو متسول ينام على حصيرة في روية من روبا الشارع، ويعني هو أيضاً على أرض أحبة أعمام وطه كان يستمر في العناء إلى ساعه متأخرة من الليل، حتى إنه كان في غالب الأحيان يمنعني من النوم، ولكني كنت أعصر له ذلك لما كان يمحني إليه من ثده وأن أستمع إليه وبعد هذا كله، كنت على الدوام أسمع الصدى البعيد لصوت الدربوكة في أحياء المدينة المختلفة، وأصوات الجوقات العسكرية، وعذرات السادي باستمرار، وعالياً طلاقة مدفع احتمالاً بمصر، تحقق أم لم يتحقق، للأثران على الروس، آلاف الأصوات، وبكلمة واحدة، صحة ضخمة مختلفة، تشبه جله البحر البعيدة لي كانت في بعض الأحيان يعلو صبحي على كل ذلك ورأيت في أحد الأيام من نافذتي مركباً يدخل ميناء جدة قادماً من الجنوب، وأعند أبي رأيت بمساعدة المنظار أن المركب كان محملاً بحموة بشرية، وأخبرت أنه حقاً يحمل من مصوغ دفعة عيد من الجنسين، وأنه كان بين الماء حارية تكاد تكون بيضاء، مع أنها خشية ودعني فصولي إلى رؤيتها، ولكنها كانت قد تبع هوراً، وشمس عالي لأحد الأثران الذي أعراه لونها امانح / ١٣٨ / وهو من العاملين في الدبوان، أحوا انشا أو أحد أقربائه على الأقل

في العيد ليس ياترون جداً هذه الأيام في أسواق الشرق، ولا يكاد أحد يستطيع الحصول على ذلك إلا في إستانبول التي يوجد فيها وحدها لثروة الكافية للحصول على رقيق أبيض، إنها بروة تكلف ما بين ٢٠ إلى ٣٠ ألف فرك؛ إن مثل هذه الجواهر ليست، كما يرى، هي قدرة أي كان إن حلاء هؤلاء أسوة لا يمكن احماثه - ولما كن يعرفون أن مصيرهن سيؤول إلى حمى

أساد من عليّة تقوم وأهويانهم وإبن يحترق نقيّة الرجا؛ ويا لسوء حظ لشخص السيط الذي يتحرّأ على شراء إحداهن، فهو لن يتأخر عن إعلان موته؛ ويكون عليه عندئذ أن يحمل مسرعاً إلى السوق سلعته البعيدة المحتانة

عندما كنت في مصر، تلقى عاس باشا عدداً من حيول اسباق هدية من إمام مسعد، وردّ له عاس باشا الهدية، فأرسل له جارينين بصادين؛ حورحش أو شركشيش، وهي هة عرية، بسبب سن المهدي إبنه، ناهيك عن المصير المرعب الذي ينتظرهما. وحدث أن وقعت السمبة التي نقلهما خلال مرورهما بمصر باب لمدن بأيدي معصنة حرب أوروية عربية أو برصايبه، لمست أدري أيهما، كانت تقوم بملاحقه تحدر العبد في المحيط الهدي رتق كان المركب المصري يحمل عبيداً فقد عدّوه عمه قابويه، وتم في الوقت نفسه / ١٣٩ / تحرير الحارثين وأجهل ما حلّ بهما، وكسي، بحكم المعرفة التي كتسبها بطابع اشرقيين، متأكد من أن الحارثين قامت بعض محرريهما، بدلاً من مشاركة عملهم لإسماني الذي قاموا به، لأنهم يفصلن الحياة لهاتين، والمصير الطيب الذي وعدنا به عندما ندخلان في حريم لأمير الحاكم، عسى انحرية التي من تدربا ما سنعلاها بها. أما نقيّة العبد الذين حُملوا من مصوع، دكوراً كانوا أم ناثاً، فإنهم كانوا أطفالاً لا تريد أعمارهم عن أربع إلى سبع سنوات أو ثمان، بسنّه، حبشيه يبلغ عمرها ١٣ إلى ١٤ عاماً، ولكنها ذات هيئة تكون عليها لأوروسة في الخامسة والعشرين من عمرها، وقد كانت تلك الوحشة، بعد مواظبها التي يمكن القول إنها بيضاء، أثمن تلك الحواهر اشرية، لأنه عسى انهم من يوبها الصارب إلى السمرة، فإن الحملات عنقوا عليها أملاً كبيراً للحصول على ربح وفير. كانت النساء المسكينه معروضة في متجر مهجور في أكثر شوارع حدة سكاناً، كانت حاسية على مقعد يرتفع عن الأرض ثلاثة أقدام، وكانت متسمرة على كأنها نعثان، تنظر من يشربوها في صمب عيبو، لقد ألقى عليها لسترها قطعة من قماش الكاليكو^(١) لا يبيض بينها

(١) Calico، ورد ذكره في رحلات مورقهارث، انظر ابرحمة العربية، موش ساند، ص ١٧١ وكتبه المترجمان Calico، وعمرناه الكاليكو وفي المصطلح عرباء كاليكوت =

من رأسها إلى قدميها؛ ولم تكن ترتدي أي شيء سحته، كان ذلك كل ما ترتديه، ولم يكن الرعوى فيها، حادين كانوا أم لا، يشروعون عن رفع دلت لعصاة الرقيق من كل الاتجاهات ليتحصوا، كما يرعون، السلعة المعروضة كما يحدث عند شراء حصان أو رأس من الماشية متى لي أن رأيت في القاهرة، وفي عدد من المرات / ١٤٠ / عروضاً مشابهة، وتساءلت غالباً عما تشعر به هذه المخلوقات، وعن التناوب الذي يعترضهم بين الحوف والأمل كلما جاء قادم جديد يرغب في شرائهن.

كان الجلاب (تاجر الرقيق) يرعب كل الرعة في بيعي تلك الجارية مع أنه يعلم أنه لا يمكن للفرسيين شراء العبيد إلا لتحريرهم، وأن كل عبد يشتروه يصبح حراً بمجرد أن تتم عملية الشراء. كان يطلب من أبناء جلدته ١٥٠٠ مارك ثمناً لها (١٢ صرة)، وقد حفص السعر إلى (ثمانى صرر) لكي يعربي شرائها. وقد حال بخاطري للحظة أن أقوم بعمل صالح، ولكني للأسف نعت رصية الدبلوماسي الذي كان يصح بالاحتراس من المصادرات الأولية لأنها مصادرات حرة، وقلت في نفسي، وأنا صحت في ذلك، إسي إن شرعت شراء العبيد فإن الأموال المخصصة لرحلتي مشدداً عما قريب لقد كان رغبتي رحلتي من حاجته يمكن بما كنت أفكر به، ونكي هذه كان أقل بئلاً مما كنت أفكر به. إنه لإحسان النعمي Carità Pelosa! كما يقول الإيطاليون. وسوء كان حيراً أم شراً فإن مشروعه ومشروعي ظلاً في حير لتعكير، وبيعت لشاة لإهنة، لسب أدري لمن أين هي الآن، وهي يد من وقعت؟

إن الروى بالتأكيد تعصف يبعث على الثورة؛ إنه يحط من الطبيعة البشرية، ويتعصم عنه آلاف المجاورات ولكنه يسمي الاعتراف أن مصير أولئك لعشرات ليس محروماً كما يبدو / ١٤١ / من النظرة الأولى وما تكن صائرات

= (مماش قطي حتى يصنع أصلاً في مدسة كاليكوب على شاطئ مالاير) وفي معجم روبير الصغير أن تامبا لا تلفظ؛ وقد كتبها حسب ذلك

في خدمة حريم المشركي فإيهن يصحر من أفراد الأسرة، ويربط شروط
عشهن بمسنوى عيش سداتهن اللواتي يُلزمهن، هن أنفسهن، السوت، ويكدين
هن أنفسهن يكن حوارِي شأن حوارهن وأعترف أن سيدهن قد يقصي مهن
وصره، وهذا ما يحدث عالتاً، ولكنه بذلك يحظر على مهن أن يسجن مرة
أخرى لأنه من لغار على مسلم أن يبيع جارية عاشر معها، بل إن الأسياد
يتزوجون عادة من الحوارِي اللواتي أحسن مهن أولاداً، ويتم ديت حصواً
في مدن الجزيرة العربية^(١) وإن هذا النوع من الریحات لا يؤدي، وبو قلاباً،
إلى جعل لون سحنة العرب عامقه، ولكن لتعصب ضد حلاط لدماء غير
موجود في هذه البلاد.

إن الأم مهما كان وضعها، جارية سوداء، من لطرار لأحبر في لسمه
لأجتماعي في إفريق، لا تؤثر في أصانه الولد، إن الأب وحده هو أصل
لسب، وليس للأم أي حساب ونحن نعرف أن السلطان مهن لذي لا يعترف
لأحد بالأصله، وليس له نظراء، لم يتزوج، وربما ما زال، لا يتزوج إلا
الحواري

لقد شاهدت في مصر، وبين الأروبيين، ريجات كثيرة من هذا النوع،
وعدها من العرسيين الذين أعرفهم لم يكن لهم روح آخر، لا هذ، وهم ليسوا
في حال سته، عدا أن المشهور عن الحبشيات أنهم مبدراء، مما يدعو إلى
انقون إيهن يحرس اليب لقد عرفت مهن جميلات إذا عصصا لمصر عن
لون بشراتهن، فإيهن صالحات في أي مكان، وحتى فيب يحصر اللون / ١٤٢،
فإب بعده بسرعة، وهم أعد حلال وقت قصر أعير ذلك، لنعداً

وتُعزّص الحبشيات هذا العيب البسيط، إن كان عيباً، إن لهن بشره

(١) انظر رحلات بوركهات، مرقق سابقاً، ص ١٧٣ - ١٧٤ وانضم في الإسلام
أن الأمة بمجرد أن ولد مصح داء ولداً يكون لها من الحقوق والواجبات اشعره
ما للوجه، وليس هناك داع لأن يكون ذلك منقذ رواج انظر الحاشية (١)، ص
(١٧٤) من رحلات بوركهات.

ماعمة، وشعراً طويلاً ناعم الملمس، وبان لهن دوداً مشوقة، وأشكلاً أسفة،
 وقسمات مناسفة، يثق بأكثر التماثيل الإغريقية جمالاً، ولهن أيضاً عيون
 ساحرة، وأسنان رائعة، ويدان صغيرتان، وقدمان دقيقتان إيهن بكلمة واحدة
 حُرِّب كل أسب الجمال التي تكون في المرأة، ولست مدعشاً من رؤيتهن
 يشون رعات تستمر متأججة حتى بعد الرواح^(١).

كانت نافدتني مُطلأ أشرف من حلالها على المياه كله لا يدخله أو
 يحرح منه شيء دون أن أراه لقد وصل عدد من القدياب أو ثلاثيات بصواري
 المحملات بالسكر والأرز، ماهيث عن مراكب البلد التي كست تذهب وسجيء
 في كل يوم

لقد كنت معاجأة سعيدة لي، عندما رأيت في صبح أحد الأيام العثم
 الفرنسي يرفرف على سببه خريئة وصبت في الليل، كانت الحرفة السبحارئة
 التي تحمل اسم لو كمان Le Caiman، الكاشن كورميه Cormier من قاعدة
 الهند، وصل إسي جدة في رحلة استطلاع وتحمل السفينة على منها، ماهيث
 عن طاقمها المعتد، حواني منه من المدعشفرين لمجدين مؤقفاً من حوربنهم
 للمخدمة على متن السفينة، مد يكاد يصفى عليها هيئة متوحشة، با أساء بد
 واحد جمعهم المصادفة في جدة، وتم العارف بسا بعد وقت قليل، وأصبحت
 أصدقاء من الساعة الأولى / ١٤٣ / تناولت طعام العداء على متن السفينة غير
 مرة، وفعل مثل ذلك فائد السفينة وطيبها في مرلي، وأقيمت في لفصلية
 لمرسية حمسة عشاء رسمية كان الواجب بفرص حضورها سبب مرض الفصل

(١) تحدث سرك هورخرويه باستفاضة عن الرقيق في كتابه صفعات من تاريخ مكة
 المكرمة، مؤلف سابقاً ج ٢، ص ٣١٩-٣٢٩ وانظر اكتشاف جزيرة العرب، حمسة
 قرون من العمارة والعلم، جاكليس بيرين، نقله إلى العربية فكري قلمحي، قدم له
 الشيخ حمد الجاسر، دار الكتائب العربي، بيروت، ٥٠٠ ص ٣٣٢، ويشير إليه
 من الآن فصاعداً «اكتشاف» وانظر

Courtellemont, Gervais, Non voyage à la Mecque, Paris. Librairie Hachette et
 Cie, 1898, pp 122.

هذه الامداد المتفرقة، التي ليست بذات دلالة في أوروبا، تكتسب بعض الأهمية على بعد ١٢٠٠ فرسخ عن باريس لأن لمسافات تجعل أكثر لأشياء ابتدأ Elonginquo reverentia لقد ترسخت الصداقة بين عددا من لي صباط السفينة هدية لا تقدر بثمن في هذا المكان، لقد تركوا لي عدد معادرتهم ١٢ رجاحة من بيد بورديو Bordeaux كانت لحرارة لو كيما Le Caïman قد ألقت مراسيها بعداً جداً عن المدينة، وتم ذلك سهو على فرح السلطات المحلية، وأظهر في الحقيقة أن الناشأ كان يحشى أن يكون الهدف من معنى الحرارة هو لإعلاء على الهندسة، وأن صحاحه الماء في المياه ليست إلا حجة ولكن ذلك لم ينعهم من ديانة الحرارة في موكب ضخمه، وهي رياره لم تكن في الواقع إلا رداً على المحاكمة بمثله. لأن قائد السفينة مادي، كما يسعى عليه، إلى رياره لثأر أولاً وأخلى الحسان مديع التحية بالنظام كما هي عادة في مثل هذه المناسبات، وقد عالى الحسان في ذلك، ولم يقتصروا على الحرارة أسوأ، وفي يوم معادرتها راضها مسافة ستة أميال وحلال عودتي إلى ايباسة مع البحار المحلي الذي رافق لحرارة حتى خرجت من فوالب الملاحه، عاصه كثير من البحر الذي كان حافقاً، ومن انعكاس الشمس على البحر الذي كان في ذلك اليوم هادئاً وشاحناً كأنه بقعة ريت كان قائد السفينة المحجب يود بالبحار / ١١٤٤ / أن يأخذني إلى جزيرة بوربون Bourbon وكان الأمر مغرباً جداً بالنسبة إلى رحلته، ولو أنني استجيت لذلك الإعره لما كنت مصيبت بعداً، لأن سوء حظ الحرارة لو كيما جعلها تعرق على سواحل زيلغ^(١) Zyla

ب. لغوين أوروربيتين هما فرنسا وبريطانيا وخطهما قصلي في جدة
المصطلح الفرنسي هو روشيه ديريكور^(٢) Rochet D'Hincourt، كان حينئذ على

(١) جزيرة بوربون أو جزيرة الريبون، جزيرة قريبة في المحيط الهندي، تقع شرق مدغشقر بحوالي ٧٠٠ كم

(٢) مياه ساحل إفريقيا الشرقي على البحر الأحمر

(٣) Rouchet D'Hincourt = روشيه ديريكور جاء في "اكتشافه..." موضح سابقاً، ص ١٠

حافة الموت، وقد مات منذ ذلك الحين، ومساح لي في لصفحات القادمة فرصة لحديث عنه أما الفصل أو نائب الفصل البريطاني فهو كول M. Cole، وهو في لوقت نفسه، شانه شأن زميله في لسويس، وكيل تحاري لشركة الهند الشرقية وإن وظيفته ليست وظيفة ملا عمل لك العدد الكبير من اليهود انديين هم مواطنون بريطانيون وبهموم في حدة ولا يستطيع أن يقول الشيء نفسه عن زميله العربي الذي يس له في الحجار كله مواطن واحد ولعله من المعبد أن نعم أن الباب العالي العثماني يمع عن قول اعتماد المصادر بحجة أن جدة مدينة معدسة كان سكا ملاصقة لسكنى السد كول، ركت أقصي في صرله وقتاً يساري الوقت الذي كت أقصيه في سكنى فقد حميت به رسالة من صديق مشترك هو السد برتون، وقد أسدى لي حول مدة إقامتي في جدة خدمات جليلة

لم تأب إني حدة لأحلي رواية حده نفسها، ولكن سة الذهب سى الطائف؛ وهي مدينة صغيرة بعد مسيرة خمسة أيام إلى يداحل؛ وهي مشهورة في انحريرة العربية بمرارة / ١٤٥ / عابها، وحودة ثمارها، وحصرة ساسيها وهي دار إقامة لشريف الأكبر؛ أمر مكة اسكنه الذي سى فيها

٢٣٨ - وقد فرسي آخر يدعى روشه دي ديريكور (ديريكور) برحلة سى بعته لحاصه لأريد صدكه حر في انصم الجنوبي من بلاد بحشه وندى عوده، قدرت لجمعية العلمية العربية أنه بإمكانه القيام بعمل شمر؛ فيما إذا امتلك أدوات عمية، فقدمت به أحهره دقيه وعلمته استعمالها، وأرسلت في رحله لديه سنة ١٨٤٢م بعدد منها بعدد وافر من المعلومات في مختلف نواحي المعرفة تتعلق ببلاد الحشنه بنوع خاص؛ مع هذا، لا نحبو رحله، ومروره بالمصير، وحده، والعديدة، والمجا من المعلومات الثمينة، إذ كان قد هرب بعد عظم في شؤون البحر الأحمر ما بين سني ١٨٣٩ - ١٨٤٢م وذلك متأثر لظروف انسانيه اندولية وانظر ص ٢٤١ - ٢٤١ من كتاب اكتشاف، موثق سابقاً، وسيتحدث تدييه بالتفصيل عن روشه ديريكور في الفصل الثالث عشر للمعوى بـ «معاذرة حدة» ص ٣٠٩ - ٣٠٩ من لأصل الفرنسي، وذكر أنه توفي في ٩ مارس (آذار) ١٨٥٤م

قصرًا، ولت كنا مسيحيين فبنا لا نستطيع القيام بهذه الرحلة بدون أن يأذن هو بذلك. وقد طلب السيد كول الإذن عبر مصطفى أفندي وكيل الأمير الشريف في حدة. ولم يتأخر الجواب، وفيه أن الشريف مستعد بكل سعادة، وأنه سيهم برحلتنا المذاهب وإلياب. وسيرسل لنا هجته ورجاله يحملوننا إلى انطانت، ويعودوا بنا إلى حدة. وصل هذا الجواب اللطيف في ١٧ فبراير (شباط) ومهما كانت السرعة والمادرة التي تعهد بها الشريف أن يبعد بهما وعده، فقد كان أمامي أسرع انتظار كامل؛ وكان يسعي عليّ أن أشعله، ولكن كيف؟ لم يبق لي ما أراه في حذو. لقد قال لي أحد السكان الأصديق كيف وأحبته بعم، ولكن هل الممكن أن يدوم الكيف ثمانية أيام؟ وقد يسألني أحد ما لكيف؟ وهأنذا أقول لكم

عندما ينهي العربي أعماله، مهما كان نوعها، ويكون يومه قد انتهى، يهترو الناس بين حريمه، وسحفت من ثيابه، ويأخذ شيشته، ويجلس متربعا على دبوانه، ويستغرق عليه دون شعور، / ١٤٦ / وهو يدخن في استرخاء بدني وروحي؛ هو نوع من النوم والضحو، دون أن يكون لا هذا ولا ذاك ولا يجرؤ أحد في تعاليم أن يعكر عليه صفو هذه اللحظة الطقوسية حتى لو كان روحته نفسها، أو حتى أعرب الجوارى إلى نفسه إن حاله أسير - بين هذه، التي هي وسط بين الوجود واللاوجود، والتي لا يمكن أن تُعرفها لأوروبي، ولا يمكن له أن يفهمها - ليست إلا تطبيقاً عملياً للمثل لشرقي العادل. خير لك أن تكون جالساً من أن تكون واقفاً، ومستقفاً من أن تكون حالاً، وناماً من أن تكون مسلقياً، وميتاً من أن تكون حياً. ليس الموت الحقيقي هو لمقصود هذا لأننا في هذه الحالة لا نفكر، ولا نشعر، ولا نحلم، ولا نعيش، ولكن نتعسف، نعيش كما تعيش النباتات، وهذا يمثل لدى العربي العليم الأعظم، والشعور المسبق بالنعيم الحالد ذلك ما يسموه الكف

وقد جعل الأتراك، وخصوصاً الطبقات الميسورة، من هذه العادة، بروحة ممارسة مادية، وأفسدوا المتعة التي لا توصف للحسد والروح، عندما جعلوها مترافقة شرب الكحول. إنهم يشربونه بشراهة حتى الثمالة، ويتبع عن

ذلك التصرف الحيواني، عن ذلك الكيف^(١) الذي لا يليق به هذا الاسم، أن الإنسان يعط في يوم عميق. ويرى من خلال ما ذكرته أن الإنسان لا يستطيع، مهما كانت قوة الإرادة لديه، أن يستمر في ممارسة هذا النوع من الكيف أسبوعاً كاملاً. ولما كنت قد رأيت كل شيء في جذة، فإنه لم يعد فيها ما يثير فضولي، فتركت الاهتمام بالأشياء، وانحعب نحو لباس، ولبيكم بعضاً ممن /١٤٧/ حالظتهم لقفل الوقت حتى يحين موعد معدوني إلى لطائف

(١) أورد روبن بذول في كتابه الرحالة العربيون في الصحراء العربية، ترجمته العربية، مؤلفه سابقاً، ص ٥٧، في الحديث عن رحلة بيرنون: «وعد حشمتع بيرنون بجو الإسكندرية، حيث رحد فيها ما اسمه لعرب بالكعب، فالرجل شرقي بحس محدود إلى الرحة والاستماع بالملذات الحيوانية، وبناء القصر في بهو. وقد حلفه حاشاً تحت شجرة نخوح بالقصر مسجداً ماحسناً المهيبة أو مدجين لدا حيلة أو شرب الشراب غير مكثرت مما يدور حوله في الأمور التي يحكر صفو الحياة، بسما لجة المنادة في أوروبا يمللي على الرجل العربي أن يكون معصياً بالشهد والحبوبة»

الفصل السابع

لوحة نابغة بالحياة

لمكان للمكس، لذلك أبدأ بالحاكم كان الباب العالي العثماني يرسل
فيما مضى إلى المدينتين المقدستين، وجده ناشأ يحمل ثلاثة ديول^(١) احتراماً

(١) يستخدم الدبل أو الطرح للدلالة على الرتبة عند العثمانيين، والطرح علامة هي
الحذية، وكان عبارة عن عمود يعلو به دبل ثور، وقد استبدل الترك دبل الحصان
بدبل الثور والطرح أو الدبل عند العثمانيين مروي رأسه كرة مدببة، وقد علق
سحب كرة حصنه من دبل حصان مصبوعه باللون الأحمر وكان لرجال الدولة
العثمانية أطوار أو ديول سحب مدللهم، فاستطاع سبعة أطوار أو ستة، وللثوب
لأعظم خمسة أطوار (ديول) أو ثلاثة، وللثوب ثلاثة أطوار (ديول)، وللثوب
طرحان (ديول) ولم يكن يرتب على العزل من المصاحب سحب الديول (الأطوار)
إلا إذا كان العزل بحرم، وكانت الأطوار المستطبة وأطوار رجال الدولة سيق
الجيش عند المرور انظر أحمد السعد سليمان تأصيل ما ورد في تاريخ الجبروتي
من الدخيل المعهدة، دار المعارف، د ت ص ١٤٦ - ١٤٨. (في حاشية ترجمة
رحلات بوكهارت... موثق سابقاً، ص ٥١، الحاشية (٢)) وبشير ديديه بعد
بوكهارت إبي أن وافي حدة كان يحمل ثلاثة ديول معي أنه كان لا يصل عن وجه
وربو، مما يدل على أهمية حدة بالنسبة إلى الدولة العثمانية، انظر رحلات
بوكهارت، موثق سابقاً، ص ٥١ وذكر في معجم المصطلحات، موثق
سابقاً، ص ٣١١، أن كلمة «مخرج» كلمة عربية دخلت لتركبة بمعنى ربه من
نوع خاص ووردت في بعض المراجع لفظ «مخرج» أو «مخرج» وذكر د. صايان، =

لقديسة المدن الثلاث ومع أن هذا الامبار الذي أسف عليه هواة الأصدالة قد أُلِمِي، فإن ولائه مهد الإسلام، صلب أولى ولايات الإمبراطورية العثمانية، وسموطف الكبير الذي بولّي عليها لا يعدمه إلا رئيس الوزراء، ويتقاضى سوبيا مليوناً ومئتي قرش، يصاعفها مرتين أو ثلاثاً عادة، و لم يردها عشرة أصعاف بالطرق المألوفة في توكية وغيرها ويدور من الطهي أن يقيم في مكة، ولكنه لا يقوم إلا بريارات نادرة إلى عاصمة النبي محمد ﷺ، ورواه لندميه المسورة أكثر ندرة، ويقوم في جدة طول الوقت، بسبب أن هذه المدينة هي مقر الجمارك لتركية، وهي المورد الرئيسي، ويكاد يكون الوحيد، لموارد الحجار العامة، وإننا لا نستطيع، حسب مدأ الحوري تيري^(١) Terray، أن نحدد إلا حيثما نجد ما يؤخذ، ومن جمارك جدة عرف الماتسا / ١٤٨ / ما شاء الله به أن يعرف^(٢) هنا يوجد الكر في نظر التركي، وهذا يوجد فيه وشخصه أيضاً

= في المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مرقع سابع، ص ١٤٩
 أنها طوع Tux وهي دوزخ من ربر الحبوب، نظر على لعمري التي بينها ركاب الدولة، وهي علامة مميزة لهم حسب مكانهم

(١) Terray (Labbé Joseph-Marie) = الحوري تيري مرقع سابع، ولد في بون Boën في مصف (الوار Loo) في فرنسا عام ١٧٦٥ م، وبقي في فرنسا ١٧٧٨ م عام بعدد من الأعمال التي قدمت الأعمال الحارية وعرض عليها جرائد وقبلاً صحفه بعد استماع على الرعم من أعماله البه ان يصبح مفتاً عاماً في عام ١٧٦٩ م

(٢) بون بوركهارث في رحلاته، مرقع سابع، ص ٥١ - ٥٢، ويحكم جده باث يحمل ثلاثة ديول (أو اصواح) وه الأقدمه على معظم الآخرين بحكم رباط جده بالمدرس المعدسين، إلا أن منصب ولاية جده بعد تشريف قل أن يأبه به بلاء الأثران، إذ بهم دائماً يسيرون جده مكاناً لمضي أكثر منها مكان رفعة إلى منصب رفيع، وكثيراً ما يُعَيَّن في ولاية جده رجل دولة معصوب عنه وولي جده يلقب بعه و في جده وسواكن والحش ونيس وولي جده محصب، وبأيدي الهند المنصب بوه يقيم مكة - لجمرك في كل من سواكن ومصوع اللتين كانتا بيد حكم محمد علي داعين كنه لشريف مكة انظر تعليق المترجمين في العاشية (١) من ص ٥٢ على المقصود بالحش

رُت لنا من اليوم التالي لوصولي، ولكن ليس قبل أن أرسل من يحضره بذلك، مصع ساعات قبل موعد الزيارة، كما هي العدة بين ذوي الأعداء كان الاستقبال في غاية اللياقة إذ كان على باب نجمة عسكريه لاستقبالنا، وكان العبد والمخدم يتشرون على الدرع وفي المدخل، وكان هناك اثنية واثنية والشراة والشاي والحلويات، وكان كل ذلك يُطلب بصوت عالٍ، وتلك هي عية لياقة في الشرق، حتى يستطيع الجميع أن يسمعون الشريعات التي تُقدَّم للزائر، ولم يكن يتفحص الحملة شيء. لقد حرج لنا بمعه للفاني لدى باب السحلس، وفادي إلى غرفة مستعملة تُطل على البحر، مليئة بالسجاد والدواوير، والوسائد، وبكلمة واحدة مليئة بكل وسائل الراحة المتوفرة في البلد

أما تفصيل عرسنا فإني كان طريح المرائش، وأفعده لمرص الشديد من مرافقتي، فقد طلب رسمياً من السيد دوكيه M. Dequie مترجم، وموثق العقود في المصلحة أن يحمله، وقد تفصل السيد دوكيه بالقيام بدور المترجم، وقد قام بذلك بدكاه وتعاي كان اسم الحاكم أحمد عرت باشا^(١)، وهو رجل حيوي، جيد الثقافة، وهذا نادر لدى الأتراك، بل إنه شاعر، يستعرض معارفه

(١) ذكر دحلان في كتابه خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، ط ١، المطبعة الحيرية، لاهور، ١٣٠٥ هـ، ص ٣١٦، أنه كان أميراً للحج الشامي في عام ١٢٦٨ هـ، وصديقاً للشريف عبد المطلب، وأصاه عبد والي جدة عه باشا، وأن «شريف عبد المطلب أرسل بلصبر الأعظم رشيد باشا يطلب عرل آفة باشا، وتوجيه ولاية جده لأحمد عرت باشا لأرربحاني فأجيب إلى ذلك في سنة ١٢٦٩ هـ، وهو لدى من أيب ابي بالراهر بالقرب من شهداء مع في مدة ولايته هذه، ثم حسب مفاخرة بينه وبين الشريف عبد المطلب بعد وصوله إلى جده بأيام قلائل وعُزل أحمد عرت باشا سنة ١٢٧٠ هـ في شهر رجب وتولى مكانه كامل باشا ولد عام ١٢١٣ هـ في أرربحان، وتوفي في ١٤ شوال ١٣١٠ هـ كان كاتباً وشاعراً وأديباً، أهم في كتابه بالموضوعات العسكرية انظر محمد توياء، سجل عثماني، ج ٣، ص ٤٦٥، ١٣١١ هـ

مكن طيبة حاضره بدأ الحديث بالطبع عن الحرب^(١) التي كانت حينئذ قد بدأت، وقد أمر بإحصاء /١٢٩/ حرائط جغرافية تركية لتتبع عليها التوصيلات التي كان يطلبها مني

وجعلته أبا بدرزي يتحدث عن الموضوعات التي تهمني أكثر من غيرها، عن البلد الذي يحكمه، وقد استغنت منه المعلومات التي ذكرتها سابقاً عن مدينة لسي صالح المهدمة بعد رودي معلومات أخرى هي في نظري موضع شت فهو، على سبيل المثال، رفع عدد سكان مكة المكرمة إلى ١٠٠ ألف نسمة، مع أن عدد سكانها لا يتعد نصف هذا العدد، وقال إن عدد سكان مكة المكرمة الذين تساعدون إسماعيل بلغ ٢٠ ألفاً وعملت معه أن إحدى أراض ملك لاهور رويحييت - سبيع^(٢) Runjet-Singh حورب بعد موت زوجها في مكة المكرمة، وهي تعيش من المساعدة التي تقدمها لها شركة الهند شرقية، وهي مدارس في عرشها كل اعصائل التي أمر بها الإسلام

وأود هنا أن أروي طرفه حدثت في هذه النصف القصيرة، وهي تكشف بوضوح فساد الطائفة لدى السبديات في المشرق، ولكن روايتك تلك النصف

(١) بين روسيا والإمبراطورية العثمانية، وقد جرت هذه الحرب بين (١٨٥٣ - ١٨٥٦ م) في فترة حكم الإمبراطور نيكولا (١٨٢٥ - ١٨٥٥)، والتي استمر فيها، وكاد يجمع في استمر الإمبراطورية العثمانية لولا تدخل دول وبريطانيا بصفها عنها (حرب القرم ١٨٥٤ - ١٨٥٦ م)، ما بهره نيكولا في معركة سيستروبول (Sbastopol)، واضطر حسب معاهدة باريس (١٨٥٦ م) أن يخلي عن بعض الأراضي التي حلتها، وعن الوجود الروسي البحري في البحر الأسود وشرك مصر في هذه الحرب إلى حوار اندونية العثمانية، وقد أشار بيرتون في رحلته إلى حمايته المصريين ورعتهم بالجهاد ضد الروس، نظر رحلته بيرتون إلى مصر والبحار، موثق سابقاً، ج ٢، ص ١٧

(٢) ولد عام ١٧٨٠ وموفي عام ١٨٣٩ م، حاكم هندي (مهراجا) كان يعرف بالسيدي السجاف، حصل على ولاية لاهور من رمان شاه ملك أفغانستان بعد أن استولى عليها وعمره ٢٠ سنة بقوة السلاح

نحتاج إلى محاد الحيطة والمحذر في الحدث، وليس بأنسهن رويها
وسأحاول أن أقول ذلك بطريقة لاثقة، إلا أنها معهومة، وإني أليق من
الإشارة بهم^١

لقد فقد المحج كثيراً من ألقه، فافقراء والمساكين يؤدون هذا الواجب
لديني بأعداد كبيرة، وهم إما ممن فترت عواظهم، وإما من أشاء، وما
من استفتري، أما الأعيان فيهم عرفوا عن أد، المحج، فقد تعد برى سلاطين
الماضي لعظمه، يأبون من كل بقاع العالم الإسلامي / ١٥٠ / ليظهره بهذه
المناسة الاحتدليه كرمهم، وليكون حجهم مادة لذكر باب رابعة يمكن إدراجها
في عداد الحكايات الخيالية في ألف ليلة وليلة مع ذلك فإن المحج لأخبر
شهد قدوم سيدة جليلة من أعماني بلاد فارس، كنت على ما أظن أرسله،
وهي، وإن كنت لم تُظهر من إياب المدح ما يظهره لقادمون من بلاد فارس أو
من سانسور أو من بقية بلدان الشرق الإسلامي، كنت سادراً، وبرفتها
حاشية لا يستهان بها فقد كان معها حصي أسود مقصور عن خدمتها، وكان
يقوم لديها بوصيفة أمين الصدوق والقيم لقد قدمت لحاجة الشهيرة من
مصر، ورودها لفصل البريطاني العام برسالة توصية إلى السيد كول، لست
أدري بأي قصد، وقد أكد لي السيد كول كل تفاصيل المعاملة العربية عندما
وصلت إلى حدة انقص رجال الحمارك على امتنعها كما لو أنهم يقصرون على
فرسة، وبضراوة شرسة تنمير بها مصلحه الصراحت في كل البلاد، اطلع رجال
الحمارك على كل شيء عد صدوق امتنع الحصري بصوار عن فتحه بامر
صريح من سده، ودارت بشأنه محادثات طويلة، وكما كان الإصرار على
عدم فتحه عبداً، ارداد إلحاح الحمارك على ضرورة ذلك، وردت شكوكهم
بسبب ما يرويه من مقاومة ولما اعتاضت السيدة صرحت في آخر الأمر
بلحمارك، أنهم إذا أصروا على فتح هذا الصدوق الذي دار حوله نقاش كثير
فإنه / ١٥١ / لن يسحب أبداً، وستنكر ملكتها له ولم يكن لاعتراضاتها أية
فاعلية، وتفتح الصدوق على الرغم من كل معارضتها الشرسة ما لدي كان
في ذلك لصدوق العجس؟ إن كان فصولكم يدفعكم إلى معرفة ذلك

فيحكمكم أن تسألوا مؤلف رواية الساتيريكون^(١) Satyricon، ويستطاعكم أن تسألوا أيضاً جمارك بيريبان^(٢) Perpignan الذين شهدوا مد عهد قريب حصول معامرة مشابهة لسيدة جبيلة من نساء عصرنا

في أول الشخصيات الرسمية التي عرفتها بعد الباشا، ولكن على سبيل الفضول، كان كرد عثمان أعا^(٣)، كذا يسمونه في بلاده وفي عمله، ولد في كردستان، وكان سجعاً^(٤) أو قائدًا للحباله غير النظاميين الذين يسع عددهم بين ألف أو ألف ومئتي رجل، وبمعسكرون على بعد عدة فرسج على طريق مكة المكرمة، وهم مسعدون على الدوام للتمرد، إن لم ينصحبوا مستحققاتهم «مماية». لقد حصل من قبل في معسكرهم اضطرابات خطيرة، ويترقع أن يحدث تمرد عام إن لم تصل النفود بسرعة من استابول

(١) Satiricon، Satyricon - الساتيريكون = الساجر - السحريه، وهي ضرب من الرواية الساجره نسب إلى بيرون Prone، لم يبق منها إلا قطع يحتفظ فيها بنثر وشعر، وهي أكثر الأعمال الرومانية (روما) إباحية ومجرى أحد لها في مرسيا وفي جنوب إيطاليا، وموضوعها معامرات أحد الثبات الإباحيين الذي لا يملك شيئاً اسمه أنكوب Encolope ولمؤلف هو بيثروبيوس انكوب (Petronius Arbiter) كاتب وشاعر لاتيني من القرن الميلادي الأول (٤٢٠ - ٦٦ م) ويعدل إنه كان من أباغ عهد الملك المرعيس في بلاط بيرون Non انظر Leont-Bompiani, Dictionnaire Des vres, Paris, 1962 pp.361-362 ويبدو أن ما في الصندوق كان به علاقه بأموال إباحية

(٢) منطقة فرنسية في حال التربه لشريفه، تبعد ٦٩٠ كم عن باريس و ١١ كم عن ابجر المتوسط

(٣) ذكر دجلار في خلاصة الكلام . موثق سابقاً، ص ٣١٣، أنه كبير المسكر الحباله في أيام الشريف محمد من عون خلال فترة شراة الأولى، وانظر ربيعة بيرون إلى عصر والنصار، موثق سابقاً، ج ٢، ص ٢١٠

(٤) سجع يعنى باللغة التركية المعلم، ويطلق أيضاً على القائد معه (المؤلف) نظر أيضاً معجم المصطلحات ، موثق سابقاً، ص ٢٥٩ وفيه به في بعض المصادر صحت لفظ تركي - فارسي معناه: علم أو رواية

ب. حاله الشرى هؤلاء الذين يُستقون ناشي بوروق، وهذا يعني بالتركية
 ميليشاء هم داهيه تحل في البلد لسي يرسلهم الباب العالي في حملة إيه
 إيههم بأحدون كل شيء من الأسواق دون أن يدفعوا ثمنه، ويعاملون الحجر
 الذين يطلبون حقوقهم معاملة سيئة، إن حياة / ١٥٢ / الإسماعيل لا تسوي في
 نظرهم حياة كلب، وهي أقل بكثير من حياة حيولهم وإذا قابل أحد هؤلاء
 اللصوص امرأة غير منفعة، فإنه يشهر مسدسه ويصوبه نحوها، ثم يطلق ببرودة
 أعصاب نار على رأسها على مرأى من كل الدس، ثم يقوم بعد فعلته،
 ويهدوء، يارحاض سلاحه إلى حزامه، ويتابع طريقه، وهو يرم شواربه، دون أن
 يفكر أحد بالوقوف في طريقه، أو بالنظر إليه بحرة احتقار ولتحليل مصير
 الشعب الذي يجعله الحرب تحت رحمة جنود غير منظمين، ليس لهم دين ولا
 خلق كهؤلاء الجنود الذين هم مبرؤ فانداهم كان كرد عثمان أعما هو الرئيس
 اللاتق لهذه المديشيا التي أطلق لها العنان، كان طوبه ستة أقدام، مقتول
 لعصبات مثل هرقل، وتظن حين تراه أنه عملاق يقسم الجبال إلى شطرين،
 ولكن هذا العملاق كان يُمد من الحياء، فهو إنان الأحداث لفريية العهد التي
 كان معسكره مسرحاً لها لم يعمل شيئاً لإعادة فرض النظام، ويروح لأن في
 لأفق اضطرابات أكثر خطراً أيضاً، وهو لا يستعد للوقوف في وجه العاصفة،
 وربما يستعد للهروب إلى مصر، وقد أرسل إليها مدد من عائلته وأمواله لقد
 سطا خلال هرب إحدى المدن التي لا أذكر اسمها، ولم يكن حينئذ إلا مجرد
 جدي، على محوهرات باعها ٢٠ ألف قرش، وشترى بهذا المبلغ حاداً،
 وكان ذلك بداية ثروته وكادت مسحقاته حينئذ لا تزيد عن ٧٥٠٠ قرش في
 أشهر، ولكنه كان يملك / ١٥٣ / الموهبة الكافية لرفعها إلى ٢٠ ألف،
 وبفضل كفاءته المالية التي تعرض عجزه العسكري، كؤن لنفسه، «وسائل
 مشروعه تقريباً، ومع أنه ما زال شاباً، رأسه يقدر بمسي ألف تقري، أي
 مليون قرش. إنه محدث نارع، وبرغم أنه يعرف تمام المعرفة ببلده الأصلي
 ويقدر أن عدد المرسا الأتراك المشتريين في كردستان يبلغ ١٧ ألف فارس،
 وكان يذكر ببحر أنه يعرف مواضع سبعة مناجم ذهب في حاله، وسم تكن

حماسته بأقل في الحدث عن مع يتمتع محصورة تكس في أنه بعد على
 هضم الطعام فوراً؛ لأن الأتراك حريصون كل لحرض على صحتهم وندعي
 أيضاً أن معرفته بالحريرة العريفة لا تقل عن معرفته سلاسه، ومع ذلك فإسي لم
 تسعد منه شيئاً ذا بال استهل حديثه بمقارنة فيها الكثير من الهدر و لا اضطراب
 عن طرقت الصحراء العريفة وفسامها، ولم يفهم مترجمي، ولم أفهم أنا من
 ذلك شيئاً أبداً

وليكم بعض المعلومات التي أحدها عنه، أظنها أكثر دقة، مع أنه من
 المرجح أن هناك شك في صحتها وأصالتها يوجد في مكان بعد مسيرة ثمانية
 أو عشرة أيام عن جدة، باتجاه الشرق مكان، يسمى الدوينة، به حجر عريض
 قديم معطى بالشكل محفورة، وهو مجهول الأصل وعلى مسيرة عدة أيام في
 الاتجاه نفسه، ترمع جبال دائرية ومعزلة تماماً، سمها حال مزان، وتبع من
 صفحاتها ٧٥ عينة /١٥٤/ وتحدث عثمان أيضاً عن بيع آخر مائة يتحجر
 بمحرد احتككه بالهواء. أورد هذه المعلومات بتحررها وتجرها، وأود من
 لدرى أن يخصصها لحسن الفدي، أكثر من اعتبارها إشباعاً لمصونه

إن المعروف عن قلب الجزيرة العربية قبيلة، وليس لديها عن سكانه أي
 معلومات واضحة، لذلك يسمى أن يصفي المرء لكل ما يقال، وأن يجمع كل
 شيء، بشرط أن يستنتج بعد ذلك من هذا المريح بعض حواش الحقيقة

لم يكن عثمان أعاد بقيم في المعسكر، كان يسكن في مركز المدينة مرلاً
 يجمع على الدوام بالاضطاد الأرباب أو الأكراد في لندهم العسكري الأصبي
 وهو عبارة عن مئة حمراء مطررة بالحرير، وسروال متنع معقود عند الركبة،
 وحزام عريض فيه حناجر ومسدسات؛ وكان كل ذلك يشكل بوجه حيوية
 جذابة جداً

إن الجيش عبر الضامي معفى من ارتداء الزي الذي فرضه السلطان
 محمود^(١) على الجيش التركي. وليس ذلك الزي، باستثناء لصربوش، إلا

(١) محمود الثاني (١٧٨٥ - ١٨٣٩م) سلطان عثماني بولى سلطه من عامي ١٨٠٨ =

مسحة مقلدة من الري العربي، وسعي على كل الموظفين، عسكريين أو مدنيين، الانترام بارتداه ذلك الري. ويجد صعوبة في عهد رؤية الشيوخ انخماسين بكلاميكيين، وخصوصاً الناشأ، وهم يرتدون تلك القفاسود لخمراء اشبيعه، وذلك البطال الضيق، ودئت المعطع، اصيب، وكل ذلك يمثل لان الري الرسمي.

بهم مسكرون بري، لأوروبيين، كما كما في طعولت تشكر بري التركي، وقد حبرو بهد التحول سنة ١٩٠٠ / لقد كان الري اقدم باتساعه وهيته /١٥٥/ يظهر نبرهم؛ وكان فيه نوع من السل والحمل، وهو حال من تلك الريه المستعارة، وماسب مع جوهر شخصهم. بهم يوم يدون صبي حقيقتهم، في عاية الفصح عمومأ، بدياه قبل الأوان، وإن سوء مطهرهم لا يقل عن سوء صحرهم وإن المثل المأثور قوي كالتركي، لم يعد صحيحاً

لقد احتفظ باشا مصر بمصالح صحمة في الحجر ضد حرب الوهابيين، وهو يرسل إلى حدة للسهر على تلك المصالح قائماً بالأعمال، كان إبن ريارتي هو أمين بيت، كولوبيل سابق في سلاح المدفعية، ربح حديق، ومؤدب، عارف بكثير من الأمور، وصها الحارة، أديبي بغير ما كان يعيماً معي عبته محمد علي، وأبقاء عباس في مصبه، على لرغم منه، لأن صاح حدة أنفع صحته، وكان يطلب بالبحاح أن يتم استدعاه إلى القاهرة. علمت منه أن الباب العالي لا يحيي أي فتنة من سيطرته على لحريرة العربية، بل يبدد فيها كل سه قسماً كبيراً، ٢٩ أو ٣٠ ألف صره، من الصرية التي تدفع مصر لإستسور؛ كان أمين بيت على علم تام بهذا الخصوص، واعتار أن تلك الأموال تصرف بمعرفته وإذا صدقناه فإنه كان لعباس بيت في مكة أنصار وأجهل إن كان هذا الأمر صحيحاً؛ ولكن ما علمته /١٥٦/ من مصدر موثوق به أن عباس باشا يدهن يذو سبله والحدود السورية، لأنه يرغب أن يكون، به الذي كان متزوجاً بإحدى بنات السلطان، أو أنها كانت محبوبة له، والي

احديتين المقادستين لكي يدعم بذلك نفوذه الخاص على العرب ويوسعه وقد جاء موته المفاجيء بعد سلسلة تلك المزاوير

كان امير بيت معارصاً صلباً لحكومة الاشراف لسبقه لتي كان يأخذ عليها انها تطبق نظاماً غيبياً في الانترار ولحور من كل لأنواع، وهو مأخذ عريب عندما يصدر عن حديم لعاس ناشاء كان يذكر لي أشياء سيئة جداً عن الشربف الأكبر الحالي، وبتهمه بالنحل والحشع، ويقول إنه لا يوثق به، ومجادع حتى المكر ولكي كب أشك في هذا الحكم لعدد من لأساب أولها أن امير بيت هذ صبيحة محمد علي، الذي قوص حكم الأشراف، ولما كان من أصل تركي، فإنه كان بالطبع متشبعاً بأراء صيده، ويقاسم مواظيه تحيرهم ضد لسكان الأصليين هاك كره منادل، وتممكن وعدارة لا تقبل بمصالحة بين الأتراك والعرب وبين العرب والأتراك وإن لمثل القائل بمعاملة التركي لمورتي^(١) Maure، هي في هذه الحالة أكثر صحة من أي وقت مضى، وكلمه مور هنا مرادفة لكلمه عريب

كان العشمايون باعثار أنهم العانيون، يعاملون الشعب المعلوم بطرسة، وبطفيان / ١٥٧ / لا بمكر احسانه أما العرب فإنهم، من ناحيتهم، حس مستقل ومعتز بنفسه، ويكنون لحكامهم العرباء حمداً لا يتركه مكنه إلا بالاحتقار، يعتطون من جهلهم، ويسحرون من طريقتهم لسبته في لتحدث بالعربية، ويأخذون عليهم أيضاً، أنهم لا يحسنون قراءة لقرآن في المصحف، وأنهم لا يعرفون أداء الصلوات بشكل صحيح وإن عذرهم هو الذي يثير العرب على وجه الخصوص، فهم لا يشيرون إليهم لا باسم النوبة، وهم في هذا اسياق يسهريون بلفظ فخارة الذي بحمله كبار رجال الدولة، فيحوروه من اسم إلى فعل يدل على الحيانه، وإليكم قصة التي يروونها في

(١) استخدم المؤلف ها كلمة Maure وهي كلمة من أصل لانيبي Maurus وهي بالإسبانية Moro أطلقت على سكان موريتانيا الحالية ولعرب ويسمون أيضاً بالموريسكيين Mauresques، انظر كتابد صلاح فصل، منحة المغاري لموريسكية، القاهرة، ١٩٨٨ م

هذا الموضوع أضاف أحد السلاطين وعده لأحد العرب، فما كان من هذا إلا أن بعثه بسلطان خان، ففهم العثماني لجهده أن هذه الشبهة لعب تشريع، فأصابه إلى الألعاب الأخرى التي بحمها من قبل، وأورثه مدرته وإن كلمة «تركي» إهدنة، حتى لو خرج من قم لأطفال، وهم يتأثرون بها بينهم، ويأدون بها الكلاب، كما هي الحالة في أوروبا حيث يطفون على كثير من هذه الحيوانات اسم: ترك^(١)

وبهم من ذلك لماذا كان الباشا والشريف لأكر محصين، ويسود بهم شفاق معلى. إن السلطات الخاصة بكر من صاحبي المنصبين لموقوف غير محددة بوصوح وينح عن ذلك / ١٥٨ / حصومات أبدية، ما حدث عن لكره المتأصل والسياسي بينهما وكما يستعلان عدم الوضوح في توزيع السلطات ليحدث كل منهما الآخر بكر الطرق الممكنة، ويسلك كل الوسائل السيئة التي يمكن تحيلها، ووصل بهما الأمر إلى أن كلأ منهما كب يأمر بسرقة رسائل الآخر لرسمية، بل ويقتل صعاة البريد.

كنت هذه الحصومة لعمدة، تجعلني في موقف حرج. كان الباشا يعلم عندما وصلت إلى جنده أن هدفه هو الذهاب إلى الطائف، مقر حكم الشريف، ومركز سلطته؛ لذلك وجد الباشا نفسه متردداً أن يشجع رحلتي أم لا، وكان يحسني من أن يعرض نفسه للشبهات ومع ذلك فقد عرض عليّ، ولكن بلا حماسة، حراساً لمرافعتي.

أما عثمان أغا الذي كانت ع دأونه للشريف الأكبر أكثر استحقاقاً، فإنه من حابه وضع فرسانه تحت بصري لم تكن مثل هذه الطريقة في السمر تاسي؛ إذ لم أكن أبوي لمتول أمام الشريف الأكبر، بصمي رحالة يحميه أعدؤه ويعرضونه عليه، ولكن بصمتي رحالة حراً، ومستعلاً تماماً

ولم تكن لدي أي رغبة في رؤية الشعب العربي والطاع العرصة عثر الأترك، وخصوصاً عثر الناشي بوروق، لذلك رفضت ما عرض عليّ بقليل أو

(١) نظر رحلات بوركهات ، موقو ساما، ص ٥٦ . ٥٧

كثير من سلامة الطوبى، واتحدت القوار الوحيد الحكيم بالبحوء مشرة إلى الشريعة.

قد أحسن الناشا بالمهانة من حراء هذا الاحتيار، مع أنه أرا أن حيرته، وازاح عن كاهله عنه أي مسؤولية وحرص كل الحرص، وهو /١٥٩/ التركي الأصل، ألا يظهر لي شيئاً من ذلك، وخصوصاً أنه كان مشغولاً بأمر أكثر خطورة من ذلك بكثير: لقد كانت نشر في جدة شائعة يفاهه من مصده، وعمد من مصدر موثوق به أن ذلك صحيح

كان ديوان أمير مكة يقع على مفرقه من البحر، يقصده عن ديوان المحاكم مساحة كبيرة حارّة ومعترة، كانت معسكر فيها حيث شبه فرقة من المتطوعين، ولكم حكايتها كان في حده ناجر هندي ولد في كابل، وكان يترق مد بداية الحرب لأخيرة إلى أن يؤدي دوراً فيها، وقد جمع خلال سعيه لتحقيق ذلك كل ثروته، ولما ألقى عه ثوب استشارة ارت، ونحوه شجاعة من عداة إلى استود إلى عداة إلى الحرب، بدأ على حسابه الخاص، متطوع مواطيه، متسولين كانوا أم غير ذلك، فاستسلم هؤلاء لإغراء العمل، ونصم إلى هؤلاء المتطوعين الأواثل متطوعون آخرون كانوا راحلين في ذلك، وكان اسم هذا المرتقى من النوع الجديد أحمد - بك، وقد بصوى تحت لوائه أبا رجل، يعلم الله وحده كيف تم تسليحهم، ولم يكونوا ينتظرون للانطلاق إلا لمراكب المخصصة لهمهم عبر مصر إلى مساحة الحرب كان هذا انكسار لمعاصر بسكنى قريباً من سكني. وكنت أذهب بدافع الفضول لرؤيته، ووجدت أن فيه هيئة رجل حرب أكثر منها هيئة ناجر ترك التجارة، كان يلبس مرساً أحمر، وكان حرمه مملوءة بترسانة كاملة من الأسلحة، بطفان (سيف تركي محدب) /١٦٠/ سيف، مسدسات وكل ما يلزم ذلك وقباده تتكون من جمعة من الناس المتشردين، يلبس أغلبهم أمثالاً بالية، وكان يردد من مرله نيل بهار صدر الاحتفالات العسكرية التي بصاحبها أصوات طلقب اسادق

لم يعد في جدة مسجونين بامتناء الإخوة ساوة Sawa، وهم من لحرر اليونانية، انضوا فردياً تحت حماية الفصل الفرنسي، في حين أن مصالحهم

الاجتماعية يحميها المصلح البريطاني، وهي تركيبة عفرية تسمح لهم بالاستفادة من كفتا الجيئس، ومن رعايه أكبر فونس بحريتين في العرب ويقوم شركتهم بالانحار مع السودان حيث يوجد بها وكلاء مشروون حتى حدود الحشة كنت أرى في بعض الأحيان هؤلاء لتجار الدين كان ولهم عصوراً، ورت عائلة كبره أصله من ليموس^(١) Lemonos، وكانت معه ذهب حشرا على حريرته التي ولد فيها، والتي كان على وشك العودة إليها بمتد هؤلاء اسادة مجموعة كبيرة من الراجيل انمارسيه المحصنة لاستخدامهم الشخصي ولاستخدام روارهم؛ وإن ذلك النوع من الراجيل هو المستخدم في جدة.

وأذكر لمن يهتمون بذلك أن هناك أنواعاً مختلفة من الراجيل، وأن لكل نوع اسمه الخاص وإن أكبرها وأجملها الكدرة Kdra، التي ترتكر على ثلاثة فوائده، وهي من القصة المصنعة بطريقة صفة، ومجهزة شيق (بأبوب) هويل لذو يسنى التي ويدحر أصحاب الدوق لرفع عنها نبعاً شيرارياً أما النوع الثاني فيسمى الشيشة، وهو بكاد / ١٦١ / يشبه الكدرة، إلا أنه أصغر حجماً أما النوع الأخير، وهو أكثرها انتشاراً، فهو ليس إلا جورة همد مجهزة، مملوءة بالماء، شأها شأن النوعين السابقين، ويقوم مقدم التي فيها قصبة مثبتة فيها واسمها العامي هو البوري ويستخدم الناس عموماً في الأنوع الثلاثة نبعاً قوي النكهة يسمى التناك يأتي من بغداد ولبصرة^(٢)

(١) جزيرة بومابه تقع على مسافة واحدة تقريباً بين مدخل الدوديل وشبه جزيرة مونت سانتو Monte Santo

(٢) انظر رحلات موركهارت ، موشق سايبا، ص ٢٤ - ٢٥ يقول "وهي كل اسمها يدرج الناس الشيشة Persian Pipe، ويوجد فيها ثلاثة أصناف مختلفة

١ الكدرة Kdra وهي أكبرها وتكون في رجل ثلاثي القوائم Tripod وهي مصنوعة ومزينة تزيئاً نبعاً ويوجد فقط في المنارل الخاصة

٢ الشيشة وتسمى في الشام أرجيلا وحجمها أصغر من الكدرة لكنها مثلها ترتبط بأبوب طويل يسمى "لتي" ومن خلاله يشغط لمدح أو الحشاش لمدح =

كان الإخوة ساوه لطفاء، يتصفون بليل العريكة مع أنهم تجار لهد رودوبي مقابل وئدة قدرها خمسة بالمئة بكل النقود التي احجبها بوساطة كمسانة مدنها ثلاثة أشهر مسحونة لدى م. حسون M Husson في القاهرة، والذي استعاد كل الرحالة من خدماته الحمدة، ولدي لقي في العام ثمان مائة نهاية مؤسفة.

بكاد الحصاره، واليهود على وجه الخصوص، يسيطرون تماماً على التجارة في جدة؛ الحصارمة شعب مترمت، ولكنه جرمي من المص، ومن أرباص عدن وليس يادراً أن تجد ثروة أحد اليهود وقد بدعت ثلاثة أو أربعة ملايين مريك وإن أكثرهم عني هذه الأيام رجل اسمه فراح يوسف؛ وهو

٣ = البوري ويكون من جوراء هند معروفة غير مصفولة ويوضع فيه الماء، وقصبه سبيكة يؤدي رطبه الأنيوب «النبي» ويكون هذا النوع من الشيشة الرقيق الدائم للطفاة انديا وكل ملاح البحر الأحمر حيث يتملوكها بوسراف.

إن النع لدي يستخدم في الكفرة والشيشة يأتي من احتليج العربي وأفضل أنواعه يأتي من شرار ويأتي نوع أقل جودة يسمى «الشاك»، من ابصره ويعداد، ولون ورقته أصفر دامت ومدافه أقوى بكثير من النع العادي، ولذا فهو يفضل قبل الاستعمال حتى يُخفف من قوة مدافه، أما الشاك الذي يستخدم في بوري يأتي من اليمن، وهو من نفس فصيلة النع السابق إلا انه أقل جودة وشجاعة في التبع كبير جداً لأن استهلاكه في الحجارة كبير لدوخة يصعب تصديدها، وتشجر كميات كبيرة منه أيضاً إلى مصر واستخدام العلويون العادي في البحر قبل، وأكثر من يستخدمه اليهود الأراك والبدو والنع يزرع في مصر، وفي مشار ويقطع منها إلى سواكن وقيل جداً النع السامي العاصر المستورد عبر البحر الأحمر وانظر كتاب التراث الشعبي، مؤلف مناهج، ص ٤٦، حيث يترجم من رحله «ابن فوله عن اندجين» الشيشة في المدينة السوداء حورة هند كبير مساق خشبية طويلة وكلاهما لجودة والساق مربي نوبه من الحنافس الأحمر ولا يصيرها عن «شيشة» مكة سوى اختلافات صفة. وهي، مثل «شيشة» مكة، موضع على حبل ثلاثي ويكسها غالباً من سقف من ريش النحرار والماء على السجاد أما الحرفون المعروف باسم ال (نبي) فهو صناعه ريشه في اليمن وتعميه تقوم في العميه «شيشة» مريكة وخراطيش إسطنبولية ذات شكل ريشي معاربه بما في مكة

ملك عشر مئتي حمولة كبيرة. ويكاد ذلك الهندي يكون أسود اللون، مشوق انعاماً، وقد وهب هيئة في عاية الطرافة، تبدو عليها قسماط اللطف والساهة. وكان له ولد في عاية الملاحة، اسمه عبد العادر، لون بشرته يساوي في لسواد لون بشرة والده، وكان يقف أمام والده وقفة احترام، ولا يحترؤ على الجلوس دون إذنه. وكان يلبس كلاهما /١٦٢/ عباءة من المولس الأبيض، وثوباً طويلاً من حرير ملاهم. وقدما لي في شركهم لكسكري وهو فهوة تصنع من قشور الحب، مصفاً إليها نكهة القرفة وكُنش القرميل، وإن ذلك عادة يمنية، وهو شراب في عاية السود. لم أستطع أن أشرب كل ما قدم لي، ولم أستطع أيضاً تدخين تلك الشيشة التي قدمت لي، لأنه كان ثقيلاً جداً، ويحرق الحلق. ومن مما يحذر ذكره أن ليهود ممتسكون جداً بالمرسم الرسمية.

لا بد لي، وأنا أصعب اللسان الأخيرة على هذه اللوحة لإساية التي طالت، أن أشير للذكرى فقط إلى فطان المرفأ الذي لم يكن لي معه إلا علاقات سطحية، وإلى رئيس الشرطة، عبد الله أعا الذي لم أرد أن تكون لي معه أية علاقة، على الرغم من المبادرات التي حصي بها، وأخيراً عطا بيت، وهو طبيب عسكري شاب من إستانول، كان يتحدث العربية جيداً، ومسلماً صابحاً وكان شركسي فجأة عندما يسمع صوت المؤذن، حتى لو كان في سياق حديث، ليتوصلاً ويصلي في عرفة محاورة.

إن لتحصات المشوعة التي سلطت الضوء عليها هي جميعاً من الأترك والهنود والبنوانيين، وكلهم غرباء عن البلد، في حين أسي جنت للمقاء العرب في لجريرة انعربية. ولم أعرف من العرب معرفة قوية إلا شخصاً واحداً في حدة، ولكنه عربي حاصر، وممثل لائق لأبناء حسه، إنه الأسودح الكامل لأبناء جندته جميعاً. إنه خالد بك بن عبد الله بن سعود، آخر رعماء الوهابيين^(١) /١٦٣/ لقد حمل إلى مصر وهو ما يراى في شابه المكر بعد

(١) كد يسميه ديديه خالد بن عبد الله بن سعود، وبطل الباحثون أنه حاد بن سعود.

موت أبيه، وانهز عدلته، وشأ في القاهرة مرعاية محمد علي ونحت أنظاره. ثم عاد بعد فترة إلى التجربة العرسية، وكان إتان رحلتي بقسم في حدة، وبعض من لثمة التي حصه بها الثياب النعاني، بعيداً عن الأحداث محكوم عليه بالعرلة الثامة ترددت عليه بطة حاطر، وكث أحد في يت على لدوام شروحاً عربياً يأتون إليه من القبائل المحاورة وخصوصاً الهواجر^(١)، إن اسعفتي اندكره، وكانوا يرون فيه ابن عبد الله وحفيد سعود أعظم زعماء التجربة العربية المعاصرة. عد آخرتي قصته وأعجبني شخصه فهو محب ومصيف، يجمع بين الل والطرف، ويسلم من أخاديبه وفي بصره أنه رحل يصم بين جوانحه قفاً كبيراً، وتسطر عليه مسحة من البحر الرقيق والسبل الذي لا يمس أصوله الكريمة، ولا بصره فيما أن إليه

« وأن ديدنيه أخصاً مع أنه يحدث عن الرجل حديث «وثر» وقد لقه وفصي منه صحابه يوم كان بطر ترجمه خالد بن سعود في الموسوعة العربية الماسية، ج ١٠، ص ٩، وفيها أنه توفي في مكة المكرمة ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩ م، وذلك اندكور أبو عبه في كتابه تاريخ الدولة السعودية الثانية، ج ٤، ١٢١١ هـ / ١٩٩١ م، ص ٣٣٦، أن خالد بن سعود موسى الحكم من ١٨٣٧ م إلى ١٨٤١ م / ١٢٥٤ - ١٢٥٧ هـ وجميع المصادر على أنه كان صبيغ محمد علي، وكانت سلطه سطة اسبه محدوده في ظل السيادة المصرية، وثارب في وجه خالد حركه مقاومه سعودية قددها الأمير السعودى عبد الله بن تان الذي رحب كفته وأبده أهل نجد، وذهب حاد إلى لأحساء، ثم إلى المحادر بعد أن قشأ في جميع قوة نفوذ في وجه من ثيان بطر ترجمه خالد أيضاً في عوف المهد في تاريخ نجد، بلشيخ عثمان بن عبد الله بن مشر المهدى الحبلي، مع عد التوحش بن عبد لنظف بن عبد الله آل الشيخ ط ٤، ١٢١٣ هـ / ١٩٨٣ م، مع ٢، ص ١٢٠ رمي مشير التوحش في أسباب مذك عبد، بلشيخ راشد بن علي الحبلي بن جريسي، مع محمد بن عمر بن عبد الرحض انمير، ١٢١٩ هـ / ١٩٩٩ م، ص ١٢٧ - ١٢٨، وكتاب حيران شامية، آل سعود ماصيهم ومستقبلهم، ص ٧٠ - ٧١

(١) هي الأصل الهجاري Haouan والصواب ما أثبتناه وكان الهواجر من أنصار خالد ابن سعود في أثناء مدة حكمه.

وعلى الرغم من أنه نشأ في العرية، وأكل من بصل مصر، فإنه لم يكن أقل حكمة من أساء دينه، وربما كان المستقبل يحسب له مائلاً عظيماً في حالة الاضطراب التي تسود الشرق. كان وضعه يمرض عليه الحذر و لنحفظ في كل أفعاله وأفعاله وحمت من أن يتعرض للشبهات إن شوهه بصحفي عدل، لأنه، وبسبب الظروف الحالية /١٦٤/ كانت السلطات العثمانية ترى أن لرحلتي هدفاً سياسياً كانت بعيدة كل البعد عنه مع ذلك كنت أرحب في جعله يتكلم باستفاضة عن الوهابية، وعن أسرته وعن نفسه، إذ من الممكن أن يُرصد بها، فعرضت عنه أن يجمع في بيت شخص ثالث، إنه بت السيد دركيه، حيث لم سمعاً أحد، ولم يرعجاً أحد، عوفق على ذلك، ودام اللقاء طول اليوم ولما كانت السمات الحفيفة لنوهابير، والمدر الذي كان لهم في لحريرة العرية غير معروف جيداً فلاسي سأوجز في صنع صفحات المعلومات التي متحتها من مصدر في عايه الأصدية والشرف، وسأكمل تلك المعلومات بأخرى لا تقل عن الأولى ثقة وأصاله وسأبدأ، لكي يسرح ما سبأتي في السياق المناسب، بعض المعلومات عن الأشراف الذين ليس لديهم في أوروبا فكرة صحيحة عنهم، والذين يرتبط تاريخهم بالمعاصر ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الوهابيين.

الفصل الثامن

الأشراف والوهابيون^(١)

يعد الأشراف السلالة الوحيدة في العالم الإسلامي التي توارثت لس كابرأ عن كابر، فهم يعودون /١٦٥/ بسبهم إلى الحسن والحسين، أبي طلمة، الامة الوحيدة^(٢) للبي محمد ﷺ وهناك على امتداد العالم الإسلامي، حتى أعماق المغرب، عدد صحم من الأشراف، يدعون النسب عنه؛ ولكن أشراف الحجار عموماً، ومكة على الخصوص ينظرون إلى أنفسهم، ويُنظر إليهم، على أنهم الأحفاد الحقيقيون للبي محمد ﷺ، وأن سبهم هو الأكثر أصالة، والأكثر توثيقاً ولما لم يكن في الشرق أحوال مديية فإن أشجار النسب تقوم مقامها، وتحفظ الأساب بعاية كبيرة؛ لذلك يوجد الأشراف سبهم بمسندات مؤكدة. إنبهم مفسمون اليوم إلى فروع متعددة، لا يسمح دحون العرباء فيها، ويتشرون في كثير من أمحاء لحريرة العربية، وهم يعترفون بأنهم أقارب، ويعملون بعضهم بحسب ذلك في امساسات كلها

(١) سخدم مصطلح الوهابيين بعد أن كثر كب أهل هذه البلاد من يداهم ان الكلمة تحولت إلى مصطلح بدن على أنواع لإمام محمد بن عبد الوهاب، يرحمه الله، ولم يعد له أي دلالة من الدلالات التي كان يذهب إليها عداء الدعوة، أما الأشراف فقد استفاض في الحديث عنهم سوك مورخون في كتابه صفحات من تاريخ مكة المكرمة، موشى سافاء، الجزء الأول

(٢) ليست طلمة هي نسب الوحدة للبي ﷺ وإنما كان له أحرياء، ولكن الوحدة التي عاشت بعده، وأنجب من روحها علي بن أبي طالب ﷺ

وبن كثيرًا من هؤلاء الأشراف فقراء جداً ويعيشون على المئقة التي يدفعها إليهم النائب العالي، ولكن ذلك لا يمنعهم من الاعتزاز بالدم لأصلهم الذي يجري في عروقهم، ويعلون أنفسهم، على الرغم من فقرهم المدفع، أرفع مقاماً من أعظم لاشاوات الأتراك

يشكل أشراف مكة صغير رئيسيتين أولئك الذين يعرفون بالارت والشرعية والعبادة، وأولئك الذين وقعوا أنفسهم على السلاح والأمور العامة يصلون على الأولين اسم سداً، أما الآخرون فهم الذين يحتكرون لقب الشريف^(١) ويتبع الأنساء عدة وضع أدنهم / ١٦٦ / وأصيف لها خصوصية عربية، وهي أن سادات الأشراف الذين يصلون إلى سدة الحكم محكوم عليهم ألا يتزوجوا^(٢) وكان الأشراف في الماضي يحكمون لسد وحدهم مسيحيين الصفات الأخرى وشهدت حياتهم لسياسة عدبات كثيرة. وأدوا في مكة أدور نفسه الذي أداء الماليت في مصر فقد احتكروا كل المناصب المدنية والعسكرية، وكانوا يعدون أنفسهم الأجدر دون غيرهم بسببهم، ويتصارعون عليها بينهم بالسلاح هناً، ويحرقون معهم إلى حصوناتهم لشعب ولدوا المحاورين وليس الحيات بمسموح بيعي، طوعاً أو كرهاً، ماصرة إحدى الأسر المصافسة، والتعرض لأشد الأخطار، في نفس أهمية تتجدد على الدوام. كان يراق فيها الدم غالباً، وكان لمهرمون بحلول عن السد حتى يحدث انقلاب ظريء يعير وجه الأمور، ويعيدهم إلى مسرح السياسة من جديد

(١) ويقال إن السادة (جمع سد) يعودون نسبهم إلى الحسين بن علي عليه السلام، وهم في مكة المكرمة محرمرة خاصة سرعنها من بخارة، وتصادق أدوائر الحكومة على ذلك. ومنذ عام ١٨٨٥ م صار يعيه الشريف أو الوالي أو من هو أقوى منهما أما لأشراف فهم الذين تعود نسبهم إلى الخضر بن علي عليه السلام، وهم أسر فصل في أسماء أمردا وأسابهم هو حروب في كتابه صفحات من تاريخ مكة المكرمة، مؤرخ سابقاً، ج ٢، ص ٦٥١ - ٦٥٣

(٢) انظر رحلات بوركهارت، مؤرخ سابقاً، ص ٢١٢

كان وما زال لدى أشراف مكة المكرمة عادة أشرب إليها واحتصار فيما سبق، وهي تستحق أن أذكرها. كان كل الأطفال الذكور لبشرية لحاكم شرعون من أمهاتهم، ومن لين العيش بين النساء بعد ثمانية أيام من ولادتهم ويُعهد بهم إلى بعض قائل الصحراء المشهورة بعلو قدرها، ليأشأ بهم، وحسب عاداتهم؛ ولا يعود هؤلاء الأطفال إلى أسرهم، لا عندما يندعون بعائشهم أو اثنية عشرة، وعالاً بعد ذلك /١٦٧/ ولا يظهرون بين الناس للمرة الأولى إلا على متن الحبول إلى جانب آبائهم، وكأنهم رجال، لا أطفال. وينتج عن تلك التربية الرجولية ونظيريه أن لأشراف كانوا وما زالوا، متفويين أيضاً، قوة وشجاعة وصفاء قلب وعقل على نعمة الناس ويحفظ أولئك الأطفال إبان حياتهم كلها كثيراً من النود والاحترام لأسرهم التي شؤوا في كنفها، وهم ينادونهم بقولهم أبي وأمي وأخي، ويعدونهم هؤلاء بذلك أيضاً وهم بعصاوتهم دائماً على آباءهم لحققتهم الذين لا يعرفونهم، ولم يروهم أبدأ، ولا ينادون حياة المدينة إلا بصعوبة كبيرة؛ وكانوا يهربون في بعض الأحيان ليعودوا من جديد إلى المصارب التي شؤوا بها، ويترشح كثير منهم من بدويات. إن هذه العادة قديمة في شبه الجزيرة العربية، تعود إلى ما قبل الإسلام، ويروى أن النبي ﷺ تربي بهذه الطريقة في قبيلة بني سعد. وتتنازع هذه الطريقة بأنها تساعد الأشرف منذ نعومة أظفارهم على إنقاذ لغة الدر وعاداتهم؛ وتوجد بينهم علاقات تدوم طويلاً بين الأسر، وكانت فيما مضى يؤمن لمختلف الأطراف في مكة المكرمة أنصاراً شجعاناً ومخلصين^(١) لقد استطاعت بعض أسر لأشراف مع الزمن أن تنفوق على الأسر لأخرى بثرواتها، وعندها، وماصربها من أهل الصحراء وكان أقواهم إبان فترة طويلة أساء فتادة^(٢) /١٦٨/ الذين تنتمي إليهم أسرهم

(١) نظر رحلات بوركهات د. موشى سافا، ص ٢٠٩ - ٢١١

(٢) فتادة بن إدريس، يعود نسب إلى الحسن الثاني بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يرأس أسرة اسمرت طويلاً في بولتي معابد السلطنة، وذكر بوركهات أن الأسرة كانت مقيم في وادي العلفية الذي يكون جزءاً من بيع السجل، وتمكن من «

بركات^(١) لثي داخ صيتها في فلول البلاد وعرضها، لان أمر مكة المكرمة كانوا حلال عدد من القروى منها إن هذا المصعب يظل محصوراً في أسرة واحدة على ابرعم من أنه ليس وراثياً؛ ولقد كان للشريف على الدوام، ويسعى أن يكون الأمر كذلك اليوم، حبيفة، وهذا الحبيبة إن لم يكن ولده فهو على الأقل من أهله المقربين، ويكون الحلقة عادة من يتبع إلى الصوف الأقوى، الذي يحدده الرأي العام من بين كل الآخرين وعندما يولى الشريف المختار، رمام الأمور كائناً من كان، فإن السلطان يصادق على تعيينه دون عطاء، ويتفق من السلطان في كل عام حلقة ترسل له من إسطنبول مع لقمانجي باشي^(٢) وقد آل الأمر إلى أن أصبحت سلطنة الباب العالي على

- الأسبلة على جميع المناطق التي تقع جنوب يبع، وانوافة بانعة مكة المكرمة التي كان يربو إلى حلالها، ولم يقطع سوك هورخويه تحديد سنة دخوله مكة المكرمة وأورد ثلاث سواب ميلادية وهي ١٢٠١ أم ١٢٠٢ أم ١٢٠٣، ثم ذكر الأرمي في أخبار مكة المشرفة ٢/٢١٤ أن فتادة بن إدريس ولي مكة في سنة سبع وتسعين وخمسة مئة، وقيل إن ولاية مكة في سنة ثمان وسبعين، وقيل في سنة ثمان وسبعين قال مرجحاً كتاب هورخويه إن السواب الهجرية المذكورة في نص الأرمي تعادل السواب الميلادية التي ذكرها المؤلف وفي أخبار مكة المشرفة للأرمي ٣/١٨٣ وتمكن ليد فتادة من البلاد وذلك في سنة ٥٩٩ هـ واستمر فتادة في الحكم حتى قس في ظروف عامضة في عام ٦١٧ هـ انظر صفحات من تاريخ مكة المكرمة، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٧١ - ١٧٢ ومطبوعات المرجمين، وانظر ص ١٧٧ - ١٧٨ أيضاً وانظر رحلات بوركهات، موثق سابقاً، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(١) بركات بن حسن بن عجلان، حكم مكة بين عامي ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م - ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م تحديداً فتراب من الاعطاع، فاز بوزارة مكة حلالها بعض حو به انظر صفحات من تاريخ مكة المكرمة، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٩٩ ومطبوعات المرجمين في انحاشية وانظر رحلات بوركهات، موثق سابقاً، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) انظر رحلات بوركهات، موثق سابقاً، ص ٢٠١ وهو المسؤول الأول عن شراء الخلع أو القروى التي تشتري من حرية الدولة.

مكة المكرمة ومنحرفاتها، انطفت وبيع وبعض مدن الحجاز الأخرى، على استلام اللجنة النسوية، والدعاء للسلطان في الحرم خلال الصلوات العامة لقد كان هناك، كما هي الحال اليوم، ناشأ تركي في جدة، وكان سلطته كانت اسمية محضة، حتى أن أبا الشريف الأكبر ما قتل الأخير^(١) استولى لنفسه على عوائد لحدائق الموحدة في هذه المدينة (جدة) باسم السلطان ولجأه وقد حدث الشيء نفسه للقاضي الذي يسم إسماعيل سويلاً من إستانبول لإقامة المجلس، والذي أصبح يتقاضى أحراراً بلا عمل لأن القضاة كانوا تعرض على الشريف^(٢)

إن محكمته لأشرف؛ /١٦٩/ تنفق في أشغالها البسيطة مع طوائف الصحراء. فلم يكن هناك في أكثر الفترات ازدهاراً أي رحلات عامة لتتصب الأمير الجديد، ويقتصر الأمر على أن يستقبل لأسر الكبيرة التي تردده، والتي تكون عائلاً قد وقعت ضده، بينما تعرف فرقة موسيقية أمام بابها، كما هي العادة في بلاد إفريقيا، ويدعو له الحطباء في المساجد بخاطبه أفراد رعاياه منذ لحظة استلامه للشراف، وهو لقب احتفظ به الشريف الحاكم حتى اليوم، ويظنهم لاس أيضاً على كل الباشاوات؛ وعندما يجرح الشريف على حصانه، يكون إلى جانه فارس يحمل مظلة؛ وليس في ثيابه ما يميزه في شيء من بفيه رعماء أسير الأشراف، ومجسده حائلاً من كل علامات الأبهة والمهامة، ولم يكن هناك مراسم أو شكليات تفصله عن الشعب وكان لدواً وما رايوا، يدخلون إلى قصره كما يدخلون إلى حمة أي شح عادي من شيوخهم، ويحيطونه في أمورهم بكل حرمة، وبعبودية لا تكاد نجد لها إلا عند سكان الصحراء. وإن الشريف الأكبر أمر مكة المكرمة ليس في حقيقة الأمر إلا شيخ قبيلة أنوى من الشيوخ الآخرين، وإن سلطته، مع أنها أكثر اتساعاً من سلطتهم، لها الصفة نفسها، وتقوم على الأسس نفسها، وتنشأ عن المبادئ

(١) كما ربما كان المقصود الشريف غالب الذي تولى شرفه مكة في سنة ١٧٨٥ أو ١٧٨٦ م. انظر رحلات بوركهارت، مونيخ، ص ٥٢، ٥٣، ٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) انظر رحلات بوركهارت، مونيخ، ص ٢١٤.

منها والشريف عند نفسه ليس أقل قدراً من السلطان نفسه، ليس باعتبارها أميراً، وإنما باعتباره شريعياً؛ أي سليلاً مباشراً للسبي بَشَرَةً، وإن سلطته مع ذلك، ليست سلطة توفراطية كما / ١٧٠ / هو شائع في أوروبا، إنها سلطة دنيوية خاصة، تنهي عند باب المسجد، وليس لها أي تأثير في مجال العقيدة والعادة^(١)

ولا تقوم هذه الحكومة بالنظير على أي دستور، لأن له أساساً أكثر صلابة؛ فهي تصدر عن الشعب، وباعتبار أنها مشأب على هذه الأرض فإنها وطنة، ومساسنة كل الناس مع طوائف البد وآراء أهله، وهذا استمرار قروياً طويلاً لقد كانت بالتأكيد سبباً في ظهور كثير من لدائن، وكثير من انتجارات، ولكن أي حكومة يمكن القول إنها تحسن من كل ذلك؟ كان من النادر أن نترك لأسر الماسنة للأسرة الحاكمة الأمير الجديد بعلي منصبه دون مفاصته لعداءه، بل إن أغاربه المقربين يتحدون في بعض الأحيان مع أولئك المفاصين، ويقومون جميعاً، بعد تنصيب الشريف الجديد، بتشكيل معارضة تناسب مع قوتهم ولكن المهرومين يكفون في عائل الأحياء بالعيش معرلين، يبدون «سياءهم» من كل شيء على هواهم، دون أن يتعرضوا لأي اضطهاد

كانت الأشراف كلها تحوّل هذه الحروب الأهلية، وهي تحافظ على قدر كبير من الإنسابة والاستقامة، كما هي الحال في كل حروب الصحراء، ولم يكن يشع لصر أي مظهر من مظاهر الاندماج

إن طباع العرب رصينة، وشجى كرمهم المطري في كل شؤونهم العامة والخاصة ويمكن له الانقراض أن الأشراف من ذوي الحظوة، والذين يتقدمون لمناصبهم يكونوا على الدوام يحسنون التصرف بمحاصرتهم المالية، وأن الأهواء الشخصية كانت تؤدي دوراً / ١٧١ / في نصريف الأمور،

(١) انظر رحلات موركهارت، موقق سابقاً، ص ٢٠١ - ٢١٧، ونظر صفحات من تاريخ مكة المكرمة، موقق سابقاً، ج ١، ص ١٩٧ - ١٩٨

ونكس الأمور بهذا المنظور لم تكن تتم بشكل أكثر سوءاً مما كانت عليه في الأنظمة الملكية الأوروبية في العصر نفسه، ناهيك عن الملكيات الأخرى

لقد فقد دوي بركات هودهم في القرن الثامن عشر لميلادي، ووجدوا أنفسهم بعد بضل طويل محبوسين على التحدي عن الشرافة لذوي ريد^(١) الذين لم يتحلوا عنها حتى اليوم وقد هاجر بعض من ذوي بركات إلى اليمن، ونسرق الآخرون في أودية محتفنة من الحجار

نوس مساعد الشرافة لمدة عشرين عاماً من عام ١٧٥٠م إلى عام ١٧٧٠م، ومساعد هو جد آخر شريف، وأول أو واحد من أوائل أمراء السلالة الجديدة^(٢)، وكان عليه أن ياصل على الدوام، لمواجهة الاضطرابات التي بثرتها الأشراف الذين أكرستهم الاضطرابات السابقة طعناً متمرداً، ولكنه لم ينجح، لا فيما بدر بالتعلب عليهم، وألت انشرافة بعد موته، إلى حسين الذي كان أحد أقربائه، ولكنه كان في كل مناسبة أحد أشد مساوئيه وقد قتل حسين^(٣) في أثناء حرب ضد أحد أبناء مساعد واسمه سرور الذي حمله في الشرافة عام ١٧٧٣م يمكن مقارنة ما قام به سرور في الحجار بما قام به لويس

(١) الشريف ريد بن حسن بمودسه إلى محمد أبي بني حكم بين (١٠٤١ - ١٠٧٧ هـ / ١٦٣١ / ١٦٦٦ م)، ولد في الجنوب بوادي بينه، وأما من معظم شابه هناك، فقد كان أبوه يعيش في معاد الاحباري هناك كان داحم قوي يشبه القائد، وكان يرى أن انقذ به الأحببه عشب ضار، لا بد من استصاله، وكان بكوه الأبراء انظر صفحات من تاريخ مكة المكرمة، موضح سابقاً، ج ١، ص ٢٢٧ وما بعدها من ٢٣٥ وقد فقد دوي ريد اللطة في عام ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢ م واستعادوها في عام ١١٧٣ هـ / ١٧٦٠ م وطردها إلى الأبد دوي بركات عن المسرح السياسي وأشهر أشراف ذوي ريد هما سرور وعالم لنا مساعد انظر المسرح السابق، ج ١، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠

(٢) يعني ذوي ريد، انظر شجرة النسب الثالث في كتاب صفحات من تاريخ مكة المكرمة، موضح سابقاً، ج ٢، ص ٦٥٣

(٣) حكم حسين بعد موت مساعد (١٧٦٩ أو ١٧٧٠ م) إلى عام (١٧٧٣ أو ١٧٧٤ م) وقتل حسين في أثناء حرب نشبت بينه وبين الشريف سرور بن مساعد

لخادي عشر^(١) Louis XI أو ريشليو^(٢) Richelieu في فرنسا. لقد حطم سرور
صلاقة الأشراف، وفي بعض الأحيان رؤوسهم، وجعلهم يعيشون كبقية
الناس. وكان بعد جرّاهم على التمرد الدائم والضعف، أنهم كانوا متأكدين من
أنهم لن يعاقبوا عليه، لقد كانوا يشعرون سبب ضعف بعض الأمراء، أنهم
فوق المتواضعين، وأصبح يهزأ بهم بلا حدود. لقد أوحّدوا لأنفسهم / ١٧٢ /
موارد مادية جديدة، لم تكن مألوفة في مكة المكرمة، وادّعى بغير وجه حق
أنهم حقوقاً مبالغاً فيها، مما شكّل عبأً على السكان، بحيث عن أنهم كانوا
يسبّون منهم أموراً لا طائله، وكذلك من الحجاج لأجانب، ولم يكن لديهم أي
وَدَع يمتنعهم من سلب المواصلات، كما كان البلاء الأوروبيون يسبون التجار
والمسافرين في الممرات الوسطى. كانوا شأنهم شأن بلاء أوروبا، يمتلكون
في مسارهم التي تحولت إلى قلاع، حاميات عسكرية مزلفة في معظمها من
العبيد السود المدحجين بالسلاح، يدعمهم البدو المحلصون لأسرتهم. لقد
قصى سرور على دهر العساة المشترى، الذي يهدف العدالة، ويعارض
مبادرة ووقف لأشراف في وجهه بالقوة، ولكنهم هُزموا هذه المرة. فقتل
أشراف كثيرون في الحرب، بينما تم إعدام آخرين، وحلّ الأحرار، وحل
لنظام ولسكييه في المدينة، بعد خروجهم منها. لقد نجح سرور في مشروع
لضعف بمصل حيوية صعبة، ومساعدة سواد الناس من أهل مكة مدّين كدو
بان مرة ضريبة مصصهدين نظام الأشراف الإقطاعي الذي لا يعرف عدل حد^(٣)

(١) لويس الخادي عشر (١٥٦٣ - ١٦٤٣) ملك فرنسا من عام (١٦١١ - ١٦٤٣ م)

عمل على تقوية فرنسا وموحدها بعد حرب الأعوام الستة

(٢) Richelieu, Armand Jean-du Plessis ريشليو، أرماني جان دو بليس (١٥٨٥ -

١٦٤٢ م) كاردينال وسياسي فرنسي كبير وررررر لويس الثالث عشر، وادّحكم

الصفلي لفرنسا (١٦٢٤ - ١٦٤٢ م)

(٣) انظر رحلات بوركهاردت ١، موش سابقاً، ص ٢٠٤ - ٢٠٥. وقد حكم الشريف

سرور من (١٧٧٣ - ١٧٨٨ م) / ١١٨٦ - ١٢٠٢ هـ. ان عالب فحكم من (١٧٨٨ -

١٨١٣ م) / ١٢٠٢ - ١٢٢٨ هـ. انظر صفحات من تاريخ مكة المكرمة، مرفق -

لقد ظل سرور حتى نهاية حياته، يتمتع شعبية يستحقها، بفضل ما كان يتمتع به من مربية انفرادية. كان في غاية الاعتدال، وكان يعيش بساطة شأنه شأن أي إنسان عادي. كان من الشجعان المحترمين، وكان كريماً يعطي بلا حدود، وكان يعدل بين الناس دون /١٧٣/ تميز، وبحكمه صار مصير الأثام. ومع أنه كان قساً في أفعاله خلال فترة حكمه، فإنه كان كريماً حتى مع أعدائه الشخصيين. يقال إنه اكتشف مرة مؤامرة لاعتقاله في أثناء طوفه الليلي في شوارع مكة المكرمة؛ فأكفى سعي المتآمرين. فقد نظم سواحي المالكة، وألقى كل انصرث لعشوائية. وكان يمول من حصده لحاص حامية كثيرة العدد مؤلفة من البدو والعبد الأفارقة أو الأحاش الذين كانوا يعملون باستمرار في خدمته. وأقصى اليهود عن حدة بعد أن أصبحوا مكروهين بسبب عشيهم وحد عنهم، ولقد حلف موته حرباً شاملاً، إذ شيعته مكة المكرمة كلها إلى مثواه الأخير، وما زال أهلها يُحفلون ذكره، وكأنه أحد أولياء الله الصالحين^(١).

ظل سرور في الحكم أربع عشرة سنة. ومع أنه حلف ودين؛ كلاهما يصبح بحالته، كان أحدهما عبد الله، شجاعاً حتى التهور، دون أحد أعمامه عبد المعين استولى على السلطة، ولكنه فقد في غضون بضعة أيام، واستولى عليها غالب؛ وهو أخ آخر لسرور، أصغر من عبد المعين، كان مدبراً طويلاً يتمتع بشعبية كبيرة بسبب ما عرف عنه من شجاعة، وقدرة على الإقناع، وأساليب معرية. كان صريحاً، وكان له على غير عادة العرب شهية مناسبة مع قامة. فقد كان يشرب كل صباح في عطوره دلواً من الحليب، /١٧٤/ ولم يكن يشعر بأثره أمام خروف كامل. كان ذا صوت جهوري، وبارعاً في أنواع انقوة الجسدية، حتى به كان يقدف الجريفة بمهارة وقوة على نظيرهما. وكان يُعد من ذوي المعرفة، وله معرفة بالطب، ولكن ذلك كله لم يرفع من شأنه لدى البدو. وقد أكد لي الأشخاص الذين عرفوه، أنهم لم يروا أداً هيثة

= سابقاً ج ١، ص ٢٥١.

(١) انظر رحلات بوركهارت، موثق سابقاً، ص ٢٠٥.

تصح بالدكة والروحية كهيته أوتي قدرأ مشاوباً من العطة والفصاحة، وقد كان من لصعوبة بمكان مقاومته، عندما كانت مصلحته تقتضي أن يمارس الإعراب.

لقد كان أقل الأشراف - الامراء الذين حكموا الحجاز حتى اليوم حصوماً، ولا شبيه له في ذلك، وكان أكثرهم رسوخاً، وحرماً، وجساً هائلاً ثمر الإدارة السارعة والحده التي اتبعها أخوه سرور؛ لقد كان أكثر خطأ من سابقه إذ سم يواحه براعات حادة مع الأشراف إبان العشرين سنة التي حكم خلالها، واستغل سادماً على الثبات العالي؛ فقد استولى، كما ذكرت سابقاً، على وردات جمارك حده، أي كان يبيع أن يسميها مع السلطان، قد وردات جمارك يبيع فكانت حصه وحده، وكان يرسل إلى تلك المدينة لجمع ثلث لأموال حاكم يجمع عليه ثقتاً طامناً هو التوزيع

وكان القسم الأعظم من موارد باقي من هذين المصدرين وكان، بحيث عن ذلك، يعرض صرية على المؤن المتجلونه من الماضق المدخلية إلى حدة، / ١٧٥ / وعلى المواشي أيضاً ولم يكن يعرض على سكان المدن التي يسيطر عليها أي صر أخرى، لا على أملاكهم، ولا على أنفسهم، وإن سورية ومصر سم تنمعا مثل هذا الأميار انصريني أما الاحتجاج الفرس لشيعه فقد كانوا يخضعون لصرية رأس كانت مايطع تذهب إلى حربة لشريف عاب، رد على ذلك الهداب القيمة التي تقدم له، بحيث عن أن الهداب التي كانت محصصة لمد حد لم تكرر نصل إلى وجهها إلا بعد أن يأخذ منها جزءاً كبيراً، وكانت المبالغ المرسلة من إستابول لمكة والمسجد الحرام يظل معظمها تحت تصرفه.

كان سرور يعمل في التجارة، وكان يتحر كثيراً مع اليمس، أما عاب فقد كان له تجارة أكبر أيضاً مع بلاد مختلفة، وخصوصاً مع بوماي، كان يكدس في مخاربه، باعده تجراً ومالكاً، من البصائع والمؤن ما يكفي لرفع الأسعار، فيحقق أرباحاً ضخمة، دون أن يرى في ذلك صرباً من الاحتكار، شأنه في ذلك شأن باشا مصر

كان غالب سجيناً لا يفكر إلا في زيادة ثروته، وكانت كل الوسائل تدور
 به موتية سلوع ذلك، فقد كان الحانجون، حتى المحرمون يشتررون حينئذ
 بمبالغ كبيرة يدفعونها له بعداً، وكان يعرض على أسط المحالقات عرصات
 كبيرة، وقد كتب لدماء لم ترق خلال فترة حكمه، فإيا لا يستطيع قول الشيء
 منه / ١٧٦ / عن الذهب الذي كان يتدفق إلى حوائثه من كل اتجاه وبكل
 الوسائل

وقد سمعت الناس يقولون عوائده ٦ أو ٧ مليون فرنك، ولم يكن يفتقر
 منها على بيته إلا خمس مئة ألف. لقد كان يمول جيشاً دائماً يبلغ عدده أربع أو
 خمس مئة من العبيد الذين تم احتيازهم من بين عبيده أنفسهم، ومن أبدا
 لديهم يتم تطويع عائلهم في نجد وفي اليمن وفي حال عسير. وكان يفقد هذه
 الجيش عدد من الأشراف، وبمسكر في مكة المكرمة، وفي جدة، وفي مدن
 الحجاز الأخرى

وكان هذا لعدد يزداد في أيام الحرب، يقوم مشايخ الصحراء الذين
 كان عليهم وعلى قبائلهم أداء الخدمة العسكرية للأمير مكة المكرمة، كما كان
 يفعل ذلك المظطعون^(١) Vassaux في العيون الوسطى تجاه سيادتهم
 الإقطاعيين. لم يكن لهم مرتبات محددة، ولكن الأمير كان يقيهم في خدمته
 بتقدير الهدايا، وكان يترك لهم نصيباً من غنائم الحرب. وكان يملك الطريقة
 نفسها مع الأشراف الآخرين الذين يصمون إليه، ولديهم كان عددهم كبيراً،
 وقد كان بذلك لا يرقى ميزان

بعد رخ عاتق منه في حرب الوهابيين؛ وانضوى تحت لوائه في بعض
 الأحيان ما يقارب عشرة آلاف رجل؛ وهي قوة ضخمة بالنسبة إلى البلد. كان
 جنود المشاة مسيحيين سادق الفسلة^(٢) Mosquets، وبالبحارة، أما العرسان

(١) Le Vassaux المظطعون؛ هم أشخاص كان السيد الإقطاعي يعطيهم أرضاً لهم
 بمقتضى تقديم الخدمات له. (عن المنهل)

(٢) Mosquets ينادى الفسلة (وهي سادق من نوع قديم كانت تطلق بصفة ملتهبة) (عن
 المنهل)، وانظر: رحلات يوركنهارت، موثق سابقاً، ص ٢٠٧

فقد كانوا يفتقدون الرماح ولم يكن هناك أي نظام تشعه تلك لموات التي يتم
 تشكيلها بطريقة ارتجالية. وعندما تنتهي الحملة العسكرية بأيدي كل واحد
 / ١٧٧ / إلى حيمته، ويظل هناك حتى حصول حمته جديدة من لمعترض أن
 بلشريف - الأمير سطه على كل القبائل المنتشرة في صحراء الحجاز، ولكنه لا
 يمارس على تلك القبائل إلا سلطة أديبه، مع أنها تعد حاصصة لسلطته، وليس
 لذلك أي ديمون محدد. ولما كان بين القبائل منافسات مستمرة، فإن الشريف -
 الأمير كان يستخدم هذا الأمر للحفاظ على سطته، مستفيداً من خلافاتهم،
 وداعماً بالناسوت، وحسب لمصلحة في تلك الفترة، هذه القبيلة أو تلك

فقد كانت سياسة الإشراف على الدوم تقوم على مداومة الدوم بكس
 ودهم، إنه لحكم البطيركي بالمعنى الحقيقي للكلمة، كما كان سائد في
 المجتمعات البدائية.

لم يحرج غالب عن هذا التقليد، واتخذ من هذه السياسة أساساً لحكمه
 فقد شأ بين الدوم، شأنه شأن أساء الإشراف كلهم، وكان يدي اهتماماً دقيقاً
 بأسرته التي شأ عندها، وكان يعاملهم على رؤوس الأشهاد، باحترام فائق
 وكان الدوم جميعاً، كنناً من كنوا، يجدون فيه استقلالاً لطيفاً، وكانوا يرلون
 في قصره كما يرلون في الصدق أو الحان، يسكنون، وبأكلون، ويعيشون على
 هوههم، وعندما يعرعون على معاديه مرله، كان يأمر بأن يحلأ عرارانهم
 بالمؤن اللازمة للعودة / ١٧٨ / كان حكم غالب معتدلاً وشمولاً، ولم تكن
 به قسوة سرور، ولكنه لم يكن يديه في إقامة العدل فقد كان غالب يظنه
 معتدلاً، وكان يتجور بسهولة عن الأخطاء، ولم يكن يصطهد أحداً، حتى
 أعداءه المعلمين الذين كانوا يقيمون بسلام في مكة المكرمة دون أن يرعجهم
 بشيء. ولم يكن يورع عن ابتزاز أموال أهل مكة، إلا أنه كان يحفظ عليهم
 أعتهم أي لم تكن أمراً هيئاً، وكانت إهاناته تنصب على الجماعة، ويدرأ على
 الأفراد. كانت عامة الشعب تتمتع بحرية تصل في غالب الأحيان حد
 الموصى، وحتى إن المشاجرات بالعصي بين الأحياء كانت تستمر عدة أسابيع
 دون أن تتدخل الشرطة. لقد كان غالب، على الرغم مما يقوم به من إرار،

محبوباً من أولئك الذين لم يكن لديهم ما يحسرونه، وقد أسف عليه الناس كثيراً.

لقد تولى السلطة^(١) في ١٧٨٦م واحتفظ بها عاماً ما يقارب خمسة عشر عاماً، وكان يمكن أن يحتفظ بها طوال حياته لو لم تقع أحداث عبر صوفية وضعت حداً لحياته السياسية، وأسدت عليه آخر أيامه في السلطة أفعد بذلك ظهور الوهابيين ودحولهم الحجاز

يرجع ظهور الوهابية^(٢) إلى منتصف القرن /١٧٩/ الهادي (الثامن عشر)، ومؤسسها هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب^(٣) وهو عربي من نجد،

(١) في أغلب المصادر به تولى سنة ١٢٠٢ هـ /١٧٨٧ م انظر صفحات من تاريخ مكة المكرمة، مؤرخ سابقاً، ج ١، ص ٢٤١، وانظر أحمد ربي دحلان خلاصة الكلام، مؤرخ سابقاً، ص ٢٧٨ وخالد حبره قلب جزيرة العرب، ص ٣٢١ - ٣٢٢، واس بشر عوار المسجد ١/٣٢٨ - ١٢٨٣ وحاشية مرخمي رحلات بوركهارت، مؤرخ سابقاً، ص ٢٣

(٢) يبدو ان ديديه محمد اعتماداً أساساً على ما ذكره بوركهارت في كتابه ملاحظات عن البدو الوهابيين Notes On The Bedouins and Wahabys, London: 1831 وقد ترجم قسماً من هذا الكتاب للدكتور عبد الله صالح العثيمين، وشوه عنوان مواد لتاريخ الوهابيين، ج ٢، ارباص، ١٢١٢ هـ /١٩٩١ م، ويكرر ديديه بعض الأخطاء التي وقع فيها بوركهارت وشاء إليها الدكتور العثيمين وسير فيها بدوره معتمدين على ما ذكره الدكتور العثيمين في حواشيه، مصعب في ذلك ما يحتاجه مؤرخ مص ديديه (وسشير في كتاب بوركهارت الذي ترجمه سابقاً له الدكتور العثيمين بمواد...).

(٣) قال الدكتور العثيمين في مواد لتاريخ الوهابيين، مؤرخ سابقاً، ص ٩، لحاشية

(٢) "المصحيح ان اسمه محمد بن عبد الوهاب وكان سور ول أوروبي تكلم عن الشيخ وسماه خطأ عبد الوهاب انظر كتابه Travels Through Arabia And Other Countries in The East, Translated into English by R. Heron, Edinburgh. 1792

Vol. II. p 131 ولعن بوركهارت نقل اسم الشيخ عن بيور وما ان اسم الشيخ

محمد بعد أورد صحيحاً في الترجمة ايما ذكره راحول ثم جاء ديديه على عن =

رجل عدم حليل، نحول في أنحاء الإمبراطورية المحلية^(١)، وخرّب لما راه من
 عساد عقيدة المسلمين، ولما لاحظته من معاند أفرحت ضمن لعبادة،
 وخصوصاً لدى الأمراء وقرر حيث أن يقوم بإصلاح ديني عرض مسوعاته في
 عدد من كه فقد اتحد من القرآن الكريم وحده أساساً لإصلاحه بعض أسطر
 من كل الشروح، وكل البدع التي تشوه في نظره صفاء الفطرة الأولى، ثم بدأ
 يدعو إلى العودة بالإسلام إلى مبادئه الأصلية، وإلى الإيمان بالوحدة المطلقة
 لله عز وجل وكان مطلقاً من ذلك يحرم أن ينظر إلى النبي ﷺ بأي صفة
 أخرى عدا أنه إنسان، وأنه لا يسمي تقديسه ولا التوسل إليه مباشرة وأنظر
 عادة الأتباع التي كتبت أهمية كبرى في كل الأدیان، وأعلن أن البركة
 والعدل وجمال ضروريان شأنهما شأن الصلاة، ونهى عن اتباع البدع التي رافها
 سائدة لدى العثمانيين، وأوصى بالورع والتقشف مستخدماً في لدعوة بقوة
 التي سمحه إياها سطحه على الأوضاع، وقد بلغ به الشدد أنه حرم على أتباعه
 المتدخين^(٢)

• بوركهارب اسم الشيخ خطأ، وهذا ما يرجح أنه يمثل عنه نظر معدم لهذه
 الترجمة

(١) في مواد، م وثق سابقاً، ص ٩ - ١٠ . وأر عدة مدارس في مدن الشرق
 الرئيسية، كما هي عادة أهل بلدته حتى الآن . وأعلى المذكور لعثمانيين في ص
 (١٠) الحاشية (٢) «أول من أشار إلى سفر الشيخ لي عده بذلك مهمة في الشرق»
 حاصلة بلاد فارس، هو سبور . انظر كتابه المذكور سابقاً، ج ٢، ص ١٣٢ والمرجح
 أن الشيخ لم يسافر إلا إلى الجهات التي ذكرها أفاربه وبلاطه وهي السجستان
 والأحساء والهرمز

(٢) ذكر الدكتور العثمانيين في مواد، م وثق سابقاً، ص ٢٥، الحاشية (١) «حرم اتباع
 الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعي النع على أساسه أحدهما أنه سكر، حاصه
 إذ دخل بعد فترة طويلة من الامناع عن تدخينه، وثانيهما أنه يسبب والحة حبيته،
 وانجبات محرمة من المراد الكريم» انظر مجموعة الرسائل والمسائل المحمدية،
 القاهرة، ١٣٤٦ هـ، ج ١، ص ٦٥٢ . وانظر الحركة الوهابية في صيوان الرحالة
 الأجانب، بقلم لي ديفيد كوبر، وجورج ريسر، ترجمه وتعليق آ د عبد الله بن ناصر =

ويمكن مقارنة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالمصالحين الذين ظهوروا في أوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لقد كان يجمع بين صفات /١٨٠/ كـ Calvin و سافونارولا^(٢) Savonarola

بن محمد بن عبد الوهاب لم يؤسس، مهما قال عنه أعداؤه، لا مذهباً جديداً، ولا عادة جديدة، ولكنه دعا إلى أن يعود ذلك كله على القرآن، كما كان لوثر^(٣) Luther وهوس^(٤) Huss بدعوان إلى الاعتماد على الكتاب المقدس وليس بمستغرب أن دعوته إلى الأصالة لم تحبب الأتراك الذين كانوا يراقبونه، وكانوا لا يهون يتبعون استراتيجية تشويه مذهبهم لكي يتمكنوا من الافتراء عليه.

ولما استغنى ناش مصر علماءها رأيهم في الدعوة الوهابية أقرروا أنها دعوة مبية، وأصافوا أنه إذا كان ما عرّض عليهم هو حقيقة الوهابية فهم أنفسهم وهابيون^(٥) ومهم يكن من أمر فإن المصلح العربي، لم يلق إلا نجاحاً سطلاً في دعوته إبان حياته؛ لأن الشرق أكثر تردداً من الغرب أيضاً في وجه الإصلاحات ولما أنجز أسفاره، وعزم على العودة إلى وطنه، استقر مع أسرته

الوهابية، د. ن. الريس ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م، ص ٥٦، ٩٥ "وشرح إليه ب الحركة الوهابية في حيون...".

(١) جون كالفن John Calvin، لاهوتي فرنسي، مؤسس المذهب الكالفي شرراية الإصلاح البروتستانتي في فرنسا ثم في سويسرا عاش بين عهدي ١٥٠٩ م - ١٥٦٤ م

(٢) جيرولامو سافونارولا Girolamo Savonarola (١٤٥٢ - ١٤٩٨ م) راهب ومصلح ديني إيطالي شن حملته على الفساد الأخلاقي الذي عرفته الكنيسة في عصره

(٣) مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣ م - ١٥٤٦ م) راهب ألماني زعيم حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا.

(٤) جون هوس John Huss (١٣٧٣ - ١٤١٥) مصلح ديني تشيكي زعيم بالهرطقة فأعدم حرقاً

(٥) دارن بما يذكره بوركهارت في مواد لتاريخ الوهابيين، موضحاً، ص ٢٢ - ٢٤، وانظر الحركة الوهابية في حيون ، موضحاً، ص ٩٦ - ٩٧

في إحدى مدن نجد المسماة الدرعية التي أصبحت عاصمة الإصلاح في الإسلام وكان أهم شخصيات هذه المدينة حيث هو محمد بن سعود الذي تزوج ابنة الشيخ واتبع دعوته^(١)

وكان محمد بن سعود الذي اتحد لقب الأمير، أول أتباع الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، وكان مؤسس الإصلاح السياسي، بينما كان والد روحته مؤسس الإصلاح الديني وقد حلف محمد بن سعود على الإمارة لمتابعة الرسالة، به عند تحرير الذي عرس في عام ١٨٠٣م، ثم خلفه سعود بن عبد العزير^(٢) وحفيد محمد بن سعود الذي شهدت في عهده الدعوة الوهابية التي اتبعها جده انتشاراً واسعاً.

إن السلطة الدينية في الإسلام، مرتبطة بإحكام بالسلطة الروحية، حتى إنه / ١٨١ / لا يمكن انفصل بينهما فليس القرآن كتاباً ديباً فقط، بل هو أيضاً شريعة سياسية، ومدينة تنظم علاقات البشر كلهم، وتستخدم أساساً للمجتمع، ولآيائه كلها فالعدالة، والقصاص، والرواح، والإرث تستمد كلها أحكامها

(١) قال الدكتور العنبر في موكب لتاريخ الوهابيين، موضح سابقاً، ص ١٠ الحاشية (٥) اسم تذكر المصادر المعروفة من الشيخ روح محمد بن سعود بأنه الشيخ محمد ومن المعروف أن الشيخ قد روج عنه الأمير عثمان بن معمر، والد عبد العزير بن محمد بن سعود قد روج عنه الأمير عثمان^(١) وذكر في الحاشية (١) من الصفحة نفسها أنه «من المعلوم أن دعوة الشيخ محمد لقب فولا لدى بعض السجديين وهو في بلدة حريملاء وكان أول من أيده من أمراء نجد عثمان بن معمر، أمير المدينة لكن رعيم بن حاتم، حاكم الأحساء الذي كان به سعود على عثمان ضغط عليه، فاضطر الشيخ إلى الانتقال من العيينة إلى الدرعية حيث قام معه الأمير محمد بن سعود وأيده انظر تفاصيل ذلك في كتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب حياته وفكره لعدد الله الميثمين، دار العلوم بالرياض، ١٣٩٩ هـ، ص ٤١ - ٥٠

(٢) ولد سعود سنة ١١٦٠ هـ ويوفي سنة ١٢٢٩ هـ / ١٨١٤ م وسلك كان عمره ثمانية وسين عاماً حسب التاريخ الهجري انظر عنوان المجلد، طعة ودره المعروف بالأولى، ١٣٨٧ هـ، ج ١، ص ٣٠ و ١٧٤ عن حاشية مواد موثق سابقاً، ص ٣١، حاشية (٢)

من القرآن، ويكاد كل شيء يكون محدداً بالمبادئ الإلهية ولا يستطيع تعديل أي مادة دون أن تهدم بذلك الصرح كله.

لقد كان الوهابيون، وسعود على رأسهم، يأملون، وهم يدعون إلى العودة إلى المفهوم الأصلي للإسلام، وإلى جوهر الشريعة الإسلامية، كانوا يأملون، وقد حققوا ذلك، بأن يقيموا في الجزيرة العربية دولة تترك لكل قسلة حرية حركتها، وحياتها الفردية، وتتوحد جميعاً تحت سلطة عليا لشريعة مشتركة مصدرها القرآن، أي الدات الإلهية نفسها لتنتقل من العوصى إلى «الظلم»، ويسمي على الفرد أن يصوي تحت لواء المصلحة العامة أما لخصومات الخاصة التي كان حلها مبركاً للمصادمات الدموية السائقة عن قتال يتجدد باستمرار، فقد أصبحت اليوم تعرض على محكمة عليا، ليس لها أي مصلحة في المعايير المتعارف عليها، وكانت كل أوامر الله عز وجل، عبادة الله، والله وحده، والركاة، وصوامه الطائعات، وساطة الثياب، كل ذلك، كان يطبق دون أي تهاون.

كان عدد كبير من البدو، يعيشون في جهل مطلق بأبسط المعاهيم الأولية ١٨٢٠ / بشريعة الإسلامية، مع أنهم ولدوا قريبين كل العرب من مهد النبي محمد ﷺ، وكانت عبادتهم تكاد تقتصر على التكرار الآلي والدوري للنصيحة التي تلخص شريعة الإسلام «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وكانوا يحفلون كل شيء غيرها. أما أولئك الذين كانوا يعرفون أكثر من ذلك بقليل، فإنهم لم يكونوا يطقون أي شعارات دينية، فإن مصيحتهم بالوصوء أجابوا أنه لم يعد لديهم ماء للقيام بذلك، وإن حدثتهم عن وجوب صيام رمضان، فإنهم يعفون أنفسهم من ذلك قائلين إنه ليس من الضروري فعل ذلك، لأنهم يصومون طوال السنة ولم يكونوا أكثر حماسة للصلاة وإن قلت لهم إن الله عز وجل قد أمر بها يحيون «إننا لم نسمع ذلك»، وإن أضفت قائلاً إن أوامر الله عز وجل محفوظة في القرآن الكريم، رقبوا عليك بالقول أنهم لا يحسنون القراءة إذاً بعد كان شأن دين أكثر أساس جهلاً، شأن دين أولئك الذين هم أكثر اطلاعاً إذ يقتصر على التأله انعامص دون عقائد ولا عبادات بر إن

عدداً كبيراً منهم، لم يكن يمثلك ما يكفي من الوعي؛ فكان بقصي حياته في شرك عميم^(١).

وما زال في الجزيرة العربية حتى اليوم، بعض من يجاهرون بكفرهم، ولم أعرف السب الذي يدعو الناس هنا إلى تسميتهم بالماسويين^(٢) - Francis-Maons

تقدم الوهابية لدى معاهيم أكثر صحة عن الألوهية، وعن مصير الإنسان على هذه الأرض، وعن واجبات الإنسان تجاه الإنسان. لقد فتحت أذهانهم على أفكار أكثر نبلاً، وقلوبهم على خلق أكثر سمواً، وعلمتهم / ١٨٣ / احرام منكبه الآخر، وامسأصبت عادة السرفة، وأصحب الصحراء أكثر أمناً من أكثر المدن حراسة، لقد حاربت العنف في الإطلاق، وحدثت من عادة الثأر، إن سم نستطيع العصاة عليها تماماً، وقد كان الثأر هو القانون العام لدى لدو، سويرثون العداوة بسبه كامر' عن كابر وأنطت بعض لعادات بقرية التي تشيع بين بعض القبائل، والتي تعاقب الشريعة السماوية، بقدر ما تحالف القويين الإنسانية [] ولكن كل ذلك يوارى تماماً بعض الدعوة الوهابية

لقد صنف سعود لتعليم العرب كتاباً في العقيدة كان يُدرس في المدارس^(٣)، ويصح في كل سطر من سطوره بروحية خيصة، وسمو في

(١) انظر ما يقوله الدكتور عبد الله العيسى في كتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب حياته وفكره، الرياض، دار العلوم، ١٤٠٦ هـ.

(٢) لم أجد هذا في مكان آخر. وسحدث ميرتون في رحلته، موثق سابقاً، ج ١، ص ٨ ١٩ عن وجود بعض الوثنيين في الجزيرة العربية وذكر ذلك لويس بي في رحلته ص ٤٦ - ٤٧ وذلك في عام ١٨٦٥ م

(٣) لم يؤلف سعود أي كتاب، وإنما أمر بأن يورد عن أهل مكة بعد دخوله إليها رسالة لأصول الثلاثة، وهي معرفة العبد ربه وربه محمد ﷺ ومدة إرساله من تأليف الشيخ محمد المطبوعة مرات عديدة وقد أورد بوركهريز ترجمة لها حملها من ملاحق كتابه انظر مؤلف، موثق سابقاً، ص ١٧ (المعانيه)

المشاعر يختلف كل الاختلاف عن المادية المظنة التي يعمس الأتراك فيها إن ما يميز انوهابية، ويوضح مبادئها الحقيقية كما يبدو ذلك في الكتب الأساسية التي تشرحها، يقوم على عدم الاهتمام بالمظاهر الخارجية، وبد الممارسات الحرفية كلها وقد كان النبي ﷺ نفسه مداحاً يحظر الحرفيات على شعب بمثلث محلة حصنة، وبارع في / ١٨٤ / من الحياة في كل شيء، لذلك حرم عليهم تحريماً قاطعاً كل أنواع الصور، خوفاً من أن تكون من يمررون منه إلى الشرك ولم يأت الوهابيون في هذا المحال، وفي كل المحالات الأخرى بجديد، بل أنهم الرمو بأفكار النبي ﷺ وتوجيهاته الجدية، ولهد است كانوا يهدمون انقياد التقدم على أصرحه الأرياء بحماسة فائقة، ويقولون إن الله هي من صلات لمعابد، وإن عديس أي إنسان، مهما كان قلوبه وكرامته، يوقع في المحرمات، والقدسية ميرة الفرد بها الله تعالى وحده

كان سعود يسكن الدرعية مع عائلته الكبيرة جداً، ولتماسكة، وكان من هناك يحكم القبائل المحاصره لسلطنته لقد كانت سلطنته تشبه كثير من الاعصارات سلطه الشريف - الأمير في مكة المكرمة إلا أنها كانت سواء في جانبها الديني أم الروحي، أكثر متانة وحرماً ومهابة كان يهي نطقه، د صوت رحيم من جعل العرب يقولون إن كلماته كلها تصل إلى القلب كان متوافقاً مع مذهبه، بطق كل مبادئه وكان هو وعائلته وأتباعه يلبسون عباة بسيطة من الصوف لا يدخل في حبكتها أي حيط حرير، كان مثلاً يحتذى في إيتاء الفضائل، ولم يكن يسمح لأي امرأة من أسرته أن تلبس أي قطعة من حنّ، مهما صغر، وكان أتباعه يفعلون مثل ذلك لزماً / ١٨٥ / بنص لقرآن الكريم^١ وكان في كل مساء يقيم الصلاة في أهل بيته، كما تفعل كثير من العائلات البروسنتانية في أوروبا وكانت الحيل أعظم متعة يروّج بها عن

(١) هذه اشارة لسبب صحيحة لا شرعاً ولا تاريخياً، إذ سم يسمح للمرأة من الكريم النساء من لبس الخلي، وإنما مع الشرح بها لغير المحرم. كما أن الإمام سعود وغيره من قادة الدولة السعودية وعلمائها لم يمتنعوا سداهم ولا سدا غيرهم من لبس الخلي، ولم يمتنعوا إلا عن لبس الحرير والذهب للرجال فقط.

نفسه؛ فقد كان يملك ألهي رأس من احيل الأصبنة الباهرة الأساب في بحد، وكان ثمن بعضها باهظاً؛ شأن تلك الفرس التي دمع ثمنها ما يقارب ١٥ ألف دربك، وكان لديه أيضاً كثير من الإبل النجبة التي تتمتع بسرعة عجيبة^(١)

وكان من اسير على كل الناس أن يدخلوا عليه، وكان يته على الدوام يعج ماشيوج، والندو العاديين، الذين يأتون إليه يستشيرونه في أمورهم، يأكلون كما لو أنهم في بيوتهم، وكان الجميع، حتى أفقرهم حالاً، يحدثونه بحرية لا تتجاوز حدود اللياقة، وبحيوة باسمه، ويأخذون يده، ويطلقون عليه لقب «أبو شوارب»^(٢)، لأن له شاربين كبيرين كان لطيفاً في تصرفاته، ويرغب في أن يظل الناس جالسين عندما يظهر إليهم وكان متأ في الصبح، ماهرأ وحارماً في نصريف الأمور، وكان يقيم العدل بين الناس بتحرر وموضوعية، لا يعرف لاسحبار إليهما سيلاً. ومع ذلك فإنه ددراً ما كان يصدر حكماً بالإعدام وكان هناك عموية يحشها المجرمون أكثر من الموت وهي أن يأمر الرعيم الوهابي بحلق لحاهم

كان، وهو انصافق الوفي بوعد، ينفقت الكذب، ويأمر في بعض الأحيان بجلد انكاديين؛ ولكنه كان يرعب /١٨٦/ في أن يادر الحاضرون إلى تهدئة روعه عندما يأخذه العصب، وكان يشكر ذلك لمن يقوم به كان نصيحاً وممسكاً من التراث الإسلامي، شأنه شأن صموة العلماء، ويحب الخوص في نقاشات ديبه، ويدافع عن رأيه بحماسة، ويسمح لحصومه بالقيام بالشئ نفسه، وكان عندما ينتهي النقاش يحتمه بجملة جوهريه «الله أعصم» ويعلم الحاضرون عادة أن هذه الجملة إيذان بإنتهاء الحوار [. .]

(١) انظر مواد، موثق سابقاً، ص ٣٧-٣٨ وينظر لذكور العيسين عن ابن مشر قوله في عنوان المحدث، ج ١، ص ٢٣١ «إن سعوداً ملك من احيل العساق ألفاً وأربع مئة فرس»

(٢) انظر مواد، موثق سابقاً، ص ٣٦، يقول د وكانت لحبه أطول مما شاهد بين الشو بصفة عامة، كما كان الشعر الذي حول فمه كثير مدحجة أن اسمه لدى أهل الدرعية «أبو الشوارب».

ولم يتردد سعود عن الاعتراف في مهامه حكمه أن سوء الحظ الذي أصاب
 انوحيين كان سبب أخطائه^(١) كان سعود مصدر السلطات كلها؛ إذ جمعها
 في يده، ولم يكن في زمن السلم يشير إلا صهوة العلماء الذين يتمتعون حصراً
 إلى أسرة مؤسس المذهب الشيعي محمد بن عبد الوهاب كان سعود يُعين
 امشايح الكبار، وكان لهم على الآخرين سلطة لم يكونوا أبدًا يسمعون في
 استحد منها، لأن سعوداً كان حادقاً حاداً، ويعرف حتى المعرفة طيعة العرب
 فكان يداريهم، ولا يحاول حكمهم بطريقة استبدادية، لأن أي استبداد يثيرهم،
 وقد كان تجسيهم ذلك الشمس الذي يدفعه سعود لصمان سلطته عليهم كان
 يرسل إلى القبائل الحاضرة للسلطة قاصياً يدفع هو أحره، وكان مكلفاً بإقامة
 العدل باسم سعود، ويشدد عليه في الوصاية ألا يقلل أي أموال ولا راتب
 راحة أرثك العصاة مصرع المثل في الحرية العربية فقد كان / ١٨٧ /
 القانون انوحيد المسع هو لقرآن الذي يطلق بحذاميره بلا تأويل ولا تعسف

ويمكن الاعتراض على أحكام الماضي كلها لدى الأمير، وكذلك على
 كل أعمال الشيوخ، مما كان يسهم في جعل هؤلاء وأولئك يستفهمون في أداء
 واجباتهم، وفي التزام القانون

كان سعود أيضاً يرسل عملاً لجميع الركة المحصنة ليت المال،
 وتتألف من العشور التي تدفع عياً، ومن العرامات، ومن خمس العائتم، ومن
 ٢,٥ / من رأسمال التجار الذين ينهي عليهم، كما كان العدل في روما
 القديمة، أن يوضحوا مدهرها مقسمين على صحته ما يقوون أقا القائل
 انتمردة، فقد كانت تعاقب بالهيب، وكانت الأموال تذهب لريادة الموارد
 اعمامة ليت المال^(٢).

(١) نعل بوركهارت في مولد، مؤرخ سابقاً، ص ٦٤، عن سعود أنه كان يعزل
 أعماله وأعمال صديقي السنته توجد دينا طريقه إلى القاهرة؛ اسبابول من
 طم يلى^٢

(٢) قارب ما قاله بوركهارت في مولد، مؤرخ سابقاً، ص ٥٧ - ٦٤. وتعليقات الدكتور
 لعنمين

كانت هذه لصرايب المختلفة تدو للدو كثيرة، وهم الذين اعتادوا ألا يدفعوا أي صرايب، ولكنهم مع ذلك كانوا يدفعونها لأنهم يرونها تستخدم لإحلاص لمصلحة الجميع لقد كانوا يدفعون فضلاً عن ذلك صريبة خاصة مخصصة بكاملها لأعمال الخير، حسب ما نظم إلى بمقتضى مقديرها، وتسمى تلك الصريبة الزكاة، ولها طبيعة دينية، ولا يجوز أحد من الوهابيين أن يمسح عن أذائها أو يشكو منها، وإلا بُعد من أشرار المسلمين

لم يقبل البدو بسهولة أداء واجب الخدمة العسكرية التي عرضت عليهم أعاء ثقيلة، وأحبرتهم على تفلات كثيرة لقد كانت الخدمة العسكرية /١٨٨/ تجنيداً حقيقياً، ما عدا الافتراع الذي يفتق عندما لا يكون هناك استمر عام؛ إذ كان بالإمكان تقديم بدل عن المطلوب للخدمة لقد كان يُترك للجور قسم كبير من العنائم التي يكسبونها من الأعداء، والتي كانت تُقسم حسب قانون يفتق بدقة وكانت تلك العنائم في غالب الأحيان كثيرة، لأن بحروب لم تكن في واقع الأمر إلا عروات ضخمة تصل أكثر القاتل طعاماً كان سعود هو الذي يحفظ لتلك العروات، ربودها هو أو أبواه بكفاءة ماهرة، وكانت في غالب الأحيان عروات ضامرة []

لقد كان هناك عدد كبير من العروات يحارب على ظهور الهجن، وقلة على الميول، والكثرة انكاثرة شيئاً على لأقدام وكان كل واحد من أولئك يعود بعد الحرب إلى بيته، ولا يبقى على أمة الاسعداد نصفه قوات نظامية إلا حراس شخصيون يكونون من أشجع الحدود، وأكثرهم حكمة، ولدين كان سعود يستفيهم لديه في الدرعية.

كانت القنائل لحصرية في نجد هي المبادرة في الحصوص للسلطة الدينية السياسية لعبد العزيز ولأنه سعود الذي وصل بعرواته عمر البس إلى مسقط، وقد جيشه الظاهر حتى أبواب /١٨٩/ البصرة وبعداد وحلب، وحتى أبواب دمشق ولكنه لم يكن أبدأ بمكر هي مذ سعود خارج حدود الجزيرة العربية^(١)

(١) يكرر هنا دلييه ما ذكره موركهارت في مواليد : موثناً سابقاً، ص ٦٨، ويعلق =

أما عرواته ناحيه الغراب ولسان (كدا، وربما يقصد سورية) فلم تكن إلا عراب سريعة يقوم بها للحصول على العدم لريادة مكاسبه ومكاسب حيوته وإن تلك السداد، أعني العواي وسورية، مائة تبعية مباشرة للأتراك الذين يعلمهم هراطقة، وإن في تلك البلاد كل الأسباب التي تدعوه لكرهها، وكل ما فيها يجعل عارانه عليها موعة لقد انتهى الأمر بأن تعداد إلى التأثير تلك العارات، وسير في عام ١٧٩٧م لمحاربة الوهابيين حملة سم تحرر أي نجاح. ولم ترد على أنها دعمت الاردراء ولعصه الدين بكهما الوهابيون العثمانيين

أما باشا دمشق فقد كان يصدد نهضة حملة لإبادتهم، ولكن تلك الحملة ظلت فكرة، ولم تخرج إلى حيز التنفيذ وقد كان الوهابيون قد حصدوا في منطقة الحليح العربي^(١) حيث كان لهم مياه سمه رأس الحيمة، دمره الأسطول البريطاني في عام ١٨٠٩م ثمعنة السكان على عدد من أعمال الفرصة التي تعرضت لها في الحليح من التجارة البريطانية^(٢)

وكان سعود حينئذ قد ابطل الدعاء بالسلطان العثماني على اسماء في الصلوات العامة، مما يعني أنه أعلن المرد الذي يعدل إعلان الحرب

كان أكثر حيرة سعود شعوراً بالتهديد هو الشريف غالب ملا ريب الذي كان حينئذ يحكم المحضر، وقد كانت الأراضي التي تخضع لسلطته تنصل

بدكتور العثمانيين بقوله «الرسائل التي وجهها سعود إلى ولي دمشق بوضح انه كان يرعب في الاستيلاء على بلاد الشام انظر تاريخ البلاد العربية السعودية عهد سعود الكبير لمسير المجلاني، د ف د ث، ص ٦٦ - ٦٨

(١) في الأصل الحليج الفارسي لكن الشواهد تزيد سميت بالعربي ولقد ترجم، هاء بالعربي انظر مولد لتاريخ الوهابيين، موقر مبعأ، ص ٨٣

(٢) انظر مواد، موقر مبعأ، ص ١٠٦ - ١٠٧ وعلى الدكتور العثمانيين فقال «نصف العربيون دائماً لأحرار بالفرصة» «هاحموا» منهم مهما كانت الدوافع لذلك ومعروف أن الفواسم كانوا يهاجمون من أعدائهم لا فرصة وإنما جهاد ودعاً عن المصالح الوطنية»

باراضي / ١٩٠ / الأمير الجديد وقد قام هذا الأخير بعدد من التوسعات، وكان يُحشى من يوميات أكثر خطورة في المستقبل

نقد كان غالب المدعور، لا يكف عن تشويه صورة الوهابيين لدى الدب العالي، وعن إثارة صدهم، أملاً في أن يساعده ثبات العالي في توجه صرته حاسمة لهم ولما لم يستطع التغلب على حذره حمل السلاح مد عام ١٧٩٣م، ومع أنه اعتمد على موارده الخاصة، فإنه حقق بعض الانتصارات في نجد واستمرت الحصومة عدة سنوات بين الحارين، وكانت الحظوظ إبان ذلك مأوية بينهما؛ ولكن، وفي النهاية، وعلى الرغم من حكمة غالب العسكرية، كان الانتصار من نصيب الوهابيين فقد دخلوا لحجبار بقوة كسرة، واستولوا على الطائف في عام ١٨٠١م وعلى مكة المكرمة في عام ١٨٠٣م، وكان انصافهم مصرب المثل في المدينة المقدسة، ولم ترك أي محالفة ولم يعانو المكيبون إلا من وجوب مداومة الحضور إلى المسجد في أوقات لصلاة، ومن حرصهم على إحياء ملاسهم الحربية، ومن الامتناع عن استدحيين علاقته، إلا أنهم صوصوا عن ذلك بالتدحيين كما يحلو لهم في منارلهم

واسحب غالب إلى حدة، وتبعه سعود إلى هناك، ولكن أسور المدينة سمته من دحولها، وبدأ المفاوضات مع الشريف - الأمير الذي عاد إلى مكة، واستعاد سلطته فيها، ولكنه لم يحصل على ذلك إلا بعد أن اتبع سدهب ابوهابي^(١) وكان سعود قد استولى على المدينة المنورة، وعامل السكان معاملة أهل احتراماً من تلك التي / ١٩١ / لقيها منه سكان مكة، فوضع في المدينة المنورة حامية وهابية، وجرى ضريح النبي ﷺ من الأشياء الثمينة التي تزع بها المؤمنون، وقد حاول أيضاً أن يهدم القبة العالية لمقامه على انصرع، كما قاموا بهدم كل العباب التي لم تكن تابعة للمساجد^(٢) وقد قيل خطأ أن الوهابيين ألغوا الحج - لأن النبي ﷺ شدد على تطبيق هذه الفريضة،

(١) انظر. مولد ، موثق سابقاً، ص ٩٢ - ٩٣.

(٢) دخل سعود المدينة المنورة في عام ١٢١٨ هـ / ١٨٠٤ م انظر مولد ، موثق سابقاً، ص ٩٣ - ٩٥

ولا يمكن، والحالة هذه، أن يفهم الوهابيون بالمعناها ولكن الوهابيين انفسهم أزعجتهم التحاورات المنتطرة التي كان يمارسها الحجاج الأتراك، أجبروهم على تصرف أكثر لياقة، وردعوا بقسوة القوي اني كانوا يثيرونها^(١) ولم يتعرض الحجاج المعصرة الذين كانوا أكثر تنظيمًا لأي مصائب، وكذلك اليهود وأفارقة السودان وإن كانت قوات الحج من بغداد ودمشق والقاهرة قد توقفت؛ فإن سبب ذلك هو أن الباشوات والقوات العثمانية التي ترافقها عادة لم يعودوا يحرضون على المخاطرة بالسفر عبر المناطق التي يسيطر عليها الوهابيون الذين كان مجرد ذكر اسمهم يثير رعباً كبيراً بين أعدائهم

كان السلطان العثماني قد غيّر في هذه الأثناء محمد علي، الذي سبّغ صيته بعد ذلك في أنحاء العالم، باشا لمصر، وفرص عليه أن يخلص المدينتين المقدستين من أيدي الوهابيين الذين سيطروا عليهما ولما تولّى محمد علي منصبه الجديد عام ١٨٠٤م شغل / ١٩٢ / بالعصاة على المماليك، ولم يفكر بتجديد أوامر السلطان إلا في عام ١٨٠٩م، عندما كشف ابنه انشاي عنسوس بك^(٢) الذي كان له من العمر ثمانية عشر عاماً، ولكنه كان ذا شجاعة مجرّنة، بإدارة اليوم لدى العثمانيين، وخصوصاً في أسر الباشوات، كلفه، قيادة حملة نزلت في ينبع عام ١٨١١م وكانت بذاباه سيئة إذ تقدم نحو المدينة المورة^(٣) التي كان الوهابيون لا يزالون يسيطرون عليها، والذين هزموه شر

(١) قدري بما يقوله يوركهارت في: مواد ، موثق سابقاً، ص ٩٥. وانظر تعليق الدكتور المقيم في الحاشية (٢)

(٢) يختصر ديبية الأحداث اختصاراً محلاً؛ إذ إن محمد علي بدأ في عام ١٨٠٩ م بجهز بجند معتمده، حتى استطاع من ثمان وعشرين سفينة مختلفة الأحجام، وذلك في مياه السويس في أواخر ١٨٠٩، ١٨١٠، وبداية سنة ١٨١١ م ورمم القلاع على طريق الحج بين القاهرة وبيج، وهي عمروود وسحل وانقعه وانمويلج والوجه، ووضع فيها حاميات من المشاة، وأثناء محارب القمح في القصير وبدأت الحملة في نهاية أغسطس سنة ١٨١١ م انظر مواد ، موثق سابقاً، ص ١٠٩ وما بعده.

(٣) وصل الأسطول المصري إلى قوت بيج في أكتوبر (تشرين الأول) ١٨١١ م وفي يناير =

هزيمة في مصيق الجديدة^(١) وأحجر على التراجع إلى بع، واشتق بحته هناك، ويصح في أسنة التالية - يفصل المساعدات إلى نفاها من مصر - أن يستوي على المدينة المورة ووجدت الثخامة الوهامة التي ظنت معتصمة بمي لقلعة نفسها مجبرة على الإسلام بعد ثلاثة أسابيع من المقاومة، وخرجت بأسلحتها وبأمتعتها بفصل عهد أمان؛ ولكنها ما إن قطعت مئة خطوة خارج القلعة حتى نقص الأتراك عليها وسلبوها رديحوا أفرادها ولتأمل ما يتمتع به العثمانيون من بية حسنة^(٢)!

وإذا عُيِّن أحد المارقين الإسكتنديين^(٣) من خدم البيت اشترى لبعض الوقت حاكماً للمدينة المتورة، ولكنه سقط بعد ذلك فتيلاً وسلاحه بدء في موجهة الوهابيين وسقطت أواخر السنة نفسها مكة المكرمة ثم انطدأت في أيدي الأتراك الذين كان يعودهم مصطفى بك، صهر محمد علي، وهو رجل

• (كانون الثاني) ١٨١٢ م بدم طرسون بك مع حدوده صوب المدينة المورة مولد... موثق سابقاً، ص ١١٣، ١١٥.

(١) من صوب بروج عرصة بين أربعين وسبب ياردة في حيال وعرة شديدة الانحدار تقع على مدخلها قرية العبدية وهي المسوطة الرئيسة عبلة حرب وطول البحر الصبيل ساعة ونصف الساعة مولد ، موثق سابقاً، ص ١١٦

(٢) مولد... موثق سابقاً، ص ١٢٣ - ١٢٥.

(٣) انسمى إبراهيم باشا، وكان رئيساً للمماليك الذين مع طرسون، وهو من أسرته واسمه الأصلي قوامس كيت، أسر خلال الحملة الإنجليزية الأخيرة على مصر، ثم أسدق وأشره أحمد بوبابرت، ولجا إلى حمايه ووجه محمد علي بعد أن قتل صديقه من خدم أحمد بوبابرت، وعرض عليه طرسون مرة وأمر بقتله لأنه دبح عن نفسه وهرب إلى حمايه التي أصلحت الأمر، وأصبح بعد أن أثبت جدولته رئيساً للمماليك لدى طرسون، وكان أحد اثنين لم يهرب عن طرسون في الجديدة، وهائل سبابة في الأسبلاء على المدينة المورة وبريه، وكان قد أصبح صاحب لمرتة، وبحل لمرته الثانية في اللاط، وعين حاكماً للمدينة المورة في إيوبل (بيسان) ١٨١٥ ثم قتل بعد ذلك في انعام معه في القصيم انظر مولد ، موثق سابقاً، ص ١٨ - ١١٩، وص ١٨٩.

شرس صفت من قبل دماء المصريين، وكان يصحر / ١٩٣ / قائلاً: «إن عدد من سيموتون تحت عصي جلاده يفوق عدد الرجال الذين يولدون في أسرته، لو أن كل وحدة من روجاته وبند في كل يوم مولوداً ذكراً»^(١) وإن ذكريت وحشيم وحاداهم لا رائت مائلة في أدهاب العرب بعد أربعين سنة لقد أحصا الوهابيون بأن تلت المحنة كلها عندما استهانوا كثيراً بأعدائهم، ولم يواهبهم بالقوة المطلوبة، وبنح عن دلت أنهم أحرروا على ترك للحجار، وعلى العودة إلى حدودهم الأولى

وقد عين الباب العالي طوسون بك باشا حدة، وقدم والده بشخصه من معاهرة إلى مكة المكرمة في عام ١٨١٤ ليحيى ثمار الانتصارات التي لم يحققها بنفسه

أما لشريف عالى فإنه كان يُصَرَّف شذوذه بكثير من الحذر والبرعة لقائمة؛ حتى إنه استطاع المحافظة على سلطته في هذه لصروف امطبعة لقد كان ينقل ولاءه بين الأتراك أو الوهابيين حسب لمصلحة لآية، أو حسب حظوظ العدوين في النصر، فقد كان يراعي الخصمين، متجنباً توريط نفسه بالقيام بأي إجراء ذي دلالة معرطة، مؤثراً نفسه في كل الظروف مخرجاً لقد تمثلت سياسته في عدم، وفي الشهادة، أملاً في رؤية أحد العدوين للدين يحشهم بالنساري يصعب أحدهم الآخر، كان يجد خلاصه في لكره الذي يكنه أحدهما بالآخر وعندما ظهر أن النصر سيكون نهائياً بحساب العثمانيين، ضم قواته إلى قواتهم، وحصر نفسه معركة الأسبلاء على لطائف وقد كان أبرر رعمه / ١٩٤ / الوهابيين وأكثرهم بوقياً في تلك الحرب هو المصديقي^(٢)

(١) انظر مولد...، موق سابقاً، من ١٢٤ - ١٢٥

(٢) عثمان بن عبد الرحمن المصديقي من قبله عدوان المشهورة بالطائف كان صهراً لشريف عالى نروح أخته، وكان ذكر أعوانه وفائدة جته، ثم احتلت معه واتصم إلى الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود وولاه الإمام عبد العزيز على الجيش المكلف بالأسبلاء على الطائف، ونجح عثمان في لاسبلاء، عليها من ١٢١٧ هـ / ١٨٠٣ م وأصبح أمير عليها وعلى المناطق النابعة لها وعندما نجح لشريف عالى

صهر الشريف غالب الذي كان يكرهه، ولم يجد حرجاً من أن تعذب بمكافأه بمن يقتله أو بأسره. وقد تم تسليم المصافي لعالي عدرأ، فادر مسرعاً في شوة النصر برسالة إلى استامبول حيث تم قطع رأس العربي امقدم وكان غالب لدي أوصى حده، يأمل في أن يرصي الأمر كذلك لقد كان ذلك جهلاً بطائهم، ولم يدم وهمه إلا قليلاً. لقد ذهب إلى حدة لاستقبال محمد علي عند وصوله إلى البحار، وعاد معاً إلى مكة المكرمة، وتعاهداً رسمياً على القرآن في لمسجد الحرام ألا يحاول أحدهما القيام بأي شيء يعارض مصلحة الآخر، وأن يعنا متحدين. ولقد كان ماشا مصر، على عادة الأتراك المتأصلة فيه، بفكر، وهو يقر بذلك العهد، في أن يحرفه أما الشريف فقد كان على العكس يحرص على الوفاء بعهد، ولا يمكن حتى لأحد أعدائه أن ينهمه بأي ميل بحرق ذلك العهد ذلك هو لغارق بين العرقين العربي يحترم بعهود التي يرمها، أما التركي فلا يحترم أي شيء.

كان الشريف يقيم في مكة المكرمة في قصر مُحض تحصياً ميباً، تدافع عنه حامية مزمنة من ٨٠٠ رجل، ومدفعيون، مما يجعل السيطرة عليه مستحيلة. ولما لم يكن محمد علي يستطيع، مناجأه أو لقص عليه في وسط الحاشية الكبيرة التي كانت ترافقه على الدوام عد حروجه، فإنه دير له /١٩٥/ كل أنواع المكائد التي تم تحذ في البداية أي نجاح وقد كان يوي البص عبه، ولو كان ذلك في لمسجد الحرام، لولا أن المصافي أمر باحرام حرمه

في سنة نفسها باسرداد الطائف حرب عثمان، ثم قص عليه بعد ذلك بدو عبه وسلموه للشريف، ثم أرسله طوسر باشا تسيراً إلى مصر، ومها إلى إسامبول ومن هناك انظر عنوان المعهد في تاريخ نجد، تحقيق عبد الرحمن بن عبد لطيف، لروضة دار الملك عبد العزيز، ط ٤، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، ص ٢٠٩، ٢٦٠، ٣٣٤، ٣٣٥ عن حاشية مترجمي رحلات بوكهارت، موقن ساما، ص ٦٨ وانظر كتاب عثمان بن عبد الرحمن المصافي أمير الطائف والبحار في الدولة السعودية الأولى، تأليف د إبراهيم بن محمد الريد، إصدار لجنة المطبوعات في التشبيط السياحي، محافظة الطائف، ط ١، ١٤٨١/١٩٩٧

المكان المقدس ثم نصب له محمد علي في نهاية الأمر صفاً متناً، ومديراً
بإحكام فوقع فيه عذب، وتم أسرهم مع مراعاة المظاهر الحادثة، واكتفى بعد
ذلك بالقول باحتجاز «لو أنبي كس خائناً لما حدث ذلك أبداً». ثم معه السلطان
إلى سالونيك، وقد مات فيها متأثراً بالطاعون في صيف عام ١٨١٦م

وانتهت بموته حكومة الأشراف وكل الأشراف - لأمره الدين حازوا
بعد عاتب، عيهم الباب العالي، واكتفوا بالمرتبة الشهري المحدد الذي كان
يدفعه الباب العالي وأصبح شأنهم شأن موظفي الإمبراطورية العثمانية كلهم،
فهم لا يتمتعون إلا باستغلال شكلي، وبسلطة اسمية وقد كانوا يعاملون على
ندوام كما يعامل شيوخ قنائل البحار، كانوا يُختارون من قدماء الأسر
الحاكمة، ولكنهم لم يكونوا في الحقيقة إلا موظفين لدى الحكومة التي
تعيهم وتدفع رواتبهم، شأنهم شأن الوزراء والباشوات وكان يحيى أون
الأشراف الذين عيهم محمد علي، ويحيى أحد أقرب عاتب، ولا يمنع أية
موهبة، وهو مناسب تماماً لما يريد محمد علي

لقد كان المنشأ يريد أن يريل المود العريق ولتعيدي لأحفاد النبي ﷺ
من جذوره؛ فعلى ثلاث منه منهم إلى مصر، ولم يترك للآخرين إلا أعمالاً
ثانوية / ١٩٦ / مثل أن يكونوا على سبيل المثال، أدلاء في جيشه أثناء سحق
عاتب ولعدو الذي كان صحبته استنكار العرب كلهم ضد الأبرار وقد بدد
المكثون أنفسهم محرومين لذلك ولم يكن الوهابيون أبداً ليقوموا بمثل هذه
الأعمال الدنيئة، لقد كانوا حازنين عن ذلك، ولما كنت أية مقاربة بينهم وبين
الأثراك متكون لصالحهم بالتأكيد، فإنهم قد كانوا الحظوة الشعبية لأصغرهم
بعد دفع محمد علي ثمر عذره عدداً من الهرائم التي كادب تودي
بحياته؛ أولها كانت الهرصة الساحمة في ترنة حيث انتصر الوهابيون على
صخرة قوته التي كان يقودها ولده طوسون، وهرم تلك القوات شر هزيمة عرب
اليوم، الذين يعمل بعضهم في الزراعة، وبعضهم الآخر في الرعي، تفودهم
أو تدفعهم على الأقل امرأة اسمها عالية^(١)

(١) انظر رحلة بيرون إلى مصر والبحار، موش سابقاً، ج ٢، ص ٢١٠

لقد كانت عائلة حان دارك الصحراء، وكانت هي لشيخ الحمصي للقبيلة، وكان الأتراك بائطع ينظرون إليها على أنها ساحرة، وأر سحرها بحسن أصرها لا يهرمون^(١) وأدلت القوات العثمانية بهرميتين لم تكون أقل عنفاً من الهرممة الأولى في زهران والقصدة^(٢)، وهي إحدى مدن الحجار الحمص أم محمد علي فكان لا يستطيع الخروج من وراء أسوار مكة المكرمة، وقد كانت الانصلاص مع حدة عالياً مقطوعه وأصبح جيشه في أسوأ حال إذ كانت الحمص تنقصهم لسبل، وقد / ١٩٧ / هلك من ذلك الجيش ثلاثون أدياً في تلك الحرب. كتب لأعديه بادرة في كل المواقع، وقد وصت أسعدها جداً غير معقور. أما العبود فدين كانت روتهم غير محربة، وأهم لا ينفون رواتب أدياً، فاهم لم يكرهوا يحصلون. لا يصعوبة كبيرة على حاجتهم ابصرورية الأوية، وقد كانوا يرفعون أصواتهم بالعرص، ويمرون بأعداد كبيرة، ولم يعد للمحدون يصلون إلى الحجار أدياً. وكان محمد علي وحده هو الذي لم يأس، لقد كان مؤكداً أن حسارة الحجار تعني بالسيرة به حسارة مصر، وقد بذل لكي يحتفظ بالحجار جهوداً حارة، وأظهر حرماً بادر لمثال ولما أحمر في الحرب لحداً إلى المفاوضات، وبدأها أولاً مع لقبائل المجاورة بمكة المكرمة، واسمال عتد منها يدفع مانع ماليه كبيرة^(٣) أ

عد أبدى محمد علي اللدو ود ومجاناً جعلت له بينهم أصدوقه كثيراً كان يستعملهم بلا تكلف، ويسمع لهم بمحاطته على طريقتهم فيما عتادوه من عدم المجاملة، ويعتدق عليهم الهدايا، ويدفع بكرم بكل العتوقين الذين

(١) انظر مواد ، موقئ سابقاً، ص ١١١ - ١١٢

(٢) انظر مواد ، موقئ سابقاً، ص ١٤٥ - ١٤٦، وقال بوركهارت، «وهي ميناء يبعد عن حدة مينة أيام جوماً وكانت في السابق حرراً من أراضي انشريف عتلت، ولكنها أصبحت خلال السرات الخمس الأخيرة هي يد عامي (بر شعب)، شيخ عرب غير أهوى القبائل الحبية حوب مكة وأشد المحمسين من نوهابين» أما هرممة لأبرك في زهران التي كان على رأس قبائلها بحروش بر عتلت قد سحدث عنها بوركهارت في مواد... موقئ سابقاً، ص ١٦٦ - ١٦٣.

يقدمونهم لخدمة في جيشه، وكان في كل الحصومات يحمل الحو دوماً إلى حاسم صد جوده أنفسهم وأوعى في هذه لسياسة فأصبح يستعدي رصداً أهل مكة المكرمة، ومع أنه عاشوتي بالمعهوم العربي لهذه الكلمة، أي ملحد ومشارك مجاهر، فإنه كان يتظاهر بالحمية وإخلاص، ويكرم العلماء، ويحري بهم الحريات، ويرمم الأماكن المقدسة، ويتردد / ١٩٨ / بكثرة إلى المساجد، ويؤدي بدقة لشعائر الطويلة حول الكعبة، كان، بعبارة واحدة، يودي كل الواجبات التي يؤدبها المسلم الثاني

وعندما ظهر له أن تلك الوسائل وما شبهها جعلت الأمور تستقيم به يادر بكل قوته، وبمساعدة فرقة من الحيانة الذين جيبهم من لصحاء النسبة، إلى تنظيم حملة جديدة ضد انوهابيين لمجمعين في بئل، وهي قرية إلى الشرق من الطائف، وأحرر شخصياً بصرأ حاسماً في شهر يناير (كانون الثاني) ١٨١٥ م كان سعود قد توفي العام القالب^(١) في لدرعية، وانتقلت السلطة لعلب الورثية في أسرته إلى ولده عبد الله بن سعود الذي كان يتفوق على أبيه في لعدرة العسكرية التي عُرف بها، ولكنه كان أقل من والده حكمة في سياسة القبائل، وفي صيانة مصالحهم واستوفيق بينها لقد حصلت في بداية حكمه اضطرابات داخلية بين صفوف أسرته نفسها، ثم امتدت تدريجاً إلى عدد من القبائل وبدأ كبار مشايخ تلك القبائل يبدوون استقلالاً لم يكونوا يحرزون على مجرد الخلم به. كان حكم الأمير السابق الذي كان أكثر حرماً، وكانت القبائل بالإجماع تخضع لسلطته وأضعفت تلك الممارعات الداخلية الانضباط الذي شدد لحاجته إليه إبان الحرب، والذي لم بكل فقدانه بعداً عن أن يكون السبب الرئيسي في هزيمة بئل^(٢) بعد كانت كدعاب سعود الأخيرة قبل موته لولده عبد الله أنه / ١٩٩ /

(١) مايو (أيار) ١٨١٢ م، وجاء في عنوان المجد، ج ١، ص ٢٣٩ أن وفاة سعود كانت

لبنه الثلاثين العاشر من جمادى الأولى سنة ١٢٢٩ هـ وكان موته بيلة وقعت

في أسهل بطنه أصابه منها مثل حصر البول، انظر حولا، مرقق سابقاً، ص ١٥٣

(٢) انظر حديث بوركهارت عن معركة بئل في مولد...، مرقق سابقاً، ص ١٦٨ - ١٧٥.

نصح له قائلاً: «لا تقابل الأتراك أبداً في أرض مكشوفة»؛ ولأنه لم يتبع هذه النصيحة القيمة، وقعت تلك العظيمة الكرى^(١) ثم يكن عد الله بقود لغوات نفسه في معركة شل، بل كان على رأس جماعته من الاحياءيين؛ كان عليها حيازة منطقة أخرى من حدوده وكان يهود لغوات الموجوده في شل أحده فيصل^(٢)

لقد نمتع لأتراك وأسرفوا في استعمال انصر بوحشهم المعهودة، فقد كان هناك ثلاث مئة من الأسرى للذين وعدوا بضيافته حياتهم، ثم رفعوا على الحواريق بأمر من محمد علي حمسون على أبواب مكة المكرمة، ومثلهم على باب جدة، ولديهم على طول الطريق الواصل بين المدينتين وظلت أحساد أبناء النصارى للشحمان معروضة حتى ملأت اصوري ولوحوش بطونهم

(١) يقول مورقهارب في مواد، موقر سابقاً، ص ٧٤: «وربما كان سبب هزيمة البوهايين برونهم من الجبال إلى السهل»؛ بل لم يكن لديهم أية وسائل لمقاومة الصراخ لأتراك وكان سعود قد حذر ابنه في كلمته الأخيرة شي وجهها له من البوم مثل ذلك لعل لكن احتارهم للحدود لأتراك، ورعيتهم في ربهاء الحملة، وربما رعيتهم في اعتقال محمد علي شخصاً، من الأمر التي جعلتهم يرون لأسلوب الحكيم الذي نعوذ في الحرب من على وجه في مواد، موقر سابقاً، ص ٥٣. ويقال ان كلمات سعود الأخيرة كانت موجهة إلى ابنه عبد الله باصفاً به قوله: «لا تقابل الأتراك في أرض مكشوفة» وقد عبأ لرائع بدوه لممكن شعبه، بدون شك، من استعادة الحيلازة.

(٢) فيصل بن سعود أخو عبد الله أمير الوهابية، كان أوسم رجل في لدرعية ونظفهم، ويحبه العرب كثيراً قبل أنه حصار الدرعية ١٢٣٣ هـ. حوال المجدد، ج ١، ص ٢٧٢. وكان لسعود أبناء آخرون غير عبد الله وفضل، وهم ناصر الذي توفي عام ١٢٢٥ هـ، وبركي بن سعود الذي توفي قرب نهاية حصار الدرعية وإبراهيم الذي قتل في أثناء حصار الدرعية، أما جهيد (عبد) وعمر فقد ك، ص من بعلهم محمد علي أن مصر سنة ١٢٣٤ هـ، ومن أبناء سعود أيضاً مشاري وسعد وعبد الرحمن وحسن وحالد، انظر آل سعود، ص ١٦، ١٧، وحوال المجدد، ج ١، ص ٢٧٢ ٢٠٣ - ٢٠٥، ٢٧٦ وانظر مواد، موقر سابقاً، ص ٣٣ والحواريق

من نحوهم ويمكن لهذا النصف العظيم ان يبنى ما يظن ان الآخرة ومن
يسئل سائر الناس على طريق البحر، حيث كان عدد الوهابيين كثيراً، وكان يأمل
ان يحقق غاياته كثيرة، لأن ذلك الموضع تشتهر في الشرق بعساها العاهش، ولكن
القوات عانت معاناة كبيرة في سيرتها، ولم تكد تصل إلى منتصف الطريق
حتى تمردت، ورفضت الذهاب إلى أبعد من ذلك فدفع ذلك الوضع الناس إلى
الامر بإرسال تلك القوات إلى مكة المكرمة، ومن هناك إلى مصر لستندل بها
قوات أخرى جديدة

ون هذه الحمة العاشقة أعطت بطلها محمد علي / ٢٠٠ / فرصة
لإظهار حقه وممارسة قوته على بعض أحد شيوخ القبائل الذين مكثه
لحياته من انقض عليهم فأمر حرسه الخاص بقتله أمام عيه شرقة؛ إذ
طلب من حراسه الخاصين ان يُجرحوه ببطء سيوفهم لكي يطول عذابه، فقصي
المقدم العربي المسمى بحروش "بحد دون ان تصدر عنه أنه أم واحدة أما
محمد علي ابدي كان راضياً عن الانتصار الذي حققه في شرق، ورأى أنه
حقق ما يكفي لرفعة مجده، ولمصلحته عندما حلّص المدينتين المقدستين،
فإنه عرض شروطاً لمصلح على عبد الله بن سعود، وذهب إلى المدينة المنورة
لانتظار النتيجة التي ستعبر عنها عروصه السلمية وكان طوسون باش قد سبق
ولده إلى المدينة المنورة، وكان حين وصول أبيه في منطقة القصيم؛ وهي
إحدى مناطق النفوذ الوهابي، لإبرام سلام باسمه مع أمير الدرعية، وفي هذه
الثناء كان محمد علي الذي لم يدع له لا المال ولا الرجل يسحر ثأيه
وسرعة إلى مصر التي كان يرى أنها تمر بفترة حرجية، وهي مهددة بأن
يهاجمها أسطول الكابتن ناشا وعدم وصلته معاهدة الصلح التي أبرمها
ولده، لم يرفض الموافقة عليها، ولكن عموص لعت أثبتت لأقل الناس نصيرة
أن له مدمع مستعقبه في الجزيرة العربية وتحقق ذلك في عام ١٨١٦م عندما
دم بإرسال ابنه البكر إبراهيم ناشا مع جيش حديد، هدفه الاستيلاء على

(١) في الأصل Bakroud والصواب Bakrouch انظر مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمته
المرية، موقعة سابقاً، ص ١٨٣ - ١٨٤.

لدرعية، وتغويص / ٢٠١ / دعاء الحكومة الوهابية تماماً وقد ندى إبراهيم في هذه المناسبة شجاعة وكفاءة لا يمكن إنكارهما، وأصر حراً بكل بالبحار، واستطاع أخيراً في ستمر (أيلول) ١٨١٨م بعد سنتين من الجهد المستمر، والصل بلا هوادة، الأسلاء على الدرعية^(١) التي هدمها رأساً على عقب، وأحر السكان على البحث عن ملجأ في مكان آخر وأحصع بجد كنه، واستطاع فصل مساعده باشا البصرة أن يصل بجيشه انظار إلى ما وراء جبل شمر باتجاه بغداد.

لقد دافع عبد الله بن سعود عن عاصمته بتصميم كبير، وشجاعة ماهرة، ولكنه لم يبق في دفاعه دعم السكان الذين انهكهم الحصار لطويل، ونظ همهم، والذين كانوا يفصلون الخطوط التي سيوفرها لهم الاستسلام، على الولايات التي سحرها عليهم محوم إبراهيم باشا، ولكن بعكسهم بذلك يعني أنهم يجهلون طابع الأتراك لم يعد عبد الله يستطيع الاعتماد إلا على حرسه انحصار المكون من أربع مئة عبد أسود كانوا مستعدين للموت حتى أحرر رجل منهم دعماً له ولما فقد كل الأعمال كان باستطاعته الفرار والانجاء إلى قلب الصحراء بانتظار أية أمصال، ولكنه كان يفصل الاستسلام لأعدائه، والاعتماد على أريحية المنتصر، كما لو أن التركي يتمتع بأي قدر من الأريحية وبعد بضعة أيام من الاستعدادات والتردد سلم نفسه بإرادته لإبراهيم باشا الذي كان لا يزال في ريعان الشباب، واستقبل عبد الله بن سعود في حبيته باحرام كبير / ٢٠٢ / أوقاف به مواسياً. أن الرجال العظام يعانون صروف الدهر، وإن باستطاعته الاعتماد على عفو السلطان

(١) حطم إبراهيم باشا الدرعية تماماً سنة ١٨١٨ م / ٨ ذي القعدة ١٢٣٣ هـ، وهي سنة ١٨٢١ وكانت سيطرة المصريين ثمة على الحجاز، بينما طلت بجد أول أهميه بالنسبة إلى المصريين؛ وهكذا يمكن ابن عم سعود بن عبد العزيز هو التركي بن عبد الله بن محمد بن سعود أن يعود ثوره احتار الرياض لتكون عاصمته له وطلت كذلك حتى اليوم نظر الحركة الوهابية في حيون، موثق سابقاً، ص ٦٩، الحاشية (١٦)

لقد كانت الهدية لتي آكل إليها هذا المشهد فظيعة أرسل عبد الله إلى القاهرة، ومعه حاشية كبيرة، ومن القاهرة إلى إسطنبول، وقد عرف عبد الله هناك عمر محمود الذي كان حبيب السلطان. لقد طلع بعد الله إيان يومين في كل شوارع المدينة، وفي اليوم الثالث سم قطع رأسه في ساحة المدرسة صوباً، وتركته جثة لدمعه لكي يروي عليل نظرها، وتبلغ ثأرها من حشمة الذي يبحث على الحزن.

بعد حدث هذا الحدث لعاش والقبيل في نهاية عام ١٨١٨م أما أسره عبد الله فقد بقيت في مصر، وبنا أولاده، كما ذكرت سابقاً، في رعاية محمد علي ولم يهضم الوهابيون أنداً من كونهم التي أدت إلى حروب عاصمتهم، واستقلت حكومتهم ولكن، وإن لم يعد لهم نفوذ سياسي، ولم يعودوا قوة مستقلة، فإن عددهم ظل كثيراً في الجزيرة العربية، وخصوصاً في الجنوب حتى حدود مسقط، ويكادون يسيطرون وحدهم على صحراء عمان الشاسعة الواقعة على مسيرة خمسين يوماً من مكة المكرمة / ١٢٠٣ / وقد كانوا يدفعون، أو يسحبون عليهم أن يدفعوا، ضريبة سنوية قدرها عشرة آلاف ريال Talang لقد كانوا على الدوام يديون بالضاععة لرئيسهم هو أحد أفراد الأسرة السعودية، وآخر من علمت به من رعايتهم هو فيصل^(١)، قريب حاند بك، ابن أبو حبيب فيصل^(٢) الذي كان يقود الوهابيين في يوم سئل لمشوروم وهاجرت بعض الأسر الوهابية إلى سواحل بلاد البربر، ما رالوا حتى اليوم، وخصوصاً في ناحية طرابلس، يشكلون تجمعات معترضة لصرامة طاعها^(٣).

(١) فيصل بن تركي الذي امتدت فترة حكمه الأولى من سنة ١٨٣٤ م إلى سنة ١٨٣٨ م / ١٢٥٠ - ١٢٥٤ هـ، والثانية من ١٨٤٣ م - ١٨٦٥ م / ١٢٥٩ - ١٢٨٢ هـ

(٢) فيصل هـ الذي يشير إليه المؤلف هو فيصل بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود أخو عبد الله بن سعود حر أئمة الدولة السعودية الأولى، وهو ابن عم لفيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود الذي أشار إليه المؤلف بأنه آخر من عرفه من رعاياه آل سعود

(٣) ليس في المصنف أي إشارة إلى هجرة تلك الأسر المحدية إلى بواحي طرابلس الغرب

التي تذكر بأحلاق المراطيين في أوروبا الشمالية

وستطيع بعد ذلك القول إن لحكومتين الحفيفيتين المستقلتين في
البحريرة العربية، رائتا لواحدة تلو الأخرى، بل الواحدة بعد الأخرى،
انويديون والأشراف الأولي ثم بعد إلّا دعوه، والكيفية لم تعد إلّا سرّاً
ولم يكن صعباً على الباب العالي أن يستغل تناقضهما، وأن يسطر سطته على
أقاصيهما فلو أن أمير مكة المكرمة ولدرعية سحائفاً بصدق وعصاينة صد
عدوهما المشترك، وانعفا على توبة مصالحهما الخاصة بعد ذلك، ولم يكون
متصرفين، كما فعلا، في بداية الحرب، لما أصحاح الأتراك أبداً أن يعزوا
أوصى البحار، بل لو أنهما نادوا بانقراض بعض الخطرات، لما حرج أحد من
الأتراك من الحجار حياً لو حصل ذلك لكادت الجريرة العربية مستمة ليوم،
/٢٠٤/ ولتخلصت، وإلى الأبد، من الطاعون التركي؛ إن أصاعتهم تلك
الفرصة المناسبة يقتضي أن يبدأ من جديد عملية محلبص الجريرة العربية من
الأتراك، بما يطله ذلك من نصحات جديدة وإن الخطأ الرئيسي كان ما قام
به غالب الذي لم يكن عليه، حرصاً على مصلحته الخاصة، أن يتواطأ مع
الأجانب، ولا أن يساعدهم في تعيد محفظاتهم لقد أحل في ذلك لعرف
بالحكمة التي كانت أعماله حتى ذلك الوقت بذل على تمتعه بها، وبحق ما أن
معجب من ذلك، لأنه في الحق لم يكن الإنسان بحاجة إلى كثير من الحكمة
النافعة لتوقع النتائج النهائية لتصرفه العام، وغير الحكيم قد حسر كل
شيء في معيه لإعناد كل شيء، لقد أسقط سقوطه العممة الوحيدة^(١) التي
كانت تستطيع بمساعدته وقف عدو وطنه، والحفاظ على وطنيته

(١) يقصد الدولة السعودية الأولى

الفصل التاسع

من جنة إلى الطائف

في يوم ٢٢ فبراير (شباط) جاء مصطفى أفندي، وكيل الشريف الأكبر ليقول له إن ابنه حسن ولرحال لدي أرسلهم الأمير لمرافقتك إلى الطائف قد وصلوا لقد تنفي الأمر بمرافقتنا، وبأننا يتركنا إلا بعد عودنا إلى جدة، رجل ذو عتار في البلاد، وشريف، وحاكم مدي أو وال لمكة المكرمة / ٢٠٥ / لقد كان ذلك أكثر من مجرد اهتمام، إنه شرف استثنائي بسبب أهمية الشخصية كان اسم ذلك الرجل هو الشريف حامد الذي دارما بعد نصف ساعات من وصوله، يرافقه خمسة أو ستة من العرب، يرتدون ثياباً جميلة، وهم مدججون بالسلاح كان يلبس ريشاً كبيراً أبيض، وجثة أرجوانية، ويسمع في حرامه يصفان مرحرف كان هو وحرسه حمراء، ولم أراه أبداً يلبس حذاء كان عمره تسعة وعشرين عاماً، ولون بشرته أسمر داك، وكان له عيان واستان سود وان تشعان حيوية ورقة وكان لأسنانه باص ساطع، وفي صوته رنة المشاب، وبداوة لغتوة، وكان له استقامة ظريفة استعفاء به يليق بمقامه، ومنصب الأمير الذي أرسله؛ ولكنه طوال الزيارة لم ينس يست شمة، وليس دنت مستعرباً في الشرق حيث لا يكلم عندما لا يكون لديه شيء ليقوله

مع ذلك، استعربت صمته، بل انه، أكثر من ذلك، أعظمي هل كان ذلك حجاباً أو عجزه؟ ولست أدري إلى أي من السبب (الحجل أو العجرفة) أرجع ذلك انصمت المتمكن وكان حكيم عليه في إضار اشك فسيماً،

وأعترف أن لاصنع لأول كان معداً كل البعد عن أن يكون إيجابياً

وربه في اليوم التالي في بيت مصطفى اعدي حيث كان يقيم، ووجدت
المرل يعج بالمعرب الذين صاروا للتسليم على شريفهم واستقبلنا بأدب حم
/٢٠٦/ ودون أن يصل به الأمر إلى الامتصاح، فإنه كان أقل صمتاً مما كان عليه
في اليوم السابق

جاءت الشئنة والفهوة وتلاها الشراب الذي تم تقديمه في كؤوس كبيرة
مدهة، وقام بعد ذلك بعض حدم المرل بصب ماء البورد على أيدينا وعلى
ثيابنا، وهم يفعلون ذلك من يريدون إكترامهم، وفي نهاية الزيارة فقط وجد
يوم المصادرة بعد صلاة العصر من اليوم نفسه

بعد سمح الفصل الرسمي لنا على طلي لبيد دوكيه، موثق العقود
والتمت حم في لفصله مرافقتي، وقد كتب مسروراً بذلك وحدث في دوكيه
مراف يسارع لأداء الخدمات، مرصداً، ومترجماً متمكناً من لغة البلد
المستخدمة والرسمه كان عليّ، لو أنه لم يكن موجوداً، لاعتماد على رفيق
رحماني، وكب أفضل لأعمال ذلك وثمنا كان هذا الأخير يكلم العربيه لأنه
كان ذلم السفر إلى شرق مد عدد من السواب، وكان يرغم نفسه بحرة
عميقة بالناس والأشياء تركت له مد اتصالاتنا من لقاهره الإدارة لماديه
لقادتنا الصغيرة، ومع أنه كان سيء الإدارة، وأدى من لتكر أكثر مما هو
متظر، فإنه في هذا اليوم استغنى صبري وحسب لشريف حامد، ماهيك عن
السيد كول، قفصل بلاده الذي عيل صبره.

كان علينا أن نطلق عد العصر /٢٠٧/، وعندما حل العصر لم يكن
شيء جديراً، مع أنه لم يكن علينا أن نحمل إلا أمتعتنا الضرورية لاستعمال
الشخصي، ولو فعلاً غير ذلك لعد ذلك إهانة للأمير المصيف الذي كان
يعمنا معاملته في عادة السل، ويبدو أن يوفر لنا كل ما نحتاجه باختصار، لم
نطلق إلا عد المعرب بعد أن تدي لي أننا لن نطلق أبداً، ولو حصل ذلك
لكان الأمر خطيراً لأنه كان من المهم أن نطلق في يومنا هذا، اندي سم يكن
حساره عشوائياً فقد كان يوم خميس، وهو أكثر أيام الأسوع مناسبة لبدء

الأسفار في نظر المسلمين، والثلاثة يوم مشؤوم، والعرب لا تحب السبت لأنه يوم اليهود الذين يحتفرونهم كل الاحتقار أما الأحد والأثنين فمن الشائع أنهما يومان مباركان، ولأربعة مستوي الأمور فيه وأما يوم الجمعة فهو يومهم المقدس، وهم يسافرون راحلين بعد صلاة العصر^(١)

كنت لفافلة تكون كما يلي كاتب هذه لسطور، إن كنت من المناسب أن يبدأ الإنسان بنفسه، ثم رفيق رحلي، والد دوكيه، ومنه من لخدم، بينهم أوروبيان؛ بنحكي وطحنا عسبارو، ثم الشريف حامد مع أحد أقربائه، وبعدهم أحمد حمودي رئيس جملة الشريف الأكبر، ناهيك عن اثني عشر عبداً أو خدماً من خدم الشريف، يلبسون ثياباً جديدة، وهم جميعاً مسلحون بالرمح / ٢٠٨ / وبالحدجر، ولم يكن معهم أسلحة نارية ورأيت من المناسب ألا يحمل أسلحتهم معاً لكي لا يبدو أن مثقال ذرة من الحبل قد خطر ببال لأن المرفقة التي أرسها الشريف كانت في نظري تكفي لحمايتنا، وبما كان صيوغه، فإنه لم يكن مسموحاً لنا أن نوقع حدوث أي حدث سيء. لقد أرسل ثلاثة عشر رجلاً ورجلاً كاتب كافية لحمل كل من أشرت إليهم، لأن المرافقين يمشون على الأقدام، ويستطيعون عند الحاجة أن يصعدوا حطباً

من الهجان الذي خُصص لركوبي كان الركوب المفصل لدى الشريف الأكبر، وكان يتحقق هذا التفصيل لركة مظهره، وحسن طمعه، كان اسمه. سبحانه أما هجان رفيقي فكان اسمه أم العصب، وكان لا يقر في شيء عن ركوبي، وكان يمتار منه بأنه ثاقب النظر في لطلام؛ لذلك كان أمير يستصيه في الليل عادة. كنت أرحلنا رائحة، مريئة بأبواب من انريئة من كل الألوان، طورتها بالحرير والصوف الثمين بالقصه يد صناع، وكنت الأرحل تعطي الحيوان تعاماً على الرعم من صحامته. وكان عربوسا الرحل من القصه أيضاً.

(١) ليس ما ذهب إليه المؤلف في هذا التفسير صحيح؛ بل الصحيح الذي لا مرأ فيه عند أهل العلم أن السفر مستحب في يومي الاثنين والخميس، مع حوازل السفر عند الضرورة في أي يوم حتى يوم الجمعة منه

أم الرمام فكان من التحلذ المصنوع بمهارة كان لنا، ونحن على ظهور نهج تحف بنا المرفق، والشريف يقودنا، / ٢٠٩ / هيئة مؤسسين حقيقيين يسجلون إلى الحج وعدم رأ، أحد الأطفال الذين كانوا على قارعة الطريق الذي كما يمر به أخطأ وفان لوفقه «انظروا، إليهم داهون إلى مكة المكرمة وأجابه أحد الصبة ممن هم أكثر بصيرة، كيف ذلك» إليهم بصاري^١

ولما كان حروحا من باب مكة المكرمة ذات عزن معسكر الويس، وأرض المعرض لمقدم حارج الأسوار، ثم يأتي بعد ذلك صهي من لحوييت والمفهي المشوّه، المنتشرة على جانبي الطريق لمسافة كيلومتر بقدرافنا عدد من معارفهم الد كول على حصار، ومصطفى أمدي عني بعلة، وإحوة ساوة، وآخرون أيضاً، ظلوا يرفقنا حتى الرعامة لمفهي الأول من اثني عشر مفهي مشيرة على لطريق من جدة إلى مكة المكرمة شرب في الرعامة قهوة اوداع، وكان الليل قد هط عندما تعرف كما في قلب اصحراء، وكانت الرمال تجعل القافلة تتقدم بحطوات بضبة، حتى ان شأسم يكن يعكر سكون الليل وقابلنا في الظلمات قافلة طويلة من العمدن كان لصمت يحيم عسها، ولم يكن هناك ما يشير إلى مرورها

بدأنا بعد بضعة أميال مرتقي أحد الشعب لمحصوره بين جيش محاصر، وكذب النجوم نلتع على قمبيها كأنها البرد وكان هناك في أسهل السمع امقابل مفهي لياضة، وهو ثاني مقامي لطريق، وكذا سوي الاستمرار في المسير حتى المفهي الثالث، بل أمد من ذلك، / ٢١٠ / وبكي أصبت بوبة من الحمى مفاجئة وعيها، مما جعل من المسحيل لمضي أمد من ذلك، واضطرت القافلة إلى التوقف في المفهي اثني عشاء ليل، ولكن ليس من دون ان يقوم اشريف بشر حراس من حوب لأمين الخدمة لم يحمل معها حيامنا، وكان لي بدلاً عنها حصيره نُصبت على أربعة أعمدة، واستلقيت فيها على سحادي يناسي المنق من الظرف انضاري، وشملكتي المحوف من أن يكون لفرعكك التي أصاسي عوفت غير محمودة، ويطى أعرف أن سب مرضي يعود إلى شرب فحان من المهوة مباشرة بعد

ساور فصعة من الطمع الأحمر، وهذا في رأيهم أمر إن فعلناه فلا سجاورة
بسلام. ولئن كان ذلك السبب الحقيقي لما أصابني أم لا، فقد شفيب خلال
السل، وفي الصباح لم يعد لمظاهر الحمى أي وجود

ولمّا لم تكن الهجن تحمل إلّا راكبها فإنها سرعان ما أصبحت جامرة
بلاطلاق، ولقد اضرفت الشمس وحدتنا مصطفين. كان منظر لقافلة في عربة
الروعة كان أحمد رئيس الحملة على رأس القافلة، وهو يركب هدجا راعيا
ثم يأتي بعده الشريف حامد الذي كان يتسلح بالمتوك، وهو عبارة عن قصيب
قصير معقوف يستخدمه العرب لتوجيه الجمل من على الرحل. وكان الأشراف
وخدمهم الذين يباح لهم في لماضي حملته كنت إلى جانب الشريف أنجاداب
معه أطراف لحديث بوساطة السيد دوكيه الذي كان ينقل إليه تساؤلاتي ويترجم
لي أجوبته. وكان أصحاب يتبعونا على جمالهم، وكان رجل المرافقة يسير
على أقد مهم سواء كانوا مستطلعين أم ماوشين، / ٢١١ / مرة في هذا لجانب
والخرى في ذلك.

تابعنا على تلك الحال طريقا خلال عدد من الساعات، يسير في سهل
رائع تحيط به الجبال من كل العووب، وليس فيه من المرع إلّا لموسج
وبعض أجمات الأشواك. كان يمسك في هذا السهل حباله كرد عثمان أي
رأب من بعد الحيام البيضاء، ولحبول ترعى بحرية تلك الأشواك

كنت القافلة تقدم بهدوء، تحت شمس لطيفة، وعجأة، وساء همى إشارة
من الشريف حدث الخطى، واستمر الحربي المصحوب برين الأحمر من نصف
ساعة قطعنا خلالها بلدات كثيرة. ولم يكن المشاة أقل سرعه في الحربي من
الهدج، ولم يأخروا عنها خطرة واحدة. ولم يحرنا الشريف أبداً سبب تلك
الساورة السريعة، ولكني أحاول تحميه. إنه حالة العداء التي تسود بين العرب
والأتراك، ولما كان الشريف حامد لا يحول التحقيد الذي يكنه لسحق^(١)

(١) عن كلمة سحق انظر المعجم الموسوعي للمصطلحات العشماوية التاريخية، مرنش
سابقاً، ص ١٣٦

(عثمان أبا) لشريف لأكرم، فقد كان حامداً يحشى أن يعرض هو نفسه أو
بحر لبعض اشتد من الناس بوروق ولكن الحركة التي فرضها الحذر عليه
ثم سببها فحالة وكادت تكون قاصبة بالة إلي؛ لآسي لو لم تتوافر لي
الفرصة لاعتباد ركوب الهجان إتيان رحلة مساء لكتت بصرحت على الأرض
وصبنا بحث إلى معنى حدة أكرم المفاهيم الأحد عشر كلها، ونفع تقريب في
متصف لطريق بين حدة ومكة المكرمة ويألف مقهى حدة من / ٢١٢ /
سبعة من اعصاب الأشجار يحيط بها عدد من القنافذ الصغيرة، وكل ذلك
يشرف بوجود مسجد في الحوار يجد في هذه المدهي حياً وأزراً، بل إن
وحدنا حراً فأقدماء هدية لدرجات الدين برقوقاً فأتوا عليه بسرعة كبيرة كان
بحر شديداً، فجلس في ظل الشفائف يستريح بصح ساعات، ولم يصدق إلا
بعد العصر كما حتى الآن سير بخط مستقيم نحو الشرق باتجاه مكة المكرمة
التي كان سير على طريقها، ثم عادوا الطريق فجاء، وانحرف نحو الجنوب
للتفادي لمرور في المدينة المقدسة، لأنه محظور على غير المسلمين ليس
دخولها فقط، وإنما رؤيتها ولو من بعيد بدأ، كان يسمي الالتفات بمهارة
حتى لا يسرق النظر إليها، ونحن نعلم أن الحظر يشمل المدينة لموره
أيضاً، بل هو في المدينة المورة أشد حرمة لأن أهلها أكثر تعصباً وشدة
ولا رل ليس يتحدثون بسخط عن ذلك لطب الإطاري الذي قصي فيه
أيام حرب محمد علي والوهابيين أربعة أشهر كاملة بحماية خاصة من
محمد علي فقد أقيمت حول مكة المكرمة أعلام بين كل مائة وأخرى
لتحديد حدود الأرض المقدسة والمحرمة على غير المسلمين، وحيث لا
يجوز أيضاً إراقة دم إنسان أو الحيوان، فالصيد محرم فيها، ولا يمكن
أن يدسح ديكاً إن التعاليم بهذا الخصوص صارمة، ولم / ٢١٣ / نركبوا
بلمح تلك الأعلام الخطرة خوفاً من أن تمتد النظرة العائرة إلى أحد من
ذلك. لا أنه لم يكن بالإمكان أن يحصى عنا جبل النور^(١)، وهو محروط

(١) يقع في الشمال الشرقي من مكة المكرمة وفيه عار حراء الذي كان آسي ﷺ يتنبد فيه، وفيه أوحى إليه، وكان قبل الإسلام يسمى جبل حراء انظر رحلات -

صحيح نفع مكة المكرمة في أسفله، كان أماماء، وكان حديراً بالاسم الذي يحمله، لأنه كان يلتصق تحت حرم صوة العروب أم السهل لواسع والرنج سهل معبرة^(١) Moobarreh فقد كان يحول يساً وبين جبل النور، وكانت تعبر ذلك السهل بسور أكثر حظاً منا، كنت تمر من فوق رؤوسنا لتذهب إلى مكة المكرمة حيث كانت هناك بدو شت أو كاره، لم يكر إلا على بعد ساعة على الأكثر من مكة المكرمة، ولكن أحداً لم يطلق باسمها ولو مرة واحدة وعند العسق دحنا في سهل آخر هو سهل العكيشية^(٢) وفيه أدركنا الليل ثم سرب ساعتين في ظلام دامس، وبصمت مطلق لم يكن أحد يعي، ولا أحد يتكلم، وكان يبدو أن لا أحد يتنفس، ولم يكن نسمع إلا صوت تكسر الأعشاب اليابسة تحت حفاف الحجر وعنده توقفت المفظة عند صلتنا الطريق

يمر طريق العادي من جده وانطاف عثر مكة المكرمة، ولم يكن العرب الذين يرافقونا بدءاً من الشريف حتى العبد، قد سلكوا من قل طريقاً غيرها، لأنه لم يكن عليهم أن يرافقوا فلان مسيحيين، ولم يكن عليهم دلسي أن يتجسرو المرور بمكة المكرمة ولما كانوا يحرصون على حفاها عن

بوركهات ، موني سافا، ص ١٦٣ - ١٦٤ واطر صفحات من تاريخ مكة المكرمة، موني سابقاً، ج ٢، ص ٥٦٥

(١) كتبت في الرحلة الإصحيرة لرحلة ديديه، موني سابقاً، ص ١١٠ Plain of Mubarrahi سهل المبرح ولعل تصواب في ذلك أنه سهل المعانده الذي أصبح ليوم حياً من أحياء مكة المكرمة بعد أن امتد إليه العمران

(٢) جاء في معجم معالم الحجاز، ملادي، ج ١، ص ١٥٣ - ١٥٤ العكيشية بلاد أسفل مكة المكرمة، كانت لآل المسحي، بابها جيش الحسين بن عبي أمير مكة المكرمة عند حملته على حسير سنة ١٣٢٩ هـ وهي اليوم مزرع عثريه إلى الجنوب الغربي من مكة المكرمة، يصب سيلها على حد الحرم الجنوبي وتصب منها شعاب انوتائر - جمع وير - من الغرب، وهذا هو ما كان يسمى أنوير، أما اسم العكيشية فحدث، وفيها شر يسمى بئر البحي وأرضها عثرة عن يمين الجبال وكتبها ديديه Okochi

غيوباً، فربهم صلوا الطريق الصحيحة، وب التناهي عن الطريق بدافع التقوى /٢١٤/ جعلهم يحفظونه، وبدنوا جهوداً لم نفع للاعتناء إليه، وأصبح من المستحيل عليهم أن يسلوكوا الوجهة الصحيحة حيث يشاور الشريف ورئيس الجماعة بصوت محقق، انصرف الأخير مباشرة بعد ذلك مسرعاً لاستكشاف الطريق كما في تلك المحطة قريب كل القرب من مكة لمكرمه اني ذهب إليها رئيس الجماعة على الأرجح وألقيا عصا الرحا بانتظار عودته

قلت في بداية هذا الفصل إن اضاعي لأول لم يكن بجانباً عن الشريف حامداً، وإني فشرت صمته تفسيراً خاصاً، ولم أأحر في العودة عن حكمي المنعجز، وفي مؤاحده نفسي على ظني لذي لم يكن عادلاً إن ما طسته عجرة كان حلاً ولا يمكن تصور الرعاية التي أحاطني بها خلال الرحلة، واعبابة المؤثرة التي حصني بها عندما ألتقي في الرعكة القصيرة في الأمسية السابقة، والاهتمام الذي أولاه في مساء ذلك اليوم الذي ضلنا فيه الطريق كان يحس أن يكون ركوب الهجان خلال اثني عشرة ساعة قد أرهقني، ولم يمنع لتأكيد لتكرار بأسني لسب مرهقاً في إقاعه بذلك وكان لا يني يُقَر بي بأروع الكلمات وأفصحها عن قلقه وأسفه لقد أحد زمام محابي، وجعله يسير إلى جانب محابه، خوفاً من أن /٢١٥/ يحرف عن طريقه في الظلام؛ كان يقوم بكل ذلك على أحسن وجه، وأنتم آباء الأدب

كان بين المرافقين عند صبح وومسم، بُسَمي أبو سلاسي Abou-Slaci، وكان موضع ثقة الشريف الأكبر، وكان يبدو أن به نوعاً من السلطة على الآخرين، سم يُعزوا مد الاطلاق أي اهتمام، ولم يكن لطيفاً، وكان يقوم بما يكلفه به سيده من مهمات بأشياء ظاهراً وعدم ضلنا الطريق كان يردد شكوى محزنة، ويحتج بسفاهة عدلاً، إن سيده يدلع فيما يقوم به من أجداء وإنا لسا في نهاية الأمر إلا نصارى، لا مسح كل هذه التشريدات، وإن في معاملة الكفار مثل تلك المعاملة في عهد الإسلام إعصاباً لله تعالى لذي حرانا بجعلنا نصل الطريق في قلب الظلام

لقد سمع الشريف بلطف، وأظهر له أن كلامه غير لائق، وقال له إنا

صوف الشريف الأكبر، وهذه الصفة تعرض عليه احتراماً، وإياه يسيء كل
 لإساءة إلى سيده بتصرفه الذي لا يتناسب أبداً مع بوابه وأصاف أن حسن
 لضافه هو لواحد الأول الذي يقوم به العرب إياه الأحباب، وأن النبي ﷺ
 أوصى بذلك حتى تحب الكفار أنفسهم، وأنا تأتي من بعد حدث بريرة
 بلادهم، وعندما يعود إلى أوطانها، ماذا يقول / ٢١٦ / عنهم لمواطني إن سم
 نجد في الجزيرة العربية ما يستحقه من تقدير واحترام؟ ولم يمت السيد ذكيه
 كلمة واحدة من ذلك الحوار، وأعادته على مسامعي كلمة كلمة في اللحظة
 نفسها ولكن «أبو سلاسي» لم يرجع بعدها، إلا أنه بدأ أكثر تحفظاً في كلامه،
 ولم يكن ليحجز في المنقل على النقام مثل تلك التجاورات

منهر أحمد (رئيس الحملة) من جديد أخيراً، وحمل معه كما يبدو
 معلومات محددة، لأن مقابلة عادت إلى مسيرتها دون أي تردد، كان عليها أن
 تعود لفهقرى بعض الوقت، ثم تعرف فجأة نحو الجنوب، وترقى هضبه وحره
 ثم تبين في اتصال ملامحها وعندما وصلنا إلى القمة لمحنا أضواء على البعد،
 وسمعا نوح انكلاط، ومررت بعد لحظات فليت قرب قطع من الأعمام، أما
 رحلته ادين سم اتبين إلا أشباحهم السوداء قد برروا أمامنا، وحبو الشريف
 باحترام، وقادوا إلى ملكية مسورة، واسعة، مكورة من أبنان متدحنة،
 واستقبلنا هناك طاهر أودي، أحد خدم الشريف الأكبر، وأشتملنا بكلمه خادم
 بالمعنى الذي كنت نحمدته في القرن السابع عشر. للإشارة إلى شخص حر
 يعمل في قصر أحد الأمراء كان طاهر أودي قد جاء من مكة المكرمة في اليوم
 نفسه لاستقبالنا، وقد حلفه وصولنا المأخر من / ٢١٧ / فلق كبير كان الوقت
 قريباً من منتصف الليل، وكان يرتعد خوفاً من أن يكون أصابنا أي مكروه
 وبالعظم دهشتي عندما رأيت موظف أمير مكة المكرمة هذا يرتدي بزة أوربيه

لقد رافقني مصطفى أودي للقيام بجولة في السنتار لمور المسمى
 الحسه، وهو ملكيه رراعيه أو رعوية للشريف الأكبر، اطلعت خلال الجوله
 على مشهد حقيقي من مشاهد الحياه العربيه كسب الملكيه مسوره بحكام من
 كل الجهات، وكسب المساحة الداخلية غير مسقوفه، وكان الموقد يتاحج في

لوسط، وقد وضع عليه فنجر صحم من الحاس وكان هناك عدد من الحدم
 يدعون اليك حيث ودهاناً، يقومون على العناية بالضح، أما حدماء فقد
 استنفوا حول النار متعين من يوم شاق

كان لستان فصبها بنسج للحميع، وظلت الهجن وحده في الحارج،
 وكانت قطع من الحشب الصمعي قد أشعب بمشاة مشاهل، وتشر في المكان
 رائحة قوية طيبة، وانعكاسات حمراء لها مظهر رائع. ولم يأخر طعام العشاء
 كان عبارة عن حروف صحم ملوق كاملاً، به حروف لصياغة الأصيبة،
 استخرجوه من فعر ذلك لفتنر، ووضعوه أمامنا في جبة^(١) ثم قام أحد انعيمه
 لسود شفه إلى قسمين بصرية بطقان، وقامت أصابعنا بعد ذلك مفاد شوكان
 لطعام، وبال الحميع أسبأداً وتبعاً نصيهم من النوليمة وعدمه انتهت من
 لطعام قام الحدم بعد السجاد على الأرض الجرداء / ٢١٨ /، واستلقينا عليه
 دون أن نحس ثيابنا، وبما محتلطين، ملتحف السماء لم يكن السهوخ أقل
 روعة من النوم، ولكنه لم يكن مكرراً، ومع أن الحميع تنهوا بعد فترة وجيزة
 من الاعتسال، وكانت الشمس قد بدأت بالسقوط مدد رمس طويل عندما كنا
 جاهرين بلاطلاق وكان عدد من عبد المرل أو بعبده أدق البسار، قد
 حيون عد الاستعاط بالمرتب على طول صغيرة بحملونها معهم على الدوام.
 وكان ينصب أمام الحسبة جبل نور^(٢) حيث أحيا النبي ﷺ مع صاحبه
 المنحلس أبي بكر عليه في اعمار بلافلات من مشركي مكة المكرمة الذين كانوا
 يلاحقونهما وتذكر إحدى الحكايات المحلية أن لسي داود عليه السلام^(٣) مدفون في

(١) Madrier = حفرة رجمها جفان وجفان، وهي ما كانت العرب تضع الطعام به وقد
 وصفها ديديه بقوله إنها محصورة على شكل صحن

(٢) يقع إلى الجنوب من مكة المكرمة بحوالي ساعة ونصف ساعة، إلى الشمال من
 الطريق المؤدية إلى قرية الحسبة، وهو جبل شامخ يقال إنه أعين من جبل النور
 وقد أثار القراء الكريم في سورة التوبة، الآية ٤٠ إلى حشر النبي ﷺ وأبي بكر
 في اعمار انظر رحلات بوركهات ، موثق سابقاً، ص ٦٤

(٣) لم نجد هذا في مكان آخر.

هذا الحبل، وهناك عدد من الروايات المعروفة بهذا الخصوص وإن لصريحه، أو ما يسمى بذلك، مدخلاً ضيقاً، لا يدخل منه الرجل المتوسط القامة إلا بصعوبة وإن أولئك الذين يستطيعون تجاوز المدخل يصبحون رائقين من خلاصهم، أف الآخرين فإنهم لن يدخلوا الجنة أبداً ويُحكى في مصر مثل هذه الحكاية بخصوص عمودين في مسجد عمرو بن العاص في القاهرة القديمة؛ إذ يحكي المصريون بحث أن عاص باش عندما حاول تجاوز احتار المرور بين العمودين علق بين دعائم الاتهام، وكاتب محاولة إخرجه من بينها من الصعوبة مكان؛ ويستنحون من ذلك دلالة أنه سيقاب في الآخرة على لحوائه التي ارتكبها في الحياة لهذا / ٢١٩ / انضم طاهر أفندي إلى القافلة، وكان يحطى بركة كما يلقى بأفندي مثله، ورافقا حتى القائف سرا في المدينة في واد عريض جداً، محيط بعدد من الهضاب كثيرة، والحجارة، ونمطيه زمال شديدة العموم، وشديدة الياص، وكانت تضع أجسام من العشب داب اللون لأحضر الحمل تحف من التناع لرمال، وكانت بعض الأشجار المنتشرة في لمكان نشر طلالاً لا تقدر بشر، لأن لعر كان قد بدأ يشتد

كان هناك عدد من الفواث المائية تنشق الأرض، وتذهب لصت في حوض محفور في الرمال لجمع الماء وكان هناك بعض قطعان المواشي التي ترعى في الجوار، ثم تأتي إلى الحوض لتروي عطشها كانت قطعان من الماهر الأسود ذي الشعر الطويل، ومن الأعمام الحميلة لبصاء دواب الآدان لمترحية، ومن المعجول والأبقار من دوات الحدبات، وهي أصغر من مثيلها في أوروبا.

وكان هناك أطفال شبه سود، عراة تماماً، يَخرون على الرمل بين المواشي، ورعاة يقربونهم في السواد، وهم مثلهم في قلة الثياب التي يرتدونها، يُكبلون، والرماح في أيديهم، تلك القصيدة الرعوية العربية كان لون حناهم داكناً، وكانت مثل حيام الدو كلهم معشرة بأعداد قليلة في منع الهضاب قسم لا أولئك الرعاة المتجولون، المادمون من لشرق، والذين

يمرون من هاء الحليب، صلوات وشكرنا لهم ذلك إن أكبر إهانة بمكر أن
توجهها لسدو هي أن معاملهم معاملة نحار الحليب إنهم يعطون حليب
حيواناتهم، ولا يبيعونه أبداً / ٢٢٠ / تصبح البلاد بعد بضعة أميال أكثر
افتتاحاً، وتتحلى في الأفق العيد الواسع سلطة من الجبال

كان الوقت ظهراً، عندما وصلنا إلى منح جبل عرفات الذي يقع على
بعد ثمانية أو عشرة فراسخ إلى الشرق من مكة المكرمة، وهو المكان الذي
تجري فيه كما ذكرت سابقاً المسبب التي تحسم الحجاج وكان ينتصب في قمة
الحجر عمودان يحددان المكان الذي يقف فيه حطاب مكة المكرمة، منتصباً
بأفق بصاء، مربة مربة مربة، ليلقي الخطبة التي تعد نهاية الحج، والتي
يسمي على انجاح سماعها ليحمل هذا لقب

إن هذا المكان المقدس في الإسلام، الفاحل والمصحراوي، يكون في
ذلك اليوم مكاناً لمشهد رائع؛ إذ يتراحم فيه جمع هائل من المؤمنين الذين
يحتضنون فيه في رمس واحد، ويوجد هناك معسكر خاص بكل حية من
المسلمين، فالعرب، والأتراك، والسوريون، والفرس، واليهود،
والمصريون، والمغاربة، حتى السودانيون، لكل منهم، معسكره الخاص
وإن الأوربيين الذين استطاعوا تأمل هذا المشهد العظيم كدوا جميعاً أنه ليس
هناك ما يمكن أن يعطي فكرة عنه يوجد هذا لجبل المقدس على أرض قبيلة
فريش التي اكتسبت بذلك شرفاً كبيراً، وتعد واحدة من أكثر قبائل الحيرة
العربية سلاً، ومع أنها اليوم قد تقلص عدد أفرادها إلى ثلاث مئة شخصين
للعراة ابن المسلمين الذين لا يبركون غير المسلم يرى رأس مارة من مزارات

(١) انظر رحلات بوركهارت، م. موثق سابقاً، ص ١٦٨ ويبدو أن يديه استقى هذه
المعلومة من جهة تيمرية، انظر اكتشاف، م. موثق سابقاً، ص ٢٥٧ إذ يقول
المؤلف: «وأحرق أسلح الجيش (جيش محمد علي) بحر الطائف في السابع عشر
من شهر أيار (مايو) من سنة ١٨٣٤ م وراء عدد من الأدلاء الفريشيين الذي حتر
جوماز قهرهم البادي، وقد قيل له إن هذه العشيرة التي سمي إليها النبي محمد بن
عبد الله عليه لم يبق منهم إلا ثلاثمائة رجل...»

مكة المكرمة، ولو لمحاً فقط، يسمحون له بالصعود بحربة إلى جبل عرفات، وباستكشافه على هواء. ولما ذكرت / ٢٢١ / ذلك الساقص للشريف حامد اصطبح أنه لا يفهمي، وكان حواء الوحيد أنه رفع صوته قائلاً: الله أكبر، ومحمد رسول الله^١، ولكن ذلك لم يكن يكفي للإجابة عن سؤالتي

لماذا كان يجري في تلك الأحياء مع ماء بارد وبمير، وذلك كبر لا يقدر شمس في تلك الصحراء، كان البيع يجري من أسفل الجبل ويذهب إلى مكة المكرمة عبر قناة معظاة، مسة، ومطوية، وينت الناس شرف هذا العمل إلى السدة ربيدة إحدى ساء التحليمه هارون الرشيد وعندما تجاورنا لمدينة المقدسة أدركنا بها ظهورنا وكان في هذا الجانب من المدينة عدد من المقاهي كثر في لحاحب لآخر، وبعد اسراحة قصيرة في مقهى عرفات الذي يقع في أسفل الجبل الذي يحمل اسمه، وحيث وجدنا، وهذا شيء مثير، لساً ناعماً طريفاً عبر رادي نعمان وهو ولد رملتي، شديد الحرارة، تنتشر فيه خضيات شوكية، وساعات حميلة جداً، لها أوراق سمكية، طولها من ست إلى ثمانية أقدام، ولها أزهار بيضاء وسمكية، بتلاتها Petales ناعمة مفعمة للمحمل، وعندما ينكسر ساقها يحرق منه سائل يشبع في لبد أنه يذهب بالبصر، سببت الاسم الذي يطعمه لعرب على هذه السنة، ويسمونها في السودان حيث تكثر بكثرة عُشَر^٢ Ochar وكان أحد الضباع الصحفة القايح وراء دغل قد هرب لدى اقترابنا منه، وحل طوال مدة جريه يبدو وكأنه نقطة سوداء على رمال الصحراء الملتمعة نوهما ثابة / ٢٢٢ / لاسراحة طويلة في مقهى شدد المواقع في أسفل جبل كرا، الذي كان طوال اليوم في مواجعتها، والذي كان علينا أن نجاوره كان غلب الرحل عن الهجن التي لا تستخدم ركوباً لدى محاور الحباب، وهي في الواقع ليست مهأاً لذلك. لقد كان على حص فافسنا أن نقوم

(١) ذكره بوركهارت في رحلاته، موتى سابقاً، ص ٢٧١، وقال إنه ذكره كثيراً في رحلته إلى بلاد اسوة، وقال الترجمان به عريض الروق ومنايه في الحجاز ومجد، واسمه اللاتيني Asclepias وقد ورد في معجم الشهدي أنها قصيدة منابه من دوايت العاقنين منها الصفلاب والعشر

بالصاف طويل كي تصل إلى الطائف وترسل لنا الشريف الأكبر مدلاً منها ما يقارب خمسة عشر يعللاً كانت تنتظربا في الممهي وبسما كنا بعدداه، كان يُضف علينا من جمع الجهات شراب في صُحيفة من حشب وكث أحار وصوب اجتذبت بدو الحوار كانوا جميعاً يريدون أثواباً ورقلة مشدودة، إلى الحصر بصيره من الحد ثلث اثني عشرة أو خمس عشرة مرة حول الجسد، ماهيت عن أنهم يتجددون حمالات سوف مربة بصنائع صغيرة من بعضه، موضوع بعضها فوق بعض على شكل حرائف الأسماك أما الحجر المعروف ندي يسمونه ها حسيّة فقد كان موضوعاً في أحرماتهم، وكانو يحمون في أيديهم رمحاً حملاً، قناه طويله جداً، ومستقيمة، ومحلولة اما لعصه فقد كان ينسب حولها سلك من النحاس الأصفر المجدول بطريقة ذية وكان بعضهم يحمل بندق بقله، كان أحمص كل منها مربعا، ومرصعا بدعاج وكاب الكفيات لرقاه تعصي رؤوسهم، وقد وضع عليها عقال أسود مصروع من حيط من تشمع وأبرده والرائح المعحونه معاً، وتكون حواف ذلك العمال العارحة مربه / ٢٢٣ / بروف التؤلؤ^(١)

كان هؤلاء الرجال طوالاً، مشوغي لقامه، وقسماتهم مساعده، وبشرتهم سمراء داكنه، وكان بينهم أطفال صغار لا تتجاوز أعماهم عشرة أو اثني عشر عاماً، يلبسون كالرجال، ويتسلحون بمثل سلاحهم، وكانوا في عبة الكباشه لقد شد ساهي السلوك الأبني والمؤدب في انوقف معه بدى الرجال والأطفال على حد سواء كانوا يُقنّون بأدور يحاور حدود الاحرام، وكانوا يحدثونا دون ارتباك، كما يلعب لديهم الاستغلابه، وعرة النصر، وصوباً من انس بغيري الذي سم يسطع أي احتكك بالأحبي أن بعسده عليهم في عمق صحرانهم

ليس بالإمكان تقديم لوحة أكثر روعه، ولا استعراضاً أكثر تأثيراً ومما جاء كانوا أول بدو أشعلهم في بيثهم الحففيه، وحملت لهم مد تلك

(١) قارن به في كتاب التراث الشعبي ، مرقى سابقاً، ص ٦٥

للحظة احتراضاً واستلطافاً لم تردهما الحجرية الطويلة إلا تمكناً وكاتب إحدى قائل لحوار^(١) باتجاه جنوب، والتي اسمها لسان اسمها، تدعي بحق أنها تتكلم العربية الفصحى في الحريرة العربية وبعد أن استندت اسماً كل الأسف بالهجان الرثع الذي كنت أركبه معللاً وبالرحل الحريري المبرق بالعصاة سرحاً من لحد كنت له كثير من صفات البردعة ركبته بطريق متأخرًا وكنت تصادرس الأرض قد عبرت تماماً إذ حبت محل الرمل أرض صبة ووعهرة، كان يصدر عن حوافر البغال عد وقوعها عليها صوت يشبه صوت احتكاك المعادن وبعد ميل على / ٢٢٤ / الأكثر قطعاً في أرض سهبة، دخلنا في مصيق واسع في يداينه، ولكنه يصبق بعد قليل مكمشاً، ويرفع تدريجياً، وتمتد على حايبه ذلك كبيرة من الصيد لوحامي بطيقت أقبه كان جبل كرا الذي كما حيثئذ تسلق أولى مسدراته ينصب أمامه، وكان يتحدنا، كنت جواره متصدعة مشتمة، وفعمه جرداء ومحوثة على شكل قباب ورووس مسية إن الحال التي لا ترون على حاله حيقها الأولى أكثر نوحشاً ووعورة من حال العصور الالة إنها هياكل من يد به العدم، كانت، كما يرى، عرصة للهراس، وجعلتها الاحتلاجات العميقة متفرجة، وهدمتها الاندفاعات الهائلة.

بل لك هي طبيعة جبل كرا، كلفة حراشية اسحت في بديعة الحق، مثل جبل سيباء، من أحشاء البكون نعيشاه الشمس كاملاً عند غروبها، ونصفي فجأة على كل السنوات درجة شراب الألوان الذهبية والسوداء مما يصحبها انعكاساً مذهشاً كنت نبت للوحة قصيرة، ولكنها مهينة كان النطق قد بدأ يحجم على الأحراء السفلية من الجبل عندما نلعت عراة بعداً وربي جلاً آخر مفرداً، صحباً بعشاء أيضاً حتى قواعده لون رهري فافع يسمى ذلك الجبل كككب، وهو واحد من على حال الحجاز أرحى الليل سدوله مبكراً على المظفر / ٢٢٥ / الرابع، وأدركنا في أكثر مناطق المصيق الذي يسلكه وعورة،

(١) انظر رحلات بروكهارت، مونت سافا، ص ٦٩

وأكثرها توحشاً؛ لقد أصبح صعباً، ولا يتسع إلا لمرور نعل واحد، ومسحوراً لا يمكن التقدم فيه إلا ببطء شديد كان فيه عقبات كثيرة، جعلها الصلابة أكثر صعوبة أيضاً، بيد أننا أدركنا بلا حوادث مبهمة الكرك^(١)؛ وهو مكان واسع مسور بالأحجار بلا طين، وفي وسطه مورد مشعل كما في الحسبية، ولكن هذا المورد ليس عليه أي قدر، وعليه، فليس هناك عش، مع أن لشريف كان قد أمر بأن يحرق العشاء هناك جاهراً، ولكن يبدو أن الرسالة لم تُنفع كما هي، أو أنها لم تنفع أبداً لم يُعدوا لنا أي حروف ولو كان صغيراً وكنت على لدوام أشك في أن أبعث «أبو سلاسي» هو الذي فعل ذلك بنا على طريقته وكان على عاصرو النبي لم يجد مد جدة ما يفعله أن يمارس مهاراته هنا ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن ليهمه كثيراً؛ لأنه كان علياً أن يرعى بالحليب والأرز ذهباً، بعد هذا المشاء المتراصع، لنوم كُلى على سجادته، تحب قبة السماء أنني تربتها المحوم ولما كنا قد وصلنا إلى الكرك ليلاً فبسي لم أستطع تبين ملامح المكان الذي كنا فيه ورأيت في الصباح أنها في قعر حجرة ذات فوهة واسعة، جذرائها شديدة لاجدار، وجوانبها مسنة برؤوس تتفاوت في حدتها / ٢٢٦ / وكنت رؤوس تلك المسبات عندما انطلقنا نضاء الواحد نحو الآخر حسب علوها بضوء الشروق، وكانت بعد حرم الضوء قد بدأت تتسرب على طول الشوئات الصحيرية العمياء، إلا أن عتمة الشفق ما زالت تعثبنا، وكما بحاجة إلى عدد من الساعات للوصول إلى المناطق التي نصبتها الشمس كان يسمي ألا شكوا من قاصبيها من مصاعب، لأن انصعود لثاق، لأنني سحجل ذلك ذكرى جميلة، وقد كان يمكن أن يكون أكثر انصعود أكثر صعوبة لو أنها لم صادرة في جو بارد وهذا ما كان الشريف حامد حفظ له بدقة ومع أن حل كرا أقل صحامة، وأقل هولاً من حل سيب، فإنه يُدْكَر به، بوعوره طرقاته، ونقطة بعله، شأمة شأن جل سيباء، قد تعرض لبرة عميقة، لأن البصعدات النواصة والتهدمات التي تنتشر فيه وتكثر، هي آثار لا ندحص

(١) نهاية جبل الكرك وأسفله، انظر ما رأيت وما سمعت لخير الدين التركلي، ص ٧٢.

لرلال عيفة حربته لم أر في امتداده كله شجرة وحده، هالك بعض الجسات
 اشوكيه، وبعض من أشجار السرو القرمة التي تظهر على مسافات مبعدة عبر
 لصحور كد الطريق في كل الاتجاهات محدراً ووعراً كل انوعوره في
 بعض المواضع، وإذا رأيت من الأمتل فإن سلوكه يبدو مسعياً أبدأ لقد
 وصلنا على أية حال إلى بهاته بفصل خطوات العال الوثقة، وبهم لماد لا
 تستطيع الجمال سلوك هذه الطريق إن مدفعيه محمد علي، إنا حرب
 لوهابيس /٢٢٧/ استطاعت مع ذلك تسبق هذه المحدثات الوعة، وما
 راب على الطريق الحاية آثار بعض الأعمال التي عدت في ذلك الوقت لحمل
 الطريق سالكة بل سم في بعض المواقع تعيد من حمله ايوم أكثر صعبه
 لأن لرمس ولا مطار أرالت ذلك التعيد، ولم يتم إصلاحه بعد ذلك أبدأ، وقد
 تحولت مواد التعيد ايوم إلى أحجار متحركة، وإلى أحاج مرروعة عمداً
 تحت أقدام امطاي وقد بلغت الصعوبات في بعض لأحيان حداً كان يقتضي
 الترحل من العال، وبرا كل الأحمال عنها، كانت العال متشبثة بالأرض،
 تترلق إلى لوراء، تكاد تسقط في الهوة، لولا أن البقالة كانوا يسدونها،
 وكانوا عالياً مصطربين لحملها أما عرب المرافقة فكانوا حماة الأقدام،
 يفترون من صحره إلى صحرة، وكانهم من طاء التحال، وكان يمكن بهم أن
 يخدموا وراهم بمسافة طويلة، لولا أنهم كانوا يتوقفون غالباً لاستنارنا
 كانوا، وهم جالسون أر واقفون على رؤوس الصحور، يفتنون لحياة في
 الطبيعة لقاسة التي كانوا سمه من سماتها الأساسية

وحدنا أبدأ بعد ساعتين أو ثلاث من الصعود لمتعب، وكأنا
 للعويض عن ذلك التعب، ومكافأة عليه مستحقة، أمام بع عذب محمي تحت
 كله صحفة من الجرائب ومحاطة بالعناج، والرفوم 'Absinthe'،

(١) عنه ممر، سعل في الطب لمهم والإدراك وكر ناميريه في كده وحله في
 بلاد العرب - الحملة المصرية على غير ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٤ م، انقسم اسم حم، من
 ١١٦ أن العرب تسمى الأفسنتين Absynthe الرفوم، وأضاف ناميريه " وجدته
 بالقرب من العقوق نوعاً من الرفوم، يشبه الذي نجده في أوروبا، ولونه هنا يعيل إلى

والحرامى، وساتب أخرى ذات رائحة عطرية / ٢٢٨ / كان لشريف حامد على غير عادته قد سقاها بما عارب منه خطوة، وأعد لها هناك قرب السبع وحة طعام بسيطة، كان ماء السبع اسارد والمير أسيريه المماسية يظهر في إعداد الوجه ما عرفه من أدقة لشريف في كل أعماله كان الطر من هذا الموضع يمع، إذا نظرتا إلى الحلف، على هوة واسعة من الحجر حرجا من فعره الذي تستطيع العين بهلع أن تقدر مدى عمقه إذ تنشر في كل مكان شعاع حرد، وجروف شامعة، ومحدبات مذهلة كان يشيع في تلك الطبيعة المحفة صمت عميق، لا يقطعه إلا أصداه بعيدة لأصوات بعض الرعاة الذين لا يراهم وفي الأفق البعيد نحو العرب، وفيما وراء تلك الشعاع، كان يقع بجلاله وانفراده جل ككب الزائع الذي بد لي في مساء اليوم اسابق، وقد هشء لون وردي جميل أما الآن فعشاء لون أزرق لامع، أكثر عمقاً من لون السماء، كان ينصب في الأفق وكأنه جدار من الفولاذ الأسمر

أما حين كرا فيسكه برلا، أكثر حياءً للشم، أعني لفروود لتي يُحمل كل ما يمكن القصص عليه منها إلى مكة المكرمة، ويحملها الحجاج معهم من هذا المكان ما إلى دمشق وإثا إلى القاهرة حيث رأيت عدداً منها يصل إلىان الحج الأخير، / ٢٢٩ / ولكني في مقابل ذلك لم أر ثياً منها حراً متوحشاً في ابطيمة ويروي الناس بخصوصها حكاية، يصحك العرب بها كثيراً إذ يروي أن امصر أصاب بصاعقة أحد بحار المراكيش قبلها، مشربها في الشمس تحميمها، وما إن رأت الفروود ذلك حتى هزعت من كل أنحاء الجبل، وكم كانت دهشة ساجر عندما رآها تتوانب حوله، وقد اعتمر كل واحد منها ضرباً وتشييع دهشة مماثلة في المراكيش البحرية الأوروبية بفارق بسيط هو أن المراكيش تنحور في الحكاية الأوروبية إلى قبعات من القطن^(١)

الأحمر الداكن، ويستخدمه العرب في كهفات عند انطع، ويستخرجون منه عصيراً - أيضاً - ترحم هذا القسم من رحلة تليفيريه الدكتور محمد بن عبد الله آل رلعه، نشره في الرياض ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.

(١) كان العياشي في رحلته ماء الموائد (الرحلة العياشي)، ج ٢، ص ١١٦ - وراينا

كان الطريق من السبع إلى دروة جبل كرا أكثر وعورة وخطراً، وفي
النهاية، وبعد ثلاث ساعات أو أربع من هذا لمسير الشاق، وصلنا قمة الجبل،
وأصبحنا تحت أشعة الشمس التي كان الجبل معه يحمينا منها. إن أول ما
بلغت النظر هو البحر الأبيض المتوسط الذي كان يستقرنا على حافته فجاء
أخرى، بل، كرم آخر كان هناك في استقالا أحد أشرف المنطقة متطياً
هجاناً أصغر، وكان معه في انتظارنا أيضاً شريف آخر سمعته سلم، بمنطقي فرساً
بصاء، أرسدهما الشريف الأكبر من الطائف مائة في إكرامنا. كان يلف
حولهم ستون / ٢٣٠ / من الدو، من قسمة هدبل المشهورة بـ شعاعة، وكانوا
يردون شاماً شديداً تماماً ما كان يريده الدو في معنى شداد، وهم مسحون
أيضاً بالبحر والرماح والسادق ذات الشله. كانوا مشهورين بأنهم أمهر
لرمة في الصحراء. لقد اصطفوا على طريقة بكل لاحتزام الذي يلق بصوف
أميرهم، ولكن بغير نظام، ولا انضباط، وكان كل منهم كان يفعل ما يحلو له،
وبإرادته الشخصية. حدث كل ذلك في صمت مطلق لم يصدر عن الدو أي
صيحة، ولشريفان به بسا ست شمة، وكتب بالسلام علينا كما يسلم
لشريفون بوضع اليد اليمنى على الصدر، ثم على القدم، ثم على الجبهة. ردود
السلام بالطريقة نفسها، ثم قادنا بعد ذلك، يرفها ستون من الدو، إلى بيت
مجاور أجد لنا.

كان اسم المكان الهدى، وكان قد أسس المرء أو يسكنه على الأهل
أحد المارقين من أهل موسكو لم أستطع الحصول على أي معلومة عنه،
وعلمت بعد ذلك بأصداقه في القاهرة من أحد اليونانيين، وكان يعرفه، أنه

ه. لفرود به (جبل كرا) تصبح وتنت في أعالي تلك الصحراء فتعجب من ذلك وتغير
أنها توجد في هذا الجبل، وما سمعنا قط أنها بأرض الحجاز، وإنما يقال إنها
تُجيب من الشام والروم إلى مصر والحجاز. عن كتب الطائف، جغرافيته -
تاريخه - أنساب قبائله، تأليف محمد سعد بن حسن آل كمال، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥ م،
جمع وتعبير د. سليمان بن صالح بن سليمان آل كمال، مكتبة المعارف بالطائف،
١٤١٧ هـ، ص ١١٤.

من ودامى صباط الحرم الذين تورطوا في آفته العسكرية عام ١٨٢٥م، عندما تسلّم العرش الإمبراطور نيكولا Nicolas ثم أفلح في الهرب ولجأ إلى إستنبول. ولكن السفير الروسي ألح في طلبه، وحوّ من أن تتحب الحكومة التركية لتصعيقه للمطالب العسكرية / ٢٣١ / لحاربها القوي، عسى الإسلام لكي يفت من ثأر العصر ولما أصبح يتمتع بالحصانة بسبب تحله عن دينه، فإنه ذهب للإقامة في الحجاز حيث قضى فترة طويلة، ثم قضى أيامه الأخيرة في الأناضول ومع أن أوروبا كن يسكن ذلك البس، فليس منه ما يذكر بأوروبا كان مربعاً، صغيراً جداً، مبياً بالحجارة فقط، تمتد أمامه مصبغة، ويحيط به عدد من الأبنية التي تطل عرفاته عليها

كسب العرف الرئيسي في الطابق الأرضي، وكانت معطاة بالسطح، وقد أعدت لتستريح فيها، حلوت بمضي بضع ساعات للاستقلال، بل قبل للاستراحة، لأنه لا يمكن للإنسان أن يحمل الحركة واحتلاط الأمور في منزل صغير، خطّ فيه رحلتهم ما يقارب مئة رجل مسلح لم يستطع الجميع دخول المنزل، بل ظل كثير منهم في الخارج، مستنمين على الأرض، أو يجلسون انفرصاء بمحاذة الجدران، أما الآخرون فقد كانوا يتراحمون في هذه المنزل نقد أكل وشرب هذا الجمع الصغير كنه كيما انفق أما نحن فقد قُدم بنا في لنداية اللس، وله لدى العرب استخدامات كثيرة، والمعروف أنه صحي جداً في تلك الأجواء.

ثم حملوا إلينا بعد ساعتين جلأ من الرر يعلوه حروف صحم مشوي، يحمله عبادان يوءان بحمله، ثم وضعوه أمامنا دعونا الشريمين بمشاركنا لطعام، وها نحن جميعاً جالسون على شكل دائرة، وأقدامنا / ٢٣٢ / متصلة حول هذه الحصة الضخمة كنا سبعة، وكانت شهيتنا مصوحة، ولما شبع نحن السبعة كان الطعام لا يزال وفيراً، وذهب ما بقي من المائدة إلى المعيس كانت الساعة حوالي اثناثة عندما فكرنا بالانطلاق؛ لأن الوصول إلى الطائف كن يحسج أربع ساعات على الأقل لم يرافقتنا شريف لجل ورجاله من اندو، وتمت مراسم الودع من الجانبين بالمراسم والنصمت للذين مبادا عند الوصول

انضم إنيب الشريف سليم وحده كما فعل ذلك في اليوم اسابق طاهر
 فدي في احسنة كان الشريف سليم على رأس القعدة ممطياً فوسه
 البضاء، وقد اكتشعا خلال الطريق مدى تقاه وورعه توقف في المحرب
 والعشاء، ومد سجادة الصلاة على جانب الطريق، وسجد فوقها متجهاً باتجاه
 مكة المكرمة، وأدى الصلاتين في موعدهما المحدد ولما سم يكن هناك معه
 بعد تيمم بالرمس، كما رخص لمرآن بذلك للمسلمين كافة

إن قمة جبل كرا مسوية، وتشر عليها من كل مسافة وأخرى محاريط
 جرابيتية، واصحة، ومنظمة حتى لتظن أن يد الإنسان قد سحتها وتبدو من
 بعد حقول الشعير والقمح، ونكثر في هذه المنطقة الأشجار لثمرة لي
 تعيش في أحواش لأوروية، وخصوصاً أشجار المشمش / ٢٣٣ / ولدراق
 والندور، وتعطي عذة واحدة، وليس هناك أشجار بحيل أو برتقال لأن جبل كرا
 لعموه غير مناسب لها أما دوالي الحب فإنها تنبع صفاً من أفضل الأعاب
 وأحلاها لقد حتل مقياس الصعط الحوي لدينا خلال الرحلة، وسم يكن
 باستطاعتي تحديد درجة ارتفاعها عن سطح البحر، ولكني لا أبالغ، حسب
 الصعود الطويل والشاق، إذا قلت إننا كما في هذه النقطة على نحو ١٦٠٠ أو
 ١٧٠٠ متر، مما يجعل درجة الحرارة في هذه النقطة تعرب درجة الحرارة
 المتوسطة في بلاد ذلك يأتي إلى هذا المكان سكان مكة المكرمة خلال
 الصيف بحثاً عن الحصرة والبرودة لقد وجدت أن للمكان شياً يفت النظر
 ببعض أقسام جبال الألب الوسطى في فوسيني Faucigny، وبصحرة إيطاليا
 اكبيره Grand-Rocher D'Italie في أبرور^(١) Abruzzo

كنا لبعض الوقت نسير في منطقة سهلية، ثم تأخذ بالنعرج والاضطراب
 أكثر فأكثر، اختتمت الأراضي المروعة ليحل محلها الرمل، عدا بعض طافات
 العشب التي تظل برأسها بصعوبة، لتكون حيث يرمى للأعنام لهريلة، ثم

(١) منطقة إيطالية مشهورة بجبالها وسهولها، وتنتمي الجبال فيها إلى سلسلة ألبين
 Apennin، وأعلى قمة فيها هي صحرة إيطاليه انكبرى (٢٢٩١ م)

تحتوي الممرورعات تماماً وترهص كتل الجرايت الصلحة امتراكة فوق بعضها بنهاية الأرض السهلية.

بدأنا بالانحدار، ولكن، بأشياء بعض المسطحات لشديده بعض الشدة، وبعض اعمار التي كان في عبورها شيء من الصعوبة، فرب هذا الحاح لا علاقة له بـ / ٢٣٤ / بالحاح المقبل، وإذا قرر به فإنه سيكون بمثابة انحدار صغير وقد كان بإمكان الهجر أن تسير عليه يسر وسهولة كان هذا صحر أول، بشعب رملي مسو كل الاستواء، محصور بين حصينين محصين، ويتصب في احده حصن مهدم كان فيما مضى محصناً بحماية القوافل ولم يعد اليوم يستخدم إلا لتربس المشهد، يسكن الجورح التي تحمي فيه أوكرها فقد كان الأفق حتى ها معباً، ثم تمتع بقاء، كما لو أن ذلك تم بعمل السحر لقد اسط أمسا سهل صحم دائري، ولكنه كان أكثر انحصاراً من المنطقة التي كان فيها ونحط به من كل الجهات سلسلة حجاب عرو^(١) الجرداء، وهي جبال متاوية العلو تقريباً، ولكنها تتفاوت في أشكالها، وكانت كلها حينئذ بعشائها لون السماء لأخوي وكان شيء من اليبس يبدو في وسط السهل إنها انطاعت بؤدي محدر شأ أقل بحداراً وفصراً من الأول إلى وادي القرن الذي كان مرصعاً بالروصات، ونشقيها كلها سو في السماء التي تدل على أن الشعب الذي يسكن المكان شعب حادق

قاما طوان الأمة كثيراً من العرب المسلحين في الجبل، وقابلا أكثر منهم أيضاً في الوادي، ولكنهم بلا سلاح، ويعتمدون بسلام على استخراج الماء لري روصاتهم، أو لسقاية قطعهم / ٢٣٥ / وكان الجميع يتكرو أعمالهم عند اقترابهم، ويقولون للسلام على الشريفين وعلينا بطريقة غير مباشرة كاتب رؤوس هؤلاء البدو المرارعين الذين هم أكثر سواداً من بدو حدة

(١) ذكر ابنلادي في معجم معالم الحجاز ج ٥، ص ٢٢٤ أن الصواب عزوان بالعين لمهمه والراء المهملة، ويحد من الطائف سبعين كيلاً ولا يمتد بعد لاه عروان في لكتب الجغرافية العربية القديمة، انظر المعطسي وغيره

حديقة، وكان كل ما ملونه ثوباً قصيراً من الكتان الخشن وكان كل شيء
يوصف أنهم يعيشون حياة ريفية شاقة، وأنهم يتمتعون بنصف دائق، ومطابخ
وعادات غاية في البساطة كانت تدور في عيونهم وهم يرون صوراً أمامهم
علائم الدهشة والفضول في بعض الأحيان، وليس علائم العداوة أو
انزعاجه، ولم يكن ثمة أي ظل من العصب.

ثم يكن علينا بدءاً من هذه الصفحة أن نحذر؛ لأن الطريق كان يتعرج في
بعض المواضع، ولكنه كان لباً جداً، وكانت حوافر البغال تعبر بكاملها في
الرمال، وكانت تسير ببطء شديد مما أحر سيرة أدر كنا بعد قليل لباً داساً،
ويكن مرصع بالحجور، وكانت هناك بعض الأعشاب الشوكية التي تنتشر
حول، ونقف في طريقنا، ونعلق رؤوسها العادة سراساً وعادنا

وصلنا أخيراً إلى أسوار القنات، كانت الساعة لساعة مساء، وكان
الباب مغلقاً، ولكنه صبح لحظة وصولنا، وكأنما يفعل السحر، لأن لم ير
أحدنا يقوم بذلك. دخل الشريف سليم أولاً، وكان مقدماً كان مركز الحرس
التركي المؤلف مما يقرب اثني عشر حدياً من المشاة في ريل واحد، وقد
تقدموا لسلاح لأدية تحبه الشرف عند مرورنا / ٢٣٦ / ولما دخل نجتمع
نحرك مفصل الباب من جديد، وانعلق كما كان قد امتح هاتين القرون إن
ظهر أهدي سقف فل ميل تقريباً من الوصول إلى القنات، ليحبر الشريف
الأكبر بوصول الميمون، ولكي يتأكد نفسه بلا شك من أن كل شيء يتم كما
يسمي رأياً كيف تم كل شيء على أحسن حال، ومضى في الفصل التالي أن
كل شيء سيتم لاحقاً بأحسن مما سبق.

الفصل العاشر

الطائف^(*)

عُزِّمًا قسماً من المدينة العريقة في الصمت والظلام، وفادى الشريف سليم مشيرة إلى لمرن الذي جهروه لإقامتنا كانت تشتعل على بابه عدة مشاعل، واصطف لدى الباب أيضاً حرس مكون من عيد مرر الأمير، وهم

(*) ترجم الدكتور محمد بن عبد الله ال رلف ما كنه ديديه عن الطائف وشروه في صحيفة الجريدة، العدد ١٠١٦٢، الثلاثاء ٢٣ ربيع الآخر ١٤٢١ هـ، ٢٥ يوليو (تموز) ٢٠٠٠ م، ص ١٢، بعنوان الطائف في كتب الرحالة الأوروبيين شارلو ديديه بمودحاً، والصواب شارلو ديديه كما يسمي النطق لفرنسي واسرجمة عن الإنجليزية وقد استعديا منها، ومنه الدكتور مسلمان بن صالح آل كمال في مقالته بعنوان تعقيب على د محمد آل رلف في الرحالة وقمر في أخطاء بحب التصدي لها، الجريدة، العدد ١٠١٨٨ - ٢٠ جمادى الأولى ١٤٢١ هـ / ٢٠ أغسطس (آب) ٢٠٠٠ م ص ١٣ وقد تحدث تامليريه وسوركلهزف عن الطائف، وتحدث الأساد محمد سعيد بن حسن آل كمال في كتابه الطائف، جغرافيته - تاريخه - أسس قبالته، جمع ومعلق د سليمان بن صالح بن سليمان آل كمال، مكتبة المعارف بالطائف، ١٤١٧ هـ، ص ١٣ - ٢٧ عن مؤرخي الطائف ومروعاتهم وانظر في مجلة الصهل، م ٧، ع ١٠، ١٣٦٦ هـ، ص ٤٤٥ - ٤٤٦ معالة للأسناد الشيخ عبد الوهاب اندهلوي بعنوان تعريف بالكتب المؤلفة عن الحرميين والطائف وحدة، وانظر كتاب تاريخ الطائف قديماً وحديثاً، مناحي صاوي حمرد انشامي، مطبوعات دي الصاعف الأدبي، د ت

يلبسون ويسلحون كما كان الرجال الذين يرافقونا بلبود وبسلحون، ناهيك عن حدي انكشاري يحمل عصاً في رأسها كرة من الفضة، وكأني من حرس انكاسر أو القادق اسويسريين. وعندما نرجلنا حذاء براهيم أعا حارس الشريف الأكبر حتى الشارع لاستقبال، / ٢٣٧ / وأدخنا إلى مجلس مستقر يُصل على النساء، الذي كان في واقع الأمر امتداداً له، ولا يتميز منه إلا بأنه معصية، وأكثر رفاهاً بعض درجات. كان القصر مرصوفاً بلاط كبير، وفي وسطه بركة من الرخام الأبيض فيها نافورة مياه؛ وكان هناك دالية تعرش على طول الجدران. كان للمجلس مفروشاً سجاداً أحمر واسود حمل، وتنتشر فيه أرائك من الحرير الأخضر المطرز بخيوط ذهبية.

وكان هناك أربعة قناديل مصماء تتدلى من السقف، وشمعدانات صحمان، يمنع عبور كل منهما نمطي اقدام، يتلألأ في ضوء الشموع، وعددان سودان بلباس نيران وحرارة، ويرخان برصانه منحترش واحرس بالعمود، وبشرا حولنا عند دخولنا سعادة من الحور؛ وهو تقيد لا يقومان به إلا عند استئذان شخصيات مهمة. لقد هبوا بنا كراسي أوروية وما كذب أحسن حتى أحضر عندنا الإبريق لعلل الحدي، وبسما كان أحدهما يصب الماء لفاثر على يدي من وعاء جميل، كان الآخر حائلاً على ركبه أمامي، وهو يحمل إبريقاً عربصاً ذا قمرين، منشأ في وسطه كوب صمير لوضع الصابون، وكان في القعر الأول ثقب متعدد يشرب منها الماء ويحتمي في الدخان.

قدّم لي بعد ذلك فوطاة طويلة من الكتان، مرساة بالأهداب، ومطرره / ٢٣٨ / بالذهب من الطرفين. نلت الأشياء كلها، الإبريق، والوعاء، والمحرون، والشمعدانات، والقناديل، مصوغة من لفظة المضمنة، المرصعة بمهارة، وقد جُلبت - شأنها شأن بقية الأشياء - من منزل الشريف. وعندما فُتّر القادقون عن خدمتنا أننا قسطنطينياً من الراحة افتتح باب في صدر المحسن، وظهرت لنا طاولة أجمدت على الطريقة الأوروبية؛ مع اصحون، وعطاء المائدة، والسكاكين، وحولها الكراسي؛ أي كل الأشياء المجهولة في لشرق حيث يأكل الناس جلوساً على الأرض، وتقوم أصابع

المدعوين مقام كل الأشياء الأخرى كانت الشوكات من الحديد ولها قصت من المعاج، والملاعق كانت من النحاس المرصع بزخارف ذهبية.

كان العشاء يزخر بأنواع الأطعمة المحلية حياء أولاً الحبوب الذي يُعد من عادات لصبغه، كان محشواً بالزور، واللوز والفستق ثم يثني أوراق الحب المحشوة، والكباب؛ وهو قطع من اللحم مربعة ومشوية على السمود، وعصائر البورد المحترقة المطبوخة مع صدور الفريج أو الخراف، أنت بعد ذلك كله تشكيله موزعه من الحفريات تسمى «الطير» ياهيك عن الأشياء الأخرى المعجزة، كان كل ذلك متبلاً بالأعشاب العطورية المقطعة في لحم، وبه صلصة بالكريمة المطبوخة بالتوابل؛ وهو حليط كان يشير العرب لدى بدر الدين حسبي، الحنواشي المشهور في داف ليلة وليلة، ثم أُعلن تقديم البيلاب^(١) بعبدة العشاء، اندي حوت مراسمه بسرعة كبيرة

كان الساقى / ٢٣٩ / يحمل دورق، أو قنّة، مملوءة بسماء البارد يطوف به في كأس من العصية يشرب الجميع منها. ولست بحاجة للقول إن ليبي لم يكن موجوداً، ولكن اغائمين على خدمها كانوا يعرفون عادة للمسيحيين، فقالوا له نصف إنه لا يسمي أن يحمل من ذلك إذا كان يحمل معاء وقد كان في وقع الأمر قد اتحدما الاحتفالات لذلك؛ إلا أنها لم تشربه إلا في عرفها الخاصة احتراماً لمستصيها

وبما سبى لطعام، عدما يلى المجلس لشرب القهوة والتدخين، وفي حو لي العاشرة قادرون إلى لحر ملك في الطابق لأول حيث أعدت له مياحه بالاهتمام أسرة أوروبية. وكانت النساء قد عادرن المنزل في الصباح لحديث لما لمكان، ومع أنهم عائشات فإن كل شيء في البيت كان يُذكر بهن. كان هذا البيت من أحمل بيوت المدينة، وممتلكه تاجر عبي من أصل هندي اسمه محمد سيد شمس^(٢)، وكانت أعماله في مكة المكرمة، إلا أنه كان في تلك الفترة

(١) السلاف طعام شرقي من لوز ولحم وتوابل

(٢) قال الدكتور سميح من صالح آل كمال في تعقبه الدكتور آل رلفة، مؤلف سابقاً «إن =

سكر الطائف، ووضع بينه تحت تصرف الشريف من أحب، وذهب مع أسرته
كنها إلى مرل آخر، وكان في الأسرة ثلاثة أحيال به عند الله، وحبيده عند
القادر الذي يدُكر به، سه، وصورته، وثابه، فعنى آخر يحمل الاسم به: إنه
أن فراج يوسف في حدة، وقد كان هنداً مثله

إن اسم عبد القادر الذي كسب شهرة واسعة في فرنسا هو سم ولي من
أكبر / ٢٤٠ / أوياء المسلمين، وهو شائع جداً في الشرق. كانت لأحيال
لثلاثة في استقبات عد وصولاً ولكن ابن محمد شمس وحده هو الذي لى
دعوتنا للعشاء، بينما ذهب الجد سب كر سه، والحفيد بسبب صغره إلى
المرل في ساعة مكره. وسأل الشريف حامد طعام العشاء معاً، ولكن
الشريف سيباً الذي أحرر مهمته امتأذن منا بلذهاب إلى مرله للاستراحة
وباستثناء واحد أو اثنين من خدم المرل، كان الجميع قد قدموا من بيت
الشريف الأكبر الذي تحلى لنا عن طباحه الخاص، واستمعى عنه طوال مدة
إقامتنا في الطائف لقد كان عناءاً حاداً، أصابه من إستسول، وأحد عنه
عاسارو عدداً من وصفات الطبخ المحلية، وحصرها لنا فيما بقي من الرحلة
وكانت مدولنا في كل يوم عامره بأنواع المأكول التي كانت في اليوم الأول

وجاء في اليوم الثاني القائمون على خدمتنا يتفقون رغبات فيم بود أن
يقدم لنا في لفظور كما لو أننا كنا في بيوتنا، ويهرم على خدمتنا حسب
الخاص وكان جواساً، أنا لا ناكل في الصباح إلا قليلاً، فقدموا لنا في
صحبوا صغيره الحجم وحبه طعام حصة من الرتبة الفاخرة، والجبن الطارح
القلل المريح، والفواكه، والريبتون، والعسل اللديد، وتشكيلة من المربيات

= هذا لبيت موقعه في محله وسط (أي وسط القرية) برعاق الخمس، مهي من
الحجر ونالغ من عدة طوابق أما بيت شمس الدين فهم من الأسر لمكية النشبه
في ذلك العهد، يور منهم بعض العلماء، وكانوا بمنكون مكتبة صحمه أورد ذلك
عنهم الشيخ ابو الخير عبد الله مردود رحمه الله في كتابه القيم (المختصر من نشر
النور والزهر) ويبذلهم في الطائف مسجد شمس محله لتسليميه وذكر غير
ذلك وأبصر بوركهارت في رحلاته، موثق سابقاً، ص ١١٩ - ١٢٠

من كل الأنواع تم تحصيرها في منزل الشريف الأكبر معناه سائتة إن لرفيق في الشرق، وخصوصاً الحشبات، مهورات جداً في هذا المجال، وتُشرف السيدات / ٢٤١ / عادة على عمليات الإعداد المهمة. وهذه واحدة من أكثر مسانهر براءة لمصيبة الوقت، وهو أمر مهم لهؤلاء السيدات اللواتي لا يقمن بأي عمل وتنافس لحريم في هذا المجال بعض الأديرة لانتانية حيث تكشف الراهبات عن مواهب حلقة في هذا النوع من الأعمال، ويتمتعن بشهره مستحقة وبن راهبات دير لامارتورا Martorana في بلرم^(١) Paierme، وأحريرات غيرهن، يتركبن ذكريات لطيفة في ذاكرة كل المسافرين وبن بلرهان اختصاصهم أيضاً، بد يصنع كثير منهم، كما هي حال رهن دير عروبول الكبير La Grande-Chartreuse de Grenoble، ماء ورد لا يطير به.

يقوم الشريف الأكبر في قصر بعد نصف ساعة عن المدينة، ساء في عتق اصغراء، وكن لا يكاد يعانده وأرسل لنا حيولاً لحمصا ليه، كن اسم حصني اعسبر باسم المنطقة التي خلّب منها، وكان فحللاً رائماً أسود اللون، يشتغل حيوية وشاطط، وكن رديعاً، شأنه شأن الحيول العربية كنها، ويستطيع الفصل ركوبه أما السرح الذي كان مكسواً بالصوف الأرق، وموشى بحيوط ذهبية ربيعة، حسب الطريقة التي يستخدمونها في إسطنبول، فقد كان دائماً يامد وروحة تلبق بالأمره حقاً.

كن الحدي الانكشاري يسير في مقدمه لموكب، وهو يحمل عصاه انطويلة ذات المقصص المصني، وكان يرافقه عدد كبير من الحرس، مهم للمارس والراجل وكان مائس حبل الشريف يسير أمامي، وهو يرتدي الثياب الخاصة بالمساسة إن لسانسي الحيول عند العرب مربة عايبه، وتحتصر وظيفتهم الأساسية في الجري / ٢٤٢ / على اقدامهم أمام حصان السيد أو هجانه، ومهما كنت سرعه الحصان أو انهجان فإنه لا يرتضي لنفسه أن

(١) بلرم، بالرمو بالإيطالية منه في جريده صفية، وهناك كنيسة تحمل اسم لامارتورا تعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي. وكتب في عرب السابع عشر

يسبقه وقد اعتاد السائس الذي أتحدث عنه أن يسير أياً ما طويلة أمام هجان الشريف الأكبر

إن قوة هؤلاء الرحان عجيبة، وإن لهم قدرة على السير حافه، ورئيس من فولاد وبصر الناس مثلاً في القوة والسرعة بأحد ساسة محمد علي الذي جرى بلا انقطاع أمام هجان لساناً طوال الطريق من القاهرة إلى السويس، ثم سقط مبعث لوصول عزيزاً السوي (البار)، حيث كنا نلطف محل اهتمام قصور العامة لقد كنا أول الأوروبيين الذين قدموا إلى هناك عداً ناشئاً فصل عروسي مريض جاء إلى لطائف للاستشفاء بدعوة من الشريف الأكبر وكان فيها أيام حرب الوهايس عدد لا بأس به من الأوروبيين من أطباء أو غيرهم في خدمه باشا مصر^(١) وقد جاء إليها بسبب أعمالهم المتنوعة عدد من الأوروبيين في ذلك العصر، ولكنهم كانوا جميعاً يرتدون زي لعلمانيين، ويحتفظون بهم أما أنا فقد كانت هويتي المسيحية شبه ظاهرة لاسي احتفظت بالزي الأوروبي، باستثناء الطربوش، وارتديت فوق الزي الأوروبي لكي أبدو أكثر احتشاماً، عبءة مصفاة سوداء كنت قد اشتريتها في جدة

خرجنا من المدينة تغير باب الربع، و قدم لنا الحرس التركي، ٢٤٣/ لتحية العسكرية، كما حصل عند وصولنا وما كدنا سحاور أسوار المدينة حتى وجدنا أنفسنا مسير بين خرائب صاخبة قديمة تهدمت، ولم يُقد بناؤها أبداً^(٢)، ثم نبدأ لصحراء بعد ذلك، ويقوم غير بعيد على قارعة الطريق مسجداً

(١) محمد علي، وعمل ديديه بشير هنا إلى تاميريه اندي كان ضمن جيش محمد علي الذي دخل لطائف في سنة ١٨٣٤ م. وقد وصفها تاميريه وصفاً مفصلاً يدور أن ديديه قد اطلع عليه وبهل منه، انظر عن ماصريه ورحلته كتاب حاكليين بيرين، اكتشاف، موتق سابقاً، ص ٢٥٢ - ٢٦٢ ومقدمة الدكتور محمد بن عبد الله آل رلفة لترجمته اجرة الثاني من رحلة تاميريه المعنونة رحلة في بلاد العرب، الحملة المصرية على حسير ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٤ م. لرباض، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ووصف الطائف في رحلة تاميريه (النص الفرنسي)، ج ١، ص ٢٧٠ - ٣٥٣

(٢) ذكر الدكتور آل كمال في مقاله الموتق سابقاً، أن هذه الضاحية هي قرية السلامة =

منعقد ترتفع فوقه مئذنة يصاه

إن لمظهر قصر الشريف بعض الألفة، ولا ترى لعين فيه أي تناسب وهو ليس ضحماً ولا أبقاً، إنه حليط غير متناسق من لآسيه المجاورة بدون نظم، ولتي أقيمت بلا محصط، ولكن يحيط بها سور واحد، ومن المؤكد أنه واسع من الداخل إذا احتكما إلى العدد الكبير من السكان الذين يصمهم بين جباته.

يس للشريف الأكبر إلا امرأة واحدة شرعة، كما هي عادة اليوم بين المسلمين، ولكن حرمه يعج بما تقارب ستين جارية من لسود أو لبيض، وعدد لا يقل عن ذلك من الخدم الذكور، ماهيك عما يدرب منه من لحصيان أو غيرهم مكتمين أعمالاً محتمة أحهل عدد أساته، لا آسي سمحت أحدهم وكان حبشياً يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة من العمر، ولدي وفته لمية بعد ذلك الحبس، وكان يردي ثوباً من الحرير الأصفر يمسك الشريف الأكبر ثروه ضحمة، لأنه استرد ثروة أبيه عالت كلها، ويرغم الناس أن في حرانته مئة مليون فرنك، ماهيك عن أنه يتلقى مئة سوية من إمسول تجاور ٤٠٠ ألف فرنك، ويرعمون أيضاً أنه، وهو بعيد بلد قصر ولده الذي دمره / ١٢٤٤ / محمد عني، وجد ثراً مئة بالذهب أطفاء فيها جده للشريف مساعد

ولما وصا إلى لقصر كان يحتمع هاك أكثر من ثلاث مئة بدوي، يرتدون قمصاناً ررق، هي باسمهم الوحيد، وكان أعسمهم قد وضع فوق الثوب على الكتف وشاحاً أرجواياً، وكانت أحرمهم من الجلد، وحمائل سيوفهم مربة بصمائح لفضه، وعماماتهم مربة بالأصداق، لقد كانوا يشهون في كل شيء بدو هديل لذين رأياهم في جل كرا، وكانوا، مثل أولئك، يحمنون حاحر معقوفة، ورماحاً، وسادق من دوات القتيلة، وكانوا جميعاً حدة، يعينون إلى السحول ولكنهم كانوا عموماً ذوي قامات مشوقة، يتمنعون بالرشاقة وكانوا قُذوا لتسير والنم وكان ييهم كثير من السود، لذين لا

- التي تقع في مينة الطائف من قبل باب الربيع

نكاد نلاحظ سواد العرب أمام سوادهم اصطط هذا الجيش المتعدد الأعراق على جانبي الطريق لحيثنا، ليس كما يصطف الجيش النظامي، ولكن سوع من انوصى التي تود بين الرجال غير المظمين رددنا لهم لتحية حسب تفانيد البلد، دون أن يرفع أيدينا حتى الرأس لأن مثل هذا التمدير لا ينبغي إلاّ للأسياد، أو الأقرباء الذين يود بشرهم إن كل شيء في الجزيرة العربية، كما في الشرق كله، له قويمه المحددة، وكل شيء يحكمه العرف، وإن بين أسط أمور / ٢٤٥ / الحاة فوارق دقيقة سمي التقاطها للالتزام بها

نصعد إلى المنصر غير مدخل له دوح مزلف من سبع أو ثمان درجات، استقبلت عنده كل من إبراهيم أعا الذي كنا قد عرفناه من قبل، وكبير الحدم، وبقية العامين في بيت الشريف الأكبر. ووجدنا بينهم صديقاً القديم طاهر أمدي الذي كان لباسه الأوروبي يسير تايماً واصحاً مع الأثواب المنصرفة، والمحصرة، والهيئة التي كان يلبسها الآخرون. كان المدخل يبع بالحدم، وحلما أحدياً فيه كما نقصي الكياسة إن آداب اللياقة في هذه النطقة محكومة بقوانين هي عكس قوانين تماماً إن الرجل الذي يأتي المجلس في الشرق مسعلاً حذاءه، حاسر الرأس، يترك الانطاع الذي يتركه الأوروبي إذا دخل الصالون حافي القدمين والعبعة على رأسه. ولكن في هذه لعادة أرى أن الحق مع العربيين الذين يكتفون العسم البيل من جدهم (الرأس) وبعضون القسم الأدنى (القدمان)

أدخلونا محسناً صغيراً، سبطاً كل الساعة، كان سفعه مطبياً، أما لجدران الداخلية فقد كانت عارية تماماً، إلا من حسام تركي رائع، أهده السلطان للشريف، مرصع بالأحجار الكريمة، وكان معلقاً على الحدر وكأنه لوحة لقد كان الرسم لوحيدة في ذلك المجلس كان السجاد بيضاً، / ٢٤٦ / والأرائك من الحرير الأخضر الموشى بحوط الذهب، كتلت التي كانت موحودة في المنزل الذي نقيم فيه، والتي أنت بالضع من المصدر

لم يكر الشريف في المجلس عندما دخلناه، وإليكم السب؟ إن كونه الشريف الأكبر، وأمير مكة المكرمة يحتم عليه ألاّ يهضم لأحد إلاّ سلطان

الأكبر لندي يهض هو بدوره ٤ وإذا أراد الشريف إكرام أحد رواده فيه يحرص على ألا يكون موحوداً في المجلس عند دخول لرائر، لكي لا يستقله حائساً؛ فهو لا يدخل إلا بعده، محافظاً بهذه الطريقة على أصول اللياقة، ومحتفظاً أيضاً بما يتميز به.

وقد جرت الأمور معاً بهذه الطريقة، لقد حرح بعد لحظات قسبة من المعرفة المجاورة، يرافقه عدد من الأشراف الذين جلب ولحصوا مشاء، ولشريف أيضاً، على كرسي أوروبيه كانت، والحق أقول، غير مناسبه بعض الشيء في مثل هذا المكان إن بداية الزيارة في الشرق تكون على الدوام صامته، يدخل، ويجلس، وتُتم، وكل ذلك دون أن يسيب شعبة، وبعد أن تناول القهوة، وليس أدنى قلها، يبدأ الحديث بالمجاملات المتبادلة، وهي على الدوام المجاملات نفسها التي لا يمكن إعتائها، ولأ محالف أصول الحكاية وما إن انتهى هذا القسم الأول من الزيارة حتى سحب الأشراف، وبقي وحده مع الشريف الأكبر، ونحن ندخل جميعاً غلايس طويلة في نهايتها المر، أحصرها بنا بعد القهوة، من غير أن يسمعهم ذلك من توزيع الحلويات التي تلت القهوة، والتي كان يُطاف علماً بها طوال وقت الزيارة /٢٤٧/ كان حسين عبد المطلب^(١) بن غالب هو الشريف الأكبر، وكان شجاعاً جليلاً يطلع

(١) كذا سماه ديدنيه والمشتهر أنه عبد المطلب بن غالب من دري زيد بولي الشراة ثلاث مرات، الأولى في أغسطس (١٨٢٧ م / صفر ١٢٤٣ هـ) وبعث عنها في العام نفسه، وحلفه محمد بن عون ١٨٢٧ - ١٨٥١ م / ١٢٤٣ - ١٢٦٧ هـ وسافر إلى دمشق في عام ١٨٣٦ م / ١٢٤٦ هـ مع قافله الحج الشامي، ومنها إلى إسطنبول الثانية في عام ١٨٥١ - ١٨٥٦ م / ١٢٦٧ - ١٢٧٣ هـ، وقد رآه ديدنيه إثنان هذه الفترة، وكان عبد المطلب اسمه إلى العتاف حرقاً من ثمر باشا حدة عليه، وسجد فيما يقوله ديدنيه أصداً ذلك الحلاف بين الباشا وشريف والثالثه في عام ١٨٨١ - ١٨٨٢ م / ١٢٩٧ - ١٢٩٩ هـ، وقد سم في نهاية هذه الفترة سوء في العتاف أولاً، ثم سمح به صفاً بعد أن يعيش تحت الحراسة في حد بيوته الكبيره في ابيصه مكة ثمكرمه في الطريق إلى مصر، وبقي تحت الإقامه الجبريه إلى أن مات

الستين من العمر، طويل القامة، نحيلاً، قلنس الل في تصرفاته، والتصير في كل جوب شخصيته كان لون شرته عاماً جداً، يكاد يكون أسود، وعيابه تتوحد حيوية، وأفعه مستقيماً، وله لحة خفيفة، ومجاه نطقاً جداً كان يتوشح وشاحاً كشمرياً، ويلبس ثوباً أزرق داكناً، ويرين حصره حنجر رنح مصني بالذهب، تلتنع عليه الأحجار الكريمة التي يحطط بمعانيها الأبصار

بدت حدثي بأن شكرت له كرم الضيافة الذي حصني به، وبالإنشادة بما قدم به الشريف حامد من أعمال ودية تحديها، فاجابني الشريف على ذلك بنطق بقوله، به احتاره لأنه كان يعرف حق المعرفة أنا سكون سرورين منه. كان الشريف قد علم منذ زمن بإراحة عدوه باشا جدة من مصبه، وإلا فإنه كان على علم بدشائعات التي تسري بهذا الشأن لم يكن بالإمكان أن أنصرف إليه بطريقة أفضل مما حدث، وقد خدمتني المصادفة كما نمتي، وعلى الرغم من أن العرب يحسبون السيطرة على أنفسهم، ولا يكون مشعرهم يبدو على وجوههم، فإن وجه الشريف تهلل بهذا التحير بعلامته للفرح، وسواء كان يريد أن يبدو ذلك عليه أم لا فإن علامته السرور بدت على قسمات وجهه كلها

ثم بدأ التحديث بعد ذلك عن الشؤون اليومية، وعن مضامع روسيا، وعن التحالف بين فرنسا وبريطانيا / ٢٤٨ /، وعن موقف أوروبا عمومياً والمسا على وجه الخصوص. كان يصغي بدهاء شديد إلى كل المعلومات التي كنت أحبره بها، وكان يطرح عني أسئلة تظهر حسن اطلاعه على الأمور، وعهده العميق

في كيون الثاني (يبر) ١٨٨٦ م / ربيع الثاني ١٣٠٣ هـ وهكذا فقد تمير عهد الشريف عبد المطلب بقرانه الثلاث بالتحلف الدائم به وبين الدولة العثمانية. مظهر دراصلات من تاريخ عصر المصطفى، د. محمد بن عبد الله آل ربه، ط ١، لرياض، ١٤١٢ هـ، ص ٤٥ - ٦٦، وكتاب عصر من ١٢٤٩ هـ - ١٨٣٣ م إلى ١٢٨٩ هـ - ١٨٧٢ م، دراسة تاريخية، علي أحمد عيسى عسيري، مطبوعات نادي بها الأدبي ٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، ص ٢٦٢ و مظهر صفحات من تاريخ مكة المكرمة، موقوف سابقاً، ج ١، ص ٢٧٦ - ٢٧٨، ٢٨٤ - ٢٨٧، ٢٩٤ - ٢٩٧

لموضع لحد يد، لي مفتحاً بقدر ما هو مستمل، وإن كان لدي ما أحده عليه
فذلك أنه كان مدياً أكثر مما يسعي، ومتأزراً أكثر من البروم ولعل من
ذلك أنه قصي أربعة وعشرين عاماً من حياته في إمتبول قبل أن يسمح به
الثاب العالي بالعودة إلى الحرية العرة، وأن يعيد إليه لقب أمه عات،
وعلى الأقل، فسماً من ثروة أمه وسلطته

لم أسن أند، وأن أحدثه، وأنشع إليه، أسي تعامل مع عربي، وليس
مع تركي؛ وأنه لا يستطيع باعتباره عربياً، أن يرحو صادقاً انتصار الجيش
العثماني، بل إنه على العكس تماماً كان يأمل اندحار عزة وطنه، وأنه
باحتصار كان في دجيلته أميل إلى لروس من إلى الربطيين أو الفرنسيين
وحاولت أن ألمح تلميحات بعيدة وغير مباشرة إلى موقفه الحاضر، وموقف
بلده ولكنه لم يكن يود التنبيه إليها، وظل متمسكاً في هذا الحصر من تحت
لم يتحل عنه ولو لحظة واحدة وقد أثبت الوقائع التالية في، وعلى لرغم
من حذره، وصمته، استطعت التعرف على موله الحقيقية

كان بكل تأكيد قد بلغ أسمع أحجار انقلاب لدي^(١) من ديسمبر
(كانون الأول)، وقد بدا كبير / ٢٤٩ / الفضول لعرف في حول هذا الحدث
تفاصيل شامله، لقد أشعت فصوله بالإحالة عن كل أسئلته، وبإجابه خلال
ساعتين كاملتين، وباعتباري شاهد عيان، بالقصة الكاملة تقريباً لثلاث الوعة
المعاصرة ولتأسيهت زيارتنا الأولى عدا إلى الطائف بطريقة التقدم بصها،
وبعب الاحترام بصها من الدو الدين كانوا ما رلوا متجهين حول القصر،
ومن حدود الحرس التركي على باب المدينة لقد كنت، بحصوص لحرم

(١) في عام ١٨٥١ في عرساء، وحدث الانقلاب إثر خلاف بين رئيس الجمهوريه
العربية الثانية المنصب بالاقتراع المباشر عام ١٨٤٨ م وهو الأمير لويس بوبارت
الذي كان على خلاف مع المجلس الوطني وتمحصر الخلاف عن الانقلاب المذكور
الذي حصل إلى السلطة دكتاتوراً هو مابلون الثالث الذي حول الجمهورية بعد منه
من وصوله إلى الحكم (٢١ ديسمبر ١٨٥٢) إلى إمبراطورية وراثية ويقون ديديه
إنه كان شاهد سان على هذا الانقلاب.

انتركي، مدهشاً من أنهم كانوا يقدمون لنا انتحيه خلال مده اقامتنا كلها، وهم ياتعون لماشاء، وليس للشريف الأكبر الذي كان يتحب أي حكاكك بهم يدا، لم يكن الشريف هو الذي تأمرهم بأداء التحية لنا، وأجمل لعن كنت أدبني ذلك لتعير الذي لم يكن من حفي، ولا أطمح إليه

أقيم مرل امرة شمس الذي نزلنا فيه على نصف مارن مكة المكرمة، إلا أنه أكثر صلابة وأناق، وتأت من ثلاثة طوبق الطبق الأرضي الذي سبق أن تحدثت عن موقعه، وهو يستخدم في الأحوال العادية لاستقبال الزوار، ولا تزل فيه لساء أبداً أما لطائف الاحزان فبألفان من عوف صيقة، وسينه الإصاة، وهي محصنة حصراً بالحريم ولكل م / ٢٥٠ / يتنق بهم من عبده وخدم، اح ويعلو اليك سقف محاط بجدار عني شكل درابزين، مشرف منه على المدينة كلها، وهي ليست صحمة، بتشر فيها عدة مئات من البيوت، كثير منها نصف مهدمة، وقد اقيمت دون نظام حول ساحه تأخذ شكل مربع طويل، وهناك عدد من اندروب الصيقة المعيرة، يطلق عليها اسم شوبرع، وتحترق تلك المظاهرات غير المنظمة.

كان هناك سرور واحد، هو مرل الشريف السابق ابن عوب^(١) الذي كان حبها يعيش في إستامبول، أقم حسب محفظ معماري بسيط، وهو، مقاربه

(١) محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد المعبين بن عوب، برولي الشرفة (١٨٢٧ - ١٨٥١ م / ١٢٤٣ - ١٢٦٦ هـ) حلفاً بعد المظلم في شرفه لأوس، وبسبب أن حده الأعلى فغان محمد بن عوب، لأن حده هو مؤسس الأسرة الجديدة لدوي عوب، وفي عهده ١٨٣٦ م / ١٢٤٦ هـ أصاب الكوليرا سكان مكة المكرمة لأول مرة، وشرح في عام ١٨٤٦ م / ١٢٦٣ هـ لغتان الأمير فيصل بن تركي في الرياض (الدولة السعودية الثانية) الذي توفي عام ١٨٦٥ م / ١٢٨٢ هـ. وقد تحلى محمد بن عوب عن شرافه هوفا عدم ١٨٦١ هـ لتزلاها عبد المظلم بن عالب الذي جبر على التحلي عنها في عام ١٨٥٦ م / ١٢٧٣ هـ وتزلاها محمد بن عوب من جديد حتى عام ١٨٥٨ م / ١٢٧٤ هـ، ويوفي في مارس (آذار) ١٨٥٨ م / شعبان ١٢٧٤ هـ. انظر صفحات من تاريخ مكة المكرمة، موثق سابقاً، ج ١، ص ٢٧٨ - ٢٨٨

بالمنازل التي تحيط به، يستحق اسم القصر. وهي أحد لأطراف انحصية
بلساحة، يتصب قصر مربع، له أبراج تحصينية في جوانبه الأربعة، وقد أقامه
قبل بضع سنوات الشريف غالب لتعريب أمه الخاص^(١)، أصبح بعد ذلك، وبعد
بضع سنوات، سكناً لمحمد علي الذي أزال سطوة غالب^(٢)

إن بساتين لطائف انني تحملها مشهوره في الحجار كله منتشره حول
المدينة، وتدو كأنها واحات في وسط الرمل إن البساتين صغيرة على
العموم، وفيها قليل من البساتين، ولا تدين بشهرتها إلا للقمح اشامل الذي
يسود الحديقة العربية وتد الأفق من كل لجهات سلسلة من الحبال،
مسة، كثيرة التشمعات، تتخذ أشكالاً متنوعة، من شكل السهم لمدب
للتواقيس المسيحية، إلى شكل الفة المدورة لمساحد المسلمين وليكم
أسماء أكثرها ظهوراً كما أملاها علي مصبي / ٢٥١ / في العرب وفي
الشمال نهري من جهة مكة لمكرمة والمدينة المنورة، جبل برد، وحل
الهدا، وحل السكاري، وفي لجهة المقابلة محز الشاش^(٣)، والشامي،

(١) انظر حديث الدكتور آل كمال عن القلعة وبنائها في مقالته امثوق سابقاً

(٢) انظر رحلات بوردهارت ، مثنى سابقاً، ص ٨٢

(٣) ماجر الشاش جبل في قبلة محلة شهر، به كتاب دكة لملك سعود رحمه الله
وكتب ديدويه الشامي El-Tomané، وفي معجم معالم الحجار للبلاوي، ج ٣، ص
١٢٩ في حديثه عن حثيرة يقول حل صحم دو خشارم ووهاد يشرف على
المسجد من الشمال، سمي شقه الشرقي الشامي، اما ربيع (روغ) الشهداء سمي
كبه ديدويه Rou-el-Chonada، وروحه الى الفرنسية Col des Martyrs، فلم أحد إلا
أنه مكان في الطائف شرق مسجد ابن عباس سمي شهداء حصار الطائف عندما
عرها التي ﷺ ثم امتد انمي الى الصفة الشرقية من وح حتى أصل على وادي
محب، معجم معالم الحجار، ج ٥، ص ١١١ وذكر الدكتور آل كمال في تعقده د
آل رلفة أنهما حبل الشهداء وعرفا أيضاً بانلزمز أحدهما يقع بمحلة الشهداء
الشمالية شرق وادي وح، والآخر غرب الوادي محلة الشرقة وذكر أن جبل
السكاري هو جل أم السكاري عرب الطائف ويفصل بين قريتي السلامه والآبار التي
يعرف اليوم محبة (فروى) وقد أطلق عليها الأراك اسم إسناول الصخره

واحبر ربيع^(١) الشهادة إن الطيعة قاسية لها على الرعم من اشار لاني،
 وب ميرها دعامة هي الفحط؛ إذ لا نجد فيها قطرة ماء وحدة إذا احتكنا
 إلى الصعود الصعب الذي واجها في حل كرا، ولدي يملوه برون قصير
 وسهر، وب لطائف مرممة حداً عن سطح البحر^(٢). وكان عليّ فيها أن
 أحترس من اسرد، بعد أن عابت من البحر الشديد في حدة قل ثلاثة أسابيع

نشق اسم الطائف في العربية من «لطواف»، وهناك بخصوص هذا
 لا شذوق حكاية محبته فيها بعض الاحلاط، «قد روت لي في لسانه،
 وأخبرني أبي عنها^(٣)» ويروي أن النبي محمداً ﷺ لما لم يبق أدناً صاعية
 في مكة أمكرمه جاء إلى الطائف يدعو أهلها للإيمان به، ولكنه لم يجد
 فيها من يصغي إليه أيضاً، بل قام أهلها بصرده وسحره منه، وهددوه، ووجد
 نفسه مضطراً للعودة مسرعاً إلى مسقط رأسه^(٤) يسكن طائف بدو هينة

(١) الربيع سمر ترتفع بين حسن، وأسهل من الشد، وأسهل من ذلك كله الفح،
 وبم يذكر جغرافياً القدماء وبها وجعلوا كل الرقة ندياً. رعم إن الربيع من
 القصص وقد نص عليه القرآن الكريم. «تَتَوَدَّ بِكُلِّ رِيحٍ أَنَّهُ تَغِيثُ الشُّعْرَى»
 (١٢٨)، معجم من ثم الحجاز، ج ٤، ص ١١٥.

(٢) ترتفع الطائف عن سطح البحر ١٥٥٠ متراً

(٣) قال العجيمي في كتابه إهداء اللطائف من أخبار الطائف، ص ٢، «دار ثليف بدشر
 ولأبي، ١٢٠٠ هـ / ١٩٨٠ م تحفي يحيى محمود ساعاتي (س حيد)، ص ٢٥ -
 ٣٦. سميت به لأنها طافت على الماء في انطوفان، أو لأن حبريل عليه
 السلام، طاف بها على البيت، أو لأنها كذب بالشام فقبب الله تعالى إلى الحجار
 بدعوة برهيم بن خلف، أو لأن رجلاً من الصلف أصاب دماً محضرموت فمر من وح
 وحانف مسعود بن منعب بن مالك بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف وكان له
 مال عظيم فقال هو لكم في أن اسي طوقاً عليكم يكون لك ردة من العرب؟
 فقالوا نعم فبناه، وهو الحائط المصان به. وانظر المحقق رقم ١٤٠) في ص ٣٦
 ونظر ما فله أن يكون آل كمال في تعقبه د آل زلفة

(٤) نظر إهداء اللطائف من أخبار الطائف، موثق سبعة، ص ١٤٩، وانظر سيرة ابن
 هشام ٤٢٠/١

ثقيف^(١) يستأه بعض الأسر القليلة العربية، هدية أو غيرها^(٢) فقد أصبح بدو ثقيف حصريين، بل صاعاً وبحاراً^(٣) إنهم يصنعون^(٤) بأنفسهم عالية الأشياء لصرفها للحياة العامة، كما يصنعون أسلحتهم، وأحرمتهم وحملات سيوفهم لجلدية، وسجاد غير متفر الصنع / ٢٥٢ / مصنوع من وبر الجمال، والمجوهرات المصنعة التي تزين بها سائرهم ولا يحتاج كل ذلك إلى عناية صعبة كبيرة، ولا إلى عمليات فنية معقدة. أما المحال التجارية فهي بئس، ويدبرها لرجال كما هو الحال في الشرق كله ولا أذكر أنني سمعت امرأة واحدة خلال إقامتي في الطائف، مع أن الفرصة سمحت لي برؤية عدد كبير من الناس عندما صادف وجودي فيها أحد أيام السوق، وقد كان كل شيء هناك تقريباً يُباع بالمراد، واشترت بمصري، أو طلعت أن يشتري لي، بهذه الطريقة.

(١) ثقيف قبيلة كبيرة، ذات ماضٍ شريف، احتل أهلها لعمري بالأسباب فيها على أفرائيم الطائف، جغرافيته - تاريخه - أساطير قبائله، مؤلف سابقاً، ص ٥٢ - ٨٤ وكتاب تاريخ الطائف قديماً وحديثاً، مناهي صاوي حمود العمري، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط ٢، ١٤٠٧ هـ، ص ١٤ - ٤٥ وانظر رحلات بوركهاردت، مؤلف سابقاً، ص ٨٢ وسكت الطائف بيني وأخري قبل الإسلام وبعد عنها بو مهليل، ونمود، ورياد، وعدنان وإبهم بنسب عثمان مصاصمي وهم أشهر ثقيف، وسواهم من صمصمة، وفريش سكان الطائف المحاذرون للثقف، وعية وهي من كبار القبائل في الحيرة العربية وأكثرها انتشاراً واعتمدوا على تربية الماعز أكثر من هذه القبائل في كتاب الطائف جغرافيته - تاريخه - أساطير قبائله، المذكور أعلاه

(٢) نقل محمد سعيد بن حسن آل كمال في كتابه الموشن سابقاً، ص ٣٨، أنه في القرن الثاني عشر كثرت هجرة الأعمام والأكراد إلى الطائف ثم هجرة اليهود، وفي سنة ١٠٩٨ هـ من الشرف أحمد بن زيد بعض التكرور إلى قرية الطائف على ما ذكره المصاصمي في سبط النجوم، ج ٤، ص ٢٢٢ وانظر كتاب القامي الموشن سابقاً ص

(٣) انظر عن الصناعة في الطائف، كتاب تاريخ الطائف قديماً وحديثاً، مؤلف سابقاً، ص ٤٢ - ٤٣، وعن التجارة فيها، ص ٢٩ - ٤١

عنى سبيل الذكرى، بعض المنتجات البسيطة كل أساطة من الصاعات المحلية

رافقني إلى لسوق أسودان وسيمان من حدم بيت الشريف، مسدحين بالرماح ولحاجر، ولم يكونا يسمحان لأحد بالاقتراب مني ولم يكن السكان عني أية حل مرعجين. ولست أدري كيف كانوا سيعاملون مسيحيًا منفردًا (لا يتمتع بحماية الشريف الأكبر)؛ ولكنهم كانوا يحترمون كوني صنف أميرهم، ويظهرون لي احتراماً كبيراً، واعتباراً واضحاً

كان التجار يدعوني إلى المجلس في حوئهم، ويسرعون في الإجابة عن أسئلتني. كان لجميع يحيوي بأدب جم، وسما حرج أحد الشباب في السوق (اسرار) عن حدود الثقافة معي، رقه إلى انصوب أحد العبدان الذين كانا يرافعا في طريقه لن يعود معها في المستقبل إلى مثل ذلك. ولقد تمتد بي الرحلة إلى / ٢٥٣ / الشريف، لاحظت مسجداً جميلاً جداً يكاد يتنشق بالأسوار، وفيه صريح هذا الله بن عباس؛ من عم لي بركة إن هد للمسجد^(١) الذي يُسمى باسمه باب المدينة الغريب منه، هو الصرح الديني الوحيد في الطائف الذي يستحق أن يولى بعض الاهتمام، وقد هدمه لوهابيون^(٢)، كما فعلوا بكل هذا النوع من المعالم المقدمة على الصرح

(١) انظر حول وصف مسجد عبد الله بن عباس إهداء الطائف، موثق سابقاً، ص ٧٣ - ٧٨ لوركلي، ما رأيت وما سمعت، ص ٥١ - ٥٥ تاريخ الطائف قديماً وحديثاً، موثق سابقاً، ص ٦٧ ومعه معالم المحجار، ج ٨، ص ١٤٨ - ١٤٩ ويرجح أن بانيه هو الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستنصر بامر الله وكانت خلافه لناصر من ٥٧٥ هـ إلى ٦٢٦ هـ وذلك سنة ٤٩٢ هـ ثم حدد بناؤه عدداً من لترات انظر إهداء الطائف، موثق سابقاً، وتعليقات المحقق

(٢) مال بوركهات في رحلاته، موثق سابقاً، ص ٨٢. وكان على قبر ابن عباس فيه حصة، وكان يزوره كثير من الحجاج، لأن السليبي قد مروه صاماً وقال انجيمي في إهداء الطائف، موثق سابقاً، ص ٧٣. وعليه فبه صميرة من حطب أيضاً، بن يها وبين سقف المسجد إلا نحو شبرين. واستولى =

الأولياء إجلالاً لهم، وحيى تلك التي أقمت على صريح سبي ﷺ نفسه، لأن صرامة عقيدتهم، كما رأينا سابقاً، لا تبيح مثل ذلك؛ فهم يسكرون كل لبدع، ويعطرون تقدس الأولياء، فأنه وحده أهل للعادة، ويسعى أن تكون عادته روحية وليس بها أي جانب مادي. وقد أعد بناء مسجد عبد الله من عباس مرة أخرى بعد استحداث الوهابيين من الطائف، ولكنه طُلي بالكلس الأصفر من أعاليه إلى أسافله، فأصبح له مظهر حديث لا يتناسب تاريخياً مع زمن بناءه المتقدم. وعبر بعيد عن المسجد هالك مغلّم من عصر مختلف تماماً، ومن طبيعة مختلفة أيضاً. إنه حجر طيعي، ولكنه مدوّر، أيعمل الرمس أم يد الإنسان؟ به صمم من عصور الوثنية، ويسمونه أثلاث وهناك هي منطقة غير بعيدة عن الطائف صم آخر اسمه العري^(١) وقد أشار هيرودوت^(٢) Hérodote إلى أن سكان هذه البلاد كانوا يعدّون حجارة الصحراء^(٣)، وقد

■ الرومانيون على الطائف في عام ١٨٠٢ م / ١٢١٧ هـ بقيادة عثمان انصايمي

(١) هو سمرة كانت مملوكة لحدودها، وكانوا يبرأ عليها بناءً، ودار لها سدة، صمّت التي ﷺ خالد بن الوليد إليها فهدم اليك وأحرق السمرة وهو صه أنش، وقد عبده قبائل أخرى مثل قريش، وباعله، وحراجه، ومصر، وكاه، والنسابة هي العراق انظر معجم معالم الحجاز للبلادي، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م، ج ٦، ص ٩٠ - ٩٤، ومعجم مصطلحات، مؤثر سابق، ص ١٣٢١ وقال البلادي هي أودية مكة المكرمة، ط ١، دار مكة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، ص ٥٠ وورد خراس هذا شعب يقال له (سُقام) صم السير، يقع في فرعة مكة (عري) انصم بشبهو وقعت عليه برفقة الشريف محمد بن فوران سنة ١٣٨٩ هـ وذكر الدكتور آل كمان في تعقه الدكتور آل دلفة أن العري لغرض، وكان مرفقه بواب من بحبه الشامة يعد به خراس بإزاء الحبير يسمى المصعد إلى أحد من مكة، ويعد عن الطائف ٨٠ كم تقريباً

(٢) هيرودوت Herodotus = Hérodote (٤٨٥ - ٤٢٥ ق م) مؤرخ يوناني يعرف به «أبي التاريخ»

(٣) كان صم اللات المركز الديني الثاني بعد مكة المكرمة في العصر الجاهلي، وذكر القدماء في تاريخ الطائف قديماً وحديثاً، ص ٢٦، أنه كان قرب حصن الطائف من

كانوا ما يزالون في حملهم يجمعون / ٢٥٤ / عندما ثبت نبي ﷺ لينقل إليهم
لقد هم الصلحة عن المعبود إدا، يُعد القرآن الكريم بعة تحول حدرية
في تاريخ الشعب الذي دونه، وكان أول من اتع تعالمة

أرسل لنا الشريف الأكر في اليوم التالي الحبول والمرقص لريرة
المناطق المحيطة بالمدينة. لم يكن عدد أفراد حاشنا كراً إلا عندما كما
ذهب إلى لقصر، ولكن سائر الشريف الأكر والعديد المحكمين محباني

= ناحية الجوية الشريف، وقد خدمه الميرة بن شمة عبد متع لطائف على يد
لرسول ﷺ سنة ٩ للهجرة وذكر الثامي في ص ٢٧ من كتابه لمذكور أعلاه أنه
بذلك إن صم ثلاث كان في السابق مكاناً لليهودي يلب على حجر لسوي (أي
يصنع السويق للعادمين للتحج، والمريوق طعام يتخذ من الحنطة أو الشعير بعد فيه
باسم)، فصيح حجر، وكان اللات عبدة من صحرة مربعة بيضاء صب عليها قبيلة
ثيف بيا صاروا يعبدونه، له سائر وجه للطواف. وسده ثلاث حو عناب بن مالك
موم من ثيف، وقبلهم آل الناصر بن يسار بن مالك، وكان لها حصى محصص دخله
للهم ويكرهه كل عام، ونه حدم مع الدنه، وفي وسطه حفرة اسمها ععب،
تحفظ بها الهدايا والدور، وعندما خدمه الميرة بن شمة أحد أمراء العيب
وسلمها إلى أبي سفيان مثلاً لأمر الرسول ﷺ وقد ذكر هيرودوت في تاريخه صم
اللات، قال رحالة الإسبيري جيس هامبور إنه شاهد صحرة اللات عام ١٨٥٧
م، بوصفها بأنها صحرة من الحجر بيت ذات شكل حماسي، وطولها حوالي ثي عشر
قدماً سمر أيضاً كتاب الأصنام، ص ١٦ والمفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام،
نحواد علي، ج ٦، ص ٢٥ وكتاب القناني المذكور أعلاه، ص ٢٤ - ٢٥، و ٥٢ -
٥٣، و ص ٢٦ - ٢٧ حيث يقول وقد مني مسجد الطائف الجامع في مكان اللات
ولا أحرم موقع اللات الحرم المؤكد إنما حب ما ورد في ويدكر في ص ٥٢ أن
هيرودوت «أبو التاريخ» ذكر في تاريخه صم اللات ومناة وأهمية كل منهما وانظر
معجم مصطلحات، موق ساعاً، ص ٢٧٧ وقد ورد في القرآن الكريم ذكر
للأصنام ثلاث اللات والعري ومناة في قوله تعالى في سورة الحج، الآية ١٩ -
٢٠، ٢٣ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿٢٠﴾ وَسُوْدًا أَتَتْهُ الْآخِزَةُ ﴿٢١﴾ ﴿إِنَّ مِنْ أَشْوَءَ
مَتَّبِعُوهُمُ أَشْوَءَ وَمَتَّبِعُوكُمْ مَا كَرِهَ اللَّهُ إِنَّمَا رِزْكُكُمْ إِلَيَّ يَوْمَ الْقُلُوبِ وَتَقْوَى الْآبِئْتُمْ وَقَدْ
جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْفُتْكُ ﴿٢٣﴾﴾

كبروا على بدوام صغر الحاشية يا هيكل عن أسا اصطحبنا معا عدداً من حدمنا
الحاص، وبم بر الشريف حامد كثيراً مدة إقامتنا في الطائف؛ إذ لنا وصداقه،
وانتهت مهمته، أو غلقت على الأقل، ولم يكن عليه أن يعود للسفر مرة أخرى
إلا بعد معادرتنا إلى جدة، فقد كان لديه أصدقاء يزورهم، وأعمال يُصَرِّفها،
ولم يكن معا إثنان الجوه. وقد حل محله الشريف سليم الذي أرسل لملقاتنا
بعد حل كرا، ثم كُلف أن يربنا مديته الطائف. ليس لدي ما أقوله بحصر من
هذا الشريف إلا القليل؛ إذ لم أقض معه إلا فترة بسيطة. لقد بدا متحضر،
ولكنه قليل التواضع، مما جعلني أسف على صداقة الشريف حامد وبطه
ومودته. كان الشريف سليم يركب فرسه الصفاء، وكان وجودها ينير أحضنتنا،
ويجعلها صعبة المراس. كنت لحسن الحظ أستطي حصصى عسيرة، وكان
علي الاغتباط لذلك؛ لأن قوة شكيمته أفقدني من حادث مؤلم، كما على
مسافة من المدينة، سير في مطقه صيقة / ٢٥٥ / تحيط بها من كل جهة هوة
عميقا من ٦ إلى ٧ أقدام، ولاحظت سائراً أن شجرة صحينة ذات أشواك
تعتصر طريقي، كانت على مسافة قريبة جداً مني، ولما حاولت تلافيه كنت
كالمستجير من الرمضاء بالنار. دقت بحركة خاطئة جعلني أسقط مع
الحصان في فعر الهوة، ولحسن الطالع، سقط الحصان على قدميه، ولم أسقط
عن صهوة، ولكن كيف السيل إلى الحرج من الهوة؟ لقد تكمل عبر بذلك
وحده، وبهض من الكوة بجهده، دون مساعدة أحد، ودون أن أحثه بالمهمر
على ذلك، لقد تسلق الهوة همودياً بقائمتيه الأماميتين، ثم حرك عرقوتي
لحتميس حركة قوية، وبفقره واحده كد معاً على الطريق

كان فرح اسانس بلا حدود، ومناسباً مع الخوف الذي اعتراه بعد
حصي ميأ، أو على الأقل مهشماً؛ لأنه، بحكم مهمته، مسؤول عن أممي، ولو
نصبي مكروه لكان أول المومنين، ولما كان سيده مهماً بما فإنه كان سيدفع
عالياً لمن أي حادث يصيبه، ولو كان بسيطاً كنا حتى الآن نصبر على
الرمال، وسط سهل مجدب، دون أن نجد ماء ولا خضرة. لقد وجدنا هب
أجراً عديم ولحا وادي لمشة الذي ترتفع على حاييه تلال، قممها جرد،

وتساقطها معطاة بالساقين المصورة التي تناسبها حدادول لماء بعد أن تسقيها وتحصنها / ٢٥٦ / ، وتجاور الأشجار التي يظلها حدود الأسوار

لقد كان هناك مسجد^(١) جميل يصب مدخل هذا الوادي ابراهيمي تميراً وحللاً، ثم يفتح لودي على ريف تكسو أشجار البق والأكاسيا^(٢)، وتحيط به عن قرب حدل حرداء، أما الأرض فإنها غير مزرعة، تحلها وهد عميقة، وتنتشر فيها المسحلات الوعرة وتقع في هذه لأرض الحولية بحرية قرية بدوية هي الوط^(٣)؛ ولكنني لم أر فيها ساكناً واحداً قطعاً برهاها، وعدد على أعيننا حتى حديقة الباطنة التي يملكها الشريف الأكبر حيث كان يتطروها هناك عداء وقي.

ليس لهذا المكان ما يميزه إلا ماؤه الصافي الذي يخرج في ماء من الحجرة، وأشجاره الشمره المعطاء، وخصوصاً اشجار البق التي تكسبها أهمية كبيرة، وسح ثماراً فاحرة. وليس اشجار الفرحل والرمال مثل حرداء من أشجار البق، ولكن ابرهوز مادرة، باستثناء الورد الجوري^(٤) المشهور في

(١) قال الدكتور أن كمال في تعقبه الدكتور آل رلفة ليس هذا المسجد هو مسجد عداس الذي لا زال في موقعه يسكن الأشراف آل غالب، وقد وجدت به دكراً من القرن التاسع

(٢) في أصل De nebek D'acacias وورد في رحلات موركهوت ٠ موش ساد، ص ٦٥ شجر البق (البق) وورد المرحبان في حاشيته (٢) Acacias nebek، والأكدب هي الاسم العلمي لشجر البق أو البق وهو نوع كثيرة منها شجر البق انظر معجم مصطلحات العلوم الزراعية للنهاي، مادة Accacia

(٣) قال الدكتور آل كمال في تعقبه الدكتور آل رلفة الوط ليست في المشاء من في فلها بحوار سد عكرمه الحاي وكب بسناً أو مالا بحور عن الناصر القرشي هـ، ولا زالت لأنا فربس وبعض لأسرف، وبها عين الوط مشبه

(٤) انظر تحقيقاً مصوراً عن ورد الطائف لميشيل و هيو ورد، ترجمه بكصرف محمد عبد العادر العمي في محله الفائلة، مع ٤٩، ع ٣، ص ٦٠، ربيع الأول ١٤٢١ هـ يوليو (تموز) ٢٠٠٠ م والحب، العدد ١٣٦٣٢، السبت ٨ سوز يوليو/ ٦ ربيع الثاني ١٤٢١/ ٢٠٠٠ م، ص ١٥

لحجار كنه وقد كان في الستان مرادق يتكوّن من عدد من العرف يقصده المالك في أوقات مراعاة بحثاً عن الهدوء والبرودة

ويوجد أمام هذا الستان ستان آخر يشبه تماماً واسمه اشريعه وهو للشريف الأكبر أيضاً، وقد كان قبل عدة شهور مسرحاً لشجار دم، والكم لسبب لمّا جاء ناشا بجدة لزيارة الطائف رافقه حاشية / ٢٥٧ / تتكوّن من معركة من الناشي بوروق الدين يتصرفون بصلفهم المعاد، وقد وصت عصبة من أولئك النصوص، الذين كان أغلبهم من الأرناؤوط، إلى ستان الشريف، وكانو يسولون على كل ما يقع تحت أيديهم، وخصوصاً الفاكهة التي يحبا الأثراك بشراة^(١)، وأرادوا الدخول عبوة إلى ستان اشريعه وكانت ساء اشريف الأكبر موجودات في الستان، يحرسهن عدد من الخدم، ولم يكن الأرناؤوط ليأحدوا في الحساب، لا وجود النساء، ولا معركة المالك، واصغر الخدم الدين فاص بهم انكل إلى مواجهة القوة بالقوة؛ ودارت إثر ذلك معركة سالت فيها دماء الجاسين؛ ولما علم بدور الجوار بالإهانة التي لحقت بأميرهم سارحوا إلى المكان مسحين، ولولا أن الأرناؤوط ولوا الأدبار مسرعين قبل وصول العدو لما نجح أحد منهم

وبعد وصل حمر الحادثة إلى أسمع الباشا الرعدي، كما يبدو، حل به الحووف والاضطراب، وهرب من الطائف إلى جدة على وجه السرعة، معتقداً أو مدعياً وجود ثورة عامة وسط الدور ولم يطلع أي شيء في إقاعه بالعودة إلى الطائف، حتى الحاج الشريف الأكبر معه الذي لم يُجبب معاً ولم يكن وقوع هذه الحوادث إلا ليقيم العداوة المعلنة من قبل بين العدوين^(٢)

(١) انظر رحلات بوركهلول ، مرتق ساعاً، ص ٢٨

(٢) يذكر هوخرويه في صفحات من تاريخ مكة المكرمة، موتى مائماً، ح ١٠، ص ٢٨٥ أن الصداقة بين ناشا مكة المكرمة والشريف عبد المطلب لم تدم طويلاً بعدما أطعت بعض العيارات النارية التي احترقت طربوش الباشا في أثناء وجوده في المشاء بالطائف - التي كان يقضي الشريف فيها فترة الصيف - لم يستطع الناشا أن يتصور أن حدوث ذلك كان صدفة، بل إنه أمر دفع بتدبير من الشريف معه - ومنه أخرى تم -

عدما إلى المدينة عبر طريق أخرى، ليتاح لنا رؤية أكبر قدر من البلد /٢٥٨/ إن أول ما أثار فضولي، ونحن في طريق العودة، سبت كبير، وجمل، محاط بسور من نظير ولكن للأسف لم نستطع إلا السير بعده، ولكن مجرد رؤيته كانت تبعث في النفس شعوراً بالبرودة؛ فقد كانت أشجاره شديدة الخضرة، والظل كثيفاً، والأعشاب وافية. ثم تأتي بعد ذلك حقول الشعير التي تكتسب أهمية كبيرة، ولكنها لا تثير الإعجاب. ندأ بعد ذلك بحور الرمال التي تمتد حتى أبواب المدينة بعد انقضاء في حركات عدد من لبدور وانحمار

هناك مئطتان أحريان من أراضي الطائف فيها سبتين تماثل سبتين وادي المشاء وهما وادي شمال، وادي السلامة، والحق أنه لا هذه السبتين، ولا تلك، تستحق الشهرة التي نالتها، وإن التباين وحده (مع السبت المحيطة) هو الذي يسمح هذه الأمكنة قيمة مبالغة فيها. وفيه ليس لطيفي أن يتألف الغرب المتدور فحط الصحراء ووحشها، في الحديث عن كل ما يصحهم السكينة قليل من الماء يرويه بحراً، وقليل من العشب يرويه مروجاً، ودرحة من الأشجار يرويه هانة إحد، احسروا من أوصافهم (التي يطلقونها على الأماكن)، رأسقطوا بحراً الصف الأكثر من مآلهم الإعجابية^{١١}

= تعبير لثابت، الب هو شك الشريف أن الناس كان يريد عنائه لعدم إعطائه
شريف بواسطة اصدقاته بأن هناك حملة قد نظمت لإلقاء القبض عليه من قبل
انواهي في أثناء تعريض على السلاح، كان من المفروض أن يحضره مع السبت نفسه
لهذا السبت الشريف دون أن يلحظه أحد، وتوجه نحو لطائف حيث جهز معه
لمقاومة الهجمات المتوقعة من الدوائر التركية. وماه عن تقرير سريع من لوالي
الذي عاد إلى حده، قدم في أكتوبر من عام ١٨٥٥ م (١٢٧١ هـ) معوث غير عادي
من قبل السبت العادي لإعاده معي لشرف محمد بن عون أمير السبت المطرود
، نظر من ٢٨٦ ٢٨٧ من الحرة، بهبه حيث يتحدث هورجرويه عن رفض عدد
لحظت قرار السبتين. ويبدو أن هذه الأحداث جرت بعد حين فيدييه عن انصاف،
أوضح نصر ديبية حقيقة ما جرى في وادي المشاء، وانظر خلاصة الكلام ،
موفق سابقاً، ص ٣١٦

١١) فإن عوام من الأصبح السلمي في كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من =

أما بقيه اليوم فقد انصبت في استقبال النوار، فخذ جاء بريارتنا على التولي حارن الشريف الأكرم، وكبير خدمه، وغيرهما من موظفيه، ولسب أدري إن كان سيدهم قد أرسلهم أم أنهم قاموا بذلك متطوعين. ثم جاء بعدهم أصدقاء أسوة شمس وحبائمه، وأشخاص آخرون من المدسة دفعهم لمصول إلى المحي. / ٢٥٩ / نوار في الشرق دون سابق معرفة، وهناك تسمع كبير في هذا المجال فعلاً لا يبادل الرائر والمرور كلمة وحدة، ولكن المجامه هي القنوں، ولن يحظر بال أحد، أيأ كان، أن يسأل رنراً، وإن كان غير معروف، لا من يكون؟ ولا لماذا يأتي؟

لقد كان شمس المحور، وخصوصاً أنه عند الله، يقصيان معاً وقتاً أكثر مما يقصيه في مرلهما، وقد أسديا لنا بطيبة خاطر خدمات جليلة، وروادنا بمعلومات عن أنباء تثير فضولنا، لقد كانا ماحضار يتهران كل العرض لتكونا معيدين لنا، ولطيفين معاً وحظر سائهم أن يأتيا شخص من لجوار يقوم بدور المهرج، أملاً في أن تستطيع حماقاته تسليب

إن للمرب ميلاً واضحاً لهذا النوع من الترويح عن النفس، ويبدو أنه ليس من الصعب إرضائهم في اختيار الطرف الذي يكاد تكون في غالب الأحيان

الطري وما بيت عليها من الأشجار وما فيها من المياه، موقن ساعداً، (موافق المحظوظات)، ح ٢، ص ١٢٠ «والطريف ذات مررغ ونحل ومور وأنجاب وسائر السواكه، وبها مياه حارئة وأودية تصب منها إلى سائله وحل أهل طائف نعب وحميز، وغوم من قرش، وغوث من اليمن، وهي من مهاب القرى وباطائف مير » وذكر يافوت الحموي بحيلاب كثيرة سميتها بالطائف وقال البكري «أما سميت بالطائف الذي سر حولها راحاؤه بها تحصيا وكان اسمها وج، قال أمية بن أبي الصلت (القصي)

بحر سماء ط معاً حصيا
بمعارع الأسطال عن سبب
ومصمها معروف من قديم الزمان، فإن السوي في ريبات برسم حب
الحجاج يصف بعضها
سكنو بمكة معاً ومصمها بالطائف

باحه أما هذا كان هذا النوع من الترويج يبدو لي في الأعم الأعز
مصححاً، خصوصاً أن القسم الأعظم من فكاهات المهرج كنت تسأل
أشخاصاً أو أمثله عريه علي، ولم تكن في غالب الأحيان إلا توريات سم أهمها
في أصها، وحيثما تترجم تفقد روح الدعابة كلها

لقد أتيح لي بدلت محافظة عدد كبير من السكان الأصليين، وسحب لي
الفرصة في المطب كفي أتأكد من أمر كنت لاحظته في حدة، وهو أن العرب
أكثر ساعه، وأكثر طرماً، من الأتراك، ولا يجد / ٢٦٠ / لديهم، كما هو الحال
في عدد من مناطق الشرق، تلك التصرفات لاسعراضيه والحمقاء التي
تجعلهم يرون أن مرلتهم مرتبطة بلا مالاتهم

درب أسرة شمس في بيهم اندي اسفلوا إليه ليركوا ما مرلتهم الذي
يسكنونه عادة، وهذا لي حيقاً جداً لاحتواء أسرة كبيرة مثلهم؛ وقد ارداد
تقديري للإزعاج الذي عانوا به بسينا ليس لديوث في لطائف طابق أرضي
كما هو الحال في بيوت مكة المكرمة، وسنقل الروار في المطبق لأور
ولست بحاجة للحديث عن الاستفاد الذي لفته في عرب شمس، فقد بالعا
في إكرمي، كنت انقهوة والشراب والحلويات تتابع دور انقطاع، وخصوبي
بأجمل شيشة في المرل وبسما كنت هيا دحس وأطرح لأسنله، دحل عديا
شخص يعوده النصاص من الرأس إلى القدمين لحية بيضاء، وثوب أبيض،
روشح أبيض، كل شيء باختصار أبيض، هذا الوجه واليدين التي تكاد تكون
سوداء كان رجلاً وقوراً، وحكيماً، عالماً بالشريعة الإسلامية، ومعروفاً بورعه
ونفاه لقد كان حديثه موشى سلسلة لا تنقطع من آيات القرآن الكريم،
والحكم الشائعة في الشرق. وإليكم إحدى الحكم التي أنحصى بها، راسي
يمكن أن تعطي فكرة عن الحكم الأخرى «الصبر مَرَّ كسمه، ولكن ما يتلوه
حلو كالعسل» إن فهم هذه الحكمة يقتضي / ٢٦١ / فهم «التورية»^(١) التي تقوم
عليها لأن الكلمة الثورية الصبر، تطلق على مسحوق شديد المرارة، شائع

(١) في المثل ضاق بين مرارة الصبر وحلاوة العسل

في بلادهم، ويمكن أن يكون مأخوذاً من الستة التي تسحبها العامة: حب
الدُّبّ Douce-Amère.

دهنا عشية معادرت الطائف لربيرة الشريف ليأذن له بالانصراف،
وسارت الأمور كما كنت عليه في الريادة الأولى تماماً، باختلاف بسيط، هو
أن جيش الدو الذي كان متجمعاً حول القصر كان أقل عدداً، واستقبلت بأبيه
أقرب، ولكن بلباقة معسها، والاحترام نفسه كان الشريف الأكبر في تلك
الأمسية يرتدي عباءة حصراء كشميرية رائعة، مريه بسعفات حمراء. ولقد كنا
قد نعاروا فإن الحديث كان أكثر دفئاً، تحدث عن لكوليرا التي يحتاج مكة
المكرمة، وتجنب الطائف، وعن مصر ومحمد علي الذي كان الشريف
يتحدث عنه باعتدال شديد، مع أن هذا الباشا الذي كاد أن يصبح ملكاً هو
الذي قوّض السلطنة شبه المطلقة التي كان يتمتع بها والده غالب كان أكثر
مسرة على عرش باشا، وكان يدبر أفعاله الخاصة والعامة

تحدثنا أيضاً عن المعرض الصناعي الكبير الذي كان يُعقد به حينئذ في
باريس، ولما دعوت الشريف الأكبر إلى أن يرسل إلى المعرض مواد من
المصنوعات المحلية مؤكداً له أنه يمكن أن تنمي هناك بعض الروح وأجدي
ضاحكاً، معهم به روح إثارة السحرية / ٢٦٢ / إن نظري الذي أكد أفضله
تماماً لحظة إملأه حكمة آخر رحلاتي كان حينئذ في أسوأ حال، وقد أظهر لي
الأمير بأصدق العبارات، تميانه بصحة أفضل، وأعرب عن تعاطفه معي،
واهتمامه بي، مؤكداً لي بصدق أن قلبه يهبط لحالي وقال لي على سبيل
المواساة إن واحدة من أصغر ساء حرمه أصيبت بالداء نفسه، وإن لها أن
تشتكي من حاسها أكثر مني، لأنها لا تملك لإدارة ذلك ما يملكه نحن في
أوروبا من وسائل، ومن أطباء مهرة. وقد قطع عليّ وعداً صريحاً أن أرسل إليه
أخباري، وأن أكتب إليه بمجرد عودتي إلى فرنسا، وقد وفيت بذلك الوعد
بإخلاص.

أصعب لكي أنهي من حدث لربيرة الأخير، أن الشريف الأكبر كان
إنان بقامته الطويلة في إستانبول على علاقة مستمرة بالسفير البريطاني هناك

اللورد ستر نفورد كينج Stratford Canning، وهو اليوم يحمل لقب دو
 ردكليف ' De Redcliffe ' وقد سأل رفيقي في الرحلة عن أخبار كينج، لأن
 رفيقي كان، كما سبق لي القول، بريطانياً، وقد أكد رفيقي للشريف الأكبر أنه
 يعرف ذلك الدبلوماسي معرفة وشعة واعتماداً على ذلك كلفه الشريف بحمل
 رسالة منه إلى اللورد، وقد قام السيد كول بلا شت بارسالها إلى عموه

ولا أستطيع هنا التعبير عن مدى / ٢٦٣ / إسباني، باعري أوروبا
 وإسباناً، من انتصرف الوضع الذي قام به رفيق رحلتي في حصرة الشريف
 ليست المرة الأولى التي تسع لي الفرصة فيها لإمداء من هذه لملاحظة على
 الإنجيز، وعلى رفيق رحلتي نفسه كان من المتفق عليه في القرن الأخير، أن
 الإنجيز هم نموذج العطرسة، وقد صورهم كذلك جان - جاك روسو^(٢) . له ل
 Rousseau نفسه في شخصية الميلورد^(٣) إدوارد Milord Edouard وقد ثبت
 على امرس والحجرة، صحة ذلك الحكم المصور عرفت أنها كثير من

(١) 1st Viscount Stratford Canning de Redcliffe السير ستر نفورد كينج دو ردكليف
 (١٧٨٦ م - ١٨٨٠ م) دبلوماسي بريطاني كان يحمل لقب فيكونت أول (بيل - دو)
 الكونت ووفو ابارون، عمل مبعراً لبلاده سواب عديدة في إسبانيا، وفي وقت
 من أهم المراحل التي كانت تمر بها الدولة العثمانية (نصف ثاني من القرن
 التاسع عشر) وله بصمات في كثير من الأحداث التي واجهت الدولة العثمانية في
 الجزيرة العربية وخصوصاً في عسير والحداد، ولا عروبه ان يكون به علاقة ومعرفة
 بالشريف عبد المطلب الذي اقام في اسبون فترة طويلة، وكان له في الحداد دور
 فاق ما كان لغيره وعلى مدى ما يعرب قرن انظر آل رفعة، النصف هي كتب
 «رحالة الأروبيين»، موثق سابقاً، الحلقة ٦، الجزيرة، العدد ١٠١٧٩، ١١ جمادى
 الأولى ١٤٢٦ هـ / ١١ أغسطس (آب) ٢٠٠٠ م، ص ٨ وكتب ديديه Radclio
 واصوات ما أنشأ في الأصل كما في المعجم التي برحمت بالرحل ونظر رحلة
 ميرون، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٤٣

(٢) جان - جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) كاتب وفيلسوف فرنسي كان لأرائه السياسية
 أثر كبير في تطور الديمقراطية الحديثة.

(٣) «الميلورد» رجل إنجليزي كريم المعتقد

الإسجير، ومن كل المشوآت، سواء في البلاد الأحة، أم في بلادهم، ورأيهم في كل الأماكن حصصون حصوعاً مطلقاً للقوى الحاكمة سواء كانت معتصمة أم شرعية. وليس لهم في هذا المجال أي نوع من الاستمالة أو الروت، ويعتصون كل الطبقات تقديس المراكز الاجتماعية، ولتفاخر ذاته الأشياء، حتى لو كان فيها بعض الدناءة، وقد تحدث عن ذلك بموضوعية، وأنهم عليه بكثير من لطرف مواطنهم ناكري^(١) Thackeray في روايته «معرض الحلاء» *Four aux Vanils* إن التربية هي التي حملتهم كذلك، وسقيهم الروتين في هذه الهوة. لقد ولدوا وشؤوا على أرض الإقطاعيين، وشربوا مع حليب أمهاتهم روح الطبقة التي هي أساس تشريعهم الاجتماعي ومبدؤه. إن لدى الإسجير حياء يعادل حياء الفرنسيين الذين ذكر دانتى^(٢) Dante ومكيافيلي^(٣) Machiavel أنهم أكثر الشعوب رهواً، وهم (الإسجيز) يجهلون أسط معاهيم المسواة / ٢٦٤ / كم أفضل على ذلك عزة النفس لقطريه لدى بدو الصحراء، الذين يقتربون من أكثر الشخصيات ثقة، ويحدثونهم بحرية، ولا يشاربون، أمام أي كان، عن الألفة المشروعة التي تليق بالرحاا ويبدو ذلك واضحاً في علاقتهم مع شيوخ لقبائل، فهم لا يذهبون إلا إلى حياتهم لطلب الصبابة، وهم يعملون مثل ذلك مع الشريف الأكبر نفسه؛ إذ يعتنون قصره مثل بيوتهم، ومجاناً علاه مثل محارون علاهم يشيع في الشرق كله كما تعلم بعيد تقديم الهدايا، ولم يستأ

(١) William Thackeray وليم ناكري (١٨١١ - ١٨٦٣) روائي إسجيري أشهر آثاره

«معرض الحلاء» *Vanity Fair* (عام ١٨٤٨)

(٢) Dante Alighieri دنتي أليغييري (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) كبير شعراء إيطاليا صاحب

منشعة «الكوميديا الإلهية» *La Commedia Divina*، *Divina Commedia* (١٣٠٨

١٣٢٠ م)

(٣) Niccol Machiavelli نيكولو مكيافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) فيلسوف إيطالي قان أن

نوسائل كلها مبررة من أجل تحقيق السعد السياسي (إنعائه بوزر لوسعه)، أشهر

كتبه: «الأمير»

الشريف الأكبر من هذا التعلد؛ فأرسلها لنا مع أمين حراسه، فتلقيت أنا عباءة
 بيضاء رائعة، مصبوغة من الصوف العددي، وموشاة بالذهب الخالص،
 وملقى السيد دوكة عباءة سوداء، وتلقى رفيق رحلتي فماش سرح موسى
 بالقصة أما نحن فقد أدينا كرمًا فيضاً إزاء أشخاص مرل لشريف كنهم،
 ممن أدوا لنا بعض الخدمات، دون أن نسي ما نطعم أفراد أسرة شمس، لأننا
 كما نظر أنه يسمى معاملة الاحرام الذي أبدوه لنا بالخشيش وقد طلب السيد
 دوكة من الشريف حامد الصحة في ذلك، فقام لشريف بتحديد حصة كل
 واحد من خدم البيت؛ ومع أن تسليح الذي حددته لشريف حامد كان معقولا،
 لكنني كنت أرى أن يصاعده، وشاركني رأيي رفيق رحلتي / ٢٦٥ / الذي كنت
 أنقاسم معه بصفات الرحلة وأبأ كانت النصحيات التي فرضها علي ذلك، فإنه
 كان يلقي بالمكينة التي منحوا إياها، وفيها حفاظ على شرف الأوروبيين،
 وكان ينبغي، في حدود الممكن، أن يكون كرم مساوياً لتضيافة التي جعلت
 بها وأنسنع انقول دون أي ادعاء إن ما رأيناه باعتبارها مجرد أشخاص
 عاديين، كان عظيماً، ويمكن أن يذهب بعض الأوروبيين إلى الطائف بعدد
 دون أن يعتبرهم لحفل من الذكريات التي تركناها هناك ولما لم يكن معي
 أي شيء مادي يمكن أن يهدي لأسرة شمس، وعدت حميدة الصغير عند القدر
 بأن أرسل له فيما بعد تذكراً مني، ووقيت بكلامي، وأرسلت له من
 الإسكندرية بواسطة السيد الطبيب أونري M. Outrey الذي عُيِّن بعد فترة من
 وصولي إلى الإسكندرية فصلاً لمرسا في جده، ساعة نسيته، وتلقيت إثر ذلك
 من والده رسالة أثت ها برجعتها المحرومة (إلى الفرنسيه صفاً) بمودحاً
 للأسلوب انتراسلي لدى العرب المعاصرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى عين البلاء، ومحر أقرانه؛ صديقي السيد شارل ديبليه، هداة الله
 العلي إلى طريق السلام الأبدي! بعد التعبير عن لاحترام للاتق / ٢٦٦،
 بمكسك، أعلمك أنني لا أبي أسأل عن أحارك استلمت رساله من السيد
 دوكه، ومعها اناعة التي أرسلتها لاسي عبد القادر سلحتها له، وقلها مع
 لاعراف بالحمين، ولما كتب الأمور قد جرت يسا على أساس من انشامح،
 وعدم الاهتمام بالرسيمات، فلم يكن من الواجب أن نحشم نفسك هذا الباء
 ورأيت من المناسب في النهاية أن أكتب إليك هذه الرسالة لأحبرك بذلك
 واني وابي عبد القادر يتهران هذه الفرصة، وبعثان إليك بحسبهم
 واحترامهم.

الطائف في ٢٠ جمادى الأول ١٢٧١هـ

١٥ فبراير (شباط) ١٨٥٥م

التوقيع عبد الله بن محمد سيد شمس الدين

الفصل الحادي عشر

من الطائف إلى جدة

عاد بنا لطائف في ٢ مارس (آذار)، في الحامسة مساءً، للعودة إلى جدة، وعثر طريق أخرى، صالحة لسير الهجن في كل مراحلها، وهي تنحرف عن مكة المكرمة أكثر من الطريق الأولى. كان يوم السفر يوم خميس أيضاً، وهو أكثر أيام الأسبوع مناسبة للسفر كما ذكرت سابقاً. كنت قد قلنا /٢٦٧/ كما في القدم الهجن معها، ولأرحل معها، والمراعاة نفسها، ولم يكن ينقصها إلا، لعد أبو سلاسي الذي لم يكن راضياً عن تصرفاته. يبدو أنه شكى للشريف الأكبر فأعده عن الطائف خلال وجوده فيها، واستبدل به في العودة عدلين آخرين من خدمه هما علي ومرروق، وكان محضين كل الاحلاف عن أبي سلاسي، وكانا طوال الرحلة يتسابقان لأداء الخدمات، واثقة لشاشة والانتهاج. وكان الشريف حامد ورئيس الجمالة أحمد حمودي قد هادا إلى وظيفتهما بموافقت

واصم إليا شريمان احراان لمحنة الاطلاق، أحدهما أرسله الشريف الأكبر لمصالحه قبليين في حالة حرب، والآخر اسمه عد المطب، وهو عبور عمره ٧٥ عاماً كان عائداً إلى بيته في وادي فاطمة^(١) الذي كان يسمى عند عبوره. كانا يمتطيان هجانين، سما كانت فرسانهما تحجان بحرية في وسط

(١) يقع وادي فاطمة شرقي جدة، ويبعد عنها قرابة ٦٠ كيلومتر. كما يبعد عن مكة المكرمة حوالي ٢٥ ميلاً وفي أملاك كثير من الأشراف. وفي معجم أودية الحريرة -

اعادة اسم مكي بالامكان مكن تأكيد أن سامر برفقه أشخاص أكثر تقديراً من هؤلاء على أرض الإسلام المقدسة.

خرجنا من المدينة عبر أبواب المقابل للباب الذي دخلنا منه، وقُدِّمَتْ

= بعد الله بن خميس أن اسمه القديم 'مَرْ الظَّهْرَان' وهو وادٍ من السُّفوح العربي
بسرقة عرب الطائف ويُسمى عند أبي حصاني وادي (طائفة) نسبة إلى طائفة
روحه بركات بن أبي نُمَيْر أو أمه أو بحره، ويسمى الوادي أيضاً وادي (الشريف)
نسبة إلى الشريف أبي نُمَيْر الذي حكم مكة ٦٠ سنة من ٩٣٢ - ٩٩٢ هـ، وكان
ممتلك الوادي نسب إليه وذكر البلاذري في معجم الصحابة ١٠٢/٨ أنه كان في مر
الظهران (٢٠٠) عجم، وأنه ادرك ٩٣٦ هـ أما المروي في وادي مر الظهران
اليوم ما يربط على أربعين فرسخاً، وطوله (٢٠٨) كيلومتر ويظهر رحلات
بوركهاردت، موثق سابقاً، ص ٣٨ وقد ذكر البلاذري في أودية مكة المكرمة،
موثق سابقاً، ص ٩ - ١١ حجر منه وتاريخه - وأمر مكة المكرمة في شذرات الذهب
لعمراوي، دراسة وتحقيق لعصر المصالح الحمر فيه، اختيار وتصيب وتحقيق - عبد
العزيز صقر انعامي، ود محمد محمود الربيعي، ومخرج يربط مر را،
مطبوعات نادي مكة الثقافي، ١٤٠٥ هـ، ص ٢١٦ - ٢١٩ ويبدو أن أساس ما
يذكره يديده من أن الوادي كان صدقة طائفة الرعولة يؤثف ما جاء في كتاب عرام من
الأصح السلمي أسماء جبال نهضة وسكانها، المنشور ضمن بواقي المخطوطات،
محقق عبد السلام هارون، ط ١ دار الجيل، بيروت، ج ٢، ص ٤٠٤، ١٤١١ هـ،
١٩٩١ م إذ يقول عرام ٥ ومنها (أي من القرى في وادي مر الظهران، أم
العيال قرية صدقة طائفة ست رسول الله ﷺ وعليها قرية يقال لها 'المضيبة'
ويصل محققو ما جاء عن مكة المكرمة في شذرات العمري، ص ٢١٨ - ٢١٩
(لعمري) أن الوادي مسوب إلى طائفة بن الشريف نفسه من رعيته، وقد تروجت
ثلاثة أشهر في كبر يفتنون الوادي، وقصت شطراً كبيراً من حياتها في الوادي
وربما تكون هي التي أعطت الوادي اسمه الحالي

(١) بعله باب الحرم الذي يؤدي إلى قصر شبر، ولطائف ثلاثة أبواب هي باب الريع،
وباب الحرم، وباب ابن حيان وذكر تامليريه في رحلته (لصن العرسي)، ج ١،
ص ٢٧٢ - ٢٧٣ أن الدخول إلى الطائف عبر ثلاثة أبواب، أولها في الجهة الشمالية
عربية ويسمى باب مكة أو النبل أو لشريف (والثاني) باب السلام، ويقع في =

بهاها أيضاً، وللمرة الأخيرة، النحية العسكرية من الحرم لعثماني ولم نكد متجاوز الأسوار، حتى وجدنا على يمين قصرأ صحماً أبيض، تحيط به حديقة حصر، /٢٦٨/ كثيفة الأشجار، اسمه شراً مثل اسم قصر خالد باشا الذي يقع على بعد ثلاثة أميال من القاهرة ثم دخلنا بعد ذلك في مراع مسيجة حيث أدرك الليل هناك وكانت تدو من بعيد في الظلام ناقات من أشجار الحبل، وكان صجيج قطعان الماشية يحتلظ بهواء الكلاب واستمر بنا السير على تلك السحار حتى وصلنا إلى قرية نسم^(١) التي كانت المحطة الأولى في هذه المرحلة.

وكان أحد تجار الطائف، واسمه قاري Kari، وهو عدو لأسرة شمس، يمتدح في هذه القرية مرلاً هبأه لبروليا، وجاء نفسه إلى القرية لاستفادنا مع بعض أقاربه لقد أرد، وبعد أن استصاقتنا أسرة عدوه شمس في الطائف على غير ما كان يتصور، وتعريف عما حصل، أن يستقلنا في بيته الرسمي لقد أدى وحه على لوجه لأكمل، وإن كان لي ما أحده عليه فهو أنه جعلت ينظر خروف لصباغة المعتد حتى بعد منتصف الليل كان يشرف على لعشاء، ولكنه رفض لمشاركة فيه حسبما تقتضي أصول اللياقة بما كما ينام المسافرين، أي بكامل ثيابه، في غرفة كبيرة في الطابق الأول، وقد مرش فيها من أجلنا السجاد بعصه فوق بعض ولما أطلت في الصباح برأسي من الدفء، بل من الكوة التي تسمح لنصوه بالدخول إلى الغرفة، وقع ناظري على بركة ماء كبيرة تحيط بها حديقة تعطيها أشجار البرتقال /٢٦٩/ والرمان والمشمون

« لجوب العربي » ولثالث هو أبو المناس (الصواب، ابن عباس) ويشرف على جهة « حوب - جوب حرب .. وقد كان فيما مضى باب رابع اسمه ' باب قرية، ولكن محمد علي عندما استولى على الطائف من الوهابيين أمر بسله لأن هجمات الوهابيين كانت من هذا الحاسب، ولم يعد يعرف مكانه من ذلك الحين

(١) في الأصل Gouver، ولعل الصواب لقيم، وقد أشار البلادي في كتابه على طريق الهجرة (رحلات في قلب الصحراء)، د.ت: ص ٣٧ أن لقيم تطلق مدعومة لقيم ولعل دنديه سمعها كذلك وقال البلادي إني من أودية الطائف

قُدِّمَ لَدِ الْعُطُورِ فِي مِرَادِقِ مَصْرُوحٍ، عَارِقٍ فِي حِصْنِ لِحْصَرَةٍ، وَجَمْعُهَا
 سَحَرٌ هَذَا الْمَكَانَ الرُّطْبَ سَقَى فِيهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْقِي لِلْمَسْحُورِينَ، ثُمَّ عَادَ رِجَاءُ
 مِتْأَحِرِينَ كَانَ عَلِيَّهَا بَادِيٌّ دِي بِلْدِهِ أَنْ يَمُرَّ أَحَدُ الْمَرَاغِي أَوْ مَا يُسَمَّى بَدَلَتْ فِي
 الْجَوْبَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهُوَ سَهْلٌ رَمْلِيٌّ فَسَحٌ، تَنْتَشِرُ فِيهِ صَدَاتٌ مِنَ الْأَعْشَابِ، الَّتِي
 كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ يَأْسَهُ مِنَ الشَّمْسِ، وَبِحَدِّ فِي تِلْكَ الْمَرْعَى بِمَعْنَى
 الْأَغْمِ وَالْمَاعِرِ الَّتِي تَرَعَى وَحْدَهَا. وَتَلَدَ هُنَا أَوْ هُنَاكَ قَرْيَةٌ لِلْوَعْدَةِ الْمُسْتَقْبَرِينَ
 تَنْتَشِرُ بِيُونَهَا فِي ذَلِكَ السَّهْلِ وَيُسَمَّى هَذَا الْبَلَدُ كُلُّهُ حَرَمُ الْقَمْعِ^(١) رِيسِي
 لِسَهْلٍ قَرَسًا، وَبِدَحَلٍ فِي مَطْفَةِ جَبَلٍ حَرْدَاءٍ فِيهَا أَوْدِيَةٌ مِثْلُ وَادِي طَلْحٍ،
 وَيَتَلَوُّهُ وَادِي لَسِيْعَةٌ وَكُلَّمَا نَوَعَدَ فِي الْمَسِيرِ أَصْبَحَ الْمَكَانُ أَكْثَرَ وَحْشَةً وَكَأَبَةً،
 فَيَمْرُجُ الطَّرِيقُ بَيْنَ التُّرْتُفَاتِ الْحَرَابِيَّةِ الْقَاحِلَةِ أَيْ أَحْرَقَتْهَا الشَّمْسُ، أَمَّا
 الصَّحْرُ فَهُوَ قَاسٍ، وَيَكْتَسِي لَوْنًا أَمْرًا، وَتَلْتَمِعُ فِيهِ الْمِيكَانُ^(٢) Mica وَكَأَنَّمَا
 شَدُورُ الْجَوْهَرَةِ وَمَعَ أَنَّ الشَّجَرِ كَثِيرَ الْحِجَارَةِ فَإِنَّ لِسِيرِهِ كَانَ فِي الْبَدَايَةِ
 سَهْلًا، وَلَكِنَّهُ يَحْصُصُ صَحَاءً، وَيَصْبِحُ الطَّرِيقُ مَسْدَرًا أَسْعَدَرًا عُمُودِيًّا إِلَى قَعْرِ
 هَوْدٍ، كَانَ هَذَا لِمَسْرِ الْمَسْمِيِّ رِيحَ الْمَسْحُوتِ بِعَصَلٍ تَلَهُ قَصِيرًا، وَلَكِنَّهُ كَانَ مِنَ
 الصَّعُوبَةِ بِمَكَانٍ. وَلَمْ تَكُنِ الْهَجْرُ لَتَسْتَطِيعَ السَّرَّ فِيهِ لِأَنَّ الصَّعُوبَةَ كَبِيرَةً، وَكَانَتْ
 تَتَرَلَقُ فِي كُلِّ حَصْوَةٍ عَلَى / ٢٧٠ / الصَّحُورِ الْبَائِتَةِ أَوْ الْمُنْتَحَرِكَةِ مَعَ ذَلِكَ قَاسِي
 لَمْ أَهِيَ سَحَابَةٌ، وَهُوَ اسْمُ الْهَمْدِ الَّذِي كُنْتُ أَرْكُهُ، بَانِرُولٌ مِنَ عَلَى طَهْرِهِ،
 بَلْ بَقِيَتْ بِشِجَاعَةٍ عَلَى الرَّحْلِ، وَلَمْ أُنْجِمْ عَلَى ذَلِكَ

وَصَلَدْنَا كَلَامًا، الْهَمْدَانِ رَأَى، سَالِمِينَ إِلَى أَسْفَلِ الْهَوْدِ، وَلَمْ نَكُنْ بِقِيَّةِ
 لِقَاعَةٍ أَقْلٍ حَطًّا مًا، وَلَمْ تَجَاوِرْنَا تِلْكَ الْعَمَّةَ، دَحَلْنَا فِي رِيحٍ أَكْثَرَ تَنَاسُبًا مَعَ

(١) كَتَبَ فِي التَّرْجُمَةِ الْإِنْجَلِيَّةِ لِمَرْحَلَةِ دِيدِيَّةٍ، مَوْثِقٌ سَابِقًا، ص ١٣٧ Hazm al-

Qumayyah وَفِي أَصْلِنَا الْعَرَبِيِّ Hazm-el-Kômee وَهُوَ الصَّوَابُ

(٢) لِمِيكَانٍ أَوْ الْمِيكَانَةِ هُوَ أَحَدُ مَكْرُوبَاتِ الْحَرَاثَةِ، وَكَانَ الْعَرَبُ يَسْمُوهُ «مَيْقًا»، أَنْظَرِ

مَعْمَمُ الْمَصْطَلَحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْفَنِيَّةِ وَالْهَنْدَسِيَّةِ (إِنْجَلِيَّةٍ - عَرَبِيَّةٍ) إِعْدَادُ أَحْمَدُ

الْحَصْبِي - مَادَّةُ Mica فِي حَاشِيَةِ وَحَلَاتِ بِيورْكَهَارْت...، مَوْثِقٌ سَابِقًا، ص ٦٥،

الْحَاشِيَةُ (١).

قدرة الإنسان هو ربيع اللذلة وقد كان هذا المكان في سائر الأيام يشير
 رعب المسافرين، الذين كان يدو قبلة عتيبه يهاجمونهم فيه، ويلبونهم
 أممتهم، وعتبة^(١) قبيلة قوية، ومحنة للحرب، تنتشر في الجبال الممتدة
 جنوب لطائف حتى المدينة لمورة ويعكر لها أن تستمر ثمانية آلاف فارس
 عاليينهم مسلحون بسايق انقلة، وهي لا تأتي تعرف جيرانها وعلى ابرعم من
 أبي ما رلت تنقضي حواء من الموقل التي يمر أرضها، فإن سلطتها به تعد
 تمتد إلى هذه المنطمة، ولم يحظر بالي أبداً أن يعرض لنا عارض حصر لانا
 كثر أولاً، ولانا صيوف الشربف الأكثر، وبحر في حميته، سواء كان في جناحه
 أم بعيدين عنه

ينتهي الربيع براد واسع يسمى لسيل، وهو قاحل، ورمل، وقد أحرقت
 الشمس وكثت نظري فيه مفاحاء إذا ما كدنا بدجته، وسير فيه بعض
 الأميل تحت شمس حارقة، وحو حالي، حتى وجدت نفسي دون سابق إنداء،
 وكأني بفعل لحر على حافة / ٢٧١ / مع عري، وصاف، يسحب من لرحل
 ويتدفق بمرارة، وتنتشر حوله بصارة عدة ويوجد بالقرب منه نطاق واسع من
 لصحور المسحونة بربا مستقيمة، ولا تكاد تظهر على وجه الأرض، ومرثة
 تناسق وكأنها مدرجات.

وبنا لحال أن يد الإنسان امتدث إليها بالظلم، وسيكون من السهل،
 نقل من الحبيب لمدح أو حس لية، أن يرى في هذا المندرج نظيمي عمر
 شعب باند من العمالة الذين كانوا قبل الطوفان ولم يكن لهم أي مناس من
 اتوقف في هذا المكان المعد أحس إعداد. لقد توقفنا فيه وقتاً أطول مما
 ينبغي، وأحرجنا للمرة الأولى المنزلة التي خملونا بها في لطائف ولما أذن
 لعصر هب الأشراف إلى الوصوء والصلاة وسط الغوم، وكانوا على سجاجد
 الصلاة يركعون ويسجدون بحشوع كما لو كانوا وحدهم ولا يحجل

(١) اعبر عن قبة عتيبه كتاب الطائف، جغرافيه - تاريخه أسس قبائله، مؤلف ساعد،

لمسلمون من ذلك في هذا الخصوص؛ فهم يبادرون إلى ممارسة أركان دينهم في أي مكان كانوا، ومع كثرة من كان وانضم إلى الشريعة المسلمين وافقوا من الطائفة ثالث، ولم أعد أدري في أي مكان حصل ذلك، كان ما يربل حدثاً، لم يكن يتجاوز من الطويلة، وليس له من العمر أكثر من أربعة عشر عاماً، كان اسمه أحمد، وكان يمتطي حواداً تشبه حملاً ولم تقم بيبي ربيبه أي علاقة، ولست أدري هل هو الحجل؟ أم كوي مصري، هو الذي بقاه بعيداً عني أما العجوز عند المطلب فقد كان أم عربية، ووعداً / ٢٧٢ / بانوقوف في مرة عندما سر به، وانعسا على أن يمكث لديه يوماً كاملاً، وعرض أن يدعو على شرفاً عدد من حيرانه الأشراف ولكن هذا المشروع لم يكتب له النجاح، كما سنرى بعد قليل.

إن وادي النيل محاط بالبحال في كل الاتجاهات، ريعته من العرب هزم صحم من الحرايت لمفوض بعضه فوق بعض، والذي تراكم صحوره فرق بعضها، راقده ها مد آلاف الين، وكانت حوائط الصروح العملاقة رأيت في هذا المكان راعي الصحراء الحميري، وأعي قطعاً من اسوق مع صغارها، وكان أحدها، وقد ولد في اليوم نفسه، محمولاً كالطير الصغير من دراهي أحد لرعاة فقد استقيا هؤلاء الرجال الشجعان استقلالاً حذلاً، رقدمو لنا لباً كثيراً في صحفات من حطب وكان وسط أسهل بدوي أرحى النصارى لجواده واقترب من هجري، لبس لبصري سعة، وبكى من أجل أن ينصر يدي، ومددتها به بطنة خاطرة، ولت قصص عليها خياني على الرغم من كوي غير مسلم بقوله السلام عيت، وهي تحفة يتبادلها المسلمون بينهم ويحل لقراء الفرنسيين قد تعرفوا في هاتين الكلمتين العربيتين (السلام عليك) الأصل الاشتقاقي للكلمة الفرنسية Salamaiee (بمعنى السلام عليك)

كما في هذه الأثناء سير بجده أساطير جيل / ٢٧٣ / في عاية القحط، إنه جيل يسومين^(١)، وكان هناك جيل آخر ليس أقل فحطاً منه هو أم

(١) كتيه ديديه Diebel Yassoumaine، جاء في معجم معالم الصحراء ج ١٠، ص ٢٢ =

الحصيف^(١) Djebel-Em-el-Khassaf الذي كان يسد الأفق أمامنا ولكننا لم
 التفتنا حول هذا لجل الأخير، بدأ ممتداً أمامنا وادٍ صحيم، ومع أننا كنا
 نسير، والشمس توشط على العروب، فإنها كانت تشع أمام عيوننا، مما كان
 يصديقي على الرعم من أني كنت أصعب كفة للاحتماء بها، ولم أكن أرحب إلا
 رؤيتها تعرب لقد عربت أخيراً، وعند العروب كنا ندخل في وادي اللبعمون
 أحد أشهر أودية هذه المنطقة من الحجار ولم أكن أستطيع التحكم سداً
 كان يستحق هذه لشهره، لأن الليل لم يتأخر في إدراكنا، ولم يتركني أرى إلا
 المظهر العام المظلم للحل على خلفية منتعجة من المجموع

ك سير من اثني أو ثلاث عشرة ساعة، وبدأ اشتر والحيوانات
 يشعرون بالحاجة إلى الراحة توقفاً لفصاء الليل قرب قرية الريمه التي تم يكن
 أي شيء، لا وميض ضوء، ولا أي صوصاء يدل على أنها في حوارنا، وإنما سم
 يكن مع حيام عرب خيم في العراء فوق الرماد، كما لو أنها جرد في حملة
 عسكرية، وذهب العرب الذين برافتنا ليأتوا بالحليب، وداروا بنا بكفي
 الجميع.

وبدا عاصبارو في ممارسة مهته للمرة الثانية منذ أن عادوا حدة، ولم
 يتأخر العشاء بفصل الحزبة التي حملناها من لطائف وبعد وقت قصير كانت
 القذولة كنها تعط في يوم صبق، ومع أننا كنا / ٢٧٤ / ثلاثين رجلاً، وستة عشر

- يسوم المعروف اليوم بسومان خلال أسودان متدلال على حاسي وادي بحله
 اليمامة، يسمى الشمالي يسوم ستر لشعب يصب منه في بحله، ويسمى اثني - وهو
 لأسهر - يسوم خلال لشعب يصب منه في بحله أيضاً، وهذا الجنوبي هو الأشهر
 يبعد عن مكة ١٦٣٠ كيلاً شرقاً، يدخل الطريق وسيل بحلة بينهما

(١) المعروف هو أبو حصيف جبل كبير أشبه بقع على وادي مع اشرفيه مقابل لجل
 أصله من الشمال، قرب الجمرية (وهي على طريق مكة لطائف) نظراً معجم
 معانم الصحار للبلادي ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م، ج ٣، ص ١٣٠ - ١٣١؛ ونظر معجم
 أودية الجزيرة العربية، عبد الله بن خميس، ط ١، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤، ج ٢، ص

جملًا أو هجاء، وثلاثة أو أربعة أحصنة في مكان صيق، فقد نام كل واحد حيث توفر له المكان كان، الصمت مطلقاً، وحسب نفسي وحيداً كنت مستلقياً على سجادتي، ومثعاً بعاءتي، كنت آخر من تسلم اليوم إلى حقوه، وانتظر أن يعلو اليوم حفيّ أرحس العان لصري لحوب في قبة السماء الواسعة المملأة التي لم تكن قد انطأأت بعد في بصري، كما هي الحال عليه اليوم. ومد أن انطأأ نور السمء أمام عيني، في لوقت الذي نصي للأخري، فبسي أعود بذكرني برفه خالصة، مشوة بالحر، إبي نالي الحريره العربيه التي طالت أسعدتي بروعتها، وأحب أن أرى نور البصيره ما لم أعد أستطيع رؤيته بطريقة أخرى

ولمّا كنت قد حرمت للأبد من أكثر المشاهد التي يمكن بلاسان تأملها وروعه، مشهد هو أكثر مهابة أيضاً في تلك المرتعاب العميره، فإني أمتح من ذكريات الماضي ما يعريبي في الحاصر، ويسحي بالمستعمل شجاعة وقوة، كي لا أضعف وسط لظلمات التي تحيط بي، وحتى أستطيع، وأنا أحصر في ظمئي، وأنا أعيش مسليماً لها، أن أزد مع أحد الشعراء

لقد فرقت، وصرت اليوم في لحج	من السلام ولا أرحو شواطئها
وعالم سور قد سلئت مسافه	أمام عيسي ولا شيء يدويها
وبن روعي نصاء ليوم أمله	أن السلام من الحشرات يحيه
وبن علمي أن امرء محبب	أعطي الحباء كثيراً من معانيه

٢٧٥ / كنت في الفجر صاحياً واكتفت لمشهد لطيفي شئت أول حرم الصوء في الصباح؛ ذلك المشهد الذي لم أستصع رؤيته في مساء يوم السابق كان قعر الوادي صيفاً حاداً في هذ المكان، بعضه الرمال لماحدة، ركن الجواب مروعة بالأشجار، يكسوها العشب الأخضر الكثيف على مدى امتدادها، وتتعر الأرض عيوناً في عدد من الأماكن مما يحفظ على البصارة وانحصوه على الجاسين وتحتفي كل أنواع النباتات على علو الأشجار، عجواب الحان الجابية ومعهم حرداء تماماً

لقد كان هناك عدد من الرب اليانسة المعردة، المفصول بعضها عن

معص، والتي تنتشر على أطراف المنطقة المحصورة، ومنها تكور قرية الرينة التي يسكنها بدو محصورون، مصرّفون إلى زراعة الأرض الصالحة للزراعة، وتربية قطعان الماشية ويتنصب على سوء صحري، في مكان يشرف على القرية، حصن ثني في سائب الأمام للدفاع عن المكان وحمايته، وهو مهدم منذ زمن طويل، ولا يحظر بال أحد أن يمد يده

ما كادت العاقلة تصح على أهنة الاستعداد حتى تدفق عليّ الحبيب من كل حدب وصوب، لقد جاء من ليدو، وسهم بدويات بعين منقبات بإحكام احتراماً بلاشرف؛ وولا وجودهم لكن أكثر تهاوياً، وكثراً رأياً وجرههز بلا صعوبة وكسبي أعتد أنا لم يحضر شيئاً إذ لم ير وجوههم، لأن هياهم لا نوحى بأنهم في سب لصبا، وأثواب القطن الأزرق التي تسع بها كل /٢٧٦/ ساء المنطقة بعيدة عن إصفاء الأدوة عليهم طالما لاحظت فيما مضى أن روح المسيرة تسود بين العرب، ووجدت هنا دليلين آخرين على ذلك أولهما يكمن في الطريقة التي تعامل بها العرب مع الأشراف ومعاً، إنها طريقة عصرية وأبية، وتكفيها على الدوام مودنة، وثاني الأدلة يكمن في السمة السلوكية التي أذكرها لكم كان الشريف حامد يأكل مع عادة، ولكنه كان يمتنع عن ذلك في بعض الأحيان، وفي هذا الصباح على سبيل المثال، تناول فطوره قبل الانطلاق مع أحمد حمودي، رئيس الجمالة، وآخرين ممن يسوا من طفته ثم بكى يتصرف كذلك متصعفاً، ولا سعيّاً إلى أن يكون له شعبية لديهم، لقد كان يقوم بذلك بساطة فطرية، ولأن ذلك كان يبدو له أمراً عادياً، متأسلاً في سلوك البلد.

لقد أضر انبلاق بسب حادث مؤسف إذ أصيب الشريف المعجور عبد لمطلب بنويه حمى شديدة جعلته غير قادر على الانطلاق، ولا على معاداة سجادته كان لتعبير الذي اعتري قسوته يدل على اضطراب عميق في أعصابه الجسد ووظائفه وكان هو نفسه يظن أنه يحس ساعته الأخيرة؛ ولكنه لما كان مستشعراً لمصيره، فلم يكن يصدر عنه أية شكوى أو أيس، ولم يكن يرحو من الله إلا أن يسمح له القوه كي يستطيع الوصول إلى أهله ليتم بهم كما يقول

بصوب حامت دحمة وسعود / ٢٧٧ / عاماً، وأنا على صهر اسطة؛ فقد
 كان لوقت كي ألحق بامسلا في وأود أن أموت في بيبي بين أهلي وعشيرتي،
 وإن كان القصاص غير ذلك فلنحقق إرادة الله وإسي راضي بما قدره من فعل
 أبما يمت المسلم فإنه يذهب إلى الجنة؛ إذ كان قد أسرم خلال حياته بما
 شرّعه الله في القرآن الكريم، وأن التزم بذلك طول حياته بقدر ما يستطيع
 لأسان اصعب أن يفعل ذلك، وإن حصلت مني مخالفة فذلك بسب
 صحتي، وليس أبداً بسبب عصيان الله، وأرجو إداً أن يرحمني، لأنه الرحمن
 الرحيم.

ثم بقى للمريض هذا الكلام متتابعاً، وبصورة خطاب كما ذكرته، وبكده
 كان في العاش متقطعاً بالآلام المرض كما يحيط به، والحرر بملأ بوسه
 لحانه، ولكن لم يكر بوسعه القيام بأي شيء لمساعدته، إذ لم يكن معاً طبيب
 ولا صيدلي، ولعل ذلك بالشديد ما أمده. ولما راحت نوبة الحمى قليلاً
 أصبح بالإمكان وضعه على ظهر هجانه في وضعه مريحة، لينطبع تحس
 وعشاء المسمر كان الشريف الصغير الذي أطبه من أقرانه المصريين، يرافقه مع
 بعض رجال مرافقتنا وكنت في غاية الرب عندما علمت في اليوم التالي أنه
 وصل إلى منزله في حالة أفضل بكثير من حالته عندما عادوا، إذ لم يكن قد
 شفي تماماً وبذلك فشل / ٢٧٨ / مشروع ريارته في بيته خلال مرور بديرته

وكان الشريف الثاني الذي جاء معنا من الطائف قد عادوا لتعهد مهمة
 المصاحبة التي كلفه بإياها لشريف الأكبر، ولم يبق مع من الأشراف الأربعة
 الذين كانوا مرافقاً في مسلة الترم السابق إلا الشريف حامد الذي ظل حتى
 ساعة الرحلة الأخيرة، كما كان عليه في ساعتها الأولى، رجلاً لطيفاً، وظريفاً،
 وحريصاً، وأكثر الرجال كياسة

نظمت المفلة أخيراً، ولكنا لم نسر وقتاً طويلاً لأننا بعد ساعة على
 الأكثر توقفاً في سونة، وهي قرية أحسن منه من الريمة، وبيوتها أكثر تجمعاً
 من بيوت الريمة يبدأها وادي فاطمة المشهور في الحجار، وهو يستوع
 احصار التي تستهلكها مكة المكرمة وجدة إنه منح كل الاتسع، وبدون

باسمه لعظمة ست محمد ﷺ ورصي الله عليها، إذ بروى أن النبي ﷺ قدمه لها صدقة عندما رزحها عبداه ﷺ ولما كان الأشراف يحذرون منها عثر ولدتها الحس والحسين ﷺ فإبهم يكون لهذا الوادي المعني، والحصب، والشريف الذي بسعه، ويستعبر منه اسمه، اعتباراً خاصاً ويتحد منه كثير من الأشراف دار إقامة، ومهم الشريف النظيف حامد. نرجلنا من على ظهور المطايا عند باب أحد لمارل ندي كان أصحابه يسطرون، ولكي لم أذبحه لأن الشريف حامداً قادسي مباشرة إلى بيتان مجاور، اسمه النص E. Noss، حيث هيا بي معاجاة

لقد كانت معاجاة سارة، ومن أظف ما يمكن أن يكون. لأن /٢٧٩/ المشهد سم يكن استة مسطراً، ولم أكن قد رأيت أحسن منه مد رس طويل، وفيه بعض أوصاف الجنة كما بينها الله تعالى في القرآن الكريم ولم يكن بعض هذا المكان إلا لبحوريات لكي يستوفي كل أساب الكمال كان يتعرج عبر هذه الجنة لصغيرة جدول ماء عذير وصاف، على أرض مملوءة بالحصي الأبيض، وكانت تعرجاب الجدول الألفة محتفي في كثير من الأماكن تحت العشب طويل المشابك وتردهر فيه بروعة، وتآلف بدفة، أشجار البرتقال، ولجبل، والمور، وغيرها من أشجار المناطق الاستوائية، إنها تحتل، ويقترب بعضها من بعض، حتى إن أشعة الشمس لقائفة لا تستطيع احتراق ظلالها لشدة كثافتها وعدم موديتها، ونسود فيه في قلب الظهيرة برودة لديدة لم يكن هناك ما يمكن أن يترعى من محيط لحصرة الذي أستحم فيه، كنت مستلقياً قرب جدول الماء تحت شجرة مور^(١) كانت أورافها العريضة بمثابة مظلة فوق رأسي، وتندلى من حولي كما لو أنها عدد من المراوح، كنت أود ساول طعام، لعداء تحبها، والبقاء هنا طوال النهار وبهم عندما يرى هذه الشجرة التي لا مثيل لها، لماذا يجعلها لهندوس إجلالاً عظيماً، ولماذا

(١) قال ابلاوي في معجم معالم الحجاز، ج ٤، ص ١٥٠، انريمه حين نرة عدده اسماء، وادي بحه انيمابه وهي مشهورة بجودة المور، ويعرض إلى حده اسجل والموكة يمر بها طريق مكة إلى الطائف المار بسجله الساية على (٢٥) كيلاً

يمارسون في طلبها طقوسهم، ويقدمون تحتها قرابينهم، ولماذا يجمعون في
المكان الذي يصمون فيه أكثر الهنم تحيلاً، جايش^(١) Ganesha، إلههم
الكبير / ٢٨٠ / الذي تجتمع فيه كل الصفات، ويجمع بين وظائف أبور^(٢)
Apollon وميركور^(٣) Mercure في التماثل الهليني.

كان يقوم على خدمتي ولد صاحب خدا، اللسان أو حميده، وعمره بين
١٤ و ١٥ عاماً، كان يعمل ذلك دون أن يرعجي، فيحمل إلي المريح، وهو
نوع البرمال الوحيد الذي يُنح في هذه البلاد، ويوم تبريد الماء في راحة
معلقة بالأعصاب، كان باحتصار، يقدم لي أطف ما يمكن أن يقدم من واجبات
الحياة بالصيف، ويعمل ذلك باستراح هو من خصوصيات سن الشباب

كنت متوتراً بعمل القحط، وحر النهار انصبي في اليوم السابق،
اسرحب أعصاب جسدي كلها بالتدرج تأثير ذلك الجو الرطب لشمس
كنت كل طاقات الحياة تستعيد في لدونها كنت أتنفس بارتياح شديد، وكنت
أندم بحري في عروقي بحرية أكثر، وفرت عساي عندما وقعت على الكعب
الأحمر المصنوع الذي كان يرفرف من حولي، بعد أن كانتا متعنتين من
التمتع الرمل والصحراء، لقد شعرت بالحملة برعد انبش المادي والصحوي
الذي سم أكن حرفته، أو أسي كنت أظن ذلك لقد انتهى بي لأمر بفصل

(١) واحد من أحب الآلهة وأكثرها شعبية في الديانة الهندوسية بدأت عبادة حوالي عام
٤١٠ ميلادية وما يزال يُعد حتى اليوم وبدأ جميع الطموس الديانة لدى الهندوس
بالتضرع إلى جايشا، ويمكن أن يكون له عدد كبير من ابور، ولا سيما الصده أو
المحارة والصوبحت والفرص ورمق الماء، ويصرخ له الناس قبل القيام بأي راحة
أو في بداية مشروع جديد، وبعد صوره في مدخل الممابد والمسار انظر معجم
ديانات... موثق سابقاً، ج ٢، ص ١٢ - ١٣

(٢) أحد آلهة الأولمب الاثني عشر في أساطير اليونان وهو إله متعدد لوظائف انظر
معجم ديانات... موثق سابقاً، ج ١، ص ١٠٩ - ١٠٤.

(٣) إله التجار والنجارة في الأساطير الرومانية، وكان يقوم بصدمات عديدة انظر
معجم ديانات... موثق سابقاً، ج ٢، ص ٤١٢.

لراحة المطلقة، والاستراحة الطويلة، واستمرارية الإحساس العرید واطرداه، الإحساس نفسه على الدوام، بفصل ذلك كله، انتهى بي الأمر إلى العوص في حلم نقطة عمیق، مسلحاً عن لعالم الخارجي، وبأسيا له تماماً، وانتهى بي أيضاً إلى فقدان إحساس بالزمان والمكان، وكنت لأيا / ٢٨١ / واعياً بدائي من أين أتيت، وأين أنا، وأين أممي؟ ولم أكن أعی ذلك كله إلا بصورة صافية محتظة

كنت تتراعى أمامي وتعود إلى الترافي أحدث لراحة التي قمت بها ومراحدها، والأماكن، والصروح، والأشخاص، كما لو أنها أصعبت أحلام ولم أكن ألتج العودة إلا من حلال صباب كثيف في مكان بعيد سدسي وإن حدث لي في الفترات أن أفكر بأوروبا وباريس، وبأصدقائي وأعدائي الذين تركتهم هناك، وبالصراع المرير الذي كان علي في الماضي أن أحوصه هناك، وبسوء الحظ المرير الذي كان يلارمي هناك، وبالحيات البادرة، وبمصائب المشوعة التي حلت بي، كل هذه الأشياء، كانت تغير ذاكرتي كما لو أنها ذكريات مبهمه لحياة سابقة لم تنته أبداً كان الدم والآلام، حتى أكثر المشاعر شرعة، كن ذلك، فدحا في عمرة انعماسي فيما يفوق الوصف من سكية وسلام

ستمرت هذه المعادة النالعة، هذا الكيف، بالعدرة السحلية المناسبة لوصف حالة الجسد والروح التي كنت فيها حينئذٍ سبع ساعات كاملة، وقد مرت هذه الساعات السبع كما لو أنها ثابئة واحدة لقد أعادني إلى الواقع بغير الإطلاق، لأنه كان يسمى في بهمة الأمر أن يعلق، وبما كنت معتمداً في المنداب الهائلة لذلك المسجع الرعي^(١)، كان يجري عني بعد حضوث امام الست اندي برلا فيه مشهد / ٢٨٢ / محلف تماماً؛ لقد كان عمل الشريف حامد بقصي مه ن يكون في مكة المكرمة، إلا أنه كان يقسم، كما سبق لي القول، في وادي فاطمه، وله فيه بيته وحريمه، وكان يقصي هناك كل الوقت

(١) في الأصل Gapoue = اسم متجع رعي في إيطاليا

لدي تركه له أعماله لقد كان بالتالي معروفاً هناك، ومحترماً، وليس كنهم يحبونه، ولما دعياً وصوله إلى سؤلة حبه بدو الحوار رزاد، بعضهم للسلام عليه فقط، والآخرين لمذاكرته في شؤونهم وحدثه هناك في وسط حلقه من اندو، يجسسون القرفصاء حوله، وكنهم اذان صاعية كان يوجه للجميع كلاماً لطيفاً، بها محكمة في الهواء العلق، شير الإعجاب حقاً، وكب على الخصوص مأخوذاً بالياقة وبانهدوء اللذين كان يسودان هذا لجمع لمعير

بعض كل انصارين لدى وصولي، وحثوني بلطف كسر ونبأ كب صيف الشريف، فون احترمي من احرامه، دهيك عن أبي ما رلب صيف الشريف الأكبر الذي كان، على الرغم من نقد المسافة، يُشع عيني حميته بعد أن سارت الركاب بحر اتصاله ل كان وخوردا يثير خيال العرب فتعددت الروايات وشاعت حول هدف رحلتنا علمت فيما علمت، عد عودتي إلى حدة، أن بعض الناس حسونا اثير من الباشاوات أرسلهما اسلفان لبعض على الشريف الأكبر، كان بعض أولئك لدو (من أتباع الشريف) يرافعوننا /٢٨٣/ في الذهاب. رقد كان بإمكانهم يطالة الطريق لو أن لشريف حامداً أراد ذلك.

كما سير في واد يشه الوادي الذي قطعاه في الصباح، كان محاطاً مثله من كلا الجانبين بساتير، ونعطي في الوسط الرمان الجرداء لني منتشر فيها بعض الحيات لشوكية ولا يحكر شيء أن يعطي فكرة عن هذا النوع من الأودية أفضل من تحيل بهر عريض بجري بين شطين نشر عبيها الحصرة، ولتحيل ذلك الوادي مشدل بالماء رملاً مكون من التكر والممحوج لبقول إن انجال الجانبية جرداء تماماً لأنها تشابه في هذا الجانب، وكان في آخر الوادي حبل مميو شكله من الحال الأخرى كلها همدلاً من التواءات ولعب التي تتوخ الحال الأخرى كانت معه جبل الحرة، وهو اسمه، مستوية تماماً حتى إن قطعها يحتاج إلى أربعة أيام كما قد اطلقنا متأخرين، وكان الليل سيدركنا قريباً، ليل هادي ومضاء كما هو حال كل الليالي في هذا الجو

الهيح كما مستريحين فصل الموقف الطويل في سؤلة؛ لذلك كانت القافلة تسير بسرعة وحفة، وكان الجميع في أحسن حال، وخصوصاً العبد مرروق الذي كان يسير بحيويته وسروره الدائمين. كان مكناً بعدمتي حصراً، وكان يمشي إلى جانب هجاني، وكنت من وقت إلى آخر أردفه ورثي، وقد بدا متأثراً كل لتأثر بهذا الاهتمام / ٢٨٤ / الذي قبله بمصاعدة هتمامه بي ولما قتربا من الربا؛ وهي قرية في وادي فاطمة حيث يسكن الشريف حامد، وكان علينا لوم فيها، سمعا من بعد صوتاً معباً، وأحده صوت معائل سمعت من وسط القافلة؛ ثم صاد الصمت، وبعد لحظات قليلة وحداً أيضاً وجهاً لوجه مع جماعة من الناس؛ منهم من يمشي، ومنهم من يمشي لهجس؛ لقد كانوا من أسرة الشريف حامد ومن حذمه؛ الشريف حامد الذي تقدمنا، ولم سآخر في الوصون جميعاً معاً إلى مرله

يقع منزل الشريف في مكان قليل الجاذبية، محروم من أي طر، ويرتفع على بعد خطوات مه جبل من الحرايت، ليس فيه أي حصرة، تسكه سور من نوع انكبير. كان المنزل مؤلفاً من عدد من البيوت المربعة، المصحفة، وغير المصحفة، ويفصل بينها أودية وجدران. كان يسكن في أحدها الخدم من الرجال، وفي آخر، أكبر من الأول تسكن الحريم، وكان بيت ثالث يُستخدم ديواناً، ويجلس فيه رب البيت خلال النهار، ويستقبل فيه الأجانب ولروار، ويصرف شؤونه؛ وقد أعدوا لنا هذا البيت بما فيه، ومكنا الصبح كله فيه؛ وكان يتألف من غرفة واحدة في الطابق الأول، ومن مصطبة / ٢٨٥ / فوقها وقد أقيم حول ثمة ديوان للجلوس، وكانت هناك عدة قطع من البورسلين، والزجاجات البيضاء معروسة في طاقات محفورة في قلب الحائط. كان لسجاد الخيس والعديد هو العرش الوحيد في المنزل. لقد عذدت منها ما لا يقل عن خمس عشرة سجادة محدودة بعضها فوق الآخر. كانت تلك الغرفة الوحيدة تطل على العالم الرملي، والمسور بحداد من الحجر.

كان حاما الباب مريين من الخارج بسلسلة من الدوائر الجميلة جداً، لموضوعة على دعائم صغيرة من العشب المطلي بألوان زاهية وجرت

العادة أن تعطر تلك الدوايق قبل ملئها بالماء، وليس ذلك ماسأً، لأنها تجعل
للماء طعماً غريباً لا يتغيره الدوق

واعتماداً على ما قلته وأعدت القول فيه، عن طب الشريف حامد فإنه
يمكن أن تحبل الطريقة التي استعملناها في بيته، في أولى فروع الصاغة لدى
لعربي، هي أن يحض صوفه يأكون كثيراً، ويسعى على لصيوف مجاملته،
والأكل من كل أصناف الطعام التي يقدمها لهم، ولو كان عليهم أن يرتكبوا
عشر مرات في اليوم حظيئة الشره وقد أفرط الشريف في الالتزام بذلك العادة
كان الحروف لمحشو بالزر والمور الذي قدموه ل في العشاء هنالاً، وهم يكن
حروفا العطور والعذء بأقل من ذلك، ناهيك عن عدد كبير من لأكلات
لمحلية، والحلويات، والمرسات، ومسك حمام كل ذلك كمية ضخمة من
لأرز واللحم والتوابل (البيلاف) / ٢٨٦ / كيف السبيل في الأكل يشبه في
مثل هذه المأدنة؟ قدموا ب الطعام على الطريقة المعمادة في هذا البلد، أعني
على الأرض، وإلا فعلى طولة مستديرة ترتفع عن لأرض مقدار ست أقدام،
ويعطيها حق من الحاس ينقى صيف، يخلق المدعوون حولها، ولم أجد
ذلك مريحاً، وأقل منه راحة نأاً أن تجد نفسك محير على الأكل باستخدام
أصابع دون صحون ولا فراشي وكان الإبريز يؤدي مهمته بانتصام، لأن كل
واحد من الحاضرين يغسل يديه بعديه قبل الطعام وبعد

أجرب مسجها على أن يأكل معاً على الرعم من أنه كان يمنع عن
ذلك باعتباره رت المنزل، كان لأناعه وعنده وخدمه مطهر حسي، كانت تدو
عليهم جميعاً علامات لطافة، ينسون ثياباً جميلة جداً، وكان بعضهم يتنطق،
وهو يقوم بعمله، الحاحر كانوا يقومون بخدمتها بلطف نادر، مقدسين في
ذلك بسيدهم.

كان صباح اليوم التالي فاضلاً، فصيته في راحة تامة كنت قريباً جداً من
الحريم، وكنت أسمع بوصوح حنة النساء، ولكن دون أن ألمح أيأ مهر لا
ينطق الشريف بكلمة واحدة عن أسرته، ولعرب لا يتحدثون أبداً عن حياتهم
الأسرية، وإنه لمن غير المناسب أنأ أن نتحدث معهم عن ذلك إلا أني في

مقابل ذلك تعرفت على عدد من أشرف المنطقة خافوا لريدر ما كان بعضهم ما يرال يادعاً، وبعضهم لآخر /٢٨٧/ في سن متقدمه كان لأحد هؤلاء المتقدمين في السن لحة نساء موقرة كل الوقور، وبدا حكماً بما لقه من الاحترام، فقد كان من ذوي الاعصار، إلا أنني لم أسمع منه، ولا من أضرابه أي فائدة. إن احرب متحفطون كل التحفظ مع الاحباب، من هم كذلك بينهم أيضاً. ونتج عن ذلك ان حديثنا لم يكذب يخرج من إطار المجاملات والعموميات أنعرفون م الذي يدعشهم عدداً؟ إنها أعلاما التي مكسب بلا مداد وكبريتا لكيمائي اندي يشتعل بلا نار

فقد أبح منصب الكريم الحاحاً كبيراً لجمعنا نفي في صباهه إلى اليوم اتدلي على الأقل؛ ولكن بطفه كان يقنصي القصة منا، وأنححت لكي بطلق في انيوم نفسه وانطلقا بالعم في الثانية ظهراً، في أكثر أوقات النهار قصاً ثم يستطيع اشريف حامد أن يطلق في الوقت نفسه مسست بعض الريارات، وبعض الظروف الماهرة، واستقر الأمر على أن يلحقنا في المقرب

وما كدنا نخرج من لمرح حتى سلطنا مصباً محدداً وعراً، بصيق شيتاً فشلاً بين حيلين عمودين، وهناك أرضة صحيرية صحمه على وجه الأرض نحمل انمر شاقاً ورلفاً ولجنا في آخر النهار سهلاً وسعاً، سنيء لسمعة، مما حمل احمد حمودي لذي كان يقود القافلة في عيب الشريف، وبطل حمها، يلتحق بنا /٢٨٨/ عدداً اقرباً من قرية أبو شعب التي يشع أن سكانها لصوص مهرة؟ إنها مثل الريمة تتألف من عدد من ليوب المتفرقة التي يشرف عليها حصن صغير مهديم، وهناك على حاب الطريق شر مطوية، كانت بعض النساء يمشن لماء منها، لأنهن في الصحراء المصولات عن هد العمل، ويرى في الكتاب المقدس (العهد القديم) أن الأمر كان كذلك في عهد آباء الجسر اشري؛ فعلى البئر هابل يعقوب راحيل^(١) Rache، وموسى

(١) لبة لابان Laban الصعري في الكتاب المقدس (العهد القديم)، احبها يعقوب، وكانت لحدى زوجاته وأحب منها يوسف وبياضين. . وعانت راحيل في طريق .

صغرة، لم ير أحداً آخر في هذا المكان المشوه، ولم أر رجلاً واحداً، لا في القرية ولا في سواحيها. وبأني بعد هذه المربة، قرية أخرى سمها بوحاري Bougen، سينة السمعة كسافتها، وهناك أدركنا الشريف حامد سوق هجانه مرعاً واستمر ما اسير إلى وقت متأخر في وسط الطنمة التي كان الهلال يحتمل منها بصوته السحري، ونصينا الليلة في مقهى حدة كما بذلك قد وصدنا إلى النقطة التي يلتقي بها طريقا الطنم بعد النعاف طويل لكي نتجنب الاقتراب من مكة المكرمة أو رؤيتها حسب النعاس الإسلامية

أغمضت عيني بعض الوقت لأسأ كما محاصرين بالحردان وغيرها من دور الليل التي لم تكن أقل إزعاجاً منها، لأنها كانت تحتوى في حصر المقهى، وكنت أسمع طوايا ليل أصوات مرور القوافل التي يمتلئ بعضها أجراً بأعناق روحتها. وهي عادة وحدثها بعد ذلك / ٢٨٩ / في شهر ' Smyne، في موسم حبي الحب. كانت هذه الطريق هي طريق جدة إلى مكة المكرمة، وكنت القوافل كنت تتوقف، ولو لحظة في حدة. وقد كان فيها عدد طلع النهار عدد كبير من المسافرين، وكان بينهم مفررة من جنود المدفعية الأتراك، وقد كان السيد دوكنه يعرف قائدهم: قد كنت له قهوة الصباح، وعلمت منه أنه يتوجه إلى مكة المكرمة ليأخذ أحد المدافع الحربية ويتوجه بها إلى الشريف الأكبر، وكان هذا الأخير قد طلبه من الناشئ لاستخدمه في تأديب إحدى القبائل المتمردة

ولما كان الشريف الأكبر لا يملك لا مدفعية، ولا فرساناً، ولا حدوداً سطمين فإنه كان مجبراً، على غير رغبته كما نطق، أن يطلب ذلك من السلطة العثمانية كلما كان بحاجة إليه لإحصاء القبائل التي يحكمها أو من المعترض أنه يحكمها، والتي تمرد عليه. ويشح عن ذلك أنه لا يلجأ إلى القوة إلا عند الحاجة الشديدة، وبعد أن يستعد كل وسائل الصلح

- إمارة Eprath: بيت لحم بعد أن رجعت من يهودا الثاني سليمان نصب يعقوب عموداً على قبرها وهو عمود راحيل إلى اليوم (سفر التكوين الإصحاح ٢٥ ٢٠) انظر معجم ديانات وأساطير العالم، مرقس سابقاً، ١٧١/٣ (١) مدينة في تركيا

كنت في أرض أعرها، ولم يحدث في اليوم التالي ما يهمي بعد رأيت من جديد خلال مرورنا حيام الناسي بوروق، وقد وجدنا ألب بعد مسافة قصيرة وسط رمرة مهم كانت تعود إلى معسكرها وكان الشريف حامد لا يود لقاءهم، ولكن نجسهم كان متحلاً / ٢٩٠ / ولم يكن في اللقاء على أية حال ما أزعج فقد كانت علائم الدل تدور عليهم، وهم عادة متعصمون، وبدو مؤدبين ولو قليلاً ويبدو أن سب ذلك ما أحبرونا به من أن مسجقهم (قائدهم) كرد عثمان أعي قد عُرل، بد كانت عدوته للمعرب عموماً وللشريف الأكبر خصوصاً معروفة، وكان عرله بالسبة إليهم بصرأ حاسماً كان الحبر صحيحاً بديل أب قابل في مفهى البصة، وهو المكان الذي أصب فيه دسحم في بداية الرحلة، بديل عثمان، وكان يذهب لاسلام مصبه على صوت الطسه التي يستخدمها الجنود عبر النظاميين في مسيرهم، وكانت حاشية صحفة وباهرة رافق القائد الجديد ولحقا عند الطهيرة البحر في لافق كان نحو فائظاً مع أن انهواء كان عاصفاً، ولم يكن ليحمل أية برودة، بل كان يلبح وجوهاً بطنى السر، وبشر حواسا سحابات من الرمال ومع أنا ك قريبين كل القرب من المدينة فإنا ترفعا طويلاً في الرعامة حيث ودع قبل ثني عشر يوماً أصدقاؤنا في جدة والرعامه مكان كنيب كل الكأبة، وفيح كل القبح، ولكن المصادفة جعلتنا بعد فيه لنا لبدأ معشاً وكان هناك أحد الجنود عبر الصدميين، نأحر عن رملاته ليربح حصانه، وقد نقبا عنه / ٢٩١ / وهو أمر عريب، عناية فائقة

إن عرل كرد عثمان أعا قد أدن أولئك الأحلاف أدى الشريف حامد بالقرب مني بحشوع صلاة العصر، ثالثة الصلوات، ولما انتهى من صلاته حملنا عصا الترحال، ودخنا حدة قبل الرابعة عبر باب مكة المكرمة كنت في ليوم الثاني حريصاً بالطمع على زيارة لشريف حامد في ست مصعطي أمدي، وكين لشريف الأكبر، وقد راعنا على دعوتي لهما لتناول العشاء لودع بعضا بعضاً، وذلك في سكي المزف، ودعوت أيضاً السيدين كول ودوكه، وصديقي خالد بك من سعود الذي كان سعادتي حقيقة برؤيته من جديد.

تكمل عمارو بإعداد النظام، علما بالحروف المحشو الذي لم يكن يعرف طريقة تحصيله كما ينبغي؛ لذلك عهدنا بتحصيله إلى طباخ محلي مشهور في جدة بمهارته في ذلك، فحفظه في بيته، ووجه إلينا في الوقت المحدد، وقد أنص بحصيله كل الإنفاق يشوى هذا الحروف الذي يعد للوجه الرئيسة لدى الشرقيين مطمورا في فون محفور في الأرض لهذه العاية، وأعترف أن التحم المشوي بهذه الطريقة يلح حداً من إنفاق غير معروف في فن الصهو العربي^(١)

لقد شهد عشاونا اضطراباً غير عادي؛ وقد وصل خالد بيك من سعود، وعلامات الأسى بادية عليه، وقد أحمرت عيانه من الدموع بعد أحلى سبب هذا الحزن الشديد عثا بأعصار أن الأمر حدثت أسري، والحرب كما سبق بي القوم، لا يتحدثون أبداً عما يحدث لسانهم. ونكس عمت من / ٢٩٢ / مصدر آخر سبب الحزن الذي كان يعمره؛ واليكم ما عمنته

في مرحلة من مراحل حياته التي أجهدها، قامت إحدى النساء لعمرات بإعداد حياته، وذهب أخوها صعبة ما قامت به هذه المرأة، وقد تزوجها خالد بيك من سعود عتراً فاحمليها، وكان يحبو ويحبو عنيها كانت حينئذ مريضة، وكان قنفاً كل القلق على حالتها، ولما ألححت عليه لتي دعوتي خوفاً من أن يكدرني بعباه ولم أكن قاسياً كي أفرط في استعمال قطعه لشديد، بل سارعت إلى حصاره أنه في حل من دهوتي، فانتهر ذلك للعودة فوراً إلى منزله، وقد أثبت لي تسلمه علي عند المندرة كم كان متأثراً بحسن نصري

وقد تلا هذا الظرف الضاري طرف طاري آخر؛ فقد انتظرن الشريف حامد ومصطفى أمدي ساعتين كاملتين، وعندما وصلا أخيراً كان يرافعهما

(١) تعرف هذه الطريقة في الطبخ - الصدي -، وهو وضع يرميل من حديد أو حره كبيرة من حجار في حفرة في الأرض، ثم يوضع بها مقدار من الحطب ومشعل فيه النار حتى يصبح حمراً، ثم يزل الحروف أو اللحم بها كان على الجمر على أن يكون بينهما عازل ثم تغطى هذه الحفرة بالتراب بإحكام حتى يصبح اللحم وعادة يكون بعد ساعة ونصف من وقت دمه، وهي طريقة اشتهرت في حضرموت

ثمينة أشخاص غير مدعوين، منهم أحمد حمودي، مما أحدث بعض الاضطراب في الخدمة وبعد هذا التأخير، أدرك المعرب في وسط نعتاء، وعدد مدعوونا الطاولة لئلا سمعوا مداء المؤذن لأداء الصلاة في عرفة مجاوره إسي، باختصار، لم أر في حبي عشقه أكثر نهائياً، وأكثر / ٢٩٣ / اضطراباً لا يمكن تقاض الأمور إلا في بينها المناسبة كانت لحظة الوداع حرجه: إدم يحصل رئيس الجملة ومن رافقونا إلى حدة على بحشيشهم في الطائف، وقد ورعنا عنهم تلوات تناسب مع طول بقائهم معنا، والتعب الذي اعتراهم من خدمتنا، وأضفنا إلى بحشيش رئيسهم ثوباً أحمر طارت له نفسه فرحاً، ولسه على العمود، وجاء لسوق لتراء المدينة كلها

سم يكني موسماً سببا انشريف حامد نفسه، فعدب له تذكراً هو وشاح كشميري، ثمه ألقا قرش، وقد بدا راضياً عنه كل الرضا، ووعدنا أن يلبسه إكراماً لذكرونا وقد علمت، بكل أسف، أنه لم يلبسه طويلاً، لأن هذا الرجل اسبيل، الأسودج الكامل للسيد العربي، توفي بعد بضعة أشهر من تروبع عودتي إلى فرنسا

الفصل الثاني عشر

بعض التأملات

لقد قصصت مانعصيل، بلا زيادة، ودون أية مبالغة، كيف /٢٩٤/ استقبلني الشريف الأكبر لم أكن بالتأكيد أنتظر مثل ذلك الاستقبال ابدي يدنو بأحسن أيام لكرم العربي التي تحدثت عنها قصص ألف ليلة وليلة الرائعة لتأ وصلنا إلى حدة كنا نحدث أنها بريارة الطائف كما فعل عندما وصلنا إلى الصور، وردد حبل سياء، لقد طلبنا، أو رحوماً أن يُطلب لنا، السماح من الأمير - الشريف لزيارة مكن إقامة، لأننا كنا نعلم أنها بذلك تقوم بإجراء شكلي لا يمكن تجاهله، كما يفعل في أوروبا عندما يطلب من السفراء وضع تأشيرات البلاد التي سحوبها على جوار سفر، ووضعها في حاسب أن استقبائنا سيكون للإحدي بأنه يُسمح لنا بمجرد الزارة، شرط ألا نباع في ذلك، وأن ريارتنا ستكون على مسؤوليتنا الخاصة، وعلى حسابنا، وكلما بحلولنا أن نقوم بذلك وقد رأينا أن الأمور سارت على خلاف ما كنا نتحل تماماً

بعد سئلت في بعض الأمور، وسألت نفسي، عن سبب مثل ذلك الاستقبال الذي حظيت به ورفيق رحلتي؛ لأن الأمير - الشريف لم يكن في واقع الأمر يعرف أحد من، وإذا قمنا قرصاً أنه أراد أن يكون لطيفاً مع نقصن البريطاني الذي نقل إليه رعنا معامل من أوصاء بهم انقصن معامه جده، بعد كان بإمكانه أن يحقق ذلك بأقل مما فعل

بعد كان السيد كول (القصل البريطاني) معه مذهشاً من تلك الطريقة

لرائحة في استلوك ومعاد الله أن تكون غائبي من البحث عن النسب هي
تقليد / ٢٩٥ / من قيمة ذلك الكرم الرفيع، لكي أربح عن ٤ هي أعداء
الاعراف بالجمع، ولن يكون في بحثي عن الأسماء أي نوع من أنواع بكار
لحميل.

إن العرب حذرون نطعمهم، وخصوصاً من الأروبيين، والعرب يرون
 نواغث سرية تكمن وراء تصرفات الأوربيين كنهها، حتى لو كانت غير ذات
 بال واحسان أنه من الطبيعي، في الحالة لسياسة التي كانت الحرية العربية
 تعيشها ذلك، أن يكون وجود بويطمي وفرنسي يحولون الحجر مدعة بلشت،
 وأب يُظن أن حكومة كل منهما أرسلت مواطنها للدراسة لوضع في لندن،
 واستصلاح مدى ارتباطه بالناب العالي، وموقفه منه وعلى الرغم من أن ذلك
 غير صحيح، فإنه غير مسعد، ولا مانع فيه بسبب الظروف، وبشك
 الشريف لا كسر بذلك جمعه يعاملها تلك المعاملة، باعتبار أنه كان بذلك الشك
 أساس متين وحتى لو كان الأمر كذلك، فإني أكرر أن شرائي بالحميل لا
 تشوبه شائبة كان لشريف الأكر حريصاً خلال حدثه معاً على ألا يظهر أي
 تحيز لصالح روسيا، بل بدا فاسياً بأحكامه عليها، معادياً لها، د موقف
 هجومى؛ مع أنه من المستحيل أن تتعد هويماً، بله الشريف الأكر، لا يُمكن
 تعاطفاً حمياً لأعداء تركية ولا يسعى أن نرى أنه ليس للأتراك حق في الحرية
 العربية أكثر من للمسا في إيطاليا على سبيل المثال، وأكثر من روسيا في
 بولونيا، وإن الأتراك يسيطرون على الحرية العربية بانقوة بعد / ٢٩٦ / أن
 أسعوا حكومة الأشراف الوطني، وبعد أن وقع غالب والد الشريف عبد
 المطلب صحيحه حياتهم المشهورة، ومات في المنفى بعد أن بعوه إلى أرض
 تابعة للدولة العثمانية، وقضى أنه عبد المطلب معه أربعاً وعشرين سنة من
 عمره في ذلك المنفى، ولما عاد في النهاية إلى وطنه ومنصبه لورثي لم يكن
 له إلا ظل سلطنة محدودة.

ب. كل ما يصعب التاب المعاني لا بد له أن يلقى قبولاً في نفوس العرب عموماً، وفي نفس الشريف الأكبر خصوصاً، وأن يمتحهم أملاً مشروعاً في

التخلص من الأتراك وعلى العكس، إن كل ما يجعل الأتراك مسيحي، لحدث
بحرهم بالضرورة، ويريد من أمد حصوعهم لهم

ولست أرى سبباً وجهاً لتكبل بمكاليين؛ بأن سكر على العرب تطيعهم
للاستقلال، ويحد ذلك عدلاً عند الإيطاليين والمولوسين، وحد كل الشعوب
الأوروبية التي تعاني من السيطرة الأجنبية. إن الأصل يصل على الدوام
أصيلاً، ويبقى ألا يجعله كونه بالضعف أقل ذلك، وفيما موقوف من أولئك الذين
يسد بهم؛ وإن وصوله نفسه إلى مرحلة التهالك يجعله يحفظ على ما اعصبه
بالمكر والفساد ومساعدة الآخرين.

تلك هي ما تحديد وبالاختصار حال الأتراك مع العرب، كما هي حالهم
أيضاً مع البربر والسوريس، ومع كل الشعوب التي حصعت لهم في
نماصي. ثم بعد / ٢٩٧ / باستطاعتهم الدفاع عن أنفسهم، ويقمعون الآخرين،
وإن ذلك، مهما يمكن أن يقال وضع خاطئ، ومختلف لتوقع، ويعني أن
يوضع حد له، ولا يمكن أن يستمر رماً طويلاً، وإن كل المؤتمرات
واسرونكولات لن تحمل تركية نعت من جديد، لقد انهارت، وكان يمكن
أن يروا اسمها من رمن طويل من على الحريضة لولا أن العرب تفق على
افساح تركتها إن كل خطط الإصلاح التي ساهي بها في هذه الأيام، والتي
ليست في وقع الأمر إلا أطماعاً، هي أوهام وأكاذيب ويمكن أن استشهد
بتلك الشخصية التركية المرموقة التي أرسلت إلى مؤتمر السلام في باريس،
والذي كان أول السحريين من الأمر السلطاني^(١) المشهور في شهر فبراير

(١) استخدم ديديه مصطلحاً تركياً جاء في الأصل Hat-Houmayoun، و لفرات Hatli.
Hnayan (حظي همايون)، وهو الاسم اعاء الذي يصير على الأوامر الصادرة من
اللاغر ويكنبه أديهم أو ما حرره الكتب وأمصاه السلطان وقد سمي انحد
الهمايوني بالحد الشريف أيضاً. انظر المعجم الموسوعي لمصطلحات العثمانية
التاريخية، مرتق سابقاً، ص ١٠١. ويدل أن المقصود هنا هو الأمر السلطاني الذي
قضى بمرور إنهاء الحرب مع روسيا والذهاب إلى مؤتمر السلام الذي عقد في باريس
في مارس (آذار) ١٨٥٦ م.

(نشاط) الماضي، وصرح علامة أنه لا يمكن قبوله أبداً

بأن لا يصلح من مات، ولكن مدحه؛ وإن لم يتم جيلنا بهذا الواجب فإن
لجيل القادم سيقوم به. ونكمن في هذا، المساواة الشرفية التي سبق طرحها،
والتي عالجها مونتسكيو^(١) Montesquieu قبل أكثر من قرن، وتحدث عنها
مسحوداً لكلمات نفسها التي نستخدمها اليوم، وصرح لها الحلول نفسها التي
نطرحها اليوم.

إن الأتراك أنفسهم، وأعيانها عددٌ قليلاً منهم، ممن لديهم بعد نظر،
لا يحددون أنفسهم، ويحفظون عبودهم عن الوضوح لتهافت للإمبراطورية
العثمانية، إنهم يعرفون حق المعرفة، المصير الذي ينتظرها في المستقبل،
ويعرفون أن تماس القوى الأوروبية هو الذي يجعلها تحافظ على توازنها
المصطنع الذي يمكن أن يهتز، بهزاً لا قيام بعده، عند أول مواجهة / ٢٩٨ /
حقيقية بين تلك القوى

لا تتحيلوا أن الأتراك يكون لهم ما ويرضوا أي اعتراف بالجميل إنهم
مقتنعون أن لديهم يقين في وجه الغزو الروسية سعياً لمصالحهم الخاصة،
وليس لمصلحتهم تركية. إن الحماية التي تجعلهم نساءً يحطم كبرياءهم، وإن كان
صعبهم بحرهم على إخماد حقدهم، فإن هذا التحمد عميق، وعاجز، ومكش
على دأته. أما عامة الشعب التي لا تعرف شيئاً، ولا تفهم شيئاً مما يحدث فإنهم
يحددونهم بحكايات سخيفة فيجعلونهم على سبيل المثال يعتقدون أن السلاطان
آخر روسيا وبريطانيا على مساعدته ضد الروس دفاعاً عن لعلم التركي، وقد
سمعت نفسي هذه الحماسة تتكرر مرة مرة في كل أسبوع تركية التي رزها

لنصر أن الأتراك استطاعوا في القرن السادس عشر، أو بعد ذلك في
القرن السابع عشر، وقبل امصير سويسكي^(٢) Sobreski، أن يفتحوا أوروبا،

(١) مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥ م) كاتب ومفكر ساسي فرنسي،

أشهر آثاره روح القوانين L'Esprit des Lois (عام ١٧٤٨ م)

(٢) Sobreski, (Jean III) سويسكي ملك بولونيا (بولندا) ولد عام ١٦٢٩ م، وتوفي قرب =

ولو أنهم استقروا فيها كما في بيرطه، كيف كان يمكن أن يعاملوا أبناء؟ لن يكونوا متأكد، ولو حصل ذلك، ليهيموا بالتحديث، ولا بالسامح، وكانت المقابر عصت سموتى البصارى كتب الحرب في غير صالحهم، وانصر العصر العربي، ون الأتراك اليوم تحت رحمة أوروبا، كما أن أوروبا كانت ستكون تحت رحمتهم لو أن الهلال انتصر على الصليب ولا أطلب أن /٢٩٩/ بحقد عليهم، ولا أن نقيم معهم؛ لأن مثل هذه الوسائل لم تعد ماسة بروح العصر وطباعه، والإنسانية تكرها ونكهم، ودون أن نعمل فيهم حد لسيف كما فعلوا ذلك دون رادع بأعدائهم، وكما كانوا سيعملون ما لو كما تحت رحمتهم، لا يستحقون في آخر الأمر هذا القدر من المرحمة ورحابة الصدر، وإنما كانت تركية، كما يتردد بحق، ليست إلا محباً عسكرياً في أوروبا، مما عليها إلا أن تطوي حيامها ويذهب لسفها في مكان آخر وإن آسيا واسعة لتعوضها عن ذلك عندما يصبح الأقوى هو الأضعف فإنه ببساطة يحرق كل ما كان يدين به لفرقة وإن كل شعب عاجز عن الدفاع عن نفسه بنفسه، ليس أهلاً للحياة، ومحكوم عليه بالموت.

لم يعد اليوم يحترم هذه المقاييس العظيمة التي نحل وحدها كبريات المبادئ، ونسي تحديها انضرورة حساً لا بد منه وكما أحسنا لحلول كان تطبيقها أكثر صعوبة، وفي بعض الأحيان أكثر هولاً، وبعد ألف سنة بعد ذلك، لأننا لم نوجه المصير الحاسمة في الرمن المناسب، مضطرين لتوجيه ألف صربه لا تصيب في العذب هدفها، وتكلف أكثر بكثير إن لبون، أو على الأقل حساً صغيراً من هذه انفارة المحيدة، كسرت فبونها بتشجيع متعاضف من أوروبا ومساعدتها وإن الإمارات الدبونة /٣٠٠/ ستعمل مثل ذلك

١٢٩٦ م. وعظم عماله البحرية انه فتح في ابقاف حشر من ٣٠ ألف تركي ونه في عند اسوار جب ومعه جيش قليل وذلك في عام ١٦٨٣ م وكان قد تمكن في عام ١٦٦٦ م من رد هجوم جنس من لبرالا ولتار والعرفانيين عدده ١٠٠ ألف جندي

قريباً، بانتظار أن تستعد بلغاريا وصربيا وبوسنيا^(١)، ومقدونيا، وكل البلاد التي يسلبها الأتراك حريتها.

لقد جله دور الجريدة العربية أخيراً؛ هي أيضاً سعي أن تترد شخصيتها الوطنية، ولا يمكن بالتأكيد لأحد أن يجد سعيها إلى ديث مكرراً. إن الأمة العربية متوقفة على الأتراك في كل المحاللات فإذا أردت الحديث عنها باعتبارها أمة محاربة، فإننا نعرف إلى أين وصلت فتوحاتها؛ إلى آسيا، وإفريقيا لشمالية كلها، وصقلية وإسبانيا، وحصص حبوب فرنسا سلطانها في بعض العشرات. إنها تنفت وشرت في أفاصي الأرض دياً عمره اثنا عشر قرناً، ولن يرول حتى نهاية الزمن.

بها أمة عالمية ومتفعة، بيعت في العلوم قدر ما بيعت في الفن والحروب، لقد كانت حلال أمد طويل أمة متكررة جيشاً قادها حماسها لديني، لقد كان لها مدارس تزدهر فيها دراسة الطب والعمارة والفريصات والصيد، وفي هذه المدارس تعلم العرب، وأبدعت هذه الأمة روائع أدبية ما رلت حتى اليوم منعة العقول المثقفة كلها. ماذا لدى الأتراك في موراة ذلك؟ الجهل والوحشية.

إن انتقنا من الماضي إلى الحاضر فإننا نلاحظ التفوق نفسه لدى العرب، وخصوصاً في الحانب الأخلاقي. إنهم يتحللون بمصائل عظيمة، فالشجاعة والكرم / ٢٠١ / والاستقامة يقيم معهم في خيامهم، يحاربون بإسبانية، وشرف، ويحترمون لعهود والموئيق، وتسود بين أسرهم صفات الشرف والوثم وإخلاص، ويجهدون العودية والسفالة فكل رجل، مهم كان مقدمه، يحافظ، وفي كل الماسسات، على إحساسه بالأمة، وإن حاجاته لمحدودة لا تجعل الفقر يال من أخلاقه.

إن الصحراء صرح المساواة. وإن البيئة الوحيدة الرئيسية لدى البدو هي حبهم الكبير للمال، أو لما يمثله؛ ولكن عمرهم في الفقر ولعابداً بأحد عليهم

(١) مقاطعة يونانية كان يسيطر عليها الأتراك.

ذلك، وأي شعب في أوروبا كلها لا يبدى مهماً للذهب فوق بكثير ما يجده عند أوثق البدو من حب المال والدرق الوحيد بين الحالتين هو أن في أوروبا يحتلن بمهارة، وبعث، وبيع المرء صميره وشرفه، بينما يفرص شعبي أسمال على الفوائد، ويعبرو أعداء قبيلته من القاتل الأخرى علناً، وتعرض حياته للخطر، ويعتبرون كل ديث في دهنه بمصادمات الحرب، وأحطارها، وفوايها، وتكون تلك الأفعال مطوعة في لوقت بهه نصرت من السر لا تجده بالأكيد في لاحتلاس الصامت والحمي الذي يمارسه الأوروبيون

ليس لدى الأتراك ما يقدمونه مقابل هذه المقاب والمثالب إلا اجثالب لحالصة، ومقاب سم تعد موجودة؛ فاشجاعة التي كانت مصدر قوة أسلافهم وجاجهم لم تعد موجودة لديهم؛ إلا في الحكايات؛ فلا يكاد أحد يسحر من شراستهم، ولا يعادل عملهم / ٣٠٢ / إلا عذرهم، وهم فاسدون بلا رادع فالجشع الذي لا يُشع، والارتماء بلا حجل يسيران في كل الأعمال العامة والحصة، من أعسى موظفي الإمبراطورية إلى أدباهم، إدا، ير العرب يتقوق هيبهم إن في الجذب الأخلاقي، وإن في الدكاء، والعقلية، والصفه

وليس بالعرب مطلقاً من ذلك كله أن يعاني العرب معاده مصاعمة من تمتهم للأتراك؛ لأن ذلك طعيان أجبي، ولأن الدين يمارسونه هم رعمه محسوس لقد حاولوا في وقت قريب التخلص من يير الأتراك، ونكر لمشروع كان يقصده الاتحاد فمثل حري الفثال في مكة المكرمة، وحز منة من العرب صرعى في التمرجة الأولى، واستولى الأتراك على المدينة المقدسة، واستعادوا لطائف لبي كانت قد أعلنت استقلالها عنهم، والله وحده يعلم ماذا فعلوا، بعد نصرهم! أنعرفون من كان على رأس الحركة^٩ به الشريف عبد المطلب الذي نعرف إنه في هذه الرحلة، والذي امتدحت حصائله بأسطراد، والذي استطعت على ابرعم من تحفظه، الوصول إلى ميونه الحقيقية. ولف كان مفتعاً بضروره التمرد فقد قام السلطان برفع صلاحيته، واستند به ابن عون الذي كان عبد المطلب بهه قد حل محله قبل خمس أو ست سنوات وهو يقيم في إستانبول وقد وقع عبد المطلب بعد رمن بأندي الأتراك فحموه

إلى يتسول / ٣٠٣ / وهو مدد وف قليل إلى سالوبك Salouque كما هي
إلى هناك فيه والده عاتب الذي مات هناك بانطعون مد أربعين سنة^١
ولا يستطيع أحد لسؤ بالمصير الذي ينتظر الابن على هذه الأرض
العريضة؛ ولكن مهما كان مصيره، وإن كان سقوطه بهائياً، أو أن احبط سعيه
إلى السلطة مرة أخرى، فإني أعد نفسي سعيداً إذا أتبع له أن يعلم، وهو في
مساء، أسي أحمل به كل الامتنان والتعاضف، وأسي أندر الدور لكي تستل
أمنته التي هي واحدة من أشرف الأمم التي تنأت مكانها في التاريخ، وأسي
فرحت علي احترامها عندما عرفتها

(١) لم يمت عبد المطلب إلى سالوبك، وإنما ظل في إسبول حتى عام ١٨٨٠م /
١٢٩٧هـ عندما عاد ليكون شريفاً للمرة الثالثة، ويعود في البياض عام ١٨٨٦م /
١٣٠٣هـ وهو تحت الإقامة الجبرية. انظر محمد فيما سر الحاشية رقم (٢٨٩)
انظر صفحات من تاريخ مكة المكرمة، مؤلف سابقاً، ج ١، ص ٢٨٧ ويحدث
دهديه عما قام به الشريف عبد المطلب عام ١٢٧٢هـ عندما توجه من الطائف
إلى مكة المكرمة على رأس عدد من القبائل لصال الواسي التركي كامل باشا، وتكنى
عبد المطلب حرم وعاد إلى الطائف، وجرت به وبين كامل باشا والشريف عبد الله بن
ناصر ثلاث معارك هزم جيش عبد المطلب فيها، وأحرها في الخامس من شعبان
١٢٧٢هـ، وبعدها بيومين وصل إلى مكة المكرمة الشريف محمد بن عون الذي
محضر بالمدكر بعد وصوله بأيام توجه بهم إلى الطائف ومعه ابنه الشريف علي باشا
والشريف عبد الله بن ناصر واستولوا على الطائف في رمضان ١٢٧٢هـ، وأصبح
محمد بن عون شريفاً انظر خلاصة الكلام، مؤلف سابقاً، ص ٣١٨، ٣٢٠

الفصل الثالث عشر

مغامرة جنة

عند عودتي إلى حده، كان عرل الحاكم أمراً معصياً، أرعى الأقل شائعاً بين الناس؛ لكنه لم يكن قد عادر بعد موقعه الذي كان عليه لبقاء فيه حتى وصول حليفته وأدى عرله إلى عرل عثمان اعم معه، وكان يُعَدُّ صبيته، وقد كان كذلك حقيقة وكان أحمد عرب ينأى بنفسه، باعتباره من كبر باشاوات الإمبراطورية العثمانية، عن ريادة أحد، حتى قصلي بريطانيا وفرنسا للذين كانا صعيبيين، / ٣٠٤ / ويحتملان منه هذ المرور

لم يعم، والحالة هذه، برز الرياسة التي حصصته بها عند وصولي إلى حده، ولم تُلَقَ منه إتان إقامتي كلها هي تلك المدينة أي آيات المجاملة، ولعله كان بذلك يود إيهامي أن أكتفي بما كان، وأن أذهب، وألا أعود إليه إلا أنه، لما كان حريصاً على إظهار تهديده، مع الاحتفاظ بحيلائه، فإنه أرسل إليّ في اليوم الذي تلا يوم عودتي إلى حده أحد أقربائه بهشي باسمه لساح رحلتي وقد عيّرت هذه المحامنة الطبعي الأول، وخصوصاً أنني رأيت أنه من مبادئ الدوق السليم لا أعتب على موظف معروف فصمت برفعة السيد دوكم بريادة ستدان مرت كالريده الأولى، فارق طفيف هو أن الشا بدا أكثر عجلة، وأكثر إفاعاً، وأنفسي باعتراضاته التي لم أعرها كبير اهتمام ثم يكن يسعي أن أذكر كلمة واحدة عن رحلتي إلى الطائف، ولا أن يصدر عني أي تلميح للشريف لأكثر وإن مثل ذلك الصمت يدل كل دلالة على الحقد الشديد الذي يكنه للأمير الشريف.

ولما لم يعد لدي ما أفعله في حدة فسم أكر أفكر. إلا في معادرتها في أسرع وقت ممكن، لكي أعود إلى القاهرة، ولكن، غير أي طريق؟ ترددت بعض الوقت، لأن الاختيار لم يكن سهلاً. ويحي أن أقول في هذه المناسبة إن الشريف الأكبر في الطائف عرض علي أمر^١ معرناً بعد عرض علي / ٣٠٥ /، وإن تمسح دون تصريح، وبوساطة أحد أعوانه، أن يرسلني إلى البصرة وبعدها عُر بعد إذا كان رحلي تمضي في حد الانحاء. وقد كان للأش يعرض علي السير في الانحاء لمعاكس كنت أود لمرور مرة أخرى عر مصر، ولم افكر بالذهاب إلى المدينتين المذكورتين، وعلى الأقل بعدد، إلا في وقت ماخر عر دمشق وحلب وصحراء الرهدين الواسعة، لأصل بعد ذلك استأبول عر طبريزون^(١) Tribizonde.

تمسكت بذا أمام الإغراء المذكورة، وبقيت على محطتي السابق وقد أصبني في الصيف الماضي رجاء شديد ثم سمح إلا بأبحار مرحلة صعبة من تلك الرحلة، وقد معني فقدان مصري إلى الأبد من لقيم بالرحلة كاملة.

كان يوسعي العودة من حدة إلى القاهرة كما أبيت؛ وقد كان أمين بك يستعد في تلك لفترة بالتحديد لإرسال معه شراعه مصرنة إلى القصر، ركت أنصع من هلك خلال بضعة أيام أن أذهب لركوب النيل في قنا وقد تفصل بوضع السمينه تحت نصري؛ ولكن هذه الوسيلة التي يبدو في لظهور سهبة كانت تبدو لي مستحيلة التنبه عندما فكرت فيها. لقد كان علي في البديهة أن أرسلت مرة أخرى طريق العودة من حدة إلى بسع، بل أعود من ذلك، لأن السير بحذاء الشاطئ أطول وقت ممكن، قل أن تمر عبات البحر لتترك الجانب لمصري. إن الرحلة التي لم تستغرق في القدر / ٣٠٦ / إلا عدداً قليلاً من الأيام، بفصل الرياح الموسمية الشمالية التي تكاد تهب على الدوام على البحر الأحمر، نحتاج في العودة حمه أو منه أصعب ذلك الوقت، وغالباً أكثر من ذلك، ومراجعت أمام عود بحمل أن يستغرق ثلاثين

(١) مدينة تركيه في القسم الآسيوي (الانصوب) على البحر الأسود

أو أربعين يوماً غررت إبدأ عبور البحر الأحمر بحط متقيم من جدة إلى سواكن ركت أبوي أن أذهب من هناك لركوب الليل، سواء من لنوبة أم هي محطة أبعد من ذلك في الخرطوم، ومن هناك أخط إلى لقاهرة عبر النيل وقد رودي أمير بك الذي سلك تلك الطريق معلومات مفصلة عن ليد، ولما كان عليا، التحسم كل ماء في تلك الصحراء فقد شترت حيمه بدل لحيمه التي احترقت في انبوس ولما اعتمد ربيع رحلي الطريق المذكورة نفسها قام السيد دوكي في البرم معه باستئجار سيوك من سواكن كان جاهزاً للعودة إليهم، وبمبلغ ثاقه بلغ خمسين قرشاً

كان يسمى أن يعادر في يوم ٩ مارس (آذار)، ولكن معذرت تأجلت حتى يوم ١٢ من أشهر نفسه بسبب ظروف سأتحدث عنه

كان فصل فرنسا في جده حينئذ، كما ذكرت ذلك سابقاً، هو روشيه المدعو ديريكور، وهي تسمية وهمية أضافها إلى اسمه لجعله في الظاهر أكثر أرسقراطية بدأ حياته عاملاً في دعاية الحلود، وقد كان كل شيء فيه، بعتة، وضائعه تدل على مداته ثم ذهب بعد ذلك للبحث عن الثروة في الحبشة، ومضى، ٣١٧/ في رحلته حتى وصل إلى مملكة حوا^١ Choa، ثم عاد إليها مرة أخرى مع هدايا لملك لريس - فيليب إلى ميث الحبشة وقد ظهرت قصة هاتين لرحلتين موقعه باسمه^(١)، ولا يمكن أن يكون هو المؤلف لأنه عاجز عن أن يكتب مجرد رسالة، لقد استعان لكتابتها بقلم أحد الكتاب، أعرفه، وأستطيع ذكر اسمه ونظروا من ذلك ليعتبر فصلاً من اندرجه لثانيه وعارساً، ثم حصل بعد ذلك على وسام حوقة الشرف برتبة ضابط، ولكن ذلك لم يعبر شيئاً من كونه دباغ جلود.

-
- (١) في القسم الجنوبي من بلاد الحبشة، انظر اكتشاف ١، موق سابقاً، ص ٣٣٨
 (٢) نقول جاكين بيريس في اكتشاف ١، موق سابقاً، ص ٣٣٨ (١) ومع هذا لا بحلول قصة رحلته، ومروره بالعصير، وحده، والحديد، والسماء، من المعلومات التي لا بد أن كان قد طرأ تبدل عظيم في ظروف البحر الأحمر ما بين سني ١٨٣٩ و ١٨٤٢م، وذلك بتأثير الظروف السياسية الدولية

لم يكن به أي حظ من الثعافة، ولا من العلم، لم يكن مهيباً ليعطي
لعرب عن فرنسا فكرة إيجابية، ولم تترك في حدة إلا ذكرى محزنة كان
بلا أسره، ولم يكن اجتماعياً، ويعيش منعزلاً تماماً في منزل ضخم في حي
سمن، وكان قد أذاق السيد دو كيه المرحوم وموثق لعمود في القصص
لأمير، مما دعا هذا الرجل الرابع إلى معاداة المرن القصلي، والإقامة في
منزل خاص ليستطيع العيش بسلام وحرية، ناهيك عن أنه نصب الفصل
انريطيني السيد كول العداء علانية، وبدون أي سب، وهو زميله، والأوروبي
الوحيد لمقيم في حده على الدوام مما دفع أهل حده بالنطع إلى الانسحاب أن
حنون لوهم بين الأوروبيين الصاري أمر مستعد، لأن الأوروبيين الوحيدين
المقيمين في حدة كان لعداوة لبعضهما

لم أسترح لذلك الشخص، ولم أدره خلال إقامتي في حدة إلا زيارات
قصيرة / ٣٠٨ / للمجاملة، ولحق أنه كان مريضاً جداً، ولم يكن يعادر سرير
إلا قليلاً ولما عدت من انطاف وجدت أن حالته تفاقمت، وبدأني أنه يعيش
أيامه الأخيرة لقد كانت تلك الأعراض أكيدة إذ توفي بعد ثلاثة أيام،
وشاركته في وضعه في تابوته وأقام السيد دو كيه في الفصيلة بصرف شؤونها
بانوكالة، وتحدد موعد الدفن على أن يكون في اليوم التالي وقد وعدت أسات
بإرسال ممررة لائحة من الحدود الصاميين، وعدد من القواسين Cawas
يكفي لأن يكونوا في أول لمركب واحة ويكفي يد في اللحظة الأخيرة أنه
قام بالأمر على مخصص، وبمنتهى السوء، وكنت وأسد كول متغيب عن
رفض كل ما قدمه من القواسين Cawas والجود لقد كنت صرعجاً كل
لأبرعاج من عدم التقدير الذي يدهاء ممثل فرنسا من ذلك التركي، في الوقت
لدي تدبر فيه فرنسا دماء أسانها ودهمها من أجل تركية، وقد كان السيد كول
مساء، وأعلن بصوت عال أن الإهانة لا تمنى فرنسا فقط، وبما تمنى بريدنيا
عنها، والعالم المسيحي كله ورُجعت شكوى إلى إسطنبول وباريس كما يصح

(١) صباط الشرحه كما ذكر بيوتون في رحلته، موثق سابقاً، ج ١، ص ٩، ٣٢، ٤٢

النايون في مثل هذه لحالات؛ ولكني لا أعلم أن الحكومة التركية قامت
باعتذار عما حدث.

ومهما يكن من أمر فإن حتمان فصل فرنسا حمل إلى مثواه الأخير، كما
لو أنه من عامة الناس، على كتاب / ٢٠٩ / أربعة من العرب كانوا، حسب
تقاليد البلد، يجرون بالحجارة مسرعين كذا تشعبهم، أما ورفيق رحلتي، والسيد
كور، والسيد دركيه، والإخوة ساوة، كانت هذه الحصة الصغيرة من البشاري
الذين جمعتهم المصادفة حول نابوك، يشكون وحدهم الجماعة التي تُشيع
هذا المسيحي الذي قصي نحه في ديار المسلمين لقد حذروا من نظرف
العامه؛ ولكنهم (العامه) بدوا على العكس خلال مرورنا هادئين، ومحتشمين،
ونكاد تبدو عليهم علانم الوقار^(١).

خرجنا من باب اليمن، وبعد أن احترنا سهلاً رهلياً بعمره البحر في حالة
سند، وصلنا إلى مقره صغيرة مسورة، ومحصنة للأوروبيين^(٢) الذين
يدركهم الموت في هذه البلاد البعدى وكان يقص مراسم لتشييع بوفار
والحنوع لم يكن المتوفى إبان حياته محترماً أو محبوباً، ومع أن الموت
يظهر اندكريت، ويحمد الأصفا، فإن مصر لمنصل لم يكن في ساعة
الموت يوحى بالرفاء الذي يستحقه ومهما يكن الدور الذي أدباه في الحياة

(١) هذا التحدير من الجماعة ليس له ما يؤمنه، إذ المشروع أن يحرم بحارة مهمه
كذلك، وعلى حديث قيام الرسول ﷺ لبحاره اليهودى عندما مرت أمامه في المدينة
المسورة دليل على ذلك. إذ ورد في سنن أبي داود، باب القيم للبحاره قوله: «حدي
حابر قال كنا مع اسي ﷺ إذ مرت بنا حناره فقام لها فمادها سحبل إذ هي
حناره يهودي، فمنا يا رسول الله! إنما هي حناره يهودي، فقال: «إن الموت فرع
فيذا رأيتهم حناره فقوموا»

(٢) يعون بوركهاوت في رحلاته: مؤلف سابقاً، ص ١٩١ لا إذا مات شخص
مسيحي هالك فمن غير المسموح به أن يُدفن على الشطى، وإنما يُحمل جثمانه
إلى حيريه رمسه صغيره في الميناء، انظر سابقاً الحاشية رقم (٦٨) وخروج
ديديه وأصحابه من باب اليمن يعني أن المقره جنوب حدة

فإنه مصير محزون أن يدركنا الموت بعيداً عن الوطن والأهل، محاطين بمن لا يهمهم أمرنا وبالأجانب، وأن نقول ونحن نلفظ الألفاس لأخيرة «أموت بعداً» وليس حولي صديق ليعلق جفتي، ويبكي عليّ»

مات القفصل في يوم ٩ مارس (آذار)، ودفن في اليوم العاشر من الشهر نفسه، وفي اليوم الحادي عشر، وبعد أن فعب باحر واجدتي نوحه، كما سبق بأحد مواطنيه أن يفعل، أبحرت / ٣١٠ / في الساعة التاسعة مساءً، مع رفيق رحلتي في مركب لسفلاً إلى السوق الذي استأجرناه، والذي كان يرسو بعيداً في عرض البحر وكانت أمتعتنا ومراقبونا قد سبقونا إليه

كان البحر في أقصى الحر، وعاصم مركنا في الرمل وسط قوت املاحة، وقد كان من لمسحل إحراجه منها، وكان علينا أن نصل منسمرين في مكاب حصص أو ست ساعات بانتظار المد. كان الليل رائعاً، والسمر بدرأ، ولكن البرد كان قاسياً، ولما لم يكن معي معطف أو عطاء «إني وجدت نفسي مضطراً لأن أتنعم بالنزاع حتى لا أفاقي من البرد كثيراً. لم يصل المسوك، لأن نحو الساعة الكشية أو الثالثة صباحاً، وفي الكشمة أبحرنا، وشرنا انقلوع باتجاه سواكن.

فهرس الأعلام

- برهيم آغا (حار الشرف الأكبر)، ٢٤٠، ٢٤٦.
- برهيم باشا بن محمد علي باشا، ١٣٢، ٢١١، ٢١٢.
- ابن عون، محمد (الشرف)، ٢٥٠، ٢٩٧.
- أبو بكر الصديق، ٢٢٤.
- أبو صلاسي (من حزم الشرف الأكبر)، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٣٠، ٢٦٩.
- أنولون (أحد آلهة اليونان)، ٢٨٠.
- أنيسيموس (لقديس)، ٩٠.
- أحمد (شرف)، ٢٧٤.
- أحمد بك (ناحر هندي ولد في كابل)، ١٧٢.
- أحمد حمودي (رئيس جمالة الشرف الأكبر)، ٢١٧، ٢٢٣، ٢٦٩.
- ٢٧٧، ٢٨٥، ٢٨٩
- أحمد عزت باشا (حاكم جدة)، ١٦٣، ٢١٧.
- آدم عليه السلام، ١٤٦.
- أرباعون (سجل مولير)، ١٠٠.
- أريوي (أخت بطليموس ميلادلف)، ٤٩.
- الإسكندر الأكبر، ٤٩.

- سماعين بك (فائد تكة أقامها محمد علي باشا في جدة)، ١٤٥.
- ألان (صابط إنجليزي)، ١١٥.
- آمين بيك (قائم بأعمال محمد علي دشا في جدة)، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ٣٠٠، ٣٠١.
- أونري (فصل فرنسا في جدة)، ٢٦٦.
- إينيا (البي)، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٦.
- بحروش، ٢١١.
- بدر الدين حسن (من شحصاب ألف لنة ولينه)، ٢٤١.
- بركت (من حسن بن محلان)، من أمير مكة، ١٨٢، ١٨٥.
- بطليموس فيلادلف، ٤٩.
- البقوم (عرب)، ٢٠٧.
- بو سعد (قبيلة)، ١٨١.
- بوركهارت، ١٣٤.
- بيرون (كاتب وشاعر لاسي)، ٣٤.
- بيرتور (رثرد)، ٤٠، ٤١، ٤٥، ٥٦، ٥٧، ١٥٧.
- بيز (لاح، كبير الزهاد في دير سانت كاترين في سيناء)، ٩٧، ١٠١.
- ناصورة (الإمبراطورة)، ٨٤، ٨٦.
- بييريوس (إمبراطور روماني)، ٢٤.
- بيرزياس (عزاف ضمير في الأساطير اليونانية)، ١٠٢.
- بيري (حوري)، ١٦٢.
- تاكري (أديب بريطاني)، ٢٦٥.
- ثعب (قبيلة)، ٢٥٣.
- ثيودوسيوس (الإمبراطور)، ٨٨.

- جان جاك روسو ، ٢٦٤.
- جان دارك ، ٢٠٨.
- حاشا (أحد آلهة الهنوس) ، ٢٨٠
- جهينة (قبيلة) ، ١٢٠ ، ١٢٨.
- جورج (القديس) ، ٨٣.
- حوريف (أحد رهبان دير سانت كاترين في سيناء) ، ١١٦
- جيروم (القديس) ، ٨٧.
- حمد الشريف ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ،
- ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ،
- ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨.
- احسن (بن علي) ، ١٧٩ ، ٢٧٩.
- احسن المراهط (مقام) ، ١٢١.
- احسين (شريف من أقرباء الشريف مساعد ، حكم بعده) ، ١٨٥
- احسين (بن عبي بن أبي طالب) ١٧٩ ، ٢٧٩
- الحضارمة ، ١٧٤.
- حواء ، ١٤٦
- حامد باشا (صاحب مصر شبرا في مصر ، على بعد ثلاثة أميال من القاهرة) ، ٢٧١.
- خالد بن عبد الله بن سعود ، ١٧٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨.
- خليل سلام (رئيس السوك الذي استأجره ديديه) ، ١٣٣
- دانتى ، ٢٦٥.
- داود عليه السلام ، ٢٢٤.
- دوروتي (لاسم الأصلي للقديس كاترين المسورة إليها لدير في سيناء) ، ٨٧.

دوكيه (المرحوم وموثق العمود في التصلب الفرنسي في جدة)،
 ١٦٣ ، ١٧٧ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٦٧ ، ٢٨٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٣

ديركور (روثيه) ، (فصل فرسا في جدة) ، ١٥٦ ، ٣٠١

- ديكام (رسام) ، ١٢٦ .

- دوو بركات (أسرة بركات) ، ١٨٢ ، ١٨٥ .

- دوو زيد ، ١٨٥ .

- راحيل (روحة يعقوب عليه السلام) ، ٢٨٥

- رومجيت سينغ (ملك لاهور) ، ١٦٤ .

- ريشيليو (رجل دولة فرنسي) ، ١٨٦ .

- الزيلدون من قبيلة حرب ، ١٣٤ .

- ريبة (روحة هارون الرشيد) ، ٢٢٧

ريد (بن محسن) ، ١٨٥ .

- سافورولا (رهب ومصلح ديني إيطالي) ، ١٩٣

- صاوة (الإخوة) : (أسرة ميجية في جدة) ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ٢١٨ ،
 ٣٠٣ .

- سترايمورد كايغ (سفير بريطانيا في اسطنبول) ، ٢٦٤

سرور (الشريف) ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ .

- سعود بن عبد العزيز ، ١٧٦ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩

- صفاتور دورا (رسام) ، ٨١ .

- سليم الأول (السلطان) ، ٦٤ ، ٨٤ .

سليم (الشريف) ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧

- سليمان أعي (ضابط في الجيش المصري) ، ١٠٨

- موييسكي (ملك بولونيا)، ٢٩٤.
- سوفوكليس، ١٠٢، ١٠٣.
- شارل ديديه، ٢٦٧.
- شعيب عليه السلام، ٨٩، ٩٠.
- صالح عليه السلام، ١١٦.
- صمورة (اسم شعيب التي تزوجها موسى عليهما السلام)، ٨٩، ٢٨٦.
- الصوالحة (قبيلة من بدو الطور)، ٧٣.
- صوفيا (العديسة)، ٢١٣.
- صهر ابيدي (أحد العاملين لدى الشريف الأكبر)، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٦.
- طوسون بيك، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١١.
- عباس باشا (المهدي)، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٤٢، ٧١، ٧٢، ٧٧، ١٠٣، ١٠٤، ١٥٢، ١٦٩، ٢٢٥.
- عبد العزيز (بن محمد بن سعود)، ١٩٤، ٢٠٠.
- عبد نعمار (الشيخ مالك السبوك ابي استأخره ديديه)، ١١٢.
- عبد القادر (ابن لراج يوسف)، ١٦٢.
- عبد القادر بن عبد الله بن محمد سيد شمس، (ومحمد سيد شمس تاجر مكّي له بيت في انطاكية برل فيه ديديه)، ٢٤٢، ٢٦٦، ٢٦٧.
- عبد الله (الشيخ، الاسم المستعار للرحاله بيرتول)، ٤٥، ٥٧.
- عبد الله آغا (رئيس الشرطة في جدة)، ١٧٥.
- عبد الله (بن سرور)، ١٨٧.
- عبد الله بن سعود، ١٧٦، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢.
- عبد الله بن عباس، ٢٥٤، ٥٥.
- عبد الله (بن محمد سيد شمس)، ٢٤٢.

عبد المطلب بن عاتك (الشريف الأكبر، ورد حبي)، ٢٤٧،
٢٩٧، ٢٩٢

- عبد المطلب (شريف)، ٢٦٩، ٢٧٤، ٢٧٧.

عبد المعين (شريف)، ١٧٥.

- عتبة (قبيلة)، ٢٧٣.

- عثمان باشا (أحد أثرياء جدة)، ١٤٧.

- عطا بيك (طبيب عسكري تركي)، ١٧٥.

عبي (من حدم لشريف الأكبر، رفق ديديه عند عودته من طائف
إلى جدة)، ٢٦٩.

- علي أولدي (صايط في البحر المصري)، ١٠٨.

علي (بن أبي طالب)، ٢٧٩.

- لمليقات (قبيلة من بدو الطور)، ٧٤.

عمرو بن العاص (مسجد)، ٢٢٥.

- عسبارو مراني (ضاح راقص ديديه)، ٥٥، ٧٥، ١٤٩، ٢١٧،
٢٣٠، ٢٤٢، ٢٧٥، ٢٨٨.

عاتك (الشريف)، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٥،
٢٠٦، ٢٠٧، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٩٢، ٢٩٨.

عاليه (امراة من عرب القوم)، ٢٠٧، ٢٠٨.

عطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، ١٧٩، ٢٧٩.

- قراج يوسف (تاجر هندي)، ١٧٤، ٢٤١.

فرعون، ٦١.

- فيصل بن تركي، ٢١٣.

فيصل بن سعود، ٢١٠، ٢١٣.

فيقاس (مهندس فرنسي)، ٧٦.

- قري (اسم أحد البحار الهود في الطائف)، ٢٧١
- قتادة (بن إدريس)، ١٨١
- كاترين (القديسة)، ٩٣ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٨
- كاسياني (القديسة)، ٨٨
- كالمن (لاهوتي فرنسي)، ١٩٣.
- کرد عثمان آغا / عثمان آغا، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٨٧
- كريون (حاج ودي أوديب، ملك ضيه)، ١٠٢
- كلوت بيك، ٥٤.
- كورميه (الكاتب)، ١٥٥.
- كوستا (يوناني كان يدير القنصلية الفرنسية في اسويس)، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٨٣ ، ٩٨ ، ١٣٣.
- كوستاندي (شيخ مدينة الطور، وهو من أصل يوناني)، ٦٣.
- كول (نفسل اريطاني في حدة)، ١٥٧ ، ١٦٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٣٠٢.
- لويس الحادي عشر، ١٨٩.
- لوثو (راهب ومصلح ألماني)، ١٩٣.
- لويس ـ فيليب (ملك فرنسا) ٣٠١.
- مارسيال (رسام)، ٣٤.
- م. حصون، ١٧٤.
- محمد صلي الله عليه وسلم، ٨٤ ، ٩٥ ، ١٧٩ ، ١٩٥ ، ٢٢٧ ، ٢٥٢ ، ٢٧٩
- محمد بن سعود، ١٩٤.
- محمد بن عبد الوهاب (الشيخ) ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤

محمد علي (باشا)، ٣١، ٤٢، ٧٢، ١٣٢، ١٤٥، ١٧٠، ١٧٦،
٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١، ٢١٣، ٢٢٠،
٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٦٣.

- محمود (السلطان العثمان)، ١٦٨، ٢١٣

- انمر بطون، ٢١٤

- مرزوق (من خدم الشريف الأكبر، رافق ديديه عند عودته من
الطائف إلى جدة)، ٢٦٩، ٢٨٣.

- مريم لعبداء، ٩١

المريثيون (قبيلة من بدو الطور) ٧٤

- مساعد (الشريف)، ١٨٥.

لمسيح عليه السلام، ٩٥.

مصطفى أمدي (وكيل الشريف الأكبر هي جدة)، ٢١٥، ٢١٦،
٢١٨، ٢٢٣، ٢٨٧، ٢٨٨

- مصطفى بيث (صهر محمد علي باشا)، ٢٠٤.

• المضايقي (عثمان)، ٢٠٥.

- مكديلي، ٢٦٥

لموري (المورسكي)، ١٧٠.

موسى عليه السلام، ٦٠، ٧٩، ٨٢، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ٩٥،
١٠٦، ٢٨٥

- موشيليه (مهندس فرنسي)، ٧٦.

- موليير، ١٠٠

- مونسكو (أديب فرنسي)، ٢٩٤

مونثيني (أديب فرنسي)، ٣٠

- ميركور (إيه المحار والتجارة عند الرومان)، ٢٨٠

ميكيل أنجلو، ٨٦.

- مابليون بومبارت، ٥١، ٦٠.
- نقولا (الإمبراطور)، ٨٦، ٢٣٤.
- هارون عليه السلام، ٩٠، ١٠٦.
- هارون الرشيد، ٢٢٧.
- هاشم، إبراهيم (صديق تركي)، ١٠٤.
- هديل (قبيلة)، ٢٣٣
- هرقل، ١٦٧
- الهراجر (قبيلة)، ١٧٦.
- هوس (مصلح ديني تشيكي)، ١٩٣.
- هيرودوت، ٢٥٥.
- يعقوب عليه السلام، ٢٨٥.
- يوستيانوس (الإمبراطور)، ٨٤، ٨٦.

فهرس الأماكن

- أبرور (منطقة إيطالية)، ٢٢٥.
- أبو حرير، ١٢٠.
- أبو شيب، ٢٨٥.
- أبو حرير، ١٢٢.
- أثينا، ٢٩.
- إسبانيا، ١٣٥، ٢٩٢.
- (استنبول، ٣٢، ٤٢، ١١٦، ١٤٢، ١٤٨، ١٥١، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٥، ١٨٣، ٢٠٦، ٢١٣، ٢٣٤، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٦٣، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٢
- لاسكدرية، ٣١، ٥٢، ٥٥، ٢٦٦.
- أسوط، ١٥١.
- أم الجبلين (مكان)، ١٣٥.
- لاياصول، ٢٣٤.
- إيطاليا، ٨٨، ٢٣٥، ٢٩٢.
- باب الحديد، ١٥٢.
- باب اليمن (في جدة)، ٣٠٣.

- باريس، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٥٤، ١٥٦، ٢٦٣، ٢٨١، ٢٩٣
- البحر الأحمر، ٣١، ٣٦، ٣٩، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٩، ٦٤، ٨١، ٩٤، ١١١، ١١٣، ١١٥، ١٢٤، ١٣٦، ١٤٠، ٣٠٠
- البحر المتوسط، ٣١، ١١٥
- البحر الميت، ١١٥
- بحيرة طبريا، ١١٥
- مركة عرعون، ٥٩، ٦٢، ١٢٢
- مركة موسى، ٥١
- بريطانيا، ٤٠، ٥٢، ٢٤٨، ٢٦٤، ٢٩٤، ٢٩٩، ٣٠٢
- بسنن الأرض شهيذاً (واحة في ليبيا)، ٩٥
- بئر، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٣
- بصره، ١٣٩، ١٧٣، ٢١٢، ٣٠٠
- بغداد، ١٢٢، ١٣٩، ١٤٣، ١٧٣، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢١٢، ٣٠٠
- بلاد البربر، ٢١٣
- بلد كمان، ٩٥
- بلرم، ٢٤٣
- بلغاريا، ٢٩٦
- بها العسل (من بلدات الوجه البحري في مصر)، ٣٥
- بوجاري (قرية)، ٢٨٦
- بولونيا، ٢٩٢
- بوساي، ٤٠، ٥٢، ٥٦، ١١٢، ٢٣٠
- البياضة (مقهى)، ٢٨٧

- بيريسان (منطقة فرنسية)، ١٦٦.
- بئر السويس، ٤٧
- بئر عجرود، ٤٦
- برطقة، ٤٢، ٢٩٥
- التبت، ٦٧.
- تركية، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٣.
- تيساليا (مقاطعة يونانية)، ٢٩٦.
- الثمامي (مكان)، ٢٥١.
- جبال الألب، ٨١، ٢٣٥.
- جبال سربال، ٧٥.
- جبال سيناء، ٤٧، ٥٣، ٧١، ٧٣، ٨٥، ٢٢٩.
- جبال عسير، ١٨٩.
- جبال صيرة، ٦٣.
- جبل هروان، ٢٣٦
- جبال كاربات (بني جزيرة كريت وروميس)، ٨١.
- جبال مزان، ١٦٨.
- جبل أبو دراج، ٥٩.
- جبل أم الحصف، ٢٧٥.
- جبل برد، ٢٥١.
- جبل بني أيوب، ١٣٤.
- جبل جعم، ٦٣.
- جبل الجلجلة، ١٠٢
- جبل الحرة، ٢٨٢.

- جبل حسان (جزيرة)، ١٢٠
- جبل حنّام، ٦٦.
- جبل حوريب، ٩٠، ٩١، ٩٢.
- جبل ثور، ٢٢٤.
- جبل دعد، ٦٢
- جبل رضوى، ١٢٣.
- جبل رعل (رجال)، ١١٩.
- جبل سريال، ٧٣، ٧٦، ٧٨، ١٠٧.
- جبل السكاوي، ٢٥١.
- جبل سب (جبل الشريعة)، ٢٩، ٥٤، ٥٦، ٦٤، ٦٥، ٧١، ٧٢، ٧٧، ٨١، ٩١، ٨٢، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠١، ١٠٩، ٢٢٦، ٢٩١
- جبل شمر، ١٢٢، ٢١٢.
- (جبل) صبح، ١٣٣.
- جبل الطور، ١٠٣
- جبل عاقبة، ٦١
- جبل عرفات، ٤٥، ٢٢٦، ٢٢٧.
- جبل عريب، ٦٢.
- جبل القديس أبستيموس، ٩٠.
- جبل كيك، ٢٢٩.
- جبل كر، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣.
- جبل كركما، ١١٩.
- جبل الكرمل، ١١٥.

جبل المقطم، ٤٦، ٤٨.

- جبل المهر، ١٢٢.

- جبل موسى، ٩٠، ٩٥.

جبل الناقوس، ٦٦.

(جبل) الباع، ١٣٤.

جبل النور، ٢٢١.

- جبل الهدا، ٢٥١.

جبل يسوس، ٢٧٤.

جبل اليهود، ٩٠، ٩١.

- جده، ٢٩، ٥٤، ٥٦، ١٠٩، ١١٢، ١٢٤، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٧،

١٣٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨،

١٥٩، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٩، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦،

١٨٣، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٨، ٢٢١،

٢٤٢، ٢٤٤، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٥، ٢٨٢،

٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٢.

- الجديدة (مضيق)، ٢٠٤.

الحرائر، ١٢١.

- جزيرة مورون، ١٥٦.

- جزيرة تيران، ٩٤.

جزيرة سيلان، ١٤٦.

جزيرة صباء، ١١٣، ١١٥.

- جزيرة العنسي، ١٢٤.

- جزيرة غواط، ١٣٥.

- جزيرة كايري (جزيرة إيطاليه)، ٢٤.

- حريرة لبانة (انظر لبانة)، ١٢٠.
- حريرة نعمان، ١١٤.
- الحشة، ٣٩، ٣٠١.
- حدة، ٢٢٠، ٢٣٦، ٢٨٦.
- حرم القصيع، ٢٧٢.
- حصن (في جدة، قريب من الميناء) ١٣٦.
- حمام فرعون، ٦٦.
- حي الشام، ١٣٨.
- حي اليمن، ١٣٨، ٣٠٢.
- الحرطوم، ٣٠١.
- خليج السويس، ٥١، ٩٤، ١١٥.
- الخليج العربي ٢٠١.
- خليج العقبة، ٩٤، ١١٣، ١١٥.
- خوا (مملكة خوا في الحشة)، ٣٠١.
- الدار البيضاء (قصر لعباس باشا)، ٤٣، ٧١.
- الدار الحمراء (قصر لعباس باشا الذي عبره الى الدار البيضاء)، ٤٣.
- دافور، ٣٩.
- الدرعية، ٢٠٠، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤.
- دمشق، ١١٦، ٢٠٠، ٢٠٣، ٣٠٠.
- دير التجلي، ٨٧.
- دير جبل سيناء، ٦٥، ٧٣.
- دير سيناء، ٨١.

- دير عروثوبل الكبير (فرنسا)، ٢٤٣.
- دير لاموتوراما (إيطاليا)، ٢٤٣.
- رابع، ١٣٥.
- رأس بريدي، ١٢٣.
- رأس حطبية، ١٣٥.
- رأس الحيمة، ٢٠١.
- رأس صويرة، ٦٣.
- رأس محمد، ١١٣.
- لرغامة، ٢١٨، ٢٨٧.
- روسيا، ٧٢، ٢٤٨، ٢٩٢.
- روما، ٨٧.
- الريان، ٢٨٣.
- ربيع اللازلة، ٢٧٣.
- ربيع الشهداء، ٢٥٢.
- ربيع المنحوت، ٢٧٢.
- ربحار، ٤١.
- زهران، ٢٠٨.
- ربيع، ١٥٦.
- الريمة، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٥.
- صالوبيك، ٢٠٧، ٢٩٨.
- مفوم، ٣٤.
- سمحة (مكان)، ١١٩.
- سمرن (مكان في تركيا)، ٢٨٦.

- سهل العكيشة، ٢٢١.
- سهل معبرة (المعاندة)، ٢٢١.
- سواكن، ٣٠١، ٣٠٤.
- السودان، ٤٦، ٤٨، ١٠٨، ١٤٢، ٢٠٣.
- سورية، ٤٠، ٧٢، ٩٥، ١٢٥، ١٣٨، ١٨٨، ٢٠١.
- مؤلة (قرية)، ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٨٣.
- السويس، ٣١، ٣٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٠، ٦٨، ٧١، ٧٣، ٧٦، ٨٠، ٩٤، ١١٥، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٦، ٢٤٤، ٣٠١.
- سياء، ٦٣، ٨٠، ٩١، ٩٤، ٩٦، ٩٩، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ١١٥، ١٣٦، ١٤٥، ٢٢٠.
- سيوب (ميناء تركي أسبوي)، ٧٢.
- شبرا (قصر الطائف)، ٢٧١.
- الشريعة (ستان)، ٢٥٩.
- الصحراء الليبية، ٢٠٩.
- صحراء عمان، ٢١٣.
- صربيا، ٢٩٦.
- صحرة موسى، ٩٦.
- صقلية، ٢٩٦.
- صباء، ١١٤.
- اطائف، ٢٩، ١٥٧، ١٧١، ١٨٣، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٥، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٨٦.

- ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ .
- طرابلس الغرب ، ١٢٥ ، ٢١٣ .
 - طبرون (مدينة تركية) ، ٣٠٠ .
 - الصور ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ٢٩١ .
 - العاصفة ، ٧١ .
 - الحسينية (بستان) ، ٢٢٣ .
 - العجاني (مكان) ، ٧٨ .
 - عدن ، ٤١ .
 - العراق ، ٢٠١ .
 - عرصات ، ٥٧ .
 - العري (الصنم) ، ٢٥٥ .
 - عسير ، ٢٤٣ ، ٢٥٧ .
 - عسيلة (آبار) ، ١٢٨ .
 - العقبة ، ٩٤ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ .
 - عين السمراء ، ٧٨ .
 - عيون موسى (عين موسى) ، ٦٠ ، ٦٦ .
 - العاتيكان ، ٨٧ .
 - فارس ، ١٣٩ .
 - المرات ، ٢٠١ .
 - مرساي ، ٢٩ .
 - مرسا ، ٢٩ ، ٥٥ ، ١٤٩ ، ١٦٣ ، ١٨٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .

ولسطين، ١١٥

لدورقسة، ٥٥.

موسبي (مطبعة في جال الألب الوسطى)، ٢٣٥

- لعمرة، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٥٠، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٧١، ٧٥، ٨٨، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٠٤، ١١٦، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٧، ١٣٨، ١٥٣، ١٦٩، ١٧٦، ٢٠٣، ٢١٣، ٢١٦، ٢٢٥، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٤، ٢٧١، ٣٠٠، ٣٠٦.

- قصر دار البيضاء، ٤٢، ٧١.

- قصر العاصبة، ٣٣، ٤٢.

- قصر (مبناه مصري على البحر الأحمر)، ١٢٤، ١٢٦.

- المصم، ٢١١.

القعد (القسم الأصغر من مع)، ١٢٥.

- قمة سرنال، ٦٤.

قمة القديسة كاترين، ٩١.

- قبا، ١٢٤، ٣٠٠.

- القعدة، ٢٠٨.

- كابول، ١٧٢.

الكر (مكا)، ٢٣٠.

- كردستان، ٦٦، ١٦٧.

- كلكتا، ٥٢.

- كنيسة القديس بير في روما، ٨٧.

- كنيسة القمامة، ١٠١.

كهف حوريب، ٩٥.

- نلاب (الصم)، ٢٥٥.
- لاهور، ١٦٤
- لبانة (جزيرة)، ١٢٠.
- لسان، ١١٥، ٢٠١
- لقيم (قرية)، ٢٧١.
- ليمنوس (جزيرة يونانية)، ١٧٣.
- سجر الشاش، ٢٥١.
- المحيط الهندي، ١٥٢.
- مدينة صالح، مدائن صالح، ١١٦، ١٦٤.
- المدينة المنورة، ٤٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٨، ١٣٤، ١٣٨، ١٤٠، ١٦٢، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١١، ٢٥١، ٢٧٣.
- مرسيليا، ١١٢.
- مسقط، ١٣٩، ١٥٢، ٢١٣.
- مصر، ٣١، ٣٢، ٣٩، ٤٢، ٥٢، ٥٥، ٦٠، ٦٤، ٧٢، ٨٩، ١٠٣، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٩، ١٤٢، ١٥٤، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٥، ١٧٧، ١٨٨، ١٩٣، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٣، ٢٢٥، ٢٤٤، ٢٦٣، ٣٠٠.
- مصوع، ١٥٢.
- مصيق لحديدة، ٢٠٤.
- لمعرب، ١٢٥.
- مقدم النبي هارون (عجر هارون)، ٩٠
- مقدونيا، ٢٩٦
- لمعظم (جبل)، ٤٠، ٤٦.
- مكة المكرمة، ٢٩، ٣٩، ٤٠، ٤٥، ٥٧، ١١٦، ١٣٠، ١٣٤.

١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ،
 ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ ،
 ٢٩٧ .

ممر سيميلون (جبال الالب) ، ٩٦ .

- موسكو ، ٢٢٣
- بط (جبل) ، ١٢٢ .
- نبع الإسكافي ، ٩١ .
- نجد ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٣٠٠ .
- النص (بستان) ، ٢٧٩ .
- نقت حيران ، ٧٨ ، ٨١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .
- النمسا ، ٢٤٨ ، ٢٩٢ .
- النوبة ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٣٠١ .
- النيل ، ٣١ ، ٤٩ ، ١٢٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .
- النيل الأبيض ، ٤١ .
- الهدى (مكان) ، ٢٢٣ .
- الهند ، ٣١ ، ١١٢ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥٥ .
- واحة حمام ، ٧٤
- وادي حيران ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٩٨ ، ١٠٥ ، ١٠٧ .
- وادي الدبر (مصيق) ، ٨١
- وادي السلامة ، ٢٦٠ .
- وادي النيل ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

- وادي شمال، ٢٦٠.
- وادي صلاف، ٢٩، ١٠٦.
- وادي طبع، ٢٧٢.
- وادي فاطمة، ٢٦٩، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٣.
- وادي فيران، ٨١.
- وادي القرن، ٢٣٦.
- وادي ليمون، ٢٧٥.
- وادي المشاة، ٢٦٠.
- وادي السبعة، ٢٧٢.
- الروحه، ١١٦.
- الوهط (قرية)، ٢٥٨.
- اليمس، ١٣٨، ١٧٤، ١٨٥، ١٨٨، ١٨٩، ٢٠٠، ٢١١.
- يسع، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣.
- ٢٠٣، ٣٠٠.
- يسع النخل، ١٢٨.
- اليرنان، ٢٩.

المصادر والمراجع

أولاً - اللغة العربية:

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - أبو عبيد، عبد الصاح، ترويح ندوله السعوديه ثابته، دار المريخ، الرياض، ط٤، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- ٣ - أبو علة، عبد المتاح، محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى، دار المريخ، لرياض، ط٢، ١٤١١هـ / ١٩٩١م
- ٤ - إمام، إمام عبد الصاح، معجم دبابات وأساطير العالم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ثلاثة مجلدات، د.ت
- ٥ - الأبهاري، عبد الغدوس، موسوعة مدينة جدة، القاهرة، ط٤، ١٩٨٢م
- ٦ - بذول، روس، الرحالة العربيون في الجزيرة العربية، ترجمة د عبد الله آدم بصيف، الرياض ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م
- ٧ - ناصر الدين ديبه وكتابه الحج إلى بيت الله الحرام، دراسة ووثائق وترجمة محاصرة، مجله مكتبة الملك فهد الوطنية، مج٧، ع ١٠، ١٤٢٢هـ
- ٨ - السلاوي، عاتق بن عيث، معجم معالم الحجاز، عشرة مجلدات، تواريخ مختلفة من ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م إلى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م

- ٩ - اللادي، عاتق بن غيث، على طريق الهجرة (رحلات في قلب الحجاز)، دار مكة، د.ت
- ١٠ - بوركهارت، جون لويس، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة عبد العزيز بن صالح الهلايلي وعبد الرحمن عبد الله الشيخ، مؤسسه الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م
- ١١ - بوركهارت، جون لويس، مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة عبد الله الصالح الميثميين، الرياض، ط ٢، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
- ١٢ - بيرتون، وشارد فرانسيس، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة وتعليق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج ١، ١٩٩٤م، ج ٢، ١٩٩٥م
- ١٣ - بيرس، حاكبي، اكتشاف جزيرة لعرب، خمسة قرون من لمعارة و لعلم، نقله إلى العربية، فديري قلصحي، قدم له الشيخ حمد الحاسر، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م
- ١٤ - تاميزيه، موريس، رحله في بلاد العرب، الحملة المصرية على مصر ١٢٤٩هـ / ١٨٣٤م، ترجمه وعلق عليه محمد بن عبد الله آل رلفة، الرياض ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، الجزء الأول من هذه الرحلة عدد ١ به بأصله الفرنسي.
- ١٥ - الحاسر، حمد، بلاد يسع، لمحات تاريخيه جغرافية و طباعاات خاصة، دار اليمامة، الرياض، ١٩٦٦م.
- ١٦ - ام جرس الحلبي، راشد بن علي، مشير لوحد في أسنان منوك سجد، تحقيق محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل، دار المثلث عبد العزيز، الرياض، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- ١٧ - الحببي، عثمان بن عبد الله بن بشر المجدي، عنوان المجد في تاريخ سجد، تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، ط ٤، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م

- ١٨ - الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م
- ١٩ - ابن حميس، عبد الله بن محمد، معجم أودية لحريز، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
- ٢٠ - ابن حميس، عبد الله بن محمد، معجم حدل لحريز، الرياض، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.
- ٢١ - دحلان، أحمد ربي، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، الطبعة الأولى، مصر، المطبعة الحيرية، ١٣٠٥هـ
- ٢٢ - دهمي، إلهام محمد علي، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م
- ٢٣ - ابروشتي، محمد أحمد، المواشي السعودية على البحر الأحمر، دراسة في الجغرافيا الاقتصادية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م
- ٢٤ - الرزكلي، خير الدين، ما رأيت وما سمعت، مكتبة المعارف بالطائف، ١٣٩٨هـ.
- ٢٥ - آل رلفة، دراسات من تاريخ عسير الحديث، ط١، الرياض، ١٤١٢هـ.
- ٢٦ - لريد، ابراهيم بن محمد، عثمان بن عبد الرحمن المضايقي أمير الطائف وانحجار هي الدولة السعودية الأولى، إصدار لجنة المطبوعات في النشيط السياحي، محافظة الطائف، ط١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م
- ٢٧ - لسلمي، عرام بن الأصبح، أسماء حبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما يست عليها من الأشجار وما فيها من الماء، مجدداً، دار مجيب، بيروت، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، (صلى نواذر المحفوظات)
- ٢٨ - شامية، جبران، آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ط١، لندن، رياض لريس، ١٩٨٦م

- ٢٩ - شقير، معوم بك، تاريخ مياه القديم والحديث وجغرافيتها، دار
النجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- ٣٠ - صابر، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العشائية التاريخية،
ط مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م
- ٣١ - المعجمي، حسن بن علي بن يحيى بن عمر، إهداء الطائف من أخبار
الطائف، تحقيق يحيى محمود ساعدي (بن حسد)، دار ثقيف للنشر
والتأليف، الطائف، ط٢، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م
- ٣٢ - عسيري، علي أحمد عيسى، صير من ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م إلى
١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م، دراسة تاريخية، مطبوعات نادي أنها الأدبي،
١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ٣٣ - فراح، عبد الرحمن، أدب الرحلات إلى المملكة العربية السعودية،
قائمة سايوخرافية مختارة (لقسم العربي)، مجلة مكتبة الملك فهد
الوطنية، صج ٤، ع ٢، ١٩٩٨ - ١٩٩٩م.
- ٣٤ - فليبي، هاري ست جون، أرض الأسياء، مدائن صاحب، تعريب عمر
الديراوي، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩٦٢م
- ٣٥ - فوحب، جوريف، نظام العبودية القديم والمودج المثالي للإنسان،
تقديم وترجمة وتعليق صيرة كروان، المشروع القومي لترجمة،
العاخرة، ١٩٩٩م.
- ٣٦ - لغثمي، صاخي صاوي حمود، تاريخ الطائف قديماً وحديثاً،
مطبوعات نادي الطائف الأدبي، د.ت.
- ٣٧ - آل كمال، محمد سعيد بن حسن، الطائف، جغرافيته - تاريخه،
أساس قنله، مكتبة المعارف بالطائف، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م
- ٣٨ - كوبر، لي ديفيد، ريتز، جورج، الحركة الوهابية في عبول ارحانة
لأجانب، ترجمة وتعليق عبد الله ناصر لوليبي، الرياض ١٤١٧هـ /
١٩٩٧م.

- ٣٩ - ورس، هري، واخرون، الحملة الفرنسية في مصر، ترجمة شير السباعي، مينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥م
- ٤٠ - مرداد، محمد عبد الحميد، مدني صالح، مكة لصغيرة، ٢٩، د ب ، ط ٢، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٧م
- ٤١ - موصل، آ، شمال الحجاز، نقله إلى العربية د عبد المحسن الحسيني، الإسكندرية، ١٩٥٢م.
- ٤٢ - مصر، أحمد عبد الرحيم، التراث الشعبي في أدب الرحلات، مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، الدوحة، ١٩٩٥م
- ٤٣ - نوار، ملك أحمد، أدب الرحلات إلى المملكة العربية السعودية (نقسم لأنكيري)، محله مكتبة الملك فهد الوطنية، مح ٤، ع ٢، ١٤١٩هـ / ٩٨ - ١٩٩٩م.
- ٤٤ - هورخوري، سوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، نقله إلى العربية علي عودة الشيوخ، أعاد صياغته وعلق عليه، محمد محمود لمراسي، ومراح نواب مرزا، طبع دائرة الملك عبد العزيز، الرياض، مجلدان ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م
- ٤٥ - ميرورد، ميشيل، ر، ورد الطائف، ترجمه بتصوف محمد عبد القادر الفقي، مجلة المائدة، مح ٤٩، ع ٣، ربيع الأول ١٤٢١هـ / يوليو (تموز) ٢٠٠٠م.
- ٤٦ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

ثانياً - اللغة الأجنبية :

- 48 - Burton, Richard, Personal Narrative of Pilgrimage to al-Madinah and Mecca, 2 Vol. Dover Publication, New York, 1964.
- 49 - Carré, Jean Marie, Voyageurs et écrivains Français en Egypte, Le Caire, t.1 - 2, 1960.
- 50 - Courtellemont, Gervais, Mon Voyage à la Mecque, Paris, Librairie Hachette et c^{ie}, 1896.
- 51 - Dinat, E. (Naçir Ed-Dine), Le Pèlerinage à La Maison Sacrée D'Allah, Librairie Hachette, Paris, 1347h.
- 52 - Encyclopaedia Britannica, Volume 18, 1965.
- 53 - Laffont - Bompiani, Dictionnaire des Œvres, de Tous les temps et de Tous les pays, Société d'Édition, de Dictionnaires, et Encyclopédies, 3 Vol., Paris, 1954.
- 54 - Larousse du XXeme Siècle, Paris, 6 Vol, 1929.
- 55 - Tamisier, Maurice, Voyage en Arabie, Sejour dans le Hedjaz, Campagne d'Assir, accompagné d'une carte, Paris: Louis Desessart, éditeur, 1840.

فهرس المحتويات

٥	الكلمة الأولى
١١	مقدمة المترجم
١١	١- لوحة تاريخية:
١٥	٢- صاحب الرحلة:
١٩	٣- أهمية الرحلة ومصادرها:
٢٣	٤- ملايسات الرحلة
٢٦	٥- عملي في الترجمة
٢٩	مقدمة الناشر الفرنسي
٣١	الفصل الأول: صحراء السويس
٤٩	الفصل الثاني: السويس
٥٩	الفصل الثالث: الطور
٧١	الفصل الرابع: جبل سيناء
١١١	الفصل الخامس: البحر الأحمر
١٣٧	الفصل السادس: جُلَّة
١٦١	الفصل السابع: لوحة نابضة بالحياة

١٧٩	الفصل الثامن: الأشراف والوهابيون
٢١٥	الفصل التاسع: من جدة إلى الطائف
٢٣٩	الفصل العاشر: الطائف
٢٦٩	الفصل الحادي عشر: من الطائف إلى جدة
٢٩١	الفصل الثاني عشر: بعض التأملات
٢٩٩	الفصل الثالث عشر: سفارة جدة
٣١٥	فهرس الأعلام
٣١٥	فهرس الأماكن
٣٢٩	المصادر والمراجع
٣٣٥	فهرس المحتويات



رحلة إلى رحاب الشريف الأكبر
شريف مكة المكرمة